وامنبراه

لتجديد الخطبة والخطيب

توفيق بن خلف الرفاعي

وامنبراه

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

قَدْ زُرْتُ صَاحِباً لِي فِي بَلَدِهِ الخَلِيجِيِّ، فَقَالَ لِي: سَوْفَ أُصَلِّي مَعَكَ الجُمُعَةَ عِنْدَ خَطِيبٍ مِنْ أَفْضَلِ خُطَبَاءِ الجُمُعَةِ فِي بَلَدِنَا، فَقُلْتُ لَهُ: سَبَقْتَنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ أَنْ أَقُولَهُ لَكَ.

قَالَ: الشَّيْخُ أَبُو مُحَمَّدٍ حَفِظَهُ اللَّهُ[١] فِي هَذَا المَسْجِدِ - وَأَشَارَ إِلَى المَسْجِدِ المُجَاوِرِ لِبَيْتِهِ -: خَطِيبٌ مُتَمَيِّزٌ، ذُو عَقِيدَةٍ سَلِيمَةٍ، وَذُو عِلْمٍ جَيِّدٍ فِي السُّنَّةِ، وَذُو فَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ يُوجَدُ أَفْضَلُ مِنْهُ، لَكِنَّهُ مِنَ الخُطَبَاءِ الجَيِّدِينَ فِي بَلَدِنَا.

صَلَّينَا عِنْدَهُ الجُمُعَةَ، ثُمَّ قُلْتُ لِأَخِي: لِمَ لِمْ تَسْأَلْنِي عَنْ مُسْتَوَى الخُطْبَةِ؟ قَالَ: سَبَقْتَنِي، فَقَدْ كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْ رَأْيِكَ فِي الخُطْبَةِ.

قُلْتُ لَهُ: إِذَا كَانَ هَذَا مُسْتَوَى الخَطَابَةِ فِي بَلَدِكُمْ فَهَذِهِ مَأْسَاةٌ!

قَالَ: إِنِّي أَرَاهَا جَيِّدَةً، فَإِنَّ خَطِيبَنَا هَذَا يُعِدُّ خُطْبَتَهُ لِتَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ عِشْرِينَ تَفْسِيراً مِنْ مَرَاجِعِ التَّفْسِيرِ، وَلَكِنْ أَخْبِرْنِي: مَا

---

(١) إنه أخي في اللّه من أحد البلدان الخليجية ممن أرى أنه سيكون له شأن في هذا الدين - إن شاء اللّه-.

مُلَاحَظَتُكَ عَلَى الخُطْبَةِ؟

قُلْتُ: لَا شَكَّ أَنَّكَ تَعْرِفُ أَنَّنِي لَا أَعْرِفُ هَذَا الخَطِيبَ، فَأَنَا لَا أَنْتَقِدُهُ شَخْصِيّاً، وَمَعَاذَ اللَّهِ أَنْ أَنْتَقِدَ أَوْ أَنْتَقِصَ دِينَهُ، ومَنْ يَدْرِي مَنِ الأَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، فَانْتِقَادِي لَهُ لَيْسَ نَابِعاً مِنَ التَّوجُّهِ الشَّخْصِيِّ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ نَابِعاً مِنْ هِوَايَةِ النَّقْدِ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لمِنْ أَبْعَدِ النَّاسِ عَنِ انْتِقَاصِ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ وَالمَيْدَانِ، فَهُمْ أَحَقُّ بِالتَّزْكِيَةِ وَنَشْرِ خَيْرَاتِهِمْ، كَمَا أَنَّهُمْ أَحَقُّ بِالتَّغَاضِي عَنْ زَلَّاتِهِمْ، إِنَّهُمْ شِعَارُ الدِّينِ، وَوَرَثَةُ المُرْسَلِينَ عليهم السلام، وَيَنْبَغِي أَنْ لَا نُجَرِّئَ عَلَيْهِمُ العَامَّةَ مِنْ خِلَالِ نَقْدٍ صَحِيحٍ يُمْكِنُ أَنْ نَذْكُرَهُ لَهُمْ خَاصَّةً، ولَكِنْ بِمَا أَنَّكَ رَجُلٌ مُتَخَصِّصٌ وَمُهْتَمٌّ بِهَذَا الجَانِبِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ التَّغْيِيرُ إِلَى الصَّحِيحِ عَنْ طَرِيقِكَ. فَإِنَّ لِزَاماً عَلَيَّ أَنْ أَذْكُرَ لَكَ رَأْيِي فِي المَوْضُوعِ، وَلَعَلَّهُ يَكُونُ صَوَاباً، وَهُوَ عِنْدِي - قَطْعاً - صَوَابٌ فِي خَمْسِ مُلَاحَظَاتٍ فِي شَكْلِ أَسْئِلَةٍ:

المُلَاحَظَةُ الأُولَى: هَلْ شَعَرْتَ أَنَّ الخَطِيبَ اجْتَذَبَ عَقْلَكَ، وَأَسَرَ قَلْبَكَ، ولَا أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ: سَلَبَ عَقْلَكَ، وَانْتَزَعَ قَلْبَكَ، فَهَذَا هُوَ المَطْلُوبُ، بِمَعْنى أَوْضَحَ: هَلْ أَخَذَ مِنْكَ التَّفْكِيرَ وَالعَاطِفَةَ أَثْنَاءَ الخُطْبَةِ؟

قَالَ الشَّيْخُ أَبُو مُحمَّدٍ: لَا.

قُلْتُ: فَمَا قِيمَةُ خُطْبَةٍ لَا تَأْخُذُ مِنْ مُسْتَمِعِيهَا العَقْلَ، وَلَا العَاطِفَةَ؟ وَهَلِ الإِنْسَانُ إِلَّا العَقْلُ وَالعَاطِفَةُ؟

وَمَا قِيمَةُ خَطِيبٍ مُتَمَرِّسٍ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْسِرَ عَوَاطِفَ مَنْ يُصَلِّي مَعَهُ وَأَفْكَارَه نِصْفَ سَاعَةٍ، تَزِيدُ قَلِيلًا، أَوْ تَنْقُصُ قَلِيلًا؟

المُلَاحَظَةُ الثَّانِيَةُ: هَلْ رَأَيْتَ وَحْدَةً مَوْضُوعِيَّةً مُحْكَمَةً لِهَذِهِ الخُطْبَةِ؟ هَلْ تَمَنَّيْتَ وَأَنْتَ تَسْتَمِعُ الخُطْبَةَ أَلَّا تَنْتَهِي، أَمْ كُنْتَ تَنْتَظِرُ انْتِهَاءَهَا؟ وَتُصَبِّرُ نَفْسَكَ بِالمُجَاهَدَةِ، هَلْ كُنْتَ تَعْرِفُ أَوْ تَتَوَقَّعُ مَتَى يَتَوَقَّفُ هَذَا الخَطِيبُ وَعِنْدَ أَيِّ نُقْطَةٍ؟ هَلْ كُنْتَ تَشْعُرُ أَنَّهُ مُتَسَلْسِلٌ مَوْضُوعِيّاً فِي خُطْبَتِهِ، أَمْ كَانَ يُكْثِرُ الاسْتِطْرَادَاتِ الَّتِي تَذْهَبُ بِكَ بَعِيداً بُعْداً مَوْضُوعِيّاً عَنِ المَوْضُوعِ الرَّئِيسِ؟

المُلَاحَظَةُ الثَّالِثَةُ: هَلْ تَفْسِيرُ هَذِهِ السُّورَةِ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ الهَادِئَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا خَطِيبُنَا، وَبِهَذَا الطَّرْحِ البَارِدِ، وَبِهَذَا التَّبَاعُدِ بَيْنَ الفِكْرَةِ وَالفِكْرَةِ، وَهَذَا التَّقَطُّعِ لِلخَيْطِ المَوْضُوعِيِّ يَصْلُحُ لِخُطْبَةِ جُمُعَةٍ.. الأَسَاسُ أَنْ يَكُونَ الخَطِيبُ فِيهَا كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يُنَادِي بِصَوْتٍ صَادِحٍ فَزِعٍ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ: هَذَا الجَيْشُ المُعْتَدِي قَدْ وَصَلَ. أَوْ هُوَ الصَّوْتُ الصَّادِقُ المُتَحَرِّقُ، وَكَأَنَّ العَذَابَ قَدْ مَسَّهُ، فَأَخَذَ يَعْرِضُ مَشَاهِدَ هَوْلِ المَطْلَعِ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الصافات: ٢٠]، ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨]، ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥]، ﴿هَٰذَا

يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤]، ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠]، صَوْتُ النَّذِيرِ العُرْيَانِ، الَّذِي فَاضَ صِدْقُهُ فَلَمْ يَحْجُبْهُ عَنِ القَلْبِ تَكلُّفٌ وَلَا اسْتِبْعَادٌ، حَتَّى كَأَنَّ الخطَرَ لَائِحٌ، وَهُوَ يَصِيحُ: «صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ»؟

إذاً، فَمَا أَبْعَدَ المَوْضُوعَ يَا أَبَا مُحمَّدٍ عَمَّا ظَهَرَ عَلَى الخَطِيبِ! وَمَا أَبْعَدَ الخَطِيبَ عَنْ مَوْضُوعِ خُطْبَتِهِ....!

إنَّه مَا أُسَمِّيهِ: (الانْفِصَامُ المَوْضُوعِيُّ)، وَهُوَ مَا فِي ذِهْنِ الحَاضِرِ لِلخُطْبَةِ.. حَتَّى لَوْ كَانَ مَوْضُوعُهَا: (اليَوْمَ الآخِرَ)، كَمَا هُوَ مَوْضُوعُ خَطِيبِنَا اليَوْمَ.

نَعَمْ، خَطِيبُنَا صَادِقٌ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - فِي أَنَّهُ أَعَدَّ خُطْبَتَهُ مِنْ عِشْرِينَ مَرْجِعاً لِلتَّفْسِيرِ، وَرُبَّما مِنْ مِائَتَيْ مَرْجِعٍ، لَكِنْ كَمْ هُوَ البَوْنُ شَاسِعٌ مَا بَيْنَ مَوْضُوعِ الخُطْبَةِ وَأَدَاءِ الخَطِيبِ؟! ما بَيْنَ عَرْضِ الخَطِيبِ لِمَوْضُوعِ اليَوْمِ الآخِرِ وَأَدِلَّتِهِ، وَعَرْضِ سُورَةِ (ق)، وَسُورَةِ (التَّكْوِيرِ)، وَسُورَةِ (الزَّلْزَلَةِ)، وَسُورَةِ (القَارِعَةِ)، وَنَحْوِهَا؟!

رُبَّما تَكُونُ طَرِيقَةُ الشَّيْخِ هَذِهِ تَصْلُحُ لِمُحَاضَرَةٍ، وَمَعَ هَذَا فَسَوْفَ تَكُونُ فَاتِرَةً خَادِرَةً!

المُلَاحظَةُ الرَّابِعَةُ: أَخِي، هَلْ شَعرْتَ وَأَنْتَ عَلَى بَابِ المَسْجِدِ خَارِجاً مِنْهُ قَبلَ أَنْ تُغادِرَهُ إِلَى البَيْتِ أَنَّكَ خَرَجْتَ بِعَمَلٍ صَالِحٍ مِنْ خُطْبَتِكَ؟.. انْظُرْ فِي كَفَّيْكَ، قَلِّبْهُمَا، هَلْ تَرَى فِيهِمَا حَصَاداً مِنَ الخُطْبَةِ؟ قَدْ عُدْتُ مِنْ جُمُعَتِي كَمَا ذَهَبْتُ... وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَلِسَانُ حَالِكَ يَقُولُ: أَيُّها الخَطِيبُ، قَدْ بَسَطْتُ دَفَّتَيْ قَلْبِي إِلَيْكَ طَوَالَ خُطْبَتِكَ، فَعَادَتَا إِلَيَّ صِفْراً!

إِنَّ كُلَّ مَنْ يَحْضُرُ الخُطْبَةَ يُرِيدُ شَيْئاً... لَكِنَّهُ حِينَ يَحْضُرُ وَيَخْرُجُ يَقِفُ مُتَسَائِلًا مَعَ نَفْسِهِ، فَلَا يَجِدُ شَيْئاً، فَيُصَابُ بِأَسىً وَحَسْرَةٍ تُشابِهُ أَسَى مَنْ عَطِشَ، فَسَارَ نَحْوَ المَاءِ الزُّلَالِ الرَّقْرَاقِ، فَاكْتَشَفَ بَعْدَ إِرْهَاقٍ أَنَّهُ كَانَ يَسِيرُ إِلَى سَرَابٍ! فَكَيْفَ إِذَا تَكَرَّرَتِ الخَدِيعَةُ فِي كلِّ جُمُعةٍ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ..!

صِدِّقْنِي أَيُّها الأَخُ، إِنَّهُ لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ قَدِ افْتَرَضَ حُضُورَ الجُمُعَةِ لَمَا وَجَدْتَ مِنْ هَؤُلَاءِ الحَاضِرِينَ صَفّاً وَاحِداً فِي أَغْلَبِ المَسَاجِدِ... فَاللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أَنْ جَعَلْتَهَا فَرْضاً لِتَجْمَعَ أُمَّتَكَ إِلْزَاماً فِي مَسَاجِدِهِمْ فِي هَذَا اليَوْمِ العَظِيمِ... لِيَكُونَ هَذَا الاجْتِمَاعُ فِي هَذَا اليَوْمِ آيَةً يَفِيءُ إِلَيْهَا النَّاسُ مَهْمَا افْتَرَقُوا، وَنُقْطَةَ بَعْثٍ وَتَجْدِيدٍ قَابِلَةً لِلانْفِجَارِ بِنُورِهَا مَهْمَا اشْتَدَّتِ الظُّلْمَةُ عَلَى الأُمَّةِ فِي أَيِّ يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ، وَحَادِياً يَحْدُوهُمْ إِلَى الأَعْلَى فِي عَصْرِ انْحِطَاطِ الخُطَبَاءِ إِلَى الدُّنْيَا.

المُلَاحَظَةُ الخَامِسَةُ: وَهِيَ بِغَيْرِ شَكٍّ نَتِيجَةٌ مَنْطِقِيَّةٌ لِلمُلَاحَظَةِ الرَّابِعَةِ، أَنْتَ الآنَ يَا شَيْخُ (أَبَا مُحمَّدٍ) طَالِبُ عِلْمٍ مُؤَصَّلٍ، وَدَاعِيَةٌ هُمَامٌ كَمَا أَحْسَبُكَ، وَلَا أُزَكِّي عَلَى اللَّهِ أَحداً... هَلْ تَرَى أَنَّكَ قَادِرٌ بَعْدَ هَذِهِ الخُطْبَةِ أَنْ تَرْوِيها كَمَا ذَكَرَهَا الشَّيْخُ لِأَهْلِكَ... لِأَبْنَائِكَ... لِصَحْبِكَ عَلَى الغَدَاءِ؟ فَضْلًا أَنْ أَسْأَلَكَ: هَلْ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ تَحْفَظَهَا فِي ذَاكِرَتِكَ إِلَى سِنِينَ طَوِيلَةٍ...؟!

يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، إِنِّي لَأَحْسَبُ هَذَا الشَّيْخَ صَادِقاً فِي نَفْسِهِ، وَلَكِنْ هَلْ شَعَرْتَ أَنَّ الصِّدقَ يَنْبَعِثُ مِنْهُ حَتَّى تَكَادَ تَرَاهُ أَوْ تُحِسُّهُ مِنْ كَلِمَاتِهِ... مِنَ احْمِرَارِ وَجْهِهِ.. مِنْ مَلامِحِهِ الَّتِي تَتَشَكَّلُ مِنْ مَدْلُولِ الكَلِمَةِ بِأَمْرِ القَلْبِ المُتفَجِّرِ...؟

هَلْ شَعَرْتَ أَنَّ قَلْبَكَ تَجاوَبَ مَعَ كَلِمَاتِ الشَّيْخِ؟ أَمْ لَمْ تَشْعُرْ بِكُلِّ مَا ذَكَرْتَ... إِذَا لَمْ تَشْعُرْ فَاعْلَمْ أَنَّ الشَّيْخَ قَدْ طَوَى حَبْلَ الصِّدْقِ فِي صَدْرِهِ وَلَمْ يُحْسِنْ مَدَّ وِصَالِهِ بَيْنَ قَلْبِهِ وَقُلُوبِنَا، وَلِذَا لَا تَسْتَغْرِبْ لَوْ جَاءَكَ رَجُلٌ يَقُولُ لَكَ: أَحْسِبُ أَنَّ الشَّيْخَ لَمْ يُحضِّرِ الخُطْبَةَ!

هَذَا فَضْلًا عَنْ خُطَبَاءَ لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ فِي الأَصْلِ حَبْلُ صِدْقٍ، بَلْ وَلَا قَلْبُ صِدْقٍ، ومِنْ ثَمَّ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ لِسَانُ صِدْقٍ فِي الحَاضِرِينَ... فَضْلًا أَنْ يَكُونَ لَهمْ لِسَانُ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ!

أَلَمْ أَقُلْ لَكَ: يَا أَيُّهَا الشَّيْخُ المُبَارَكُ! أَنْقِذُوا مِنْبرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟

يَا أَبَا مُحمَّدٍ، لَا أَكُونُ مُبَالِغاً أَبداً لَوْ قُلْتُ لَكَ: إِنَّ أَعْظَمَ المَهَامِّ عَلَى عَاتِقِنَا اليَوْمَ هُوَ إِنْقَاذُ مِنْبَرِ المُصْطَفَى ﷺ... أَلَيْسَ هُوَ مَقَرَّ قِيَادَةِ القِيَادَةِ، وَهَلْ القِيَادَةُ وَالتَّوْجِيهُ إِلَّا فِي هَذِهِ القُلُوبِ... وَالَّتِي تُفْرَشُ بَيْنَ يَدَيْ الخَطِيبِ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ؟!

وكتبه:

توفيق بن خلف الرفاعي

تمهيد

المبحث الأول: انتياش المنبر بالجديد.

المبحث الثاني: دوافع إنقاذ منبر رسول اللَّه ﷺ.

المبحث الأول
انتياش[١] المنبر بالجديد

إنَّ مِحْوَرَ التَّغْيِيرِ هُوَ هَذِهِ النُّفُوسُ. . وَمِحْوَرَ التَّغْيِيرِ عَلَى الأَرْضِ فِي بُيُوتِ اللَّهِ المَسَاجِدُ. . وَمِحْوَرَ المَسَاجِدِ هُوَ هَذَا المِنْبَرُ فِي خَيْرِ يَوْمٍ خَلَقَهُ[٢] اللَّهُ الجُمُعَةِ. . . هَكَذَا اجْتَمَعَتِ المَحَاوِرُ الثَّلَاثَةُ: الإِنْسَانِيَّةُ، والمَكَانِيَّةُ، وَالزَّمَانِيَّةُ بِيَدِ خَطِيبِ الجُمُعَةِ.

فَالجُمُعَةُ لَا نَظِيرَ لَها عَلَى الإِطْلَاقِ: إِنَّهَا دَعْوَةٌ مَفْرُوضَةٌ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ بِأَجْمَلِ مَا تَكُونُ الإِنْسَانِيَّةُ؛ خَلْقاً وخُلُقاً، ظَاهِراً وَبَاطِناً، بَدَناً مُطَهَّراً، وَثَوْباً بَهِيّاً، وَمُسْلِماً مُعَطَّراً، وَقُدُوماً مُبَكِّراً، وَأَدباً جمّاً، فَلَا إِيذَاءَ، وَلَا تَزَاحُمَ، وَلَا تَفْرِيقَ لِلصُّفُوفِ، وَلَا عُدْوَانَ فِي جُلُوسٍ، وثَمَّ اسْتِمَاعٌ بِلَا لَعِبٍ، وَسُكُونٌ بِلَا حَرَكَةٍ، وَلَا إِشَارَةٍ، وَلَا صَخَبٍ. . **إِذاً، فَهَكَذَا اجْتَمَعَ القَلْبُ وَالقَالَبُ بِيَدِ الخَطِيبِ**. .

---

(١) الانتياش: الاستنقاض، وهو افتعال من النوش، ومعناه: أن يتناوله وينتزعه من الهلكة (انظر الفائق في غريب الحديث).

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق اللَّه آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها» رواه مسلم.

فَهَلْ تَجِدُ لِمِثْلِ هَذِهِ الحَالِ نَظِيراً؟

وَبَعْدَ هَذَا التَّحصُّنِ بِالخُطْبَةِ يَأْتِي التَّحَصُّنُ بِصَلَاةِ الجُمُعَةِ.. وَمَا أَدْرَاكَ مَا تَفِيضُ بِهِ هَذِهِ الصَّلَاةُ.. وَكَأَنَّ سُورَةَ الأَعْلَى وَالغَاشِيةِ.. تَنْزِلان أَوَّلَ مَرَّةٍ فِي الجُمُعَةِ هَذِهِ.. لِمَا فِيهِمَا مِنْ فَيْضٍ جَدِيدٍ يَنْهَمِرُ...وَبِهَذَا يَجْتَمِعُ حَدِيثُ الخَطِيبِ، وَفِيهِ الحَدِيثُ مَعَ القُرْآنِ؛ لِيؤدِّي الخَطِيبُ دَوْرَه ..وَيَنْشَأ تَغَيُّرُهُ.

جَدِيدُ الجُمُعَةِ لَا يُوصَفُ.. وَفَيْضُ الجُمُعَةِ عَلَى الأُمَّةِ - حَتَّى فِي عُصُورِ انْحِطَاطِهَا - لَا يُوصَفُ، فَلَا يَأْسَ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ مَا دَامَ حَبْلُهَا مَوْصُولًا بِيَوْمِ الجُمُعَةِ، وَيَشَاءُ اللَّهُ أَنْ يَرْبِطَ هَذَا الحَبْلَ نَصّاً، لَيْسَ بِالسُّنَّةِ فَحَسْبُ - وَأَنْعِمْ بِالسُّنَّة وأَكْرِمْ - وَإِنَّمَا فَرْضِيَّتُهَا نَصٌّ فِي كِتَابِ اللَّهِ .. مَحْفُوظَةٌ فِي هَذَا القُرْآنِ بِكَامِلِهَا، مَحْفُوظَةٌ بِتَسْمِيَةِ السُّورَةِ بِاسْمِهَا، مَحْفُوظَةٌ بِذِكْرِ نِدَائِهَا، وَالأَمْرِ بِالسَّعْيِ لَهَا، وَفَرْضِيَّةِ الاسْتِمَاعِ لَهَا، وَفَرْضِيَّةِ تَرْكِ البَيْعِ وَمَا دُونَهُ لِأَجْلِهَا، وَاسْتِمَاعِ خُطْبَتِهَا، فَسُبْحَانَ اللَّهِ! كَيْفَ لَوْ لَمْ تُفْرَضْ بِهَذَا النَّصِّ القُرْآنِيِّ؟ لَرُبَّمَا لَمْ نُشَاهِدِ الجُمُعَةَ كَمَا نُشَاهِدُهَا اليَوْمَ حَيَّةً بَاعِثَةً لِلحَيَاةِ وَالتَّجْدِيدِ فِي قَلْبِ الأُمَّةِ وَأَطْرَافِهَا، وَلَانْقَطَعَ حَبْلُ الأُمَّةِ بِهَذِهِ السَّارِيَةِ الزَّمَنِيَّةِ الَّتِي لَا يَمْلِكُونَ قَدْراً إِلَّا المُرُورَ بِهَا مَا دَارَتِ الشَّمْسُ دَوْرَتَها.

اذْهَبْ أَيْنَما شِئْتَ فِي هَذَا العَالَمِ الإِسْلَامِيِّ تَجِدْ مِنَ الظَّلَمَةِ مَنْ يَعْتَدِي عَلَى شَعَائِرِ الإِسْلَامِ، وَيَمْحُو وَيُغيِّرُ، وَرُبَّما اعْتَدَوْا عَلَى مَوَاضِيعِ الخُطْبَةِ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ إِلْغَاءَ الجُمُعَةِ، وَلَوْ مَلَكُوا ذَلِكَ لأَلْغَوْهَا.. لِأَنَّهَا دَفقُ الحَيَاةِ فِي الزَّمَنِ، وَمُوقِظُ الأُمَّةِ مِنْ بَيْنِ الأُمَمِ، وَمُؤرِّقُ أَصْحَابِ مَشَارِيعِ الإِجْهَازِ عَلَى الأُمَّةِ، فَلَا صَلَاةَ جِنَازَةٍ عَلَى الأُمَّةِ مَا أُقِيمَتْ فِيهَا صَلَاةُ الجُمُعَةِ..

فَالنَّاسُ يَأْتُونَكَ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ لِدَعْوَتِكَ - أَيُّهَا الخَطِيبُ - كَفَاهُمْ دَعْوَةُ اللَّهِ عَنْ كُلِّ دَعْوَةٍ...وَبِذَا أَوْكَلَ اللَّهُ ثِقَلَ هَذِهِ الأَمَانَةِ إِلَى الخَطِيبِ...

إِنَّها الأُمَّةُ كُلُّهَا تَفْرِشُ لَكَ فِي بُيُوتِ اللَّهِ قُلُوبَهَا...لِتَنْقُشَ فِيهَا - أَيُّهَا الخَطِيبُ - نَقْشَكَ ...فَمَنْ يُقَدِّرُ أَمَانَةَ الأُمَّةِ؟ وَمَنْ يَحْمِلُ - حَقّاً - هَذِهِ المَهَمَّةَ؟

اجْرُدْ مَا صَنَعَ المُسْلِمُونَ يَوْمَ الجُمُعَةِ فِي عُصُورِ الانْحِطَاطِ.. اجْرُدْ كَيْفَ فَجَّرَتِ المَسَاجِدُ بَرَاكِينَ تَقْذِفُ بِالرِّجَالِ الجِبَالَ عَلَى الصَّلِيبِيِّينَ، وَعَلَى المُحْتَلِّينَ، وَعَلَى الطُّغَاةِ..!

اجْرُدْ حَرَكَةَ التَّغْيِيرِ تَجِدْ حَبْلَهَا المَتِينَ مَرْبُوطاً بِهَذَا اليَوْمِ العَظِيمِ.

لِذَلِكَ، فَإِنَّ الفَتْحَ يَوْمَ الجُمُعَةِ فَتْحٌ لِلإِسْلَامِ وَمُسْتَقْبَلِ المُسْلِمِينَ.

وَمِنْ ثَمَّ أَصْبَحَ التَّجْدِيدُ فِي خُطْبَةِ الجُمُعةِ ضَرُورَةً كَضَرُورَةِ المَصِيرِ...

فَلَا يَكُونَنَّ العَدُوُّ أَفْقَهَ مِنَّا بِيَوْمِنَا هَذَا.. فَيُحَاوِلُ العُدْوَانَ عَلَيْهِ بِتَأْمِيمِهِ وَحِصَارِهِ مِنْ كُلِّ جِهَاتِهِ، وَإِعْدَادِ خُطَبَائِهِ حَسَبَ قِيَاسَاتِهِ، وَإِعَادَةِ صِيَاغَةِ الدِّينِ لِصِيَاغَةِ نُفُوسٍ جَدِيدَةٍ تُحَوِّلُ تَسْبِيحَ اللَّهِ إِلَى تَسْبِيحِهِمْ، وَتَوْحِيدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِلَى تَوْحِيدِ الطَّاعَةِ لَهُمْ، وَالإِنْكَارَ عَلَيْهِمْ إِلَى الإِنْكَارِ لَهُمْ!

أَيُّها الخَطِيبُ: لَيْسَ كِتَابُنَا هَذَا كِتَاباً مُتخَصِّصاً فِي الأَحْكَامِ الفِقْهِيَّةِ لِلخُطْبَةِ وَالخَطِيبِ، فَلَقَدِ اسْتَوْعَبَها الشَّيْخُ سُعُودُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الشُّرَيْم فِي كِتَابِهِ «الشَّامِلِ فِي فِقْهِ الخَطِيبِ وَالخُطْبَةِ»، فَجَزَاهُ اللَّهُ خَيْراً، والدُّكْتُور/ عَليِّ بْنِ عُمَرَ بَادَحْدَح فِي كِتَابِ مَوْسُوعَةِ «زَادُ الخُطَبَاءِ» جَزَاهُ اللَّهُ خَيْراً.

وَلَيْسَ كِتَابُنَا فِي التَّنْظِيرِ لِلخَطَابَةِ بِوَصْفِهَا عِلْماً وَتَارِيخاً، فَلَقَدِ انْفَرَدَ فِي هَذَا وَسَبَقَ الشَّيْخُ/ مُحمَّدٌ أَبُو زَهْرَةَ، فِي العَصْرِ الحَاضِرِ، إِنَّما هُوَ كِتَابٌ نَرْجُو أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ إِحْيَاءً لِهَذِهِ الأَعْوَادِ الَّتِي يَبِسَتْ، وَتَجْلِيَةً لِمَنَابِرَ صَدِئَتْ، وَبَعْثاً لِجِيلٍ مِنَ الخُطَبَاءِ المُجَدِّدِينَ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ.

إِنَّ الجَدِيدَ أَمْرٌ نِسْبِيٌّ، وَمَعَ هَذَا فَإِنَّا عَلَى قَنَاعَةٍ تَامَّةٍ بِأَنَّ خُطَبَاءَنَا قَادِرُونَ عَلَى أَفْضَلَ مِنَ الْوَاقِعِ هَذَا، لَكِنَّ المَشَاعِرَ المُجَرَّدَةَ وَحْدَهَا لَا

تَكْفِي لِتَحْقِيقِ الجَدِيدِ النَّافِعِ فِي الخُطْبَةِ.. فَلَابُدَّ مِنْ مَنْهَجٍ يَسْتَخْرِجُ الجَدِيدَ مِنَ القَدِيمِ اسْتِخْرَاجاً، وَلَابُدَّ مِنَ المُتَابَعَةِ وَالرَّصْدِ حَتَّى التَّحَقُّقِ، وَلَابدَّ مِنَ المُحَاسَبَةِ بَعْدَ التَّحقُّقِ، وَلَابُدَّ مِنْ تَجْدِيدِ التَّجْدِيدِ عَلَى الدَّوَامِ وَإِلَى الأَبَدِ.

أيُّها الخَطِيبُ الهُمَامُ! اجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ نَفْسِكَ سُؤالًا لَا تَقْبَلُ التَّنَازُلَ عَنْهُ مَهْمَا كَانَ الأَمْرُ، اجْعَلْهُ فِي كُلِّ مَرْحَلَةٍ مِنْ مَرَاحِلِ خُطْبَتِكَ، وَفِقْرَةٍ مِنْ فِقْرَاتِهَا: «مَا الجَدِيدُ فِي هَذِهِ»؟

مَا الجَدِيدُ فِي عُنْوَانِ الخُطْبَةِ؟ مَا الجَدِيدُ فِي اسْتِهْلَالِ الخُطْبَةِ؟ مَا الجَدِيدُ فِي طَرِيقَةِ عَرْضِ مَوْضُوعِ الخُطْبَةِ؟ بَلْ مَا الجَدِيدُ فِي عَرْضِ كُلِّ دَلِيلٍ مِنَ الأَدِلَّةِ فِي الخُطْبَةِ؟ مَا الجَدِيدُ فِي التَّهْيِئَةِ لِكُلِّ دَلِيلٍ مِنْ أَدِلَّةِ الخُطْبَةِ؟ مَا الجَدِيدُ فِي اسْتِخْرَاجِ وَجْهِ الدَّلَالَةِ مِنَ الدَّلِيلِ؟

وَأخيراً فَإِنِّي لَا أُرِيدُ أَنْ أَقْعُدَ أَنُوحُ فِي مَوْضِعِي عَلَى مَا آلَتْ إِلَيْهِ خُطْبَةُ الجُمُعَةِ فِي بِلَادِ الإِسْلَامِ.. فَوَاللَّهِ، لَوْ جَازَ النُّوَاحُ لَكَانَتْ أَكْبَرَ مَنَاحَةٍ تُنْصَبُ لِهَذَا الخَطْبِ الجَلَلِ الَّذِي لَا يُقَدِّرُ أَكْثَرُ النَّاسِ مُصَابَ الإِسْلَامِ بِهِ فِي هَذَا الزَّمَانِ..! [فوامنبراه][1].

(١) كلمة تأوُّه على ما آل إليه منبر رسول اللَّه ﷺ.. تحرُّقًا يليق بالخطبة موضوعًا وأداءً وواقعًا، صوت يمتدُّ إلى الآفاق، فهل يتعالى صوت التلبية من كل البلاد: «أنا لها.. أنا لها».

وَمِنْ عِظَمِ المُصَابِ أَلَّا يُدْرِكَ أَهْلُ الإِسْلَامِ مَا وَقَعَ عَلَيْهِمْ، وَمَا وَقَعُوا فِيهِ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ.

لِذَلِكَ، وَجَبَ أَنْ يَكُونَ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ مِنْ هَذِهِ الصَّعْقَةِ هُمُ الخُطَبَاءُ، لِيَبْطِشُوا بَطْشَتَهُمْ بِسِيقَانِ المَنَابِرِ، فَتَهْتَزَّ لَهَا قُلُوبُ المُسْلِمِينَ حِينَ تَزْأَرُ بِالحَقِّ تِلْكَ الحَنَاجِرُ، كَأَنَّهَا نَفْخَةُ الحَيَاةِ مِنْ حَنَاجِرِ آسَادِ المَنَابِرِ.

فَاللَّهَ اللَّهَ فِي يَوْمِ الجُمُعَةِ أَيُّهَا الخُطَبَاءُ . . يَا أَهْلَ القُرْآنِ . . يَا أَهْلَ سُورَةِ الجُمُعَةِ.

* * * * *

المبحث الثاني
دَوافِعُ إِنْقَاذِ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ(١)

سَأَلْتُ أَخاً لِي فِي اللَّهِ: لِمَاذَا لَا تَكُونُ خَطِيباً فِي مَسْجِدِ جُمُعَةٍ؟

قَالَ: أَخِي، وَهَلْ كُلُّ مُدَرِّسِ تَرْبِيَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ، أَوْ دَارِسٍ لِلعُلُوم الشَّرْعِيَّةِ يَصْلُحُ لِأَنْ يَعْتَلِيَ المِنْبَرَ؟! هَلِ الخَطَابَةُ بِهَذِهِ السُّهُولَةِ حَتَّى أَتَوَلَّاهَا أَنَا وَأَمْثَالِي؟!

قُلْتُ لَهُ: قَطْعاً لَا يَصْلُحُ، وَلَكِنِّي أَقُولُ لَكَ أَخِي، وَلِكُلِّ مُدرِّسِ تَرْبِيَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ، وَلِكُلِّ مُتَخَصِّصٍ فِي العُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ... وَلِكُلِّ مَنْ لَهُ مَوْهِبَةٌ وَقُدْرَةٌ، وَلِكُلِّ مَنْ يُمْكِنُ أَنْ تَنْمُوَ مَوْهِبَتُهُ وَمَلَكَاتُهُ، وَمَا أَكْثَرَهُمْ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ: أَنْقِذُوا مِنْبَرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ أَمَّا السَّبِيلُ إِلَى ذَلِكَ فَهَذَا رَاجِعٌ لَكُمْ، فَهَذَا يَتَعَلَّمُ لِأَجْلِ هَذِهِ الغَايَةِ، وَذَاكَ تَعَلَّمَ وَلَكِنَّهُ يَتَدَرَّبُ عَلَى طُرُقِ الأَدَاءِ، وَثَالِثٌ، وَرَابِعٌ، وَهَكَذَا، وَرُبَّمَا خَامِسٌ تَاجِرٌ يُنْشِئُ مَعْهَدَ خَطَابَةٍ مُتَكَامِلاً جَامِعاً مَا بَيْنَ التَّأْصِيلِ الأَحْسَنِ، وَالتَّطْوِيرِ الأَحْدَثِ،

(١) سبب تسميته منبر رسول اللّه ﷺ أنه سُنَّةٌ من سُننه ﷺ، وأن الأصل هو أنَّ الخلفاء كانوا هم مَنْ يتولى بعد رسول اللّه ﷺ الخطابة وإمامة الصلاة وإمامة الأمة، فقد ورثوا هذه وهذا، والربط واضح، وتكريماً لهذا المقام بنسبته لرسول اللَّه ﷺ، وتعظيماً لشأن الجمعة، وتذكيراً للخطيب بعظم إرثه وثقله، وعلو شرفه ومقامه.

وَلِذَلِكَ كَانَ لِزَاماً عَلَيْنَا إِنقَاذُ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وِفْقَ النِّقَاطِ التَّالِيَةِ:

الإِنْقَاذُ الأَوَّلُ: أَنْقِذُوهُ مِنَ السَّمْسَرَةِ وَالمُزَايَدَةِ:

أَنْقِذُوهُ مِمَّنْ جَعَلَ المِنْبَرَ مِنْبَراً لِلتَّسوُّقِ، وَمَصْدَراً لِلتَّرَزُّقِ حِينَ أَصْبَحَتِ البِضَاعَةُ هِيَ كَلِمَةُ اللَّهِ وَكَلِمَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ..! هِيَ آيَاتُ اللَّهِ وَأَحَادِيثُ رَسُولِهِ ﷺ....! هِيَ كَلِمَةُ الحَقِّ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تُقَالَ وَيَحْرُمُ أَنْ تُكْتَمَ أَوْ تُحرَقَ أَوْ تُزيَّفَ..!

أَلَيْسَتْ هَذِهِ حَقِيقَةً؟!

أَلَيْسَ مِنَ الخَيْرِ لَكَ أَنْ تَقُولَ الحَقَّ، وَتَسْكُتَ عَنِ البَاطِلِ وَلَا تُنَافِقَ..؟ أَلَيْسَ مِنَ الخَيْرِ لَكَ إِذْ لَمْ تَقْدِرْ أَنْ تَقُولَ كَلِمَةَ الحَقِّ أَنْ تَتْرُكَ الخُطْبَةَ وَلَا أَحَدَ يُلْزِمُكَ بِهَا؟ أَلَيْسَ مِنَ الخَيْرِ لَكَ أَنْ تَكُونَ مَرِيضاً فِعْلاً مِنْ أَنْ تَكُونَ مَرِيضاً بِالنِّفَاقِ فِي قَلْبِكَ؟ أَلَيْسَ مِنَ الخَيْرِ لَكَ أَنْ يَتقرَّحَ لِسَانُكَ، فَتَعْتَذِرَ عَنْ جُمُعَةٍ تُنَافِقُ فِيهَا مِنْ أَنْ يَسْلَمَ لِسَانُكَ، وَيَتقرَّحَ دِينُكَ، وتُسَلَّمَ لَكَ مُكَافَأَتُكَ؟ أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

فَأَيُّ عَهْدٍ لِلَّهِ عَلَى الخَطِيبِ أَعْظَمُ مِنْ كَلِمَةِ الحقِّ فِي خُطْبَةِ

الفَرِيضَةِ. . . خُطْبَةِ الجُمُعَةِ؟!

أَلَمْ أَقُلْ يَا أَخِي: إِنَّ مِنْبَرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَحْتَاجُ إِلَى إِنْقَاذٍ؟!

الإِنْقَاذُ الثَّانِي: أَنْقِذُوا المِنْبَرَ مِنَ الخُطَبَاءِ الاعْتِبَاطِيِّينَ(١):

دَعْنِي أَسْأَلُكَ هَذَا السُّؤَالَ: لَوْ أَخْطَأَ بِكَ الطَّرِيقُ يَوْماً، أَوْ ضَاقَ عَلَيْكَ الوَقْتُ وَدَخَلْتَ أَقْرَبَ مَسْجِدٍ جَامِعٍ لِأَدَاءِ صَلاةِ الجُمُعَةِ فِي أَيِّ بَلَدٍ مِنْ بِلَادِ المُسْلِمِينَ، فَعَلَى أَيِّ نَوْعِيَّةٍ مِنَ الخُطَبَاءِ سَوْفَ تَعْثرُ غَالِباً؟ إِنَّ الأَصْلَ أَنَّكَ سَوْفَ تَعْثُرُ عَلَى خَطِيبٍ يَخْبِطُ المَوْضُوعَ خَبْطاً مَا دَامَ لَم يُمْسِكْ وَرَقَةً بِيَدِهِ، مَعَ أَنَّ الوَرَقَةَ دَاهِيَةٌ سَوْفَ نَأْتِي عَلَى ذِكْرِهَا بِإِذْنِ اللَّهِ.

فَصِفَةُ الاعْتِبَاطِ صِفَةٌ ظَاهِرَةٌ فِيمَنْ تَوَلَّى مِنْبَرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الأَيَّامَ، وَخُصُوصاً مَنْ طَالَ ارْتِقَاؤُهُ المِنْبَرَ، وَأَصْبَحَ هَمُّهُ الإِعْذَارَ بِإِقَامَةِ أَرْكَانِ الخُطْبَةِ حَسَبَ اعْتِقَادِهِ، مَعَ مُرَاعَاةِ سُرْعَةِ انْصِرَافِ النَّاسِ مِنَ الخُطْبَةِ.

---

(١) يقول ابن منظور: عبط الذبيحة يعبطها عبطاً واعتبطها اعتباطاً: نحرها من غير داءٍ، ولا كسرٍ، وهي سمينة فتية. . . والعبط: الريبة. والعبط: الشق. وعبط الشيء والثوب يعبطه عبطاً: شقه صحيحاً. . والعابط: الكذاب، وقال في آخر معاني العبط: ويقال: عبط الحمار التراب بحوافره إذا أثاره، والتراب عبيط، وعبطت الريح وجه الأرض إذا قشرته، وعبطنا عرق الفرس أي: أجريناه حتى عرق. والعابث: اللاعب بما لا يعنيه . . «لسان العرب» (٦/ ٤٦).

وَمِنَ العَبَثِ بِالخُطْبَةِ: أَنْ لَا يُحقِّقَ الرَّجلُ مَعْلُومَةً فَضْلًا أَنْ يُحقِّقَ حَدِيثاً، فَإِنَّهُ إِنْ كَانَتْ ثَمَّة مَعْلُوماتٌ جَدِيدَةٌ فِي الخُطْبَةِ فَسَوْفَ تَجِدُهَا غَيْرَ مُحقَّقَةٍ عِلْمِيّاً! رُبَّما تَلَقَّاهَا الخَطِيبُ مِنْ أَفْوَاهِ النَّاسِ، وَجَاء يَعْرِضُهَا عَلَى حُضُور الجُمُعَةِ الكِرَام، كَأَنَّهُ وَاحِدٌ مِنْ عَابِرِي المَجَالِسِ بِالأَخْبَارِ يَنْقُلُهَا مِنْ مَجْلِسٍ إِلَى مَجْلِسٍ آخَرَ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «كَفَى بِالمرْءِ كَذِباً أَنْ يُحَدِّث بِكُلِّ مَا سَمِعَ»[(١)].

بَلْ يَأْتِي يَخْبِطُ السُّنَّةَ كَمَا يَخْبِطُ الأَعْرَابِيُّ وَرَقَ السَّمُرَ بِعَصَاهُ، فَهَذَا مَيْدَانٌ خِصْبٌ لِلإِغْرَابِ فِي فَضَائِلِ الأَعْمَالِ الَّتِي تَوسَّع فِيهَا خُطَبَاؤُنَا حَتَّى مَا عَادَ لَها شُرُوطٌ وَلَا حُدُودٌ، المُهِمُّ أَنْ يَكُونَ أَوَّلُها: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَآخِرُهَا: رَوَاهُ فُلَانٌ، أَقْصِدُ غَيْرَ البُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ أَوْ أَحَدِهِمَا، وَكَأَنَّ كُلَّ مَنْ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَحَّ حَدِيثُهُ.. عِلْماً بِأَنَّ جُلَّ هَؤُلَاءِ الرُّوَاةِ لَمْ يَشْتَرِطُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ الاقْتِصَارَ عَلَى رِوَايَةِ الصَّحِيحِ وَحْدَهُ!

الاعْتِبَاطُ وَالعَبَثُ عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَاضِحٌ فِي انْعِدَامِ مُرَاعَاةِ مُسْتَوَيَاتِ النَّاسِ... وَاضِحٌ فِي ضَبَابِيَّةِ المَوْضُوعِ الوَاحِدِ، وَالوَحْدَةِ المَوْضُوعِيَّةِ لِلْخُطْبَةِ، وَاضِحٌ فِي كُلِّ شَيءٍ.. أَهَذَا حَقُّ هَذَا الإرثِ العَظِيمِ؟

---

(١) رواه مسلم في مقدمة صحيحه (٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إنَّ الرَّجُلَ لَوْ اخْتِيرَ لِيَتكَلَّمَ فِي إِصْلَاحِ خُصُومَةٍ بَيْنَ صَدِيقَيْنِ أَوْ زَوْجَيْنِ لَاخْتَارَ العِبَارَاتِ، وَانْتَقى مِنْهَا أَحْسَنَهَا، وَاخْتَارَ الكَلِماتِ، وَاصْطَفَى مِنْهَا أَنْفَذَهَا إِلَى القُلُوبِ.. وَنَسَّقَ بَيْنَ العِبَارَاتِ وَالجُمَلِ، وشَكَّلها فِي شَكْلِ حَرْبَةٍ ثَاقِبَةٍ، رَأْسُها عَبَقُ وَرْدَةٍ نَافِذَةٍ، ونِصَالُها عَمُودُ نُورٍ مُشْرِقٍ، وَأَرَاشَهَا وَوجَّهَها حَتَّى لَا تُخْطِئَ هَدَفَهَا.. وكلُّ هَذَا حقٌّ.. وَلَكِنْ أَيُقدَّمُ إِصْلَاحُ شَخْصَيْنِ عَلَى إِصْلَاحِ أُمَّةِ سَيِّدِ الثَّقَلَيْنِ ﷺ؟! وَهَلْ تَخصَّصَ المِنبرُ إِلَّا لِلإِصْلَاحِ؟!

إنَّ الاعْتِبَارَ الصَّحِيحَ أَنْ يَعْتَبِرَ كُلُّ خَطِيبٍ نَفْسَهُ يَخْطُبُ بِالأُمَّةِ كُلِّهَا مِنْ حَيْثُ الاهْتِمَامِ، فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ عِنْدَكَ هُمْ عَيِّنَةٌ مِنْ عُمُومِ الأُمَّةِ، فَهُمْ مُمَثِّلونَ عَنِ الأُمَّةِ حَتَّى لَوْ كُنْتُمْ فِي قَرْيَةٍ نَائِيَةٍ، أَوْ عِزْبَةٍ بَعِيدَةٍ، أَوْ عَاصِمَةٍ مَلأَى، وَإِنَّ عَدَمَ مُرَاعَاةِ هَذَا المَعْنَى الكَبِيرِ لِهَؤُلَاءِ الحُضُورِ فِي المَسْجِدِ الجَامِعِ حَطَّ مِنْ قَدْرِ الخُطْبَةِ، وهَذَا هُوَ الوَاقِعُ إِلَّا مَا نَدَرَ لَوْلَا كَرَامَةُ مَا فِيهَا مِنْ كَلَامِ اللَّهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ ﷺ وَمَا فِيهَا مِنَ الذِّكْرِ!

وَعَدَمُ مُرَاعَاةِ صُورَةِ الأُمَّةِ فِي هَؤُلَاءِ للجُمُعَةِ جَعَلَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الخُطَبَاءِ يَقُولُ كَمَا قَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ البُخَلَاءِ: وَمَاذَا يَضُرُّ فِي حَوْضِ لَبَنٍ كُوزُ مَاءٍ، فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ وَطَلَعَ الفَجْرُ وَأَسْفَرَ رَأَى النَّاسُ حَوْضاً مِنْ مَاءٍ وَلَمْ يَرَوُا اللَّبَنَ! أَيْنَ اللَّبَنُ الَّذِي يَتَشَرَّبُهُ النَّاسُ مِنْ

خُطْبَةِ الجُمُعَةِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِهِمْ؟!

أَلَمْ أَقُلْ لَكَ يَا أَخِي إِنَّ الخُطْبَةَ تَحْتَاجُ الْيَوْمَ إِلَى إِنْقَاذٍ؟!

الإِنْقَاذُ الثَّالِثُ: أَنْقِذُوهُ مِنَ المُخَرِّفِينَ:

لَقَدْ عَفَا الزَّمَنُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ السُّنَنِ فِي أَكْثَرِ بِلَادِ المُسْلِمِينَ البَعِيدَةِ..! وَمَنْ تَصَوَّرَ العَالَمَ الإِسْلَامِيَّ بِحُدُودِ دُوَيْرَةِ أَهْلِهِ، أَوْ بِحُدُودِ قَرْيَتِهِ أَوْ بَلْدَتِهِ أَوْ بَلَدِهِ فَقَدْ أَخْطَأَ خَطَأً عَظِيماً.. فَلَيْسَ مَنْ يَعِيشُ بِجِوَارِ النَّبْعِ فِي الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ وَمَا حَوْلَهَا كَمَنْ يَعِيشُ فِي بِلادِ المُسْلِمِينَ الكَرِيمَةِ الكَبِيرَةِ المُتَبَاعِدَةِ.. أَوْ المُسْلِمِينَ المُغْتَرِبِينَ فِي بِلَادٍ بَعِيدَةٍ.

لَقَدْ رَأَيْنَا فِي أَكْثَرِ طُلَّابِ العِلْمِ - فِي بِلَادِ الإِسْلَامِ البَعِيدَةِ فَضْلًا عَنِ العَامَّةِ - جَهْلًا بِسُنَنِ المُصْطَفَى ﷺ... رَأَيْنَا السُّنَّةَ فِي الجُمُعَةِ غَرِيبَةً، وَرَأَيْنَا الخُرَافَاتِ وَالبِدَعَ عَجِيبَةً!

رَأَيْنَا ذَلِكَ، وَمَا زَالَ النَّاسُ قَائِمِينَ عَلَى هَذِهِ البِدَعِ وَالخُرَافَاتِ، بَلْ إِنَّ مِنْبَرَ الجُمُعَةِ وَوَارِثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى المِنْبَرِ هُوَ مَنْ يُثَبِّتُ عَلَى البِدَعِ، وَيُغَذِّي النَّاسَ وَيَقُودُهُمْ لِحَرْبِ سُنَّةِ المُصْطَفَى ﷺ.

أَلَيْسَ مِنَ الوَاجِبِ أَنْ نَحْمِلَ هَمَّ الأُمَّةِ فِي أَكْبَرِ البِلَادِ وَأَوْسَعِهَا؟

أَلَيْسَ مِنَ الوَاجِبِ أَنْ نَتفرَّغَ أَوْ نُفرِّغَ فِرَقاً مُتخَصِّصةً لِهَذا الأَمْرِ؟

أَلَيْسَ مِنَ الوَاجِبِ أَنْ نُنْشِئَ مَعْهَدَ خُطَباءَ فِي كلِّ بَلَدٍ مِن هَذِهِ البِلَادِ يُدرِّبُ عَلَى الخَطَابَةِ بِالمَنْهَجِيَّةِ الصَّحِيحَةِ وَالطُّرُقِ الحَدِيثَةِ لِلتَّلقِّي مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَة وَفِقْهِ أَهْلِ تِلْكَ البِلَادِ حَتَّى يَجْمَعُوا بَيْنَ الجَاذِبِيَّةِ وَالسُّنَّةِ، كَيْ يَجْتَمِعَ عَلَيْهِم النَّاسُ فَيُعِيدُوا المِنبَرَ السَّلِيبَ إِلَى سُنَّةِ سَيِّدِ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ ﷺ؟

أَلَيْسَ مِنَ الوَاجِبِ أَنْ نَعْمَلَ أيَّ عَمَلٍ وَلَوْ كَانَ غَيْرَ مُبَاشِرٍ حَتَّى لَوْ أَنْشأنَا مَعْهَداً لِتعلُّمِ العَرَبيَّةِ فِي البِلَادِ غَيْرِ العَرَبيَّةِ، وَمِنْ خِلالِهِ ندَخلُ عَلَى المِنْبرِ، أَوْ مَعْهَداً يُعِيدُ النَّاسَ إِلَى مَذْهَبِ أَهْلِ تِلْكَ البِلَادِ عَلَى أَسَاسِ إِمَامِ المَذْهَبِ، وَمِنْ خِلَالِهِ رَبَّيناهُمْ عَلَى السُّنَنِ..؟ فَكُلُّ أئمَّةِ المَذَاهِبِ الأَرْبَعَةِ كَانُوا أَئمَّةَ السُّنَّةِ وَدُعَاةَ السُّنَّةِ.

وَإِذَا لَمْ يَعُدْ مِنبَرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَوْفَ يَطُولُ لَيْلُ الأُمَّةِ وَيَطُولُ؛ لِأَنَّ الجَهلَةَ وَالمُخرِّفِينَ وَالمُبْتَدِعِينَ هُمْ مُسْتَنْقعُ المُحتلِّ الَّذِي يَتربَّى فِيهِ وَيَنْمُو وَيَكْبُرُ وَيَنْتَشِرُ فِي دَمِ الأُمَّةِ وَمُخِّها وَقَلْبِها فَيَحْكُمُها وَيَتحكَّمُ فِيهَا.

وَلَا تَسْتَغْرِبْ إِنْ قُلْتُ لَكَ إِنَّنَا يَجِبُ أَنْ نَرُدَّ النَّاسَ إِلَى السُّنَّةِ حَتَّى فِي بِلَادِنَا.. فَمَا أَكْثَرَ جَهلَ النَّاسِ بِالسُّنَنِ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنْفُسَهُمْ أَعْلَمَ النَّاسِ بِالسُّنَّةِ.. كَيْفَ وَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ رَحِمَهُ اللَّهُ وَهُوَ فِي ذَلِكَ العَهْدِ

القَرِيبِ مِنْ عَهْدِ صَاحِبِ السُّنَّةِ نَفْسِهِ جَعَلَ غَايَةَ حَيَاتِهِ إِمَاتَةَ البِدْعَةِ وَإِحْيَاءَ السُّنَّةِ، فَقَالَ فِي يَوْمِ عِيدٍ: «أَيُّهَا النَّاس، وَاللهِ، لَوْلَا سُنَّةٌ أُحْيِيهَا، وَبِدْعَةٌ أُمِيتُهَا مَا أَحْبَبْتُ أَنْ أَعِيشَ فَوَاقاً»(١).

أَلَمْ أَقُلْ لَكَ يَجِبُ عَلَيْنَا إِنْقَاذُ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟

الإِنْقَاذُ الرَّابِعُ: أَنْقِذُوا المِنْبَرَ مِنَ الإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ:

إِنَّ طَرِيقَنَا هُوَ الاعْتِدَالُ، هُوَ الوَسَطُ، هُوَ الاسْتِقَامَةُ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

لكِنَّ الإِشْكَالَ الأَكْبَرَ هُوَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ لَيَزْعُمُ أَنَّهُ الوَسَطُ، بَيْنَما الوَسَطُ قَلِيلٌ.

الوَسَطُ فِي أَفْكَارِهِ قَبْلَ كُلِّ شَيءٍ، وَالوَسَطُ فِي عَرْضِهِ لِلأَفْكَارِ مِنْ

---

(١) رواه ابن عبد الحكم (ص٣٧) و«الطبقات الكبرى» (٥/ ٢٣٨، ٢٥٣).

عَلَى مِنْبَرِ النَّبِيِّ المُخْتَارِ ﷺ.

فَالْوَسَطُ فِي العَرْضِ لَيْسَ بِالنِّسْبَةِ لِنَظْرَةِ الحُضُورِ وَحُكْمِهِمْ وَلَا لِلمُوَالِينَ لَكَ، وَلَكِنَّهُ الحُكْمُ وَالحِكْمَةُ اللَّذَانِ يُضْبَطُ بِهِمَا الوَسَطُ، فَالتَّهَوُّرُ لَا يُمْتَدَحُ وَإِنْ جَلَبَ الجَمَاهِيرَ مَادَامَ الحُكْمُ الشَّرْعِيُّ وَالحِكْمَةُ يَقْتَضِيَانِ التَّهْدِئَةَ وَاللِّينَ.

وَثَمَّةَ مَنَابِرُ يَعْرِفُهَا أَهْلُ كُلِّ بَلَدٍ بِأَنَّهَا مَنَابِرُ مُتَشَدِّدَةٌ فِي أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ، كَالتَّشَدُّدِ فِي أَمْرِ الجِهَادِ، أَوِ التَّشَدُّدِ فِي مُفَاصَلَةِ المُسْلِمِينَ عَلَى أُمُورٍ يَخْتَلِقُونَ الاخْتِلَافَ فِيهَا اخْتِلَاقاً، فَمَرَّةً فِي المُعْتَقَدِ، وَأُخْرَى فِي الفِقْهِ، أَوْ بِالتَّشَدُّدِ فِي وَسَائِلِ الدَّعْوَةِ وَالمُفَاصَلَةِ الحِزْبِيَّةِ عَلَيْهَا، وَمِثْلَمَا نَقُولُ فِي هَذَا فَإِنَّ المَنَابِرَ المُمَيِّعَةَ لِهَذِهِ المَوَاضِيعِ أَضْعَافُ أَضْعَافِ المَنَابِرِ المُتَشَدِّدَةِ، وَالشَّيْطَانُ لَا يُبَالِي أَخَذَ العَبْدَ إِلَى الإِفْرَاطِ أَوِ التَّفْرِيطِ.

وَمَا يَمِيلُ الإِنْسَانُ إِلَى جِهَةٍ حَتَّى يَبْتَعِدَ عَنِ الجِهَةِ الأُخْرَى، لِذَا فَمَا مِنَ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ إِلَّا وَيَتَّهِمُ الطَّرَفَ الآخَرَ بِأَنَّهُ مُفَرِّطٌ فِي جَانِبِهِ، بَيْنَمَا تَجِدُ القَائِلَ نَفْسَهُ مُفَرِّطاً فِي ضِدِّهِ؛ لأَنَّهُ أَخْطَأَ فِي القِيَاسِ حَيْثُ جَعَلَ القِيَاسَ مِنْ حَيْثُ هُوَ، وَكَأَنَّهُ هُوَ نُقْطَةُ الوَسَطِ.

أَلَمْ أَقُلْ لَكَ يَا أَخِي إِنَّ وَاجِبَنَا هُوَ إِنْقَاذُ المِنْبَرِ؟

الإِنْقَاذُ الخَامِسُ: إِنْقَاذُ المِنْبَرِ مِنَ خُطَبَاءِ الضِّرَارِ:

لَقَدْ ذَهَبَتْ صِبْغَةُ الضِّرَارِ الأُولَى المَكْشُوفَةُ المَعْرُوفَةُ، وَتحوَّلَتْ إِلَى صِبْغَةٍ يَغْلِبُ عَلَيْهَا طَابعُ الالْتِزَامِ بِالسُّنَّةِ وَطَابعُ التَّمسُّكِ بِالعَقِيدَةِ، وَالاحْتِجَاجِ بِأَقْوَالِ أَئِمَّةِ السَّلَفِ.

طَابعٌ يُغْرِي الشَّبَابَ الرَّاغِبِينَ بِاتِّبَاعِ سَيِّدِ المُرْسَلِينَ ﷺ، طَابعُ مَنْ يُهَاجِمُ التَّحزُّبَ وَهُوَ إِنَّما يَهْدِمُ الأَحْزَابَ لِيَبْنِيَ لَهُ أَشْرَسَ حِزْبٍ!

يُهَاجِمُ إِخْوَانَهُ فِي المُعْتَقَدِ، وَفِي الطَّرِيقِ، وَفِي كُلِّ شَيءٍ لأَجْلِ شَيءٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ فَهْمُهُ المَنْكُوسِ لِلوَلاَءِ وَالبَرَاءِ..! وَلِذَلِكَ فَنَحْنُ بِحَاجَةٍ إِلَى خُطَبَاءَ يُخلِّصُونَ المِنْبَرَ مِمَّنْ يُوغِرُ صُدُورَ الأُمَّةِ عَلَى أَبْنَائِهَا، وَيُخَبِّبُ الحُكَّامَ المُنْصِفِينَ عَلَى أَبْنَاءِ الأُمَّةِ الغَيُورِينَ، وَيَحْفَظُ أَكْبَرَ المَسَاجِدِ مِنْ حَسَدِ هَؤُلاَءِ المُتخَصِّصِينَ فِي تَفْرِيقِ الجُمُوعِ عَنِ الأَئمَّةِ المُصْلِحِينَ! وَتَفْرِيعِ الْمَنَابِرِ مِنْ آسَادِهَا.

فَهُمْ أَقَلُّ النَّاسِ تَأْصِيلاً وَرُسُوخاً، وَأَطْوَلُ النَّاسِ لِسَاناً فِي أَعْرَاضِ العُلَمَاءِ وَالخُطَبَاءِ وَالدُّعَاةِ النَّاجِحِينَ وتشريحاً.

فَيَا لَلدِّينِ! مَا أَعظَمَ شَكْوَاهُ مِنْهُمْ! وَيَا لَلأَعْدَاءِ! مَا أَعْظَمَ حِمَايَةَ هَؤُلاَءِ لَهُمْ وَتَسْلِيكَهُمْ طَرِيقَهُمْ إِلَى قَلْبِ الأُمَّةِ! ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ

وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾

[التوبة: ١٠٧].

أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّنَا في حَاجَةٍ إِلَى مَنْ يُنْقِذُ مِنْبَرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟

* * * * *

الفصل الأول
الخطيب

المبحث الأول: تناوش شرف الخطيب.

المبحث الثاني: رباط الخطيب.

المحث الثالث: أيها الخطيب اتق اللَّه.

المبحث الأول
تَناوُشُ شَرَفِ الخَطِيبِ

أَيُّها الخَطِيبُ: إيَّاكَ أَنْ تَحُطَّ مِنْ قَدْرِ الجُمُعَةِ حِينَ تَحُطُّ مِنْ قَدْرِكَ! إيَّاكَ أَنْ تَخْلِطَ بَيْنَ وُجُوبِ التَّواضُعِ الشَّخْصِيِّ وَخَطَأ تَواضُع الغَايَةِ! إيَّاكَ أَنْ تَخْلِطَ بَيْنَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَبَيْنَ رِفْعَةِ مَقامِ الجُمُعَةِ وعِزَّةِ الخَطِيبِ!

أَيُّها الخَطِيبُ: أَتَعْرِفُ مَنْ أَنْتَ؟

أَيُّها الخَطِيبُ: إنَّكَ لَوْ كُنْتَ فِي جَيْشٍ لَكُنْتَ مُنْذِرَ الجَيْشِ الَّذِي يَقُولُ لِأَهْلِهِ وَقَوْمِهِ: صَبَّحَكُمُ العَدُوُّ وَمَسَّاكُم.

وَإِنَّكَ لَوْ كُنْتَ فِي قَرْيَةٍ لَكُنْتَ تِلْكَ النَّمْلَةَ الحَارِسَةَ الصَّائِحَةَ عَلَى قَرْيَتِها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

وَإِنَّكَ لَوْ كُنْتَ فِي الطَّيْرِ لَكُنْتَ ذاكَ الهُدْهُدَ الدَّاعِيَةَ المُضحِّي، الشُّجاعَ السَّيَّارَ الَّذِي يَقُولُ لِأَعْظَمِ عُظَماءِ المَمْلَكَةِ السُّلَيْمانِيَّةِ: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ

عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٢ - ٢٦].

وَلَوْ كُنْتَ فِي الطُّيُورِ السَّيَّارَةِ عَلَى الأَرْضِ لَكُنْتَ ذَاكَ الَّذِي كُلَّمَا رَأَى مَلَكاً نَادَى عَلَى النَّاسِ أَنِ احْمَدُوا اللَّهَ.. وَكُلَّمَا كَادَ الفَجْرُ أَنْ يَتَنفَّسُ صَاحَ أَنْ قُومُوا لِلصَّلَاةِ.. حَيَّ عَلَى البَرَكَةِ فِي البُكُورِ.. فَاقْطِفُوهَا، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيكَةِ فَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنَّها رَأَتْ مَلَكاً»(١).

لَوْ كُنْتَ أَيُّها الخَطِيبُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ لَكُنْتَ ذَاكَ الخَطِيبَ الَّذِي تَفَجَّر غَيْرَةً وَقَدْ كَانَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ، فَسَجَّلَ اللَّهُ سُبْحانَهُ بِنَفْسِهِ العَلِيَّةِ فِي كِتابِهِ الكَرِيمِ خِطَابَهُ، وَمَا هُوَ بِرَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن

(١) متفق عليه. رواه البخاري (٣٠٣٣)، ومسلم (٢٧٢٩).

يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ
إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ
ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ
يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ
مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ
جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ
إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ
مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ
أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ
كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ
أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ
كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ
فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ
أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ
ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ
عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ
ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٤٠﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ
وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي

بِهِۦ عِلْمٌۖ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٢٨ - ٤٤].

إِنَّها كَلِماتٌ صَدَحَ بِهَا خَطِيبٌ فِي وَجْهِ أَخْطَرِ فِرْعَوْنٍ وَأَخْطَرِ مَلأٍ وَلْيكُنْ بَعْدَهَا مَا يَكونُ، وَمَا كَانَ إِلَّا ما أَرادَ اللَّهُ. . ومَا أَرادَ سُبْحانَهُ إِلَّا حِفْظَهُ ونَصْرَهُ وَإِهْلاكَهُمْ ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥].

أَيُّها الخَطِيبُ: **إِنَّك لَوْ كُنْت وَرِيثاً لأَحدٍ لَكُنْتَ وَرِيثاً لِنَبِيِّ اللَّهِ شُعَيْبٍ** عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي هُوَ خَطِيبُ الأَنْبِياءِ(١).

. . وَيَكْفِيكَ أَنْ تَتأَمَّلَ خِطابَهُ فِي قَوْمِهِ وَمُحاوَرَتَه لهُمْ فِي سُورَةِ هُـودَ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ

(١) فعن محمد بن إسحاق قال: وشعيب بن ميكائيل النبي ﷺ بعثه الله نبيا، فكان من خبره وخبر قومه ما ذكر الله في القرآن، وكان رسول الله ﷺ إذا ذكره قال: «ذاك خطيب الأنبياء لمراجعته قومه»، ذكر ذلك الطبري في تفسيره وتاريخه، والحاكم في مستدركه مرسلا، وهو ضعيف.

بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾
بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ
يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا
مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ
بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ
إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ
﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ
هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ
تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ
وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾ قَالَ
يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا
تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ
مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ
﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٨٤- ٩٤].

بَلْ أَنْتَ وَرِيثٌ حَقِيقِيٌّ لِسَيِّدِ الأَنْبِياءِ. . . سَيِّدِ البُلَغاءِ والفُصَحاءِ وَمَنْ أُوتِيَ جَوامِعَ الكَلِمِ عليه الصلاة والسلام، الَّذِي وَقَفَ خَطِيباً بِالمُشْرِكِينَ عِنْدَ البَيْتِ، وَعَلَى جَبَلِ أَبِي قُبَيْسٍ، وَفِي الأَسْواقِ

وَالمُنْتَدَيَاتِ، وَفِي جُمُوعِ الحَجِيجِ.

* أيُّ زَاهِدٍ أَجْهَلُ مِمَّنْ يَزْهَدُ فِي تَعَلُّمِ الخُطْبَةِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى تَعَلُّمِهَا وَاسْتِيفَاءِ حُقُوقِهَا وَارْتِقَاءِ مِنْبَرِهَا؟

مَقَامٌ سَنَّ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ ارْتِفَاعَ مَقَامِ الخَطِيبِ عَنْ حَاضِرِيهِ دَرَجَاتٍ فِعْلِيَّةً وَدَرَجَاتٍ مَعْنَوِيَّةً!.. فَمَنْ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَعْتَلِيهِ، ثُمَّ لَا يَرْتَقِيهِ وَيَعْتَلِيهِ؟!

فَلَوْ كَانَ المَقْصُودُ الأَوْحَدُ لِارْتِفَاعِ الخَطِيبِ هُوَ رُؤْيَةُ الخَطِيبِ وَالتَّفَاعُلُ مَعَهُ، أَوْ كَانَ المَقْصُودُ رَفْعَ صَوْتِهِ وَبُلُوغَهُ مَنْ حَضَرَ مَعَهُ فَحَسْبُ لَكَانَ رَفْعُهُ أَعْلَى مِنْ ذَلِكَ أَوْلَى.. لَكِنَّهُ رَفْعُ الصَّوْتِ وَالصِّيتِ، وَرَفْعُ المَكَانِ وَالمَقَامِ، وَلِذَا فَإِنَّهُ فِي حَالِ الخُطْبَةِ حِينَ يَكُونُ مُوَاجِهاً لِلنَّاسِ يَكُونَ مُرْتَفِعاً، وَحِينَ يَكُونُ إِمَاماً لِصَلَاتِهَا يَكُونُ مُتَقَدِّماً، وَهُوَ بِهَذَا قَدْ حَازَ التَّقَدُّمَ فِي المَقَامَيْنِ..

إِنَّ الأَصْلَ أَنْ يَقُومَ الخَلِيفَةُ (إِمَامُ الأُمَّةِ) هَذَا المَقَامَ؛ لِأَنَّهُ وَارِثُ الإِمَامَتَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.. هَكَذَا كَانَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ رضي الله عنهم وَمَنْ بَعْدَهُمْ... ثُمَّ كَبُرَتِ البِلَادُ وَكَثُرَتِ المَسَاجِدُ - وَالحمدُ للَّهِ رَبِّ العَالمينَ - فَلَا يَذْهَلنَّكَ كَثْرَةُ الأُمَّةِ وَكَثْرَةُ الخُطَبَاءِ عَنْ حَقِيقَةِ هَذَا المَقَامِ وَأَصْلِهِ وَمَصْدَرِهِ... إِنَّهُ مَقَامُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، هَكَذَا يَجِبُ أَنْ

تَنْظُرَ إِلَيْهِ، وَهَكَذَا يَنْظُرُ لَهُ المُسْلِمُونَ.. فَمَنْ يَعْرِفُ لِهَذَا المِنْبَرِ حَقَّهُ؟

وَمَعَ هَذا فَلَقَدْ بَقِيَ هَذَا المَقَامُ إِرْثَ مَنْ يَقُومُ مَقَامَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ؟

شَرَفُ أَيِّ خَطِيبٍ يَعُودُ لِشَرَفِ مَا يُنْسَبُ إِلَيْهِ، وَشَرَفُ خَطِيبِ الجُمُعَةِ مِنْ شَرَفِ الجُمُعَةِ ذَاتِهَا.

فَأَيُّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ اللَّهِ تَعَالَى تَطْلُعُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَتَغْرُبُ أَفْضَلُ فِي الأَيَّامِ السَّبْعَةِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ...؟!

* وَأَيُّ شَيءٍ أَفْضَلُ فِي يَوْمِ الجُمُعَةِ مِنْ فَرِيضَةِ اللَّهِ بِخُطْبَةِ الجُمُعَةِ وَصَلاتِهَا، إِنَّهَا مِحْوَرُ المِحْوَرِ، وَالقَلْبُ النَّابِضُ لِبَدَنِ الجُمُعَةِ العَظِيم.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا»[(١)].

وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُهْبِطَ، وَفِيهِ تِيبَ عَلَيْهِ، وَفِيهِ مَاتَ، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، وَمَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا وَهِيَ مُسِيخَةٌ يَوْمَ

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٨٥٤).

الجُمُعَة مِنْ حِين تُصْبِحُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ شَفقاً مِنَ السَّاعَةِ إِلَّا الْجِنَّ وَالإِنْسَ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لا يُصَادِفُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللَّه حَاجَةً إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهَا»[(١)].

وعَنْ عَبْدِ اللَّه بْنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ يَوْمَ الجُمُعَة - أَوْ لَيْلَةَ الجُمُعَة - إِلَّا وَقَاهُ اللَّه فِتْنَةَ الْقَبْرِ»[(٢)].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ أَتَى الجُمُعَة، فَاسْتَمَعَ وَأَنْصَتَ غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجُمُعَة وَزِيَادَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَمَنْ مَسَّ الْحَصَى فَقَدْ لَغَا»[(٣)].

أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩] أَلَيسَ هَذَا الَّذِي نَادَى اللَّهُ لَهُ النَّاسَ هُوَ خُطْبَةُ الجُمُعَةِ وَصَلَاتُهَا؟

---

(١) رواه أبو داود في سننه (١٠٤٦)، وصححه البغوي في شرح السنة (٢/ ٥٥٣)، وقال النووي في الخلاصة (٢/ ٧٥٢): إسناده على شرط الشيخين، وصححه ابن القيم في جلاء الأفهام (١٥٧)، والألباني في سنن أبي داود.

(٢) رواه أحمد في مسنده (٢/ ١٦٩)، والترمذي في سننه (١٠٧٤)، وحسنه السيوطي في الجامع الصغير(٨٠١٨)، والألباني في صحيح الجامع (٥٧٧٣) وسنن الترمذي (١٠٤٧). وضعفه الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في الفتح (٣/ ٢٩٧).

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٨٥٧).

فَمَنْ ذَا الَّذِي يَزْهَدُ فِي خُطْبَةِ الجُمُعَةِ وَهُوَ يَقْدِرُ. . .

* أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ سُبحانه وتعالى فِي المُعْتَدِينَ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ مُتوعِّداً: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٠]؟ فَأَيُّ إِرْثٍ سَيُورِّثُهُ اللَّهُ لِلخَطِيبِ وهُوَ الَّذِي يَنْصَحُ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ وَتَعْبِيدِ النَّاسِ لَهُ سُبْحانَهُ، وَالصَّدْعِ بِكَلِمَةِ الحَقِّ؟ إِنَّهُ خَيْرُ إِرْثٍ لِخَيْرِ قَوْلٍ، فِي خَيْرِ قَوْمٍ، فِي خَيْرِ يَوْمٍ، فِي خَيْرِ الأُمَمِ!

* أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]؟ الأَصْلُ فِي صُوَرِ الدَّعْوَةِ الأُخْرَى أَنَّهَا مُسْتَحَبَّةٌ، فَلَا شَيءَ مِنْهَا يَلْزَمُ بِعَيْنِهِ فِي وَقْتٍ مُحدَّدٍ حَيْثُ إِنَّهُ يَعُودُ لِمَوْضُوعِهِ، فَإِنْ كَانَ مَوْضُوعُهُ وَاجِباً كَانَتِ الدَّعْوَةُ واجِبةً، أَمَّا الجُمُعَةُ فَالأَصْلُ أَنَّهَا وَاجِبَةٌ أيّاً كَانَ مَوْضُوعُهَا، فَهِيَ الدَّعوَةُ الوَاجِبَةُ حَيْثُ إِنَّ وُجُوبَهَا مِنْ وُجُوبِ الصَّلَاةِ، ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُفرِّقْ بَينَهَا وَبَيْنَ الصَّلَاةِ، وَسَمَّى الاثْنَيْنِ ذِكْرَ اللَّهِ، فَقَالَ سُبْحانَهُ: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩]، وَلَمْ يَقُلْ فِي أَمْرِهِ سُبْحَانَهُ: (فَاسْعَوْا إِلَى الصَّلَاةِ) وَإِنَّمَا: ﴿فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لِيَشْمَلَ الاثْنَيْنِ مَعاً، بَلْ قَدَّمَ سُبْحانَهُ الخُطْبَةَ عَلَى الصَّلَاةِ، وَأَمَرَ بِالحُضُورِ لِلاثْنَيْنِ، بَيْنَما فِي غَيْرِهَا مِنَ الخُطَبِ

قَدَّمَ الصَّلَاةَ، ثُمَّ أَذِنَ بِالانْصِرَافِ، وَلَمْ يُوجِبِ البَقَاءَ لِمَنْ حَضَرَ؛ سَوَاءً كَانَتْ خُطْبَةَ عِيدٍ أَوْ غَيْرَهَا.

* أَيُّ مَلأ فِي الأَرْضِ أَعْظَمُ مِنَ المَلأ الحَاضِرِ لِلجُمُعَةِ..؟ فَأَبْشِرْ بِمَوْعُودِ اللَّهِ ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١]! أَبْشِرْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سَوْفَ يَذْكُرُكَ أَنْتَ خَاصَّةً - أَيُّها الخَطِيبُ - مِنْ بَيْنِ كُلِّ هَذِهِ الجُمُوعِ عَلَانِيَةً فِي مَلأ خَيْرٍ مِنْ هَذَا المَلأ الَّذِي تَرَاهُ، وَهَكَذَا الشَّأْنُ لَكَ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ.. فَهَنِيئاً لَكَ بِهَذِهِ الخُصُوصِيَّةِ مِنْ بَيْنِ المُؤمِنِينَ فِي هَذَا اليَوْمِ العَظِيمِ، أَلَمْ يَرْوِ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ رَبِّهِ قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُ، وَإِنِ اقْتَرَبَ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً، وَإِنِ اقْتَرَبَ إِلَيَّ ذِرَاعاً اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ بَاعاً، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»(١).

* أَيُّ شَرَفٍ لِلخُطَبَاءِ هَذَا حَتَّى يَرْوِي خُطَبَهُمْ وَكَلِمَاتِهِمْ فِي مَقَامِ المَدْحِ رَبُّ العَالَمِينَ حِينَ يَرْوِي عَنِ الأَنْبِيَاءِ عليهم السلام خُطَبَهُمْ فِي أَقْوَامِهِمْ وَهُمْ يَهْتِفُونَ بِهِمْ: (يَا قَوْمُ.. يَا قَوْمُ.. يَا قَوْمُ..).

* أَلَا تَرَى كَيْفَ ذَبَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ الكَرِيمِ عَنْ

(١) متفق عليه. رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم(٢٦٧٥).

رَسُولِهِ ﷺ الكَهَانَةَ وَالشِّعْرَ، لَكِنَّهُ لَمْ يَنْفِ عَنْهُ الخَطَابَةَ، فَقَالَ سُبْحانَهُ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤١-٤٣]، وَقَالَ ﷺ: «بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الكَلِمِ»(١).

* أَيُّها الخَطِيبُ، إِذَا كَانَ المَلَائِكَةُ السَّوَّاحُونَ يَطُوفُونَ البِلَادَ يَبْحَثُونَ عَنْ مَجالِسِ الذِّكْرِ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَها أَحدُهُمْ تَنادَوْا.. فَكَمْ هُمُ المَلَائِكَةُ الَّذِينَ يَجْتَمِعُونَ عِنْدَكَ فِي مَسْجِدِكَ؟ وَمَاذَا سَيَكُونُ جَوَابُهُمْ عَنْكُمْ..؟

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ للَّهِ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْماً يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ» قَالَ: «يَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، قَالَ: فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهم وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ: مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالَ: تَقُولُ: يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ، قَالَ: فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ: لَا وَاللَّهِ، مَا رَأَوْكَ، قَالَ: فَيقُولُ: وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيداً، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحاً، قَالَ: يَقُولُ: فَمَا

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، رواه البخاري (٧٢٧٣)، ومسلم (٥٢٣).

يَسْأَلُونَنِي؟ قَالَ: يَسْأَلُونَكَ الجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَا واللَّهِ يَا رَبِّ، مَا رَأَوْهَا، قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصاً، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَباً، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً، قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟ قَالَ: يَقُولُونَ: مِنَ النَّارِ، قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا، قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَاراً، وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً، قَالَ: فَيَقُولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ. قَالَ: يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ المَلَائِكَةِ: فِيهِمْ فُلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ، إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ. قَالَ: هُمُ الجُلَسَاءُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»[(١)].

* إِنَّكَ أَيُّهَا الخَطِيبُ يَجِبُ أَنْ تَتَعَامَلَ مَعَ هَذِهِ الحَقَائِقِ الغَيْبِيَّةِ مُعَامَلَةَ مَنْ كَأَنَّهُ يَرَاهُ.

أَيُّهَا الخَطِيبُ، أَرَأَيْتَ هَذِهِ الجُمُوعَ الزَّاحِفَةَ إِلَيْكَ! اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى قَدْ جَعَلَ عَلَى أَبْوَابِ الطُّرُقِ المُؤَدِّيَةِ إِلَى المَسْجِدِ، وَعَلَى أَبْوَابِ المَسْجِدِ خَاصَّةً فِي هَذَا اليَوْمِ مَلَائِكَةً، تَرْصُدُ هَذَا القُدُومَ الكَرِيمَ إِلَى رَبٍّ كَرِيمٍ حَتَّى يَدْخُلُوا مَسْجِدَكَ، وَلَا تَزَالُ المَلَائِكَةُ عَلَى هَذَا الحَالِ حَتَّى تَصْعَدَ أَنْتَ مِنْبَرَكَ، فَأَيُّ تَكْرِيمٍ لَكَ

(١) متفق عليه. رواه البخاري في صحيحه (٦٤٠٨)، ومسلم (٢٦٨٩).

مِثْلَ هَذَا التَّكْرِيم. . ؟ أيُّ تَكْرِيم مِثْلُ أَنْ يُوقِّتَ اللَّهُ سُبْحانَهُ تَوقُّفَ تَسْجِيلِهِمْ بِصُعُودِكِ. فَلْتَهْنِكَ الخُطْبَةُ أَيُّها الخَطِيبُ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَن اغْتَسَلَ يَوْمَ الجُمُعَة غُسْلَ الْجَنَابَةِ، ثُمَّ رَاحَ فَكَأَنَّما قَرَّب بَدَنَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّب بَقَرَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشاً أَقْرَنَ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّب بَيْضَةً، فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ حَضَرَتِ الملَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ»[1].

فَأَيُّ زِحَامٍ لِلمَلَائِكَةِ فِي مَسْجِدِكَ الجَامِعِ أَيُّها الخَطِيبُ؛ فَمَلائِكَةُ التَّسْجِيلِ عَلَى أَبْوابِ المَسْجِدِ، وَالمَلَائِكَةُ السَّوَّاحُونَ الَّذِينَ يَجُوبُونَ الطُّرُقَاتِ، وَمَلائِكَةُ كُلِّ فَرْدٍ حَاضِرٍ، وَمَلَائِكَةُ المَسْجِدِ، وَمَلَائِكَةٌ لَا يَعْلَمُ بِهِمْ إِلَّا اللَّهُ، كُلُّهُمْ قَدْ دَخَلُوا وَجَلَسُوا وَأَنصَتُوا إِلَيْكَ فَالمَسَاجِدُ مَوَاطِنُ المَلَائِكَةِ.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٨٨١) ومسلم (٨٥٠).

المبحث الثاني
رِباطُ الخَطِيبِ

هَذا وَصْفُ حَالِ الخَطِيبِ أَذْكُرُهُ لمَنْ لَا يَعْرِفُ حَالَهُ. . . ولمَنْ أَحبَّ أَنْ يَعِيشَ نَفْسِيَّتَهُ. . . كَمَا هُوَ مِنْ دَاخِلِهَا. . كَمَا أَذْكُرُهُ لِلْخُطَبَاءِ أَنْفُسِهِمْ؛ لأنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يُدْرِكُونَ حَقِيقَةَ مَقَامِهِمْ، فَيتَهَاوَنُونَ، ورُبَّما يَسْتَهِينُونَ، بَيْنَما الحقِيقَةُ أَنَّهُمْ أَخْيَارٌ ولَا فَخْرَ. . فَلْيَعْرِفِ النَّاسُ حَقِيقَةَ خَطِيبِهِمْ، ولْيَعْرِفِ الخَطِيبُ حَقِيقَةَ نَفْسِهِ. . ذَلِكَ أَنَّهُ مَا مِنْ خَطِيبٍ مُخْلِصٍ يَعْرِفُ نَفْسَهُ. . وَمَا مِنْ سَامِعٍ يَقْبَلُ مَدِيحَ الإنْسَانِ لنَفْسِهِ. . أَمَّا كَوْنُهُ تَزْكِيةً لِي كَخَطِيبٍ فَهَذا عَهْدٌ قَدْ مَضَى وَانْقَضَى. . فَمَا يَنْفَعُ المَدْحُ أَوِ القَدْحُ فِي أَمْرٍ أَصْبَحَ تَارِيخاً جَفَّ حِبْرُهُ وطُوِيَ سِجِلُّهُ، ثُمَّ إنَّنِي أَعْرِفُ بِنَفْسِي مِنْ أَصْحَابِ المَنَامَاتِ، وبَعْدَ هَذَا فإنْ لَمْ أَتحدَّثْ أَنَا اليَوْمَ عَنِ الخُطَبَاءِ وَقَدْ تَرَكْتُ الخَطَابَةَ، فَمَنْ يَتحدَّثُ؟ ومَتَى يَتحَدَّثُ؟ فَاللَّهُمَّ قِنِي شَرَّ نَفْسِي، وشَرَّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، وأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءاً أَوْ أَجُرَّهُ إِلَى مُسْلِمٍ.

تَرَقَّبْ ذَاكَ الطِّفْلَ الصَّغِيرَ ذَا الهَدَفِ الكَبِيرِ المُتطَلِّعَ بِشَغَفٍ وَالمُتَصَوَّرَ بِوُضُوحٍ أَنْ يَرْقَى مِنْ بَيْنِ النَّاسِ هَذَا المَقَامَ، فَيَكُونَ هُوَ هَذَا الخَطِيبَ الكَبِيرَ. . فَلَقَدْ أَثَارَ إِعْجَابَهُ مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ شَيْخٌ كَبِيرٌ

وَخَطِيبٌ نِحْرِيرٌ.. لَا يَخَافُ فِي اللَّهِ لَومَةَ لَائِمٍ... فَسَلَبَ قَلْبَهُ، وَأَسَرَ لُبَّهُ.. وَلَا يَزَالُ يَكْبُرُ فِي قَلْبِهِ الإِعْجَابُ بِهَذَا الخَطِيبِ، حَتَّى بَدَأَ كَالأَسِيرِ يَسِيرُ وَرَاءَهُ.. يُحاكِيهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ.. ثُمَّ بَدَأَ يُظْهِرُ مُحاكَاتَه فِي كَلِمَاتِهِ.. فِي خُطْبَتِهِ.. فِي حَرَكَاتِهِ.. فِي نَبْرَةِ صَوْتِهِ، ثُمَّ بَدَأَ يَحْفَظُ جُملًا مِنْ خُطبِهِ، وَأَخِيراً بَدَأَ يَكْتُبُ بِنَفْسِهِ شَيْئاً قَلِيلًا، لَكِنَّهُ يُحَاوِلُ وَزْنَهُ بِالمَثَاقِيلِ، وَيُؤَدِّي خُطْبَتَهُ تَمْثِيلًا وَمُحاكَاةً... حَقّاً إِنَّهُ يَعِيشُ بَيْنَ أَسْنَانِهِ.. لَكِنْ بِقَلْبٍ ذَاهِبٍ عَنْ أَبْنَاءِ زَمَانِهِ.

سَلْوَتُهُمُ اللَّهْوُ وَاللَّعِبُ، وَسَلْوتُهُ المُحَاضَرَاتُ وَالخُطَبُ.. قُدْوتُهُمُ اللَّاعِبُونَ، وَمَشَاهِيرُ أَهْلِ الإِعْلَامِ، وَقُدْوَتُهُ الخُطَبَاءُ وَالأَئِمَّةُ الأَعْلَامُ..

وَكُلَّما كَبُرَ أَحسَّ بِاقْتِرَابِ تَحقُّقِ حُلْمِهِ بِأَنَّهُ يَكُونُ مِثْلَ ذَاكَ الخَطِيبِ الكَبِيرِ إِذْ هُوَ فِي ثَوْبِهِ القَصِيرِ وَعُمُرِهِ الصَّغِيرِ.

إذاً، فَهُوَ مَأْجُورٌ بِالنِّيَّةِ الَّتِي وُلِدَتْ مَعَهُ فِي صِباهُ، وَثَبَتَتْ مَعَ سِنِّ التَّكْلِيفِ عِنْدَهُ، مَأْجُورٌ بِرِعَايَتِهِ نِيَّتَهُ... مَأْجُورٌ بِتَطلُّعِهِ وَتَنْمِيَةِ مَوْهِبَتِهِ مَا دَامَ يَرْقَى بِالعُمُرِ حَتَّى يَرْقَى مِنْبَرَهُ..

هَذِه هِيَ الحَقِيقَةُ الَّتِي يَطْوِيهَا عُمُومُ الخُطَبَاءِ، فَلَا يَذْكُرُونَها لِعَدَمِ سُؤَالِ النَّاسِ عَنْهَا، وَلأَنَّ الإِعْلَامَ غَيْرُ مُسلَّطٍ عَلَيْهِمْ، إِنَّما عَلَى أَعْدَائِهِمْ.

حَتَّى يَبْتَدِئَ بِخُطْبَةِ الجُمُعَةِ، **فَإِذَا عَلَا المِنْبَرِ ارْتَعَدَتْ أَرْكَانُهُ** وَاهْتَزَّ كِيَانُهُ وَهُوَ يُؤَدِّي أَوَّلَ خُطْبَةٍ لَهُ أَمَامَ الجُمُوعِ، وَلَرُبَّما اسْتَمَرَّتْ مَعَهُ الرِّعْدَةُ خُطْبَةً أَوْ خُطْبَتَيْنِ وَأَحْيَاناً أَكْثَرَ.. **وَهُنَا تَهْجِمُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ مِنْ كُلِّ** جِهَةٍ حَتَّى يَشُكَّ شَكّاً قَوِيّاً بِإِخْلَاصِهِ؛ لِأَنَّها تُرِيدُ وَأْدَ هَذَا العَدُوِّ الغَالِبِ - بِإِذْنِ اللَّهِ - إِنْ كَبِرَ، وَأَنَّهُ سَوْفَ يُصْلِحُ مَا يُفْسِدُهُ الشَّيَاطِينُ، وَأَنَّهُ سَوْفَ يُنْقِذُ النَّاسَ إِنْ هُمْ وَقَعُوا فِي المَعْصِيَةِ، وَيَرُدُّهُمْ إِلَى اللَّهِ، وَيَفْتَحُ بَابَ الأَمَلِ، وَيُزِيلُ القُنُوطَ الَّذِي يُثِيرُهُ الشَّيْطَانُ فِي نُفُوسِهِمْ؛ لأَنَّهُ سَوْفَ يُخَوِّفُ مَنْ يَحْتَاجُ إِلَى تَخْوِيفٍ مِنْهُمْ، فَهُوَ المُصْلِحُ لِمَا يُفْسِدُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الإِيمَانِ، وَهُوَ الحَافِظُ وَصِمَامُ الأَمَانِ لِأَهْلِ الإِسْلَامِ، وَهُوَ الحَارِسُ لِحِصْنِ الإِسْلَامِ فِي بَلْدَتِهِ..؛ لِذَا فَإِنَّ هُجُومَ الشَّيْطَانِ - نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْهُ - عَلَى هَذَا وَأَمْثَالِهِ لَيْسَ كَهُجُومِهِ عَلَى عَامَّةِ التَّائِبِينَ وَعَامَّةِ المُسْلِمِينَ؛ فَلَا تَسْتَوِي جُمُوعُ العَامَّةِ مَعَ إِمَامِ الجُمُوعِ وَقَائِدِ الطَّائِعِينَ فِي عِدَاءِ الشَّيَاطِينِ لِتَحْقِيقِ شُكْرِ رَبِّ العَالَمِينَ.

وَإِنَّهُ لَصِرَاعٌ كَبِيرٌ يَعِيشُهُ الخَطِيبُ المُخْلِصُ دَاخِلَ نَفْسِهِ؛ أَيَسْتَمِرُّ أَمْ يَتْرُكُ؟ فَإِذَا مَا ارْتَبَكَ أَمَامَ الجُمُوعِ كَانَ كَالمُتَسَابِقِ جَرْياً عَلَى رِجْلِهِ إِذَا تَعَثَّرَ بَيْنَ المُتَسَابِقِينَ، فَإِذَا مَا تَعَثَّرَ ثَانِيَةً وَثَالِثَةً كَانَ ذَلِكَ بِمَثَابَةِ القُنُوطِ مِنَ الفَوْزِ، بَلْ بِمَثَابَةِ الأَمْرِ بِالخُرُوجِ مِنَ السِّبَاقِ مُنْسَلّاً لِوَاذاً، أَوْ مُعْلِناً انْسِحَابَهُ، أَوْ سَاقِطاً فِي المَيْدَانِ عَلَى وَجْهِهِ.

أَلَيْسَتْ هَذِهِ مُجَاهَدَةً غَيْرَ مَكْشُوفَةٍ لَا يُشَاهِدُ النَّاسُ أَيَّ فَصْلٍ مِنْ فُصُولِهَا الدَّاخِلِيَّةِ؟ لِذَا كَانَ قَرَارُهُ الخَطِيرُ فِي الاسْتِمْرَارِ إِنَّما هُوَ قَرَارُ مُوَاصَلَةِ جِهَادِ الشَّيْطَانِ وَمُجَاهَدَةِ النَّفْسِ الخَوَّانَةِ.

وَيَسْتَمِرُّ الخَطِيبُ فِي حِرَاسَةِ نَفْسِهِ لِأَجْلِ خُطْبَتِهِ... تَرَاهُ يَتَّقِي المَاءَ البَارِدَ وَيحْرِمُ نَفْسَهُ أَكْلَ المُبرَّدَاتِ الحُلْوَةِ اللَّذِيذَةِ خَوْفاً أَنْ يَذْهَبَ صَوْتُهُ فَلَا تَبْلُغَ كَلِمَةُ الحَقِّ النَّاسَ، وَتَرَاهُ يَتْرُكُ التَّلَذُّذَ بِالأَكْلِ الحَارِّ ذَوْقاً وَهُوَ يَشْتَهِيهِ خَوْفاً عَلَى صَوْتِهِ، وَتراهُ يَتَّقِي أَنْ يُصِيبَهُ الهَوَاءُ البَارِدُ فِي وَجْهِهِ حِمَايَةً لِصَوْتِهِ مِنَ الذَّهَابِ.

وَتَأْتِي أَحْدَاثٌ صِعَابٌ فَلَا يَقَعُ فِي الاخْتِبَارِ إِلَّا الخَطِيبُ، كُلُّ النَّاسِ يَتحَدَّثُونَ فِي بُيُوتِهِمْ، وَفِي مَجالِسِهِمْ، وَفِي أَمَاكِنِ عَمَلِهِمْ! كُلُّ النَّاسِ يُسِرُّ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ بِهَذَا الحَدِيثِ النَّاقِدِ أَوْ ذَاكَ النَّقْدِ النَّاقِمِ إِلَّا هُوَ، فَإِنَّهُ يَتحَدَّثُ عَلَانِيَةً عَلَى المَلأ، وَالنَّاسُ يَسْتَمِعُونَ، وَبَعْضُهمْ يَخَافُ الحُضُورَ عِنْدَ صَاحِبِ كَلِمَةِ الحَقِّ مَعَ أَنَّهُ مُجرَّدُ مُسْتَمِعٍ مِنَ المُسْتَمِعينَ!

إِنَّ هَذَا الحَدِيثَ هُوَ مَا سَمِعَهُ النَّاسُ يَوْمَ الجُمُعَةِ عَنْ فِلَسْطِينَ مَثَلًا، أَوْ عَنِ احْتِلالٍ لِبَعْضِ دِيَارِ الإِسْلَامِ وَنُزُولِ جُيُوشِهِم فِيهَا، أَوْ عَنْ شِرْكِ التَّشْرِيعِ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، أَوْ عَنْ أَمْرٍ ظَاهِرٍ وَقَعَتْ فِيهِ السُّلْطَةُ، لَكِنَّ الحَقِيقَةَ الَّتِي حَدَثَتْ وَرَاءَ هَذَا الَّذِي ظَهَرَ هُوَ صِرَاعٌ

دَاخِليٌّ فِي نَفْسِ الخَطِيبِ.. صِرَاعٌ طَرَفُهُ مَحبَّةُ الأَوْلَادِ وَالزَّوْجَةِ، وَالأَمْنِ، وَدَاعِي الحَيَاةِ وَالأَمَانِ وَالسَّلَامَةِ، وَطَرَفُهُ الآخَرُ مُنَادٍ يُنَادِي فِي نَفْسِهِ بِكُلِّ قُوَّةٍ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

فَالنَّاسُ يَتحدَّثُونَ فِي إِنْكَارِ المُنْكَرِ مِنْ مَنْطِقِ النِّقْمَةِ، أَوِ الغَيْرَةِ، أَوِ الفَضْلِ وَالشَّجَاعَةِ، وَلَكِنَّهُ يَتحدَّثُ مِنْ مَنْطِقِ الفَرْضِيَّةِ الَّتِي افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِحُكْمِ مَا وَلَّاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ.

النَّاسُ يَتَحَدَّثونَ فِي مَجَالِسِهِمْ بِنَفْسِ هَذَا الحَدِيثِ، ورُبَّما يُسِرُّونَ بِهِ وَيُخَافِتُونَ، وَلَكِنَّهُ يَجْهَرُ بِهَذَا الحَدِيثِ لَيسَ مُسْتَعْرِضاً شَجَاعَتَهُ، إِنَّما مُعَرِّضاً نَفْسَهُ لِلخطَرِ؛ لأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ رُبَّما كَانَ لِهَذَا الحَدِيثِ تَبِعَاتٌ مَرِيرَةٌ.

إِنَّهُ يُمَارِسُ إِيْثَارَ مَرْضَاةِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِهِ ﷺ، إِنَّهُ يَعِيشُ فِي دَاخِلِهِ أَحْيَاناً وَلأَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ مَشَاعِرَ: «رَجُلٌ قَامَ إِلَى إمامٍ جَائِرٍ، فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ، فَقَتَلَهُ»[1]، قَبْلَ أَنْ يَقُولَ الكَلِمَةَ فَلَا يَسَعُهُ إِلَّا أَنْ يَقُولَهَا.

(١) رواه الحاكم في مستدركه (٤٨٨٤) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وصححه السيوطي في صحيح الجامع (٤٧٤٧)، والألباني في السلسلة الصحيحة (٣٧٤).

أَرَأَيْتَ مَنْ يَرْوِي قِصَّةَ صِرَاعٍ رَهِيبٍ فِي التَّارِيخِ، وَيُحَاوِلُ تَقْرِيبَ الوَاقِعِ مَا اسْتَطَاعَ، كَمْ يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَاكَ الَّذِي عَاشَ فِي أَتُونِ الصِّرَاعِ، كَذَاكَ هُوَ الفَارِقُ بَيْنَ صِرَاعِ الخَطِيبِ فِي دَاخِلِهِ وَبَيْنَ مَنْ يُحَاوِلُ أَنْ يَتَصَوَّرَ نَفْسِيَّةَ الخَطِيبِ مِنْ خَارِجِهِ، إِنَّهُ الفَارِقُ مَا بَيْنَ مَنْ يَأْخُذُ القِصَّةَ التَّارِيخِيَّةَ المُؤْلِمَةَ قِصَّةً لِلتَّسْلِيَةِ أَوْ قِصَّةً مِنْ غَيْرِ مُعَايَشَةٍ، وَبَيْنَ مَنْ عَاشَهَا آنَذَاكَ؛ إِنَّهُ فَارِقٌ لَا يُتَصَوَّرُ..! كَذَاكَ الفَارِقُ بَيْنَ نُفُوسِ عَامَّةِ مَنْ لَا يَعِيشُونَ نَفْسِيَّةَ الخَطِيبِ وَبَيْنَ حَقِيقَةِ خَطِيبِهِمُ الدَّاخِلِيَّةِ.

إِنَّ هَذَا الخَوْفَ الَّذِي يَشْتَعِلُ فِي قَلْبِهِ مِنْ عَاقِبَةِ كَلِمَتِهِ الَّتِي يُرِيدُ أَنْ يُلْقِيهَا، فَلْيُلْقِهَا مُتوكِّلًا مُحْتَسِباً، ثُمَّ الخَوْفُ مِنْ عَاقِبَةِ كَلِمَتِهِ بَعْدَ مَا يُلْقِيهَا لَهُوَ أَمْرٌ عَظِيمٌ يَغْفُلُ أَكْثَرُ النَّاسِ عَنْ أَجْرِهِ، بَلْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْرِفُونَ لَهُ أَجْراً، وَقَدْ وَرَدَ فِي الحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ أُمِّ مَالِكٍ البَهْزِيَّةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِتْنَةً، فَقَرَّبَهَا. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ خَيْرُ النَّاسِ فِيهَا؟ قَالَ: «الرَّجُلُ فِي مَاشِيَةٍ يُؤَدِّي حَقَّهَا، وَيَعْبُدُ رَبَّهُ، وَرَجُلٌ آخِذٌ بِرَأْسِ فَرَسِهِ يُخِيفُ العَدُوَّ وَيُخِيفُونَهُ»[1].

(١) رواه الترمذي في سننه (٢١٧٧)، وصححه الألباني.

وروى ابْنُ أَبِي شَيْبَة عَنْ سَلْمَانَ الفَارِسِيِّ ﵁ : «إِذَا كَانَ الرَّجُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُرْعِدَ قَلْبُهُ مِنَ الخَوْفِ، تَحَتَّتْ خَطَايَاهُ، كَمَا يَتحتُّ عِذْقُ النَّخْلَةِ».. فَإِذَا كَانَ المُجَاهِدُ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ أَبْعَدَ مَا يَكُونُ عَنِ الخَوْفِ يُؤْجَرُ هَذَا الأَجْرَ، فَحرِيٌّ بِالخَطِيبِ أَنْ يُؤْجَرَ هَذَا الأَجْرَ كَذَلِكَ.. فَكِلَاهُمَا يَنْتَابُهُ الخَوْفُ، لَكِنَّهُمَا يُغَالِبَانِهِ وَيَثْبُتَانِ عَلَى الحقِّ.

لَا بَأْسَ بِهَذَا الخَوْفِ، إِنَّهُ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ بِحُكْمِ الطَّبِيعَةِ البَشَرِيَّةِ، لَكِنَّ المُجَاهَدَةَ الدَّاخِلِيَّةَ وَالمُغَالَبَةَ انْتَهتْ بِالانْتِصَارِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ، كَمَا هُوَ الشَّأْنُ فِيمَنِ امْتَدحَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة:١٦].

إِنَّهُ مَا انْتَصَرَ عَلَى التَّخَوُّفاتِ البَشَرِيَّةِ إِلَّا بِإِعَانَةِ اللَّهِ لَهُ سُبْحانَهُ... بِغَلَبَةِ التَّوكُّلِ عَلَى اللَّهِ عَلَى تَخْوِيفِ الشَّيْطَانِ أَوْلِيَاءَهُ... بِالرِّضَا بِمَا قَسَمَ اللَّهُ تَعالَى لَهُ أَيّاً كَانَ مَا دَامَ ذَلِكَ فِي ذَاتِهِ سُبْحانَهُ كَمَا قَالَ مِنْ قَبْلُ خُبَيْبٌ:

وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِماً ... عَلَى أَيِّ شِقٍّ كَانَ فِي اللَّهِ مَصْرَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ ... يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

إِنَّهُ لَا يَشْعُرُ بِفَضْلٍ وَلَا مَنٍّ، فَالمنَّةُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، إِنَّما هُوَ يَرْجُو أَنْ

يَقْبَلَ اللَّهُ مِنْهُ كَلِمَتَهُ، وَأَخْوَفُ مَا يَخَافُهُ إِنْ سَكَتَ أَنْ يُحَاسِبَهُ اللَّهُ عَلَى اسْتِغْفَالِ كُلِّ هَؤُلَاءِ، بَلْ تَضْلِيلِهِمْ؛ لأَنَّ قَاعِدَةَ النَّاسِ أَنَّهُ لَوْ كَانَ هَذَا الأَمْرُ بَاطِلًا لأَنْكَرَهُ خَطِيبُ الجُمُعَةِ، وَلَوْ كَانَ حقّاً لَصَرَّحَ بِهِ.. فَبِمَا أَنَّهُ لَمْ يَتَحَدَّثْ بِهِ فَإِنَّ الأَمْرَ لَا يُخَالِفُ الدِّينَ!

فَكَمْ لِهَذَا الخَطِيبِ الصَّادِقِ فِي هَذَا المَوْقِفِ الصَّعْبِ مِنْ إِرْثٍ مِنْ قَوْلِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وَكَمْ لَهُ مِنْ إِرْثٍ مِنْ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَعَهْدِ النُّقَبَاءِ: «بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي العُسْرِ وَاليُسْرِ، وَالمَنْشَطِ وَالمَكْرَهِ، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ، وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالحَقِّ حَيْثُ كُنَّا»(١).

وَلَهُ وَافِرُ الدِّينِ مِنْ قَوْلِهِ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «لِلَّهِ

(١) رواه النسائي (٤١٥٢) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وأصله في الصحيحين. رواه البخاري (٧١٩٩)، ومسلم(١٨٤٠).

وَلِكتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»[(١)] .

إِنَّهُ الرَّائِدُ، وَالرَّائِدُ لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ.

إِنَّهُ وَرِيثُ أَفْضَلِ المُنَادِينَ عَلَى مَرِّ التَّارِيخِ الصَّائِحِينَ الصَّادِحِينَ: ﴿يَا قَوْمِ.. يَا قَوْمِ..﴾. وَهُمُ الأَنْبِيَاءُ عليهم السلام، إِنَّهُ وَرِيثُهُمْ لِأَنَّهُ يَقُولُ كَلِمَةَ الحَقِّ، وَلَا يَسْأَلُهُمْ عَلَى كَلِمَةِ الحَقِّ أَجْراً، بَلْ هُوَ يَخَافُ عِقَاباً حَتَّى لَوْ أَخَذَ بَعْضُهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَجْراً.

إِنَّ إِدْرَاكَ مُنْتَهَى آفَاقِ شَرَفِ الخَطِيبِ السَّامِي يَصْعُبُ؛ لأَنَّهُ - واللَّهِ - فَوْقَ الحَصْرِ، فَلْيَهْنَأ الخُطَبَاءُ الصَّادِقُونَ الصَّادِحُونَ بِهَذَا الإِرْثِ، وَلْيَتَنَازَعِ النَّاسُ الفُتَاتَ بَعْدَ ذَلِكَ.

الخِلَافُ فِي أَنَّهُ يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ أَجْراً أَوْ لَا يَأْخُذُهُ، إِنَّمَا الَّذِي لَا خِلَافَ فِيهِ هُوَ أَنَّهُ إِنْ أَخَذَ أَجْراً أَوْ لَمْ يَأْخُذْه، فَإِنَّ كَلِمَةَ الحَقِّ تَلْزَمُهُ بِكُلِّ حَالٍ، وَإِنَّ أَجْرَهُ لَيْسَ مُقَابِلَ كَلِمَةِ الحَقِّ.

يَمْشِي الخَطِيبُ بَيْنَ النَّاسِ كَأَيِّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ، يَقُومُ مَعَهُمْ إِنْ قَامُوا، وَيَقْعُدُ إِنْ قَعَدُوا، يُخَالِطُهُمْ مَجَالِسَهُمْ، وَيُشَارِكُهُمْ حَيَاتَهُمْ، لَا يَتَمَيَّزُ عَنْهُمْ بِشَيءٍ، وَلَا يُمَيِّزُونَهُ هُمْ بِشَيءٍ خُصُوصاً فِي هَذِهِ الأَعْصُرِ

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٥٥) من حديث تميم الداري رضي الله عنه .

الَّتِي قَلَّ تَبْجِيلُ النَّاسِ لِأَهْلِ العِلْمِ فِيهَا، وَالخَطِيبُ المُخْلِصُ أَسْعَدُ النَّاسِ لِهذَا الإِهْمَالِ لَهُ كَشَخْصٍ؛ لأَنَّهُ مَزِيدُ ادِّخارِ أَجْرٍ لَهُ لليَوْمِ الطَّوِيلِ، وَهُوَ يَخْشَى أَنْ يَكُونَ مَزِيدُ إِجْلَالِ النَّاسِ لَهُ إِنْفَاقاً مِنْ رَصِيدِهِ، فَيَكُونَ مِمَّنْ أَصَابَهُ مَا أَصَابَهُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

لَكِنَّ ذَاكَ الخَطِيبَ وَهُوَ إِذْ هُوَ مَعَ النَّاسِ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ وَبَيْنَهُمْ يَبْقَى مُحلِّقاً فَوْقَ الأَرْضِ يَنْظُرُ إِلَيْهَا كَمَا يَنْظُرُ لَهَا الصَّقْرُ المُحَلِّقُ فَوْقَ رُؤوسِ الجِبَالِ، يَبْحَثُ عَنْ صَيْدِهِ فِي أَحْوَالِ النَّاسِ، وَيَرْقُبُ مَا تَنْطِقُ بِهِ أَفْوَاهُهُمْ عَنْ مَوَاضِيعَ يَطِيرُ بِهَا لِجُمْعَتِهِ كَيْ يُعَلِّمَهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ، هَذَا هُوَ دَأْبُهُ وَهَمُّهُ، فَإِذَا وَجَدَ شَيْئاً انْقَضَّ عَلَيْهِ وَأَخَذَهُ وَطَارَ بِهِ، مُسْلماً صَيْدَهُ إِلَى مَصْنَعِ عَقْلِهِ لِيَعجِنَهُ، وَيُسْلِمَهُ بَعْدَهَا إِلَى مَوْقِدِ قَلْبِهِ لِيُنْضِجَهُ، ثُمَّ يُطَيِّبَهُ، وَيُسْلِمَهُ إِلَى قَلَمِهِ وَلِسَانِهِ لِيُخْرِجَهُ بِأَحْسَنِ صِيَاغَةٍ... فَيَعْرِضَ كُلَّ ذَلِكَ بِأُسْلُوبٍ يَقْبَلُهُ النَّاسُ وَلَا يُنْكِرُونَهُ، فَمَرَّةً بِطَرْقِ هَذَا البَابِ، وَأُخْرَى ذَاكَ، وَمَرَّةً من هَذَا المَدْخَلِ وَأُخْرَى ذَاكَ؛ عَلَّهُ يَصِلُ إِلَى قَبُولِهِمْ لِلنَّصِيحَةِ، وَهُوَ لَا يَرْجُو بِذَلِكَ إِلَّا وَجْهَ رَبِّهِ الأَعْلَى، وَلَسَوْفَ يَرْضَى - بِإِذْنِ اللَّهِ -.

فَهُنَا يُعلِّمُهُم مَا نَقَصَ مِنْ أُمُورِ دِينِهِمْ، وَهُنَا يُسَدِّدُ وَيُقَارِبُ، وَهُنَا

يَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابَ الخَيْرِ، هُنَا يَدُلُّهُمْ عَلَى مَشَارِيعِ الصَّدَقَاتِ الجَارِيَةِ، وَهُنَا يُغْلِقُ أَبْوَابَ السَّيِّئَاتِ الجَارِيَةِ..

أَهَذَا قَلِيلٌ؟ أَرَأَيْتَ كَيْفَ سَخَّرَ حَيَاتَهُ لِذَلِكَ؟!

وَاللَّهِ، إِنِّي لأَحْسَبُ أَنَّ أَجْرَهُ لَا يُمْكِنُ حَصْرُهُ؛ لأَنَّهُ لَا يَأْتِي مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ، بَلْ مِنْ جِهَاتٍ لَا حَصْرَ لَها، وَهُوَ لَهُ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ نَصِيبٌ.

يُسَجِّلُ مَوْضُوعَ الخُطْبَةِ وَكَأَنَّهُ يَلْتَقِطُهُ الْتِقَاطاً، وَإِنَّمَا يُهدَى لَهُ هِدَايَةً، فَيَبْدَأُ بِالبَحْثِ بَيْنَ الكُتبِ عَنْ مَادَّتِهِ وَأَدِلَّتِهِ وَمَنْ سَبَقَهُ إِلَيْهِ كَالأُمِّ تُعِدُّ أَحْسَنَ طَبَقٍ لِأَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْهَا: زَوْجِهَا وَأَوْلَادِهَا، هَكَذَا هُوَ حَالُ الخَطِيبِ مَعَ حُضُورِهِ المُؤْمِنِينَ، فَأَيُّ أَجْرٍ لَهُ فِي بَحْثِهِ هَذَا.

فَيَبْدَأُ يَلْتَقِطُ لَهَا الكَلِمَاتِ الْتِقَاطاً، وَيُحسِنُ صِنَاعَةَ قَالَبِهَا وَيُحْكِمُهُ، وَيُدَقِّقُ فِي نَقْشِهَا وَزَخْرَفَتِهَا، وَيُحْسِنُ حَبْكَهَا وَهَنْدَسَتَهَا، ثُمَّ يُبْهِرُ فِي تَقْدِيمِهَا.. كُلُّ ذَلِكَ كَيْ يَتَقَبَّلَهَا النَّاسُ بِقَبُولٍ حَسَنٍ.. لَا يُرِيدُ بِذَلِكَ إِلَّا هَذَا الدِّينَ العَظِيمَ، أَلَمْ يَنْتَقِ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الكَلِمَاتِ انْتِقَاءً مُتقصِّداً كَيْ يَتقبَّلَ النَّاسُ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خَلِيفَةً لَمَّا اجْتَمَعُوا فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ.. حَتَّى قَالَ: «..وَاللَّهِ، مَا تَرَكَ مِنْ كَلِمَةٍ أَعْجَبَتْنِي فِي تَزْوِيرِي إِلَّا قَالَ فِي بَدِيهَتِهِ مِثْلَهَا، أَوْ أَفْضَلَ

مِنْهَا حَتَّى سَكَتَ . . »[١] .

أَيُّهَا النَّاظِرُونَ إِلَى خَطِيبِكُمْ وَهُوَ عَلَى مِنْبَرِهِ، أَوْ فِي بَيْتِهِ، وَفِي أَيِّ مَكَانٍ كَانَ، إِنَّه يَذْهَبُ يُؤَنِّبُ نَفْسَهُ بِمَا يَحْسُدُهُ البَعْضُ عَلَيْهِ حِينَ يَظُنُّ البَعْضُ أَنَّهُ يَرَى لِنَفْسِهِ رِفْعَةً عَلَيْهِمْ!

وَلَوْ عَلِمُوا أَيَّ حَيَاءٍ خَالَطَ قَلْبَ خَطِيبِهِمْ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لَهوَّنُوا عَلَيْهِ، وَخَفَّفُوا عَنْهُ!

كَمْ مَرَّةٍ يَغِيبُ عَنْهُمْ وَهُوَ بَيْنَهُمْ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ مُخَاطِباً رَبَّهُ:

يَا رَبِّ! هَذِهِ نِعْمَةٌ لَا أَرَى لِنَفْسِي حَقّاً بِهَا لَوْلَا أَنَّك رَفَعْتَنِي لَها .

يَا رَبِّ! إِنِّي لأَعْتَقِدُ جَازِماً أَنَّ فِي هَؤُلَاءِ المُسْلِمِينَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي وَأَفْضَلُ، وَلَكِنَّهُ الابْتِلَاءُ لِي مِنْ بَيْنَ كُلِّ هَؤُلَاءِ .

يَا رَبِّ! أَخْشَى أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الرِّفْعَةُ نِعْمَةً لَا أؤدِّي شُكْرَهَا وَسُرْعَانَ مَا تُسْلَبُ . . أَخْشَى أَنْ يَكُونَ هَذَا ابْتِلَاءً سُرْعَانَ مَا يفْتَضَح . . أَخْشَى أَنْ يَكُونَ هَذَا اسْتِدْرَاجاً سُرْعَانَ مَا أَقَعُ فِيهِ!

يَا رَبِّ! هَذَا هُتَافُ القَلْبِ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سُبْحَانَكَ، رَبِّي أَدْرِكْنِي وَلَا

---

(١) جزء من حديث طويل رواه البخاري (٦٨٣٠) من حديث عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .

تَتْرُكْنِي، رَبِّي إِلَيْكَ لَجَأْتُ، وَإِلَى رُكْنِكَ العَظِيمِ أَوَيْتُ، فَلَا تُسْلِمْنِي إِلَى نَفْسِي، وَلَا إِلَى الشَّيْطَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِمَا.

يَا رَبِّ! هَا قَدْ جِئْتُ تَحْمِلُنِي قَدَمَاي إِلَى المِنْبَرِ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ وَيَنْتَظِرُونَ مَاذَا أَقُولُ، فَلَا تَجْعَلَنَّ قَلْبِي يَنْشَغِلُ بِهَؤُلَاءِ الحُضُورِ عَنْكَ إِذْ تَتَقَلَّبُ فِيهِمْ عَيْنَايَ.

يَا رَبِّ! لَا تَجْعَلْ هَمِّي يَذْهَبُ إِلَى هَؤُلَاءِ الكِبَارِ أَوْ هَؤُلَاءِ الصِّغَارِ.. إِلَى هَذِهِ الطَّبَقَةِ الغَنِيَّةِ أَوْ تِلْكَ الطَّبَقَةِ الوَجِيهَةِ... إِلَى هَؤُلَاءِ الأَقْوِيَاءِ أَوْ أُولَئِكَ الكُرَمَاءِ..!

يَا رَبِّ! اجْمَعْ هَمِّي عَلَيْكَ وَحْدَكَ، فَلَا يَكُنْ فِي قَلْبِي عَظِيمٌ سِوَاكَ سُبْحَانَكَ..

يَا رَبِّ! لَا تَجْعَلْ لِسَانِي يَغْتَرِفُ إِلَّا مِنْ قَلْبِي ومَعِينِ إِخْلَاصِي.. وَلَا يَكُونُ حَظُّهُ مِنَ الخُطْبَةِ مِنْ حُفْرَةِ العَقْلِ وَالجُهْدِ، وَمَا اسْتَحْضَرَتْهُ الذَّاكِرَةُ مِنْ مَخْزُونِ اللُّغَةِ وَرَصِيدِهَا..

يَا رَبِّ! لَا أَمْلِكُ فِي الوَقْتِ العَادِيِّ قَلْبِي وَأَنَا مُنْفَرِدٌ، فَكَيْفَ أَمْلِكُهُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ الحُضُورِ الكَثِيرِ وَالْكُلُّ يَنْتَظِرُ كَلِمَاتِي.. يَا رَبِّ! احْرُسْنِي.

يَا رَبِّ! اهْدِ قَلْبِي وثَبِّت لِسَانِي.. يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّت قَلْبِي عَلَى دِينِكَ، يَا مُصَرِّفَ القُلُوبِ صَرِّفْ قَلْبِي عَلَى طَاعَتِكَ..

يَا رَبِّ! أَرَدْتُ هَذَا الفَتْحَ مِنْكَ وَحْدَكَ...، لِأَرْفَعَ بِهِ ذِكْرَكَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، وَمَا أَرَدْتُ بِهِ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلَا فَسَاداً.

يَا رَبِّ! كَمَا أَرَادَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِعَانَتَهُ بِإِرْسَالِ أَخِيهِ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَهُ فَاسْتَجَبْتَ لَهُ، فَاسْتَجِبْ لِي يَا رَبِّ، فَأَعِنِّي بِكَ وَأَغْنِنِي بِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ، فَإِنَّ غَايَتِي فِي هَؤُلَاءِ الحُضُورِ الكِرَامِ هِيَ كَغَايَةِ نَبِيِّكَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه: ٣٣ - ٣٥].

يَا رَبِّ! اجْعَلْ كَلِمَاتِي تَأْخُذُ بِالقُلُوبِ الشَّارِدَةِ... فَتُعِيدُهَا إِلَيْكَ آيِبَةً... وَبَيْنَ يَدَيْكَ سَاجِدَةً، فَإِذَا وَقَعَ ذَلِكَ فَكَفَانِي ذَلِكَ مُكَافَأَةً وَمَثُوبَةً فِي هَذِهِ الحَيَاةِ.. لَا أُرِيدُ إِلَّا أَنْ يَعْبُدُوكَ وَحْدَكَ لَا يُشْرِكُونَ بِكَ شَيْئاً.

يَا رَبِّ! فِي هَذَا المَسْجِدِ مِنَ الخَيْرِ الكَثِيرِ، فَيَا رَبِّ افْتَحْ لَهُمْ مِنْ أَبْوَابِ الخَيْرِ وَمَشَارِيعِهِ مَا لَا يَعْلَمُونَهُ الآنَ، حَتَّى يُحْيُوا بَلَدَنَا وَأُمَّتَنَا بِإِذْنِكَ، يَا رَبِّ، وَأَغْلِقْ بِكَلِمَاتِي مِنْ أَبْوَابِ الشَّرِّ عَلَى أُمَّتِنَا مَا لَا يَعْلَمُهُ سِوَاكَ، يَا رَبِّ، أَدْعُوكَ وَأَنَا لَسْتُ أَهْلًا وَكُفْئاً إِلَّا بِفَضْلِكَ، فَحَقِّقْ لِي ذَلِكَ، وَارْفَعْنِي وَاجْعَلْنِي لِذَلِكَ أَهْلًا.. يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ.

يَا رَبِّ! وَمَنْ غَلَبَتْهُ الجَهَالَةُ وَلَمْ يَسْتَجِبْ مِنْ إِخْوَانِي المُسْلِمِينَ

هَؤُلَاءِ، وَحقَّ عَلَيْهِ العَذَابُ. . أَسْأَلُكَ يَا رَبِّ أَنْ تُمكِّنَنِي يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ الشَّفَاعَةِ لَهُمْ وَإِنْ كَثُرُوا. . . وَالحَيْلُولَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ العَذَابِ وَإِنْ هُمْ إِلَى النَّارِ سَبَقُوا. . . وَإِنْقَاذِهِمْ مِنَ النَّارِ وَإِنْ أُحْرِقُوا.

يَا رَبِّ! غَايَةُ مُنَايَ أَنْ أَبْلغَ بِهَؤُلَاءِ مِنْزِلَةَ الإِحْسَانِ، فَيَعْبُدُوكَ كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَكَ سُبْحَانَكَ. . يَتَّبِعُونَ رَسُولَكَ ﷺ اتِّبَاعَ مَنْ كَأَنَّهُ يَرَاهُ. . يَخَافُونَ الآخِرَةَ مَخَافَةَ مَنْ كَأَنَّهُ شَاهَدَهَا. . يُوقِنُونَ بِالجَنَّةِ وَيَعْمَلُونَ لَهَا عَمَلَ مَنْ كَأَنَّهُ رَآهَا، عَمَلَ مَنْ دَخَلَهَا وَخَرَجَ، فَأَصرَّ عَلَى أَنْ يَعُودَ، فَهُوَ لَا يَزَالُ أَبَداً يُقَارِنُ بَيْنَ مَا رَآهُ فِيهَا وَمَا يَرَاهُ فِي الدُّنْيَا أَوْ بَيْنَ مَا جَاءَ بِهِ الوَحْيُ مِنْ وَصْفِهَا وَمَا يَرَاهُ فِي الدُّنْيَا!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

المبحث الثالث
أيها الخطيب! اتق اللَّه

أَحَقُّ مَنْ يُقَالُ لَهُ: اتَّقِ اللَّهَ؛ هُوَ أَنْتَ أَيُّها الخَطِيبُ.. أَتَدْرِي لِمَاذَا؟ **لأَنَّكَ وَرِيثُ** رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي مِنْبَرِه، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحانَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: ١]، **وَلأَنَّكَ أَكْثَرُ مَنْ يُوجِّه هَذِهِ** الكَلِمَةَ للنَّاسِ، فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ أَكْثَرَ مَنْ يَعْرِفُ مَعَانِيها، وَأَوَّلَ مَنْ يُقدِّر ثِقَلها.. وَلأَنَّكَ أَكْثَرُ مَنْ يَأْمُرُ وَيَنْهَى، وَأَكْثَرُ مَنْ يَظْهَرُ مِنْهُ الخَيْرُ عَلَى مَظْهَرِهِ، فكنتَ أَحقَّ أَنْ تَتَّقِي اللَّهَ حَقِيقةً.

وَأَنَا لَا أَقُولُ لَكَ: «اتَّقِ اللَّهَ» بِشَكْلٍ مُجمَلٍ وَعَامٍّ فَحَسْبُ، بَلْ أَقُولُها لَكَ بِشَكْلٍ مُحدَّدٍ كَخَطِيبٍ، وَفِي نِقَاطٍ مُحَدَّدَةٍ، وَهِيَ مَا يَلِي:

الأُولَى: أَيُّها الخَطِيبُ! اتَّقِ اللَّهَ فِي إِخْلَاصِكَ: أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ إِمَاماً تَرَكَ الطَّهَارَةَ مُتعَمِّداً، وَصَلَّى بِالنَّاسِ مِنْ غَيْرِ طَهَارَةٍ، أَلَا يَتحَمَّلُ أَوْزَارَ كلِّ مَنْ صلَّى خَلْفَهُ؛ ذَلِكَ أَنَّ الطَّهارة شَرْطٌ ظَاهِرٌ مِنْ شُرُوطِ الصَّلَاةِ... **فَالإِخْلَاصُ شَرْطٌ لِقَبُولِ الخُطْبَةِ** عِنْدَ اللَّهِ سُبْحانَهُ، وَشَرْطٌ لِقَبُولِ الصَّلَاةِ، وَشَرْطٌ لِقَبُولِ كُلِّ عِبادةٍ.. فَإِيَّاكَ أَنْ يَكُونَ

دَافِعُكَ الرِّيَاءَ وَمَحبَّةَ مَدْحِ النَّاسِ، وَالفَرَحَ وَالسُّرورَ بِذَلِكَ. .

فَيَا أَيُّها الخَطِيبُ: إِذَا قَلَّبْتَ النَّظَرَ فِي الحُضُورِ وَأَنْتَ عَلَى مِنْبَرِكَ، وَرَأَيْتَ شَدَّ الوُجُوهِ إِلَيْكَ وَأَنْتَ فِي خُطْبَتِكَ، وَأَخَذَتْ تِلْكَ الوُجُوهُ بِقَلْبِكَ فَتذَكَّرْ أَنَّكَ إِنْ لَمْ تَكُنْ مُخْلِصاً لِوَجْهِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَأَدْخَلْتَ وَجْهاً وَاحِداً مِنْهَا مَعَ وَجْهِ اللَّهِ فَرُبَّما تَحمَّلْتَ حِملَ كُلِّ هَؤُلَاءِ كَما يَتَحَمَّلُ مَنْ صلَّى بِهِمْ بِغَيْرِ طَهَارةٍ مُتعَمِّداً، أَوَ لَيْسَتْ خُطْبَتُكَ عِبَادةً، فَمَا هُوَ الشِّرْكُ إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي العِبَادَةِ، فَارْجِعْ سَرِيعاً فِي خُطْبَتِكَ إِلَى الإِخْلَاصِ، فَإِنَّ رُجُوعَكَ مَقْبُولٌ.

بَلْ إِنَّ الوَعْظَ وَالتَّوْجِيهَ وَالقَصَصَ وَنَحوَ ذَلِكَ مِمَّا يُقَالُ عَلَى المَنَابِرِ أَوْ غَيْرِهَا يُعَدُّ - وَلَا شَكَّ - مِنْ مَوَاطِنِ الزَّلَلِ وَحُصُولِ العُجْبِ أَوِ الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ إِلَّا مَنِ اتَّقَى اللَّهَ؛ وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مَا أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الأَشْجَعِيِّ مَرْفُوعاً: «لَا يَقُصُّ إِلَّا أَمِيرٌ أَوْ مَأْمُورٌ أَوْ مُخْتَالٌ»(١). اهـ

قَالَ ابْنُ الأَثِيرِ: (لَا يَقُصُّ تَكسُّباً، أَوْ يَكُونُ القَاصُّ مُخْتَالًا يَفْعَلُ

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٤/ ٢٣٣)، وأبو داود(٣٦٦٥). قال العراقي في «الباعث على الإخلاص» (٧): إسناده جيد. وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف. وكذا صححه الألباني في سنن أبي داود.

ذَلِكَ تَكبُّراً عَلَى النَّاسِ، أَوْ مُرَائِياً يُرَائِي النَّاسَ بِقَوْلِهِ وَعَمَلِهِ، لَا يَكُونُ وَعْظُهُ وَكَلامُهُ حَقِيقَةً)[1]. اهـ.

بَلْ إِنَّ مِمَّا يَزِيدُ هَذَا الأَمْرَ تَأْكِيداً أَنَّ ابْنَ الأَثِيرِ أَشَارَ إِلَى أَنَّ الْمرَادَ بِهَذَا الحَدِيثِ خُطْبَةُ الجُمُعَةِ عَلَى أَحدِ الأَقْوَالِ، حَيْثُ يَقُولُ: «وَقِيلَ: أَرَادَ الخُطْبَةَ؛ لأَنَّ الأُمَرَاءَ كَانُوا يَلُونَها فِي الأَوَّلِ...»[2]. اهـ.

الثَّانِيَةُ: أَيُّها الخَطِيبُ! اتَّقِ اللَّهَ فِي صِدْقِكَ: فَإِنَّ مَنْ حَضَّ النَّاسَ عَلَى التَّوكُّلِ لَا يَلِيقُ بِهِ الخَوْفُ مِنْ غَيْرِ رَبِّ العَالَمينَ، وَمَنْ أَمرَ النَّاسَ بِاليَقِينِ لَا يَلِيقُ بِهِ أَنْ يَكُونَ مِنْ الْمُرْتَابِينَ، وَمَنْ حضَّ النَّاسَ عَلَى قَوْلِ كَلِمَةِ الحَقِّ لَا يَلِيقُ أَنْ يَقْرَأَ النَّاسُ مِنْ وَرَاءِ كَلِماتِهِ أَنَّهُ إِمَامُ المُجَامِلِينَ بِالبَاطِلِ.

فَمَهْمَا قَالَ الخَطِيبُ عَنْ شَجَاعَةِ نَفْسِهِ، وَمَهْمَا حَلَفَ عَلَى صِدْقِهِ وَإِخْلاصِهِ وَعَدَمِ مُجَامَلَتِهِ - فَذَلِكَ لَا يَغُرُّ النَّاسَ، وَلَا يَقْبَلُونَهُ حَتَّى يَرَوْا صِدْقَهُ مِنْ غَيْرِ غَبَشٍ وَلَا غِشَاوَةٍ فِي مَوَاقِفَ لَا تُحْتَمَلُ، ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ [التوبة: ١٢٦].. فَالصِّدْقُ لُبٌّ، وَاللُّبُّ لَا يَقْرَؤُهُ إِلَّا اللُّبُّ.. وَهَكَذَا هِيَ لُغَةُ القُلُوبِ،

(١) انظر: «النهاية» (٤/ ٦٢).
(٢) انظر: «النهاية» (٤/ ٦٢).

ولرُبَّما يَفُوتُ عَلَى بَعْضِ حُضُورِكَ هَذِهِ القِرَاءَةُ الصَّافِيَةُ لِحَقِيقَتِكَ مِنْ شِدَّةِ التَّلْبِيسِ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ لِصُرَاخٍ أَوْ حَلِفٍ عَلَى صِدْقٍ وَعَدَمِ مُجامَلَةٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، لَكِنَّهَا إِيمَاضَةٌ تَكَادُ تَخْطِفُ أَبْصَارَ الصِّدْقِ، وَسُرْعَانَ مَا يَذْهَبُ نُورُهَا، وَيَعُودُ الظَّلَامُ أَشَدَّ مِمَّا كَانَ، وَهَكَذَا يَرْتَدُّ قَوْلُهُ عَنْ نَفْسِهِ قَوْلًا عَلَى نَفْسِهِ، وَحَلِفُهُ حَلِفاً عَلَى مُجَامَلَتِهِ، لِيُبوِّئَهُ النَّاسُ بَعْدَهَا إِمَامَ نِفَاقٍ، عِيَاذاً بِاللَّهِ تَعَالَى!

بَلْ قَدْ جَاءَ فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ مَا يَدُلُّ عَلَى خُطُورَةِ ذَلِكَ حَتَّى عَلَى الخُطَبَاءِ الَّذِينَ يَعْتَلُونَ المَنَابِرَ وَيَعِظُونَ النَّاسَ، فَقَدْ رَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ» وَأَبُو نُعَيْمٍ فِي «الحِلْيَةِ» وَأَبُو يَعْلَى[(١)] عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ[(٢)] مِنْ نَارٍ، قَالَ: قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: خُطَبَاءُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ؟»[(٣)].

---

(١) انظر: «المسند» (٣/ ١٢٠)، «الحلية» (٢/ ٣٨٦)، «مسند أبي يعلى» (٣٩٩٢).

(٢) القرض: القطع. قرضه يقرضه قرضاً وقرَّضه: قطعه. والمقراضان: الجَلَمَان. «لسان العرب» (قرض).

(٣) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٧٩): أحد أسانيد أبي يعلي رجاله رجال الصحيح. وقال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف، وكذا صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٩١).

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»[١] مِنْ حَدِيثِ أُسَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يُجَاءُ بِرَجُلٍ فَيُطْرَحُ فِي النَّارِ، فَيُطْحَنُ فِيهَا كَطَحْنِ الحِمَارِ بِرَحَاهُ، فَيُطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلَان، أَلَسْتَ كُنْتَ تَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ وَتَنهى عَنِ المُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: إِنِّي كُنْتُ آمُرُ بِالمَعْرُوفِ وَلَا أَفْعَلُهُ، وَأَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ وَأَفْعَلُهُ».

رُبَّما تَقُولُ مَا لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَعْمَلَهُ وَرُبَّما تَسْتَطِيعُ، المُهِمُّ أَنْ يَعْلَمَ اللَّهُ صِدْقَكَ فِي هَذَا، وَفِي هَذَا، المُهِمُّ أَنْ يَرَى اللَّه حُرْقَتَكَ عَلَى عَجْزِكَ أَنَّكَ لَا تَقْدِرُ أَنْ تَعْمَلَ.. حُرْقَةً تَبْلُغُ التَّأَلُّمَ، وَأَحْيَاناً البُكَاءَ؛ لِتَخَلُّفِ قُدْرَتِكَ عَنْ نِيَّتِكَ، فَيَعْذُرَكَ اللَّهُ أَعْظَمَ الإِعْذَارِ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢]، فَلَوْ أَنَّ كُلَّ خَطِيبٍ لَمْ يَأْمُرْ إِلَّا بِمَا هُوَ مَأْمُونُ العَاقِبَةِ، لَاخْتَفَى الحَقُّ، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَعْمَلُ بِكُلِّ مَا يَعْلَمُ، وَالشَّرْعُ لَا يُعَلِّقُ البَلَاغَ بِتَصَرُّفَاتِ النَّاسِ وَأَعْمَالِهِمْ.

وَمَعَ هَذَا فَأَنَا لَا أَتَحَدَّثُ عَمَّا ظَهَرَ مِنْ أَعْمَالٍ.. لَكِنَّنِي أَتَحَدَّثُ عَنْ هَذَا القَلْبِ وَمَا يَحْمِلُ.. وَمَا يَأْمُرُ بِهِ.. وَمَا فِيهِ مِنْ يَقِينٍ وَإِقْدَامٍ.. وَمَا فِيهِ مِنْ تَوَكُّلٍ وَثِقَةٍ.. وَمَا فِيهِ مِنْ سَكِينَةٍ وَعَزْمٍ...

(١) متفق عليه. رواه البخاري (٧٠٩٨)، ومسلم(٢٩٨٩)

فَاجْتَهِدْ مَا تَسْتَطِيعُ، فَقَلْبُكَ قَائِدُكَ.. وَمَا سِوَاهُ تَبَعٌ..

اسْأَلِ اللَّهَ سُبْحَانَهُ صَلَاحَهُ، اسْأَلِ اللَّهَ ثَبَاتَهُ.. اسْأَلِ اللَّهَ تَصْرِيفَهُ عَلَى طَاعَتِهِ سُبْحَانَهُ.. اسْأَلِ اللَّهَ خَشْيَتَهُ.. اسْأَلِ اللَّهَ تَقْوَاهُ.. اسْأَلِ اللَّهَ هُدَاهُ.. اسْأَلِ اللَّهَ مَحبَّةَ قَلْبِكَ لَهُ سُبْحَانَهُ.. اسْأَلِ اللَّهَ تَلَذُّذَهُ بِالإِيمَانِ وَتَزْيِينَهُ فِيهِ.. اسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ ذَهَابِ خَشْيَتِهِ وَخُشُوعِهِ.. اسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ تَقَلُّبِهِ عَنْ دِينِهِ.. وَهَكَذَا[١].

هَذَا القَلْبُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَكُونَ أَوَّلَ الحَاضِرِينَ عَلَى المِنْبَرِ، وَيَكُونَ أَوَّلَ المَنْصُوحِينَ، وَأَوَّلَ النَّاصِحِينَ، وَيَكُونَ أَوَّلَ الآمِرِينَ، وَأَوَّلَ العَامِلِينَ.. وَأَوَّلَ النَّاهِينَ، وَأَوَّلَ المُرْتَدِعِينَ.. وَيَكُونَ أَوَّلَ الوَاعِظِينَ، وَأَوَّلَ المُتَّعِظِينَ.

لَا تَكْتَفِ بِذَلِكَ فَحَسْبُ.. بَلْ اجْعَلْ قَلْبَكَ دَائِمَ التَّحْلِيقِ فِي مَنَازِلِ الإِحْسَانِ... دَائِمَ النَّظَرِ إِذْ هُوَ عَلَى المِنْبَرِ إِلَى رَبِّهِ وَكَأَنَّهُ يَرَاهُ سُبْحَانَهُ.. لَا يَكَادُ رَبُّهُ سُبْحَانَهُ يَغِيبُ عَنْ عَيْنَيْ بَصِيرَتِهِ.. دَائِمَ الْهِتَافِ بِاللَّهِ مِنْ عَلَى مِنْبَرِهِ.

فَيَا رَبِّ: هَؤُلَاءِ عِبَادُكَ، اجْتَمَعُوا أَمَامِي فِي هَذَا المُجْتَمَعِ الكَبِيرِ، فَاشْهَدْ يَا رَبِّ أَنِّي لَا أُرِيدُ إِلَّا وَجْهَكَ الكَرِيمَ.

---

(١) في كل فقرة دعاء ثابت بحديثٍ صحيحٍ.

يَا رَبِّ: اشْرَحْ لِي صَدْرِي، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلَي.

يَا رَبِّ: إِنْ لَمْ تَجْعَلْ كَلَامِي يَدْخُلُ قُلُوبَهُمْ فَإِنِّي - وَعِزَّتِكَ وَجَلَالِكَ - لَا أَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ.

يَا رَبِّ: أُرِيدُ أَنْ أُرْضِيكَ فِي هَذَا الْيَوْمِ.. أُرِيدُكَ تَرْضَى عَنِّي يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ.. أُرِيدُ أَنْ أَرْفَعَ اسْمَكَ فِي هَذَا الجَمْعِ يَا رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ.. أُرِيدُ أَنْ أَجْعَلَ الْقُلُوبَ تَذْكُرُكَ..

يَا رَبِّ: أُرِيدُ أَنْ أَفْتَحَ فِي الْقُلُوبِ طَرِيقاً أَوْسَعَ لِمَحَبَّتِكَ.. أُرِيدُ أَنْ أَزِيدَهَا مَعْرِفَةً بِكَ.

الثَّالِثَةُ: أَيُّها الخَطِيبُ! اتَّقِ اللَّهَ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ: فَخُطْبَتُكَ كُلُّهَا دَعْوَةٌ وَذِكْرٌ وَتَذْكِيرٌ، أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ سُبْحانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩].

اقْرَأْ هَذِهِ الآيَةَ مِنْ مَقَامِ الِمنْبَرِ الَّذِي تَبَوَّأْتَهُ، وَسَتَرَى مَا يَقْشَعِرُّ لَهُ جِلْدُكَ... فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يُخَاطِبُ المُؤْمِنِينَ بِوُجُوبِ الاسْتِجَابَةِ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ يَوْمَ الجُمُعَةِ مَتَى سَمِعُوا نِدَاءَهَا.. لَا عُذْرَ لَهُمْ فِي التَّأْخِيرِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ.. فَهَلَّا تَسَاءَلْتَ - أَخِي الخَطِيبُ - مَا هُوَ ذِكْرُ اللَّهِ؟ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ

فَرَّقَ اللَّهُ تعَالَى بَيْنَ النِّدَاءِ لِلصَّلاَةِ وَالسَّعْيِ لِذِكْرِ اللَّهِ، فَلَمْ يَجعَلِ السَّعْيَ للصَّلاَةِ فَحسْبُ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ ولَمْ يَقلْ: فَاسْعوْا إِلَى الصَّلاَةِ.

أَلاَ تَرى أَنَّ خُطْبَتَكَ إِنَّما هِي ذِكْرُ اللَّهِ الَّذي دَعَا اللَّهُ عِبادَهَ إِلَيْهِ.. أَيْ أَنَّ اللَّهَ دَعا النَّاسَ لِلاسْتِمَاعِ لخُطْبَتِكَ.. كَمَا دَعاهُمْ لِلصَّلاَةِ خَلْفَكَ.. ألاَ يَكْفِي ذَلِكَ؟

أَرَأَيْتَ كَيْفَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ نَادَى المُؤْمِنِينَ ودَعَاكَ لأَنْ تُضيِّفَ مَدْعُوِّيهِ.. فَمَاذَا تَرَاكَ مُقَدِّماً لِضُيُوفِ اللَّهِ..؟

يَا أَيُّها الخَطِيبُ، لَوْ دَعَاكَ كَبِيرُ قَوْمِكَ مِنْ بَيْنَ قَوْمِكَ لِأَنْ تُضَيِّفَ ضُيُوفَهُ الخَاصِّينَ فِي بَيْتِكَ فَهَلْ سَتُقَصِّرُ فِي إِكْرَامِهِمْ، وَهَلْ سَتَتْرُكُ فِي وُسْعِكَ طَاقَةً إِلَّا تَبْذُلُها لأَجْلِ تَكْرِيم ضُيوفِهِ إِكْرَاماً لَهُ، وَتَقْدِيراً لِاخْتِيَارِهِ لَكَ مِنْ دُونِ قَوْمِكَ..؟! هَا قَدْ جَاءَكَ اللَّهُ بِالمُؤْمِنِينَ إِلَى بَيْتِهِ، وَأَمَرَكَ بِتَضْيِيفِهِمْ عَلَى ذِكْرِهِ.. فَمَاذَا أَنْتَ مُحْضِرٌ لَهُمْ.. وَبِأَيِّ شَيءٍ سَتُكْرِمُهُمْ.. قَدِّمْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ إِنَّمَا تُقَدِّمُ مَا يُمَثِّلُ تَقْدِيرَكَ لِدَعْوَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ مُطَّلِعٌ عَلَى جُهْدِكَ فِي تَحْضِيرِ مَائِدَةِ أَوْلِيَائِهِ.. فِي خَيْرِ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ، - عِيدِ الإِسْلامِ يَوْمِ الجُمُعَةِ - سَاعَةِ الظَّهِيرَةِ.. السَّاعَةِ الَّتِي فُرِضَتْ فِيهَا أَوَّلَ مَا فُرِضَتِ الصَّلاَةُ.

أَتُرَاكَ لَوْ أَعْدَدْتَ لِخُطْبَةِ الجُمُعَةِ مِنْ أَوَّلِ الأُسْبُوعِ، أَيْ: مِنَ الجُمُعَةِ إِلَى الجُمُعَةِ إِكْرَاماً لِدَعْوَةِ اللَّهِ بِإِكْرَامِ مَدْعُوِّيهِ سُبْحَانَهُ كُنْتَ مُسْرِفاً؟

وَيَا أَيُّهَا الخَطِيبُ الَّذِي مَا تَعَوَّدْتَ التَّحْضِيرَ لِهَؤُلَاءِ قَبْلُ.. أَلَسْتَ بِهَذَا التَّهَاوُنِ بِالإِعْدَادِ لِلخُطْبَةِ مُفرِّطاً.. مُقصِّراً.. مُتَهَاوِناً؟

إِنْ لَمْ يَكُنْ ذَاكَ هُوَ التَّهَاوُنُ فَكَيْفَ يَكُونُ؟!

كُنْ مَنْ تَكُون... أَلا تَكُونُ مَعَ التَّحْضِيرِ لِخُطْبَتِك أَفْضَلَ وَأَحْسَنَ مِنْ دُونِهِ.. أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ لِأَشْجَعِ النَّاسِ ﴿وَأَعِدُّوا﴾.

لَقَدْ ضَاعَتِ الجُمُعَةُ فِي نُفُوسِ النَّاسِ الحَاضِرِينَ، وَذَهَبَ أَثَرُهَا مِنْ أَثَرِ ضَيَاعِهَا فِي سُلَّمِ الاهْتِمَامِ تَفْكِيراً وَإِعْدَاداً وَعَرْضاً عِنْدَ خُطَبَائِهَا.

وَالَهْفِي عَلَى خَطِيبٍ يُطِيرُ الاسْتِرْخَاءُ عَنِ النُّفُوسِ... يُحَفِّزُ الحُضُورَ بِإِيمَانِهِ وَنَفْسِيَّتِهِ وَكَلِمَاتِهِ وَمَوْضُوعِهِ وَقُوَّتِهِ.. فَتَزْحَفُ إِلَيْهِ الجُمُوعُ بَاكِراً، وَتَتَزَاحَمُ عَلَى مَسْجِدِهِ؟ أَيْنَ مَنْ كَانُوا يَسْتَوْعِبُونَ المَوْضُوعَ كَأَنَّهُ بَحْثٌ مُسْتَقِلٌّ يُقَدَّمُ كُلَّ جُمُعَةٍ..؟ أَيْنَ مَنْ تَقُولُ النَّاسُ لَهُ: زِدْنَا زَادَكَ اللَّهُ؟ أَيْنَ مَنْ كَانُوا يَحْضُرُونَ الجُمُعَةَ بِنُفُوسٍ مَشْدُودَةٍ قَبْلَ الخُطْبَةِ لِمَوْضُوعِ الخُطْبَةِ كَأَنَّهَا نُفُوسُ الجَمَاهِيرِ المُتَعَصِّبَةِ لِمُبَارَيَاتِ النِّهَائِيَّاتِ مَعَ عِظَمِ الفَارِقِ!

فَاتَّقِ اللَّهَ، أَيُّهَا الخَطِيبُ: اتَّقِ اللَّهَ، وَاصْدُقْ مَعَ اللَّهِ، وَهَاتِ الدَّلِيلَ عَلَى الصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ هُنَا لَيْسَ عَمَلاً قَلْبِيّاً فَحَسْبُ..

وَأشْهِدْ مَنْ حَضَرَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، أَشْهِدْ مَنْ حَضَرَ مِنَ مَلائِكَةِ اللَّهِ لِهَذَا اليَوْمِ، وَأَشْهِدَ اللَّهَ - وكَفَى باللَّهِ شَهِيداً - أَنَّك حَقِيقٌ بِهَذَا المَقَام العَظِيم، أَلَيْسَ هَذَا المَوْقِفُ مَوْقِفاً مَشْهُوداً.. وَهَلْ تَوجَّهَتْ أَنْظَارُ الشُّهُودِ وَأَسْمَاعُهُمْ إلَّا إلَيْكَ...؟ وَكَفَى باللَّهِ شَهِيداً.

الرَّابِعَةُ: أَيُّها الخَطِيبُ! اتَّقِ اللَّهَ فِي دُعَائِكَ: أَرَأَيْت رَجُلًا يُنَادِي رَجُلًا بِاسْمِهِ بَيْنَما عَيْنَاهُ مَصْرُوفتَانِ إلَى غَيْرِهِ؟ أَرَأَيْت رَجُلًا يُنَادِي رَجُلًا، فَإذَا أَجَابَهُ قَالَ: إنَّما أَقْصِدُ فُلاناً؟ ذَاكَ هُوَ الخَطِيبُ الَّذِي يُحْسِنُ أَلْفَاظَ دُعَاءِ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ لِفُلَانٍ وَعِلَّانٍ، وَيَتَزَيَّنُ بِكَلِمَاتِ الدُّعَاءِ، وَهُوَ إنَّما يُرِيدُ أَنْ يُدَغْدِغَ بِحُسْنِ كَلِمَاتِ دُعَائِهِ مَشَاعِرَ هَذَا وَذَاكَ مِنَ الوُجُوهِ، وَلَا يُرِيدُ وَجْهَ اللَّهِ أَسَاساً.. فَالحَظْوَةُ المَرْجُوَّةُ بِهَذَا الدُّعَاءِ عِنْدَ هَؤُلَاءِ الكُبَرَاءِ، وَالخَوْفُ مِنْ قَطِيعَتِهِمْ أَوْ إعْرَاضِهِمْ، وَلَوْ رَأَى أَنَّ عَدَمَ الدُّعَاءِ لَهُمْ يَرْفَعُهُ عِنْدَهُمْ لَما دَعَا لَهُمْ بِدَلِيلِ أَنَّهُ حِينَ يأمَنُ مَكْرَهُمْ وَلَا يَطْمَعُ بِخَيْرِهِمْ لَا يَدْعُو لَهُمْ، وَبِدَلِيلِ أَنَّهُمْ إذَا غَابُوا عَنْهُ وَغَابَ صَوْتُهُ عَنْهُمْ لَا يَدْعُون لَهُ.. اللَّهُمَّ إلَّا مُخَادَعَةً لِنَفْسِهِ، وَإرَاءَتَهُ إيَّاهَا أَنَّهُ كَانَ صَادِقاً لَمَّا دَعَا لَهُمْ جِهَاراً نَهَاراً!

نَعَمْ، لَا بَأْسَ بِالدُّعَاءِ المُقَيَّدِ بِالهِدَايَةِ وَالإصْلَاحِ وَإقَامَةِ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ مِنْ غَيْرِ إشْعَارٍ بِتَزْكِيَةٍ أَوْ مُخَادَعَةٍ لِلعَامَّةِ، فَإنْ كَانَ فِيهِ رَائِحَةُ إشْعَارٍ، فَالسَّلَامَةَ السَّلَامَةَ، أَمَّا الدُّعَاءُ المُطْلَقُ فَلَا... وَكُلُّ إنْسَانٍ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا

تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [غافر: ١٩، ٢٠]، ﴿وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ [النساء: ١٣٥].

أَيُّها الخَطِيبُ: تَذَكَّرْ أَنَّك إِنَّما تَدْعُو اللَّهَ سُبْحَانَهُ، فَإِنْ عَلِمَ النَّاسُ ظَاهِرَكَ وَسَمِعُوا قَوْلَكَ فَتَذَكَّرْ جَيِّداً أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَرَى انْطِبَاقَ قَوْلِكَ عَلَى قَلْبِكَ أَوْ مُنَافَرَتَهُ لَهُ.. فَهَوِّنْ عَلَى نَفْسِكَ، وَلَا تَبُحَّ صَوْتَكَ بِدُعَائِكَ، وَاجْتَهِدْ فِي النَّظَرِ للَّهِ وَالإِخْلَاصِ لَهُ سُبْحَانَهُ، فَإِنَّكَ كُلَّمَا ازْدَادَ دُعَاؤُكَ المَطْعُونُ بِإِخْلَاصِهِ وَبُحَّ بِهِ صَوْتُكَ ازْدَادَ بُعْدُكَ عَنْ رَبِّكَ مَا دُمْتَ تُرِيدُهُ سُبْحَانَهُ، وَتُرِيدُ مَعَهُ آخَرِينَ بِدُعَائِكَ.

الخَامِسَةُ: أَيُّها الخَطِيبُ! اتَّقِ اللَّهَ فِي مَوْضُوعِ خُطْبَتِكَ: فَكَمَا دَعَا رَبُّ العَالَمِينَ المُؤْمِنِينَ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، فَقَدْ أَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالسُّكُوتِ وَالإِنْصَاتِ لَكَ، وَكَأَنَّهُ الإِنْصَاتُ لِلقُرْآنِ، فَلَوْ كَانَ حَدِيثُ الحَاضِرِ لِخُطْبَتِكَ بِأَخْصَرِ صِيغَةٍ، أَوْ كَانَ كَلَامُهُ لِلجَالِسِ بِجِوَارِهِ بِأَيِّ صِيغَةٍ لَعُدَّ ذَلِكَ مِنَ اللَّغْوِ المَنْهِيِّ عَنْهُ، فَقَدْ رَوَى البُخَارِيُّ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا قُلتَ لِصَاحِبِكَ يومَ الجُمُعَةِ أَنْصِتْ وَالإِمَامُ يَخْطُبُ فَقَدْ لَغَوْتَ»(١).

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. رواه البخاري (٩٣٤)، ومسلم (٨٥١).

أَتُرِيدُ تَسْكِيتاً لِلمُؤْمِنِينَ لِأَجْلِ خُطْبَتِكَ أَكْبَرَ مِنْ هَذَا. . .؟ أَمْ تُرِيدُ إِلْزَاماً بِالحُضُورِ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا؟ قَدْ فُتِحَتْ لَكَ الأَسْمَاعُ عَنْ آخِرِهَا. . وَمَا مِنْ مَوْضِعٍ يَصْدُقُ فِيهِ قَوْلُ القَائِلِ مِثْلُ مَا يَصْدُقُ قَوْلُ الحَاضِرِ لِجُمْعَتِكَ حِينَ يَقُولُ: (كُلِّي آذَانٌ صَاغِيَةٌ)، فَمَاذَا سَتُفْرِغُ لِهَذِهِ الأَسْمَاعِ الكَرِيمَةِ؟

قَدِ اشْرَأَبَّتْ لَكَ الأَعْنَاقُ، فَالسُّنَّةُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْكَ هَؤُلَاءِ الكِرَامُ، فَمَا سَتُرِيهِمْ مِنْ نَفْسِكَ وَقَوْلِكَ وَهَيْئَتِكَ وَتَخَشُّعِكَ الصَّادِقِ؟!

قَدْ بَكَّرَتْ لَكَ الجُمُوعُ بِالحُضُورِ. . وَسَعَتْ إِلَيْكَ الأَرْجُلُ. . وَجَاءَتْ وُفُودُ المُسْلِمِينَ. . قَادِمِينَ بِأَمْرِ اللَّهِ وَدَعْوَتِهِ، سَاكِنِينَ سَاكِتِينَ. . مُنْصِتِينَ مُنْتَظِرِينَ. . فَمَاذَا سَوْفَ تُقَدِّمُ لَهُمْ مِنْ مَوْضُوعٍ وَهُمْ وُفُودُ رَبِّ العَالَمِينَ؟

أَيُّهَا الخَطِيبُ: قَدْ فَرَشَتْ لَكَ القُلُوبُ صَفَحَاتِهَا. . وَشَرَعَتْ لَكَ أَبْوَابَهَا، وَرَحَّبَتْ بِكَ بِأَمْرِ رَبِّهَا. . فَادْخُلْ فِيهَا كَيْفَ شِئْتَ. . وَاكْتُبْ فِيهَا مَا شِئْتَ. .

فَمَا يُكْتَبُ هُنَا لَا تَمْحُوهُ الأَيَّامُ. . وَلَا تَعَاقُبُ الدُّهُورِ. . وَسَوْفَ يُنْشَرُ دِيوَانُهُ إِذَا حُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ. .

فَأَيُّ فُرْصَةٍ مِثْلُ فُرْصَتِكَ هَذِهِ، تَذَكَّرْ جَيِّداً صُورَةَ الجُمُعَةِ حِينَ عُرِضَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ كَيْفَ عُرِضَتْ؟ وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه

قَالَ: «عُرِضَتِ الجُمُعَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جَاءَهُ بِهَا جِبْرِيلُ عليه السلام فِي كَفِّهِ كَالمِرْآةِ البَيْضَاءِ فِي وَسَطِهَا كَالنُّكْتَةِ السَّوْدَاءِ، فَقَالَ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذِهِ الجُمُعَةُ يَعْرِضُهَا عَلَيْكَ رَبُّكَ لِتَكُونَ لَكَ عِيداً وَلِقَوْمِكَ مِنْ بَعْدِكَ، وَلَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ تَكُونُ أَنْتَ الأَوَّلَ، وَتَكُونُ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى مِنْ بَعْدِكَ، وَفِيهَا سَاعَةٌ لَا يَدْعُو أَحَدٌ رَبَّهُ فِيهَا بِخَيْرٍ هُوَ لَهُ قَسْمٌ إِلَّا أَعْطَاهُ، أَوْ يَتَعَوَّذُ مِنْ شَرٍّ إِلَّا دَفَعَ عَنْهُ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ، وَنَحْنُ نَدْعُوهُ فِي الآخِرَةِ يَوْمَ المَزِيدِ»، إِنَّهَا المِرْآةُ الصَّافِيَةُ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَبْقَى مِرْآةً، وَيَجِبُ أَنْ تَجْعَلَهَا أَنْتَ مِرْآةً تَرَى فِيهَا مَنْ يَأْتِيكَ الحَقِيقَةَ.. يَرَى حَقِيقَةَ نَفْسِهِ.. حَقِيقَةَ الأَحْدَاثِ.. وَتَرَى فِيهَا الأُمَّةُ حَقِيقَتَهَا.

فَمَاذَا أَنْتَ صَانِعٌ بِهَذِهِ المِرْآةِ؟ إِنَّهَا كَانَتْ نُوراً، وَيَجِبُ أَنْ تَبْقَى نُوراً.. نُوراً يَرَى النَّاسُ فِيهَا فِي الظُّلُمَاتِ، فَيَخْرُجُوا مِنْهَا، وَخُصُوصاً إِذَا ادْلَهَمَّتِ الفِتَنُ، وَطُمِسَتِ الحَقَائِقُ.......

السَّادِسَةُ: أَيُّهَا الخَطِيبُ! اتَّقِ اللَّهَ، إِيَّاكَ وَالخِيَانَةَ الخَفِيَّةَ، إِيَّاكَ وَخِيَانَةَ صَاحِبِ هَذَا المِنْبَرِ - رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - يَجِبُ أَنْ تُعْطِيَ هَذَا المَقَامَ حَقَّهُ، وَإِلَّا فَاعْتَزِلْ.. أَرَأَيْتَ كَيْفَ سَأَلَ أَبُو دُجَانَةَ عَنْ حَقِّ سَيْفِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ أَرَأَيْتَ كَيْفَ حَفِظَ زَيْدٌ رضي الله عنه حَقَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَيْبَتِهِ حَتَّى رَفَضَ مُبَادَلَةَ شَوْكَةٍ يُشَاكُ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مُقَابِلِ رَفْعِ

حُكم الصَّلْبِ عَنْ نَفْسِهِ، فَقَالَ وَهُوَ يُقدَّمُ لِلمَصْلَبَةِ: (وَاللَّهِ، مَا أُحِبُّ أَنَّ مُحمَّداً يُشَاكُ فِي مَكَانِهِ بِشَوْكَةٍ تُؤذِيهِ وَأَنِّي جَالِسٌ فِي أَهْلِي)[١].

هَذَا المِنبَرُ هُوَ إِرْثُهُ ﷺ، وَهُوَ صَاحِبُ أَوَّلِ مِنبرٍ، وَكُلُّ مِنبرٍ مِنْ بَعْدِهِ تَبَعٌ لِمنْبَرِهِ، وَهُوَ شِعَارُ الدِّينِ فِي يَوْمِهِ العَظِيمِ الجُمُعَةِ المُبَارَكَةِ.

إِيَّاكَ وَخِيَانَتَهُ، فَالبَعْضُ يُرِيدُ أَنْ يَكْسِبَ لِشَخْصِهِ مِن مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يُرِيدُ الوَجَاهَةَ مِنْ وَجَاهَةِ المِنبَرِ، وَالبَعْضُ يُرِيدُ أَنْ يَسْرِقَ رِفْعةً لِنَفْسِهِ عَلَى حِسَابِ رَفْعِهِ ذِكْرَ صَاحِبِ المِنْبَرِ الَّذِي قَالَ اللَّهُ لَهُ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]: رَسُولِ اللَّهِ ﷺ!

فَهَلْ مِنْ خِيَانَةٍ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ تُحدِّثَ النَّاسَ مِنْ عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَاوِياً عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا لَمْ يَقُلْ، وَمَا لَمْ يَفْعَلْ، وَمَا لَمْ يَشْرَعْ؟!

أَيُّ خِيَانَةٍ لِصَاحِبِ المِنْبَرِ أَكْبرُ مِنْ أَنْ تَأْتِي بِهَدْيٍ غَيْرِ هَدْيِهِ ﷺ، فَتَنْشُرَهُ عَلَى النَّاسِ؟

أَيُّ خِيَانَةٍ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ تَأْتِي بِهَدْيٍ ضِدِّ هَدْيِهِ، فَتَنْشُرَهُ بَيْنَ مُحِبِّيهِ ﷺ، وَبِاسْمِهِ ﷺ، فَيَتَصوَّرُ النَّاسُ أَنَّ مِنْ مَحبَّتِهِ فِعلَ ذَلِكَ الشَّيءِ؟!

إِنَّها ضَلالَةٌ وَإِحْدَاثٌ فِي الدِّينِ، بَلْ إِمَامَةُ ضَلالَةٍ..؟!

---

(١) «الطبقات» لابن سعد (٢/ ٥٦).

أَرَأَيْتَ حَوْضَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ العَظِيمَ.. ذَاكَ الحَوْضُ الهَدِيَّةُ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ لِحَبِيبِهِ... فَأَيُّ رَحْمَةٍ أَعْظَمُ مِنْ شَرْبَةِ المَاءِ فِي أَرْضِ المَحْشَرِ.. فَهُوَ رَحْمَةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي هُوَ رَحْمَةٌ لِلعَالَمِينَ مِنَ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم سُبْحَانَهُ، وَمَعَ كُلِّ هَذَا فَإِنَّ مَنْ أَحْدَثَ فِي الدِّينَ حَدَثاً يُطْرَدُ عَنْ هَذَا الحَوْضِ، فَكَيْفَ بِأَئِمَّةِ الإِحْدَاثِ وَالبِدَعِ فِي دِينِ اللَّهِ.. إِنَّهُمْ قَادَةُ المَطْرُودِينَ عَنْ حَوْضِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ لأَنَّهُمْ قَادَةُ المُبْتَدِعِينَ!

فَفِي الحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، فَمَنْ وَرَدَهُ شَرِبَ مِنْهُ، وَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهُ أَبَداً، لَيَرِدُ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ». قَالَ أَبُو حَازِمٍ: فَسَمِعَنِي النُّعْمَانُ بْنُ أَبِي عَيَّاشٍ وَأَنَا أُحَدِّثُهُمْ هَذَا، فَقَالَ: هَكَذَا سَمِعْتَ سَهْلًا؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: وَأَنَا أَشْهَدُ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ لَسَمِعْتُهُ يَزِيدُ فِيهِ، قَالَ: «إِنَّهُمْ مِنِّي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقاً سُحْقاً لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي»[(١)].

فَيَا أَيُّهَا الخَطِيبُ، إِيَّاكَ وَالخِيَانَةَ الخَفِيَّةَ، سَوَاءٌ أَكُنْتَ خَطِيباً فِي دُوَلِ الخَلِيجِ العَرَبِيِّ، أَمْ فِي دُوَلِ المَشْرِقِ العَرَبِيِّ، أَمْ فِي مَغْرِبِهِ، أَمْ فِي أَيِّ بُقْعَةٍ مِنْ هَذَا العَالَمِ الإِسْلَامِيِّ، أَمْ لَكَ مَسْجِدٌ فِي غَيْرِ العَالَمِ

(١) رواه البخاري في صحيحه (٧٠٥٠) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، ومسلم (٢٢٩٠).

الإِسْلَامِيِّ. . إنَّ هَذَا المِنْبَرَ الَّذِي ارْتَقَيْتَهُ لَيْسَ مِنْبراً وَرِثْتَهُ عَنْ أُسْرَةٍ مَالِكَةٍ، وَلَا أُسْرَةٍ حَاكِمَةٍ، وَلَا الآبَاءِ وَالأَجْدَادِ، إِنَّمَا هُوَ إِرْثُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَبَيْنَكَ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِقَاءٌ فِي أَرْضِ المَحْشَرِ، فَإمَّا أَنْ يَبْيَضَّ وَجْهُكَ لِمَا حَمَلْتَ هَذِهِ الأَمَانَةَ بِشَرَفٍ، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ الخِيَانَةُ هِيَ العَلَامَةُ، نَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلَكَ السَّلَامَةَ.

أَيُّها الخَطِيبُ: أَنَا وَكُلُّ وَاحِدٍ يَعْلَمُ أَنَّه مَا مِنْ خَطِيبٍ يَرْتَقِي هَذَا المِنْبَرَ، يُمْكِنُ أَنْ يَتقصَّدَ مُخَالَفَةَ هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ. . ! وَلَكِنْ هَلِ المَسْأَلَةُ فِي التَّقَصُّدِ وَعَدَمِهِ؟ وَمَا يُغْنِي حُسْنُ التَّقَصُّدِ إِذَا وَقَعَتِ الخِيَانَةُ، وَاسْتَدَامَ الخَطِيبُ يَجْهَلُ بِرِوَايَةِ الأَحَادِيثِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟! أَهَذَا مَقَامٌ يُعْذَرُ فِيهِ الخَطِيبُ بِجَهْلٍ بِصِحَّةِ الأَحَادِيثِ وَضَعْفِهَا، وَمَعْرِفَةِ السُّنَنِ مِنَ البِدَعِ؟!

مَا يُغْنِي سَلَامَةُ النِّيَّةِ، وَمَا يُغْنِي كَوْنُ الخَطِيبِ رَجُلًا عَابِداً صَائِماً قَائِماً إِذَا كَانَ لَا يُمَيِّزُ الحَدِيثَ الصَّحِيحَ عَنِ الضَّعِيفِ؟!

مَاذَا يُغْنِي ذَلِكَ إِذَا كَانَ الخَطِيبُ نَفْسُهُ يَظُنُّ أَنَّ كلَّ حَدِيثٍ رَوَاهُ صَاحِبُ كِتَابِ حَدِيثٍ يَعْنِي أَنَّهُ حَدِيثٌ صَحِيحٌ، أَوْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَهُ؟! هُوَ لَمْ يَدْرُسْ عِلْمَ الحَدِيثِ. . ! فَضْلًا أَنْ يُمَيِّزَ الحَدِيثَ الصَّحِيحَ مِنَ الضَّعِيفِ! فَضْلًا أَنْ يُمَارِسَ تَحْقِيقَ الأَحَادِيثِ؟

إِنَّهُ يَعُدُّ كُلَّ مَا قَالَهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثٍ صَحِيحاً مَعَ أَنَّ أَبَا دَاوُدَ

وَالتِّرْمِذِيَّ وَالنَّسَائِيَّ وَابْنَ مَاجَه وَغَيْرَهُمْ لَمْ يَشْتَرِطُوا ذَلِكَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ.. !

هُمْ لَمْ يَشْتَرِطُوا صِحَّةَ الحَدِيثِ لَما أَدْخَلُوهُ فِي كُتُبِهِمْ! وَأَنْتَ تَشْتَرِطُ مَا لَمْ يَشْتَرِطُوا، حَقّاً إِنَّهُ مِنَ العَجَبِ[١]!

يَا أَيُّها الخَطِيبُ: وَاللَّهِ، إِنَّ المَرْءَ لَيَرْتَجِفُ فَرَقاً مِنَ احْتِمَالِ أَنَّهُ نَسَبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَيْئاً لَمْ يَقُلْهُ؛ لأَنَّهُ قَصَّرَ فِي التَّحَقُّقِ مِنْ صِحَّتِهِ.

كَيْفَ وَالنَّبِيُّ ﷺ قَدْ أَمَرَ مَنْ يَكْذِبُ عَلَيْهِ بِأَنْ لَا يَمُدَّ حَبْلَ رَجاءٍ، وَلَا أَمَلٍ مَغْفِرَةً لَهُ، فَكَأَنَّهُ المُخَصَّصُ لَهُ فِي جَهَنَّمَ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».

كَيْفَ لَا نَخَافُ وَنَحْنُ فِي زَمَنِ التَّدْجِيلِ وَالتَّضْلِيلِ.. فَلِمَ لَا يَزِيدُ حِرْصُنَا عَلَى تَصْفِيَةِ مَا نَنْقُلُ عَنْ رَسُولِنَا ﷺ، حَيْثُ يَقُولُ فِي الحَدِيثِ: «يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ يَأْتُونَكُمْ بِالأَحَادِيثِ بِمَا لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ، فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ لَا يُضِلُّونَكُمْ، وَلَا يَفْتِنُونَكُمْ»[٢].

---

(١) قال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «من أراد الاحتجاج بحديث من السنن أو المسانيد إن كان متأهلًا لمعرفة ما يحتج به من غيره، فلا يحتج به حتى ينظر في إتصال سنده، وأحوال رواته، وإلا فإن وجد أحد من الأئمة صححه أو حسنه فله تقليده، وإلا فلا يحتج به» قواعد التحديث للقاسمي (ص٢٦٧).

(٢) رواه مسلم في مقدمته (٧)، وأحمد في مسنده (٢/ ٣٢١) وحسنه شعيب الأرنؤوط، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٤١٧).

أَيُّها الخَطِيبُ! لَا تَأْخُذْ مَنْ يَنْصَحُكَ بِالحَسَاسِيَةِ المُعْتَادَةِ، عَلَى وَهْمِ أَنَّها مِنْ طَرَفٍ مُعادٍ، أَوْ خَصْمٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَوْهَامِ الشَّيْطَانِ الَّتِي يَعْمَلُ جاهِداً عَلَيْهَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْهُ، كَمَا قَالَ المُصْطَفَى ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ المُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ»(١).

فَدَعْكَ أَيُّها الخَطِيبُ مِنْ هَذِهِ الحَسَاسِيَةِ، وَتَعالَ إِلَى أَخِيكَ فِي اللَّهِ، بَلْ أَنَا الَّذِي آتِيكَ لأَجْلِ سَيِّدِنَا وَإِمَامِنَا وَقَائِدِنَا وَقُدْوَتِنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، تَعالَ نَذُبُّ عَنْ وَجْهِ سُنَّتِهِ المُشَرَّفَةِ، فَمَنْ ذَبَّ عَنْ وَجْهِهِ الشَّرِيفِ، أَوْ وَجْهِ سُنَّتِهِ المُشَرَّفَةِ ذَبَّ اللَّهُ عَنْهُ الخِزْيَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ!

بَلْ تَعالَ أَوَّلًا لِنُصَفِّي مَا عِنْدَنَا مِنْ بِضَاعَةٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ أَنْ نَعْرِضَهَا عَلَى النَّاسِ.. فَإِنَّ الإِصْرَارَ عَلَى البَاطِلِ أَخُو الاسْتِكْبَارِ عَلَى الحَقِّ.

أَخِي الخَطِيبُ: لَوْ تَنَازَعْتَ أَنْتَ وَآخَرُونَ فِي مِلْكِيَّةِ أَرْضٍ لَكَانَ مِنَ الوَرَعِ أَنْ تُرَاجِعَ حَقِيقَةَ دَعْوَاكَ فِي هَذِهِ الأَرْضِ.. فَكَيْفَ وَالأَمْرُ أَمْرٌ يَتَعَلَّقُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟!

(١) رواه مسلم في صحيحه (٢٨١٢٩) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

فَلْنَحْفَظْ أَنْفُسَنَا أَوَّلًا مِنْ عَاقِبَةِ أَنْ نَرْوِي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا لَمْ يَقُلْ؟ أَنَا لَا أَقُولُ: يَجِبُ أَنْ نَقْبَلَ حُكْمَ الشَّيْخِ الأَلْبَانِيِّ، وَلَا الشَّيْخِ شُعَيْبٍ بِشَكْلٍ مُطْلَقٍ، وَلَا غَيْرِهِمَا، وَلَكِنْ لِنَرْجِعْ لِمَنْ نَشَاءُ مِنْ أَهْلِ التَّحْقِيقِ مِمَّنْ تَبْرَأُ الذِّمَّةُ بِالرُّجُوعِ إِلَيْهِمْ فِي هَذَا المَيْدَانِ، وَلْنَقِفِ الهُجُومَ عَلَى سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ.

فَمَنْ أَصَرَّ عَلَى بَاطِلِهِ فَإِنَّهُ مُنْتَصِرٌ لِنَفْسِهِ لَا لِلسُّنَّةِ، فَمَاذَا يُمْكِنُ أَنْ تَحْكُمَ عَلَى خَطِيبٍ، تَقُولُ لَهُ: هَذَا كَذِبٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ. وَيَقُولُ لَكَ: أَنَا سَأَقُولُهُ. فَتَقُولُ لَهُ: أَأَنْتَ تَدِينُ اللَّهَ بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَهُ؟ فَيَقُولُ لَكَ: لَا، وَلَكِنِّي سَأَقُولُهُ! مَاذَا يُمْكِنُكَ إِلَّا أَنْ تَحْكُمَ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ مُصِرٌّ عَلَى الكَذِبِ، أَوْ قُلْ: مُصِرٌّ عَلَى عَدَمِ التَّحَقُّقِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ..؟!

أَلَمْ يَقُلِ المُصْطَفَى ﷺ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[١].

السَّابِعَةُ: أَيُّهَا الخَطِيبُ! اتَّقِ اللَّهَ، وَإِيَّاكَ وَالمُيولَ وَالأَهْوَاءَ: إِنَّ مِنَ الخِيَانَةِ كَذَلِكَ أَنْ أَجْعَلَ مِنْبَرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُسَخَّرًا لِمُيُولِي الحِزْبِيَّةِ، وَمُيُولِي الشَّخْصِيَّةِ عَلَى حِسَابِ بَقِيَّةِ الأَحْزَابِ الأُخْرَى..

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١٢٩١) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، ومسلم في مقدمة صحيحه (٣).

نَعَمْ: لَكَ أَنْ تَعْتَقِدَ مَا تَشَاءُ مِمَّا تَرَاهُ حَقّاً، لَكِنْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ عَلَى المِنْبَرِ أَبْعَدَ مَا تَكُونُ عَنِ المَيْلِ لِرَأْيٍ، أَوْ تَوَجُّهٍ اجْتِهَادِيٍّ، إنَّكَ يَجِبُ أَنْ تُمثِّلَ فِي كلِّ هَؤُلَاءِ الحُضُورِ نُقْطَةَ الاجْتِمَاعِ وَالإِجْمَاعِ، فَالَّذِي جَمَعَ لَكَ هَؤُلَاءِ الحُضُورَ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، وَبِنَصٍّ صَرِيحٍ فِي كِتَابِهِ، فِي سُورَةٍ اسْمُهَا سُورَةُ الجُمُعَةِ.. وَلَمْ تَجْمَعْهُمْ دَعْوَةٌ حِزْبِيَّةٌ، وَلَا مُؤتَمَراتٌ خَطَابِيَّةٌ، وَلَا قَضِيَّةٌ اجْتِهَادِيَّةٌ، ولَا غَيْرُهَا.. وَجَعَلَ سُبْحَانَهُ مَوْقِعَكَ عَلَى المِنْبَرِ مُشْرِفاً عَلَى الجَمِيعِ، وَجَعَلَ المِنْبَرَ فِي الوَسَطِ، فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ وَسَطاً بِحَقٍّ، لَا تَحِيدُ، وَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ أَكْبَرَ مِنْ كُلِّ دَعْوَةٍ لِلتَّوَجُّهِ أَوِ للدِّعَايَةِ الانْتِخَابِيَّةِ أَوِ الدِّعَايَةِ الحِزْبِيَّةِ.. إِنَّهُ اليَوْمُ الجَامِعُ، وَأَيُّ حَيْدَةٍ عَنْ هَذَا الوَسَطِ مِمَّا تَقُولُهُ أَمْرٌ مُفَرِّقٌ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ جَمَعَهُمُ اللَّهُ، فَإِيَّاكَ وَتَنْفِيرَ مَنْ جَمَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي بَيْتِهِ.

فَكَمَا أَنَّ القَاضِيَ يَعْدِلُ حَتَّى فِي نَظْرَةِ عَيْنِهِ إِذَا قَامَ للقَضَاءِ وَالاسْتِمَاعِ، ومَا إِلَى ذَلِكَ، فَإِنَّكَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ كَذَلِكَ وَزِيَادَةً حِينَ تَكُونُ عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

أَيُّهَا الخَطِيبُ! إِيَّاكَ أَنْ يُوهِمَكَ الشَّيْطَانُ بِأَنَّ فِي هَذَا التَّنَازُلِ سُكُوتاً عَنْ مُنْكَرٍ.. لَا وَاللَّهِ، بَلْ إِنَّ المِنْبَرَ مَا وُضِعَ إِلَّا لإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ، وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ عَلَى مَنْهَجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلِجَمْعِ شَمْلِ المُسْلِمِينَ وَتَعَاوُنِهِمْ عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى.

لَكِنَّ المُصِيبَةَ هِيَ أَنْ نُحَوِّلَ اجْتِهَادَاتِنَا إِلَى تَشْرِيعٍ، وَنُدَافِعَ عَنْهَا دِفَاعَنَا عَنِ التَّشْرِيعِ، وَكَأَنَّها وَحْيٌ أَوْحَى اللَّهُ بِهِ إِلَى رَسُولِهِ ﷺ. وَأَحْيَاناً تَظْهَرُ مُخَالَفَةُ الشَّرْعِ لَهَا، فَنَلْوِي عُنُقَ الشَّرْعِ لِيُوَافِقَ اجْتِهَادَاتِنَا بِحُجَّةِ المَصْلَحَةِ الشَّرْعِيَّةِ، وَبِذَا نُحَوِّلُ التَّحَزُّبَ إِلَى التَّشْرِيعِ، وَمِنْهُ إِلَى التَّعَصُّبِ وَالتَّحَزُّبِ.. وَهذَا أَمْرٌ وَاقِعٌ وَمُسْتَفْحَلٌ، وَيَكْفِيكَ أَنْ تَنْظُرَ فِي انْتِخَابَاتِ البَرْلَمَانِ فِي كُلِّ بَلَدٍ مِنْ بِلَادِ المُسْلِمِينَ لَيْسَ دُسْتُورُهُ الإِسْلَامَ!

الثَّامِنَةُ: يَا أَيُّهَا الخَطِيبُ! اتَّقِ اللَّهَ، وَلَا تَسْتَشْرِفِ الدُّنْيَا: إِيَّاكَ أَنْ يَذْهَبَ بِكَ الوَهْمُ بَعِيداً.. وَتُحلِّقَ بِنَفْسِكَ بَعِيداً.. وَتَجْعَلَ مِنْ رِفْعَةِ مَقَامِكَ عَلَى النَّاسِ رِفْعَةً عَنِ النَّاسِ، وَتَجْعَلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ النَّاسِ مَنَازِلَ وَمَقَامَاتٍ، وَأَنَّهُ لَا مُمَاثَلَةَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ! أَوْ أَنَّ لَكَ خُصُوصِيَّةً شَرْعِيَّةً يَجِبُ عَلَى النَّاسِ أَنْ يُؤَدُّوا طُقُوسَهَا كَمَا تُؤَدَّى لِلأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ شَعَائِرُ وَأَقْوَالٌ وَأُعْطِيَاتٌ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ، وَيَشْتَقَّ النَّاسُ لَكَ مَقَاماً دُنْيَوِيّاً مِنَ المَقَامِ الشَّرْعِيِّ..! وَمَا ذَاكَ إِلَّا مِنَ اسْتِشْرَافِ المَزَابِلِ مِنْ عَلَى المَنَابِرِ.. وَاسْتِشْرَافِ أَشْرَفِ النَّاسِ - كَمَا هُوَ المُفْتَرَضُ - لِما يَدْخُلُ وَيَخْرُجُ مِنْ جُيُوبِ النَّاسِ، وَقَدْ قَالَ ﷺ: «إِنَّ مَطْعَمَ ابْنَ آدَمَ جُعِلَ مَثَلًا لِلْدُنيَا وَإِنْ قَزَّحَهُ وَمَلَحَهُ فَانْظُرْ إِلَى مَا يَصِيرُ»(١).

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢٤٨٩) وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في السلسلة الصحيحة (٣٨٢).

إنَّ مَقَامَكَ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ تَهْوِي بِهِ رَاكِعاً بَيْنَ يَدَيْ مَنْ لَوْلَا المِنْبَرُ مَا حُقَّ لَهُ مَوْضِعُ قَدَمٍ فِي مَقَامِهِ. . لَكِنَّ المُصِيبَةَ أَنَّ المَنَابِرَ أَصْبَحَتْ تَتْبَعُ أُولَئِكَ المُضلِّين، كَمَا الأَئمَّةُ المُضِلُّونَ يَتَّبِعُونَ الدَّجَّالَ كَاليَعَاسِيبِ.

إيَّاك أَنْ يَذْهَبَ بِكَ الوَهْمُ فَتُرِيدَ مَقَاماً اعْتِبَارِيّاً.

تَوَاضعْ للَّهِ، وَلَا تَطْلُبْ فِي مُقَابِلِهِ مِنْ أَحَدٍ شَيْئاً، وَلَا تُذِلَّ نَفْسَكَ لِأَحَدٍ.

إيَّاكَ أَنْ تَسْتَشْرِفَ عَيْنُكَ وَجْهاً مِنْ وُجُوهِ حُضُورِكَ. . فَيَقَعَ فِي قَلْبِكَ نَحْوَهُ طَمَعٌ أَوْ رَجَاءٌ، وَأَنْتَ إِنَّمَا تَحُضُّ النَّاسَ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَعَدَمِ الإِشْرَاكِ بِهِ! وَأَنْتَ تَحُثُّهُمْ عَلَى إِيثَارِ الآخِرَةِ، وَتَقْرَأُ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

التَّاسِعَةُ: يَا أَيُّهَا الخَطِيبُ اتَّقِ اللَّهَ وَتَذَكَّرْ جَيِّداً أَنَّ الخَطَابَةَ مَهَمَّةُ الأَنْبِيَاءِ: وَحَاشَا الأَنْبِيَاءَ أَنْ يَكْتُمُوا كَلِمَةَ الحَقِّ، أَوْ يَلْوُوا، أَوْ يُعْرِضُوا، وَأَنَّ أَكْثَرَ مَنْ سَجَّلَ القُرْآنُ عَنْهُمْ خُطَباً فِي أَقْوَامِهِمْ هُمُ الأَنْبِيَاءُ. . وَأَنَّ أَكْثَرَ مَنْ صَاحَ فِي قَوْمِهِ: «يَا قَوْمِ» هُمُ الأَنْبِيَاءُ. . حَقّاً إِنَّ حُضُورَكَ مُسْلِمُونَ، وَخِطَابَ الأَنْبِيَاءِ لِلْمُشْرِكِينَ إِلَّا أَنَّ الجَامِعَ بَيْنَ الاثْنَيْنِ هُوَ الخُطْبَةُ وَالخَطِيبُ، وَأَنَّ كِلَا الاثْنَيْنِ نَاصِحٌ صَادِقٌ لِقَوْمِهِ. . وَأَنَّ كِلَا الاثْنَيْنِ مُكَلَّفٌ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تَعَالَى. . وَكلّ الأَقْوَامِ مَنْصُوحُونَ. .

العَاشِرَةُ: أَيُّهَا الخَطِيبُ! اتَّقِ اللَّهِ، وانْتَظِرْ اخْتِبَارَكَ فِي دَعْوَاكَ:

فَأَنْتَ صَاحِبُ رِسَالَةٍ مِنْ غَيْرِ وَحْيٍ، وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ: أَنْتَ تَابِعٌ لِسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَلِكُلِّ الْمُرْسَلِينَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلَا يُمْكِنُكَ أَنْ تُبَلِّغَ رِسَالَةَ اللَّهِ مَا لَمْ تَتَزَوَّدْ بِزَادٍ عَظِيمٍ مِنَ الثِّقَةِ بِاللَّهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَتَفْوِيضِ الأُمُورِ إِلَيْهِ، وَاتِّبَاعِ شَرْعِهِ مَعَ الرِّضَا بِمَا يَؤُولُ إِلَيْهِ حُكْمُهُ، فَإِنَّ الأُمُورَ لَنْ تَجْرِيَ إِلَى الأَبَدِ (كَمَا تَشْتَهِي).. وَأَنَّهُ لَابُدَّ مِنْ أَنْ تُخْتَبَرَ فِي خَطَابَتِكَ؛ لأَنَّهَا دَعْوَاكَ الَّتِي تَدَّعِيهَا أَمَامَ النَّاسِ، فَإِمَّا أَنْ تَعْرُجَ مِنْ عُلُوِّهَا إِلَى أَعْلَى، وَإِمَّا أَنْ تَسْقُطَ مِنْ عُلُوِّهَا مَنْفِيًّا إِلَى خَارِجِ القُلُوبِ.. فَإِنَّكَ لَا تَكَادُ تَجِدُ مُدَّعِياً إِلَّا اخْتَبَرَ اللَّهُ دَعْوَاهُ، فَمَنْ قَالُوا: لَنَا الدَّارُ الآخِرَةُ مِنْ دُونِ النَّاسِ، اخْتَبَرَهُمُ اللَّهُ، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦].

وَمَنْ أَظْهَرُوا نَدَمَهُمْ عَلَى فَوَاتِ الجِهَادِ قَالَ اللَّهُ لَهُمْ: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٦].

وَمَنْ قَالُوا: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، قَالَ لَهُمُ العَارِفُ بِاللَّهِ: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

وَمَنْ عَاهَدَ اللَّهَ أَنَّهُ إِذَا رَزَقَهُ مَالًا فَسَوْفَ يُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ..

اخْتَبَرَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، فَقَالَ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة: ٧٥، ٧٦] الآيَة.

وَقَدْ **قَالَ اللَّهُ لأَصْدَقِ** أَصْحَابِ الأَنْبِيَاءِ عليهم السلام وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٣].

وَقَالَ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ بَعْدَ مَا فَاتَتْهُ غَزْوَةُ بَدْرٍ: لَئِنْ أَشْهَدَنِيَ اللَّهُ مَشْهَداً آخَرَ لَيَرَيَنَّ اللَّهُ مَا أَصْنَعُ، فَابْتَلاَهُ اللَّهُ بِعَهْدِهِ، فَفَازَ أَيَّما فَوْزٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَفِي أَمْثَالِهِ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

تَذَكَّرْ أَيُّها الخَطِيبُ جَيِّداً: أَنَّ البَلاءَ عَلَى دَعْوَى الثَّبَاتِ عَلَى الحَقِّ وَكَلِمَتِهِ رُبَّما كَانَ شِدَّةً، ورُبَّما كَانَ رَخاءً لِتُدْهِنَ قَلِيلًا ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]، وَهَؤُلاَءِ المَلأ يَتَمَنَّوْنَ أَنْ يَطُوُوكَ تَحتَ عَبَاءَتِهِمْ، وَأَنْ تَتَزَيَّا بِزِيِّهِمْ.. ورُبَّما تَفْرَحُ أَنْتَ بِذَلِكَ.. ورُبَّما يُؤَثِّرُ فِيكَ العَامَّةُ مِنْ كَثْرَةِ حَدِيثِهِمْ فِي الإِكْرَامِ وَالإِنْعَامِ **مِنْ وَلِيِّ نِعْمَتِهِمْ عَلَيْكَ**، وَيُصَوِّرُوا لَكَ أَنَّكَ أَنْتَ الفَائِزُ لأَنَّكَ المُقَرَّبُ المُحَبَّبُ بِتَقْرِيبِ **وَلِيِّ الأَمْرِ إِيَّاكَ!** وَهَا هُوَ خَطِيبُنَا أَصْبَحَ كَذَلِكَ، ورُبَّما تَقَمَّصْتَ دَوْرَ هَؤُلاَءِ العَامَّةِ، فَكَانَ ذَلِكَ

مَدْعاةً لِلتَّفَاخُرِ مِنْ قِبَلك فِي المَجَالِسِ. . ! إِنَّه العَالَمُ الجَدِيدُ الَّذِي تَدْخُلُهُ حِيْنَ تَدْخُلُ تِلْكَ الأَيَاوين. . حَيْثُ تَشْعُرُ بِغِبْطَةِ النَّاسِ لَك. . ورُبَّما هنَّأك، وَسَتَجِدُ مَنْ يَنْصَحُك مِنَ الصَّالِحين بِقَوْلِهِمْ لَكَ: أَنْتَ خَيْرُ مَنْ يُصَاحِبُ هَؤُلَاءِ! ورُبَّما عُرِض مَوْضُوعٌ فِي المَجْلِسِ فَنَصَحْتَ، ورُبَّما طَلَبْتَ لمَشْرُوعٍ خَيْرِيٍّ فَأَعْطَوْكَ مَا تُرِيدُ، ورُبَّما وربَّما. . فَتَذْهَبُ بَعِيداً فِي هَذَا المَيْدَانِ. . وَكُلُّ يَوْمٍ يَمُرُّ لَكَ مَعَهُمْ تَجْلِسُ فِي نِهَايَتِهِ تَحْسِبُ وَتَحْسِبُ وَيَذْهَبُ ذِهْنُكَ يُفْرِزُ مَا جَمَعَ طَوَالَ النَّهَارِ!

وَتَبْدَأُ تُفَكِّرُ بالغَدِ، وَمَا سَيَكُونُ عَلَيْهِ الأَمْرُ، فَتَأْخُذُ وَضْعَكَ فِي المَجْلِسِ كَحَاضِرٍ دَائِمٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الحُضُورِ لَيْسَ إِلَّا، حَتَّى لَوْ ذَكَرْتَ اللَّهَ فِي نَفْسِكَ فَتَبْدَأُ تَرْصُدُ الالْتِفَاتَةَ مِنَ الرَّأْسِ إِلَيْكَ، وَتَحْسِبُ أَحْرُفَ الكَلِمَاتِ الَّتِي تُوجَّهُ إِلَيْكَ، وَتَبْدَأُ تَرْوِيهَا عَنْهُ، وَهَكَذَا يَسْتَمِرُّ هَذَا الأَمْرُ حَتَّى يَسْتَغْرِقَ عَلَيْكَ حَيَاتَكَ. . لَيْلَكَ وَنَهارَكَ. . وَيَذْهَبُ مِنْكَ أَغْلَى مَا فِي عِبَادَتِكَ وَهُوَ رُوحُها - الخُشُوعُ -، وَأَغْلَى مَا عِنْدَ ابْنِ آدَمَ وَهُوَ العَقْلُ، وَأَغْلَى مَا فِيكَ وَهُوَ قَلْبُكَ.

وَلَوْ خَرَجْتَ وَرَاءَ دَوَائِرِ العَاصِفَةِ هَذِهِ خُطْوَةً وَاحِدةً بِفِكْرِك لَرَأَيْتَ أَنَّ العَاصِفَةَ تَرَكَتْ إِيمَانَكَ كَشَجَرِ الخَرِيفِ، أَوْ كَحَصَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ مُخِيف!

وَأَنَّكَ لَوْ نَظَرْتَ لِنَفْسِكَ قَبْلَ هَذَا الدُّخُولِ بِخُطْوَةٍ وَاحِدَةٍ لَغَبَطْتَ نَفْسَكَ

عَلَى مَا آلَتْ إِلَيْهِ أُمُورُكَ، وَأَنَّ مَهْلَكَتَكَ كَانَتْ بِإِقْنَاعِكَ بِالْخُرُوجِ مِنْ حِصْنِكَ وَالدُّخُولِ فِي حِصْنِهِمْ، وَبِذَا أَصْبَحْتَ بِلَا حِصْنٍ وَلَا حِرَاسَةٍ. لَا تَحْسَبَنَّ نَبِيّاً لَمْ تُعْرَضْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا.. لَا تَحْسَبَنَّ نَبِيّاً لَمْ يَتَحَايَلْ قَوْمُهُ عَلَى دِينِهِ بِالأَسَالِيبِ الهَيِّنَةِ اللَّيِّنَةِ.. يَكْفِيكَ أَنْ تَقْرَأَ كَيْفَ تَحَايَلَ عَتَاوِلَةُ قُرَيْشٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَعَلَى هَذَا تَمُرُّ سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى لِيَتَعَرَّضَ أَتْبَاعُ الأَنْبِيَاءِ لِمَا تَعَرَّضَ لَهُ الأَنْبِيَاءُ.. وَكَمْ يَتَسَاقَطُ أَئِمَّةٌ وَقُرَّاءٌ وَدُعَاةٌ وَعُلَماء فِي هَذَا الفَخِّ.. كَمْ يُطْعَمُونَ فَيَخْجَلُونَ، كَمْ تُقْضَى حَوَائِجُهُمْ، وَتُلَبَّى شَفَاعَاتُهُمْ، وَيُعْطَوْنَ لِأَعْمَالِ الخَيْرِ، وَتُكْفَلُ مَشَارِيعُهُمْ.. وَنَتِيجَةً لِذَلِكَ تُحْبَسُ أَلْسِنَتُهُمْ عَنْ إِنْكَارِ مُنْكَرٍ ظَاهِرٍ تَرَاهُ أَعْيُنُهُمْ.. وَتُقَيَّدُ أَقْلَامُهُمْ.. فَيَقَعُونَ فِي حَرَجٍ مَعَ النَّاسِ الآمِرِينَ النَّاهِينَ، وَرُبَّمَا تَحَوَّلَ هَؤُلَاءِ الخُطَبَاءُ وَأَمْثَالُهُمْ إِلَى مُسَوِّغِينَ مُعْتَذِرِينَ.. وَفِي النِّهَايَةِ لَابُدَّ أَنْ يَصْدِمُوا هُمْ أَنْفُسَهُمْ مَعَ الآمِرِينَ النَّاهِينَ بَعْدَ مَا كَانُوا يَوْماً هُمُ الآمِرُونَ النَّاهُونَ! ثُمَّ لَابُدَّ أَنْ يُصْبِحُوا فِي نِهَايَةِ الأَمْرِ حِصْناً دُونَ المُنْكَرَاتِ وَأَصْحَابِهَا.

وَهَذَا أَعْظَمُ عِقَابٍ لَهُمْ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى خَيْرٍ، بَلْ يَحْسَبُونَ خَيْرَهُمُ اليَوْمَ أَعْظَمَ!

فَكَمَا كَانَ سَبَبُ شَرَفِهِمْ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ المِنْبَرَ، فَلَمْ يُؤَدُّوا حَقَّ شُكْرِ اللَّهِ عَلَى نِعْمَتِهِ هَذِهِ فَقَدْ سَلَبَهُمُ اللَّهُ شَرَفَ المِنْبَرِ مِنْ بَابِ القَصْرِ حِينَ دَخَلُوهُ.

وَرِجالٌ أَدْخَلَهُمُ اللَّهُ بِالْقُرْآنِ القُلُوبَ، فَلَمْ يُؤدُّوا شُكْرَ نِعْمَتِهِ، فَقَدْ أَخْرَجَهُمْ مِنَ القُلُوبِ مِنْ بَابِ التَّرَنُّمِ وَالتَّطْرِيبِ الَّذِي رَجَوْا بِهِ العُلُوَّ وَالتَّقْرِيبَ.. فَنُزِعَتْ مَحَبَّتُهُمْ مِنْ قُلُوبِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ.. وَأَصْبَحُوا مَثَارَ العَزَاءِ وَالرِّثَاءِ، وَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ جَمَعُوا بَيْنَ العِزِّ وَالثَّراءِ.. لفَظَتْهُمُ القُلُوبُ المُؤْمِنَةُ كَمَا تَلْفِظُ مَكَّةُ وَالمَدِينَةُ كُلَّ مُنَافِقٍ وَمُنَافِقَةٍ، وَهُمْ مَا عَادُوا يَهْتَمُّونَ إِلَّا بِالقُلُوبِ المُنَافِقَةِ الَّتِي الْتَحَقُوا بِهَا كَمَا الْتَحَقَ مُنَافِقُو المَدِينَةِ بِالدَّجَّالِ الَّذِي يَنْتَظِرُهُمْ خَارِجَ مَكَّةَ وَالمَدِينَةِ.

أَيُّهَا الخَطِيبُ! اتَّقِ اللَّهَ: لَا يَعْنِي هَذَا أَنَّكَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ مُثِيراً لِلفِتْنَةِ، مُوغِراً لِلصُّدُورِ، نَاقِلًا كُلَّ نَقْدٍ، نَاقِماً عَلَى كُلِّ شَيءٍ، مِنْبَرَ فَضِيحَةٍ وَإِثَارَةٍ..

لَا، وَلَكِنَّكَ النَّاصِحُ المُحِبُّ.. الهَيِّنُ اللَّيِّنُ السَّهْلُ القَرِيبُ، كُلُّ ذَلِكَ فِي شَخْصِكَ وَخُلُقِكَ وَوَسَائِلِكَ الَّتِي تَتَّخِذُهَا.. أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلتَّنَازُلِ عَنْ مَبَادِئِكَ.. عَنْ كَلِمَةِ الحَقِّ.. عَنِ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، فَذَلِكَ مَا لَا تَمْلِكُهُ أَنْتَ.. وَإِذَا مَا فَعَلْتَ فَقَدْ خَلَطْتَ مَا بَيْنَ الحُقُوقِ الشَّخْصِيَّةِ وَالحُقُوقِ الشَّرْعِيَّةِ، وَهَذِهِ طَامَّةٌ يَقَعُ فِي مَصْيَدَتِهَا الكَثِيرُ الكَثِيرُ مِنَ الخُطَبَاءِ وَأَهْلِ العِلْمِ وَطُلَّابِهِ!

أَيُّهَا الخَطِيبُ! اتَّقِ اللَّهَ: فَإِنَّ حَقَّكَ شَيءٌ، وَحَقَّ اللَّهِ شَيءٌ آخَرُ،

قَبُولُ نُصْحِكَ فِي السِّرِّ شَيءٌ، وَمُجَاهَرَتُهُمْ بِالمُنْكَرَاتِ شَيءٌ آخَرُ..

إنَّ المُقَايَضَةَ هُنَا مَرْفُوضَةٌ.. وَإِنَّ الحُقُوقَ الشَّخْصِيَّةَ لَا تَكُونُ كُفْئاً لِلحُقُوقِ الشَّرعيَّةِ.. وَإِنَّ قَبُولَهمْ شَفَاعَاتِكَ أَوْ كَفَالَاتِهِمْ لِمَشَارِيعِكَ أَوْ مَشَارِيعِ غَيْرِكَ لَيْسَ عُرْبُوناً مَقْبُولًا لِسُكُوتِكَ عَنْ إِنْكَارِ فَتْحِهِمْ أَبْوَابَ مُنْكَراتٍ تَعُمُّ وَتَطُمُّ!

نَعَمْ، إِنَّهُ مَوْقِفٌ عَصِيبٌ.. رُبَّما يَصِلُ لِدَرَجَةِ المُفَاضَلَةِ بَلْ المُفَاصَلَةِ! هُتَافٌ مِنْ دَاخِلِ نَفْسِكَ يَقُولُ لَكَ: أَيُحْسِنُ لَكَ الرَّأْسُ وَتَرُدُّ إِحْسَانَهُ؟! أَيُغْدِقُ عَلَيْكَ وَتُنْكِرُ عَلَيْهِ؟! أَيتَكَفَّلُ بِمَشَارِيعِكَ وَتَعْتَرِضُ عَلَى مَشَارِيعِهِ؟! أَيَعْمَلُ كُلَّ الخَيْرَاتِ، ثُمَّ تُهَاجِمُ دُسْتُورَهُ الوَضْعِيَّ؟! هَكَذَا يُهَاجِمُكَ حَتَّى مَنْ يَعْرِفُكَ.. مَنْ كَانَ بِالأَمْسِ يَحضُّكَ عَلَى التَّقرُّبِ وَالاقْتِرَابِ.. يُهاجِمُونَكَ حَتَّى لَا تَكَادَ تَجِدُ فِي صَفِّكَ أَحَداً يُذكَرُ.. هُنَا يَعْظُمُ البَلَاءُ.. وَيَتَقَدَّمُ نَحْوَكَ الابْتِلاءُ مَا دُمْتَ مُصِرّاً عَلَى إِنْكَارِكَ مُنْكَرَاتِهِ... فيا أَيُّها الخَطِيبُ! اتَّقِ اللَّهَ: وَلْتَكُنْ عِنْدَهَا أَعْظَمَ مَا تَكُونُ اسْتِحْضَاراً لآيَاتِ التَّوكُّلِ عِنْدَ الأَنْبِيَاءِ.. آيَاتِ التَّفْوِيضِ المُطْلَقِ لأَمْرِكَ للَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ، تَذكَّرْ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طـه: ٤٦، ٤٧]، تَسْتَحْضِرُ كَلِمَاتِ اللَّهِ تَسُوقُ مَوَاقِفَ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلام اسْتِحْضَارَ

المُحْتَاجِ لَها، المُعَايِشِ لِظَرْفِهَا، وَكَأَنَّهَا ظَرْفُكَ.. تَفهَّمْ مَعَانِيهَا كَأَنَّهَا أُنْـزِلَتْ عَـلَيْـكَ: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٠ - ١٤].

تُعَايِشُ فِكْرَكَ وَرُوحَكَ - وَأَنْتَ فِي مَعْمَعَةِ الصِّرَاعِ - آيَاتُ اللَّهِ:
﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ

ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١ - ٢٠١].

وكَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

تَفَكَّرْ جَيِّداً فِيمَا تَقْرَؤهُ فِي كلِّ جُمعَةٍ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ١- ٣]، وَفِي الثَّانِيَةِ تَقرَأُ قَوْلَهُ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: ١].

الحَادِي عَشْرَ: أَيُّهَا الخَطِيبُ، اتَّقِ اللَّهَ وإيَّاكَ وَخَلْطَ الحَقِّ الشَّرْعِيِّ بِالحَقِّ الشَّخْصِيِّ: رُبَّما تَكُونُ عِندَكَ فِي البَيْتِ قَضِيَّةُ عُقُوقٍ مِنْ أَحَدِ الإخْوَةِ لأَبِيكَ، فَتُلْغِي الحَدِيثَ فِي خُطْبَةِ الجُمُعَةِ لأَجْلِ هَذَا الأَمْرِ، وَذَلِكَ لأَنَّ المَوْضُوعَ شَخْصِيٌّ مَعَ عِلْمِكَ بِكَثْرَةِ وُقُوعِ العُقُوقِ فِي مُجْتَمَعِ، وَأَنَّهُ مَوْضُوعٌ مُلِحٌّ..!

رُبَّما يَكُونُ وَالِدُ الخَطِيبِ يَشْرَبُ الخَمْرَ، وَيَكُونُ الخَمْرُ فِي البَلَدِ مَسْمُوحاً بِبَيْعِهِ.. وَرُبَّما يَكُونُ نَفْسُ هَذَا الأَمْرِ حَادِثاً فِي الرِّبَا، أَوْ فِي الزِّنَا، أَوْ فِي التَّزْوِيرِ، أَوْ فِي الرِّشْوَةِ، فَتَتْرُكُ الخُطْبَةَ فِي أيِّ كَبِيرَةٍ مِنْ هَذِهِ الكَبَائِرِ وَأَمْثَالِهَا لِأَجْلِ هَذَا الأَمْرِ الشَّخْصِيِّ، تَتْرُكُهُ لِئَلَّا يَحمِلَ هَذَا الشَّخْصُ فِي نَفْسِهِ عَلَى شَخْصِكَ كَخَطِيبٍ، أَوْ يَحْسِبَ الحَدِيثَ عَنْ نَفْسِهِ خَاصَّةً، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ...! وَهَذِهِ خَطِيئَةٌ؛ لِأَنَّك تَرَكْتَ المُنْكَرَ الأَكْبَرَ، تَرَكْتَ بَيَانَ الاسْتِبَاحَةِ.. تَرَكْتَ المُنْكَرَ الأَعَمَّ الأَشْمَلَ.. لِأَجْلِ بَيْتِكَ أَوْ صَحْبِكَ، إِذاً، فَمَنْ سَيُنْكِرُ المُنْكَرَاتِ العَامَّةَ.. مَنْ سَيَقُومُ بِحَقِّ اللَّهِ فِي المُجْتَمَعِ...؟! أَهُمُ المَقْطُوعُونَ.. أَمْ هُمُ الكَلَالَةُ.. أَمْ هُمْ مَلَائِكَةٌ تَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ.. يَمْشُونَ فِي الأَرْضِ مُطْمَئِنِّينَ؟! إِذَا سَكَتَ هَذَا الخَطِيبُ وَذَاكَ، وَمَاتَ هَذَا الخَطِيبُ وَذَاكَ، أَوْ مَاتَ مَنْ كَانَ يَعْمَلُ مِنَ النَّاسِ بِهَذَا الأَمْرِ.. فَمَنْ يَتَحَمَّلُ هَذَا الوِزْرَ؟!

وَفِي حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنِ الْتَمَسَ رِضَى اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَرْضَى النَّاسَ عَنْهُ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ»(١). إِنَّ صَاحِبَ كَلِمَةِ الحَقِّ يَعْذُرُهُ أَهْلُهُ قَبْلَ

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٢٧٦)، وجوَّد إسناده ابن مفلح في الآداب الشرعية(١/ ١٦٤)، وحسنه شعيب الأرنؤوط، وقال الألباني: صحيح لغيره، انظر صحيح الترغيب والترهيب (٢٢٥٠).

غَيْرِهِ؛ لأَنَّهُمْ أَعْرَفُ النَّاسِ بِأَنَّهُ لَا يَسْكُتُ عَنْ مُنْكَرٍ، وَإِنْ لَمْ يَعْذُرُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَوْفَ يَتأَقْلَمُونَ ويَتكَيَّفُونَ.. وَسَوْفَ يَغْلِبُ صِدْقُكَ حَسَاسِيَّتَهُمْ.

الثَّانِي عَشَرَ: أَيُّهَا الخَطِيبُ! اتَّقِ اللَّهَ وَكُنْ وَسَطاً : كُنْ وَسَطاً فِي النَّظَرِ إِلَى المَعْرُوفِ وَالمُنْكَرِ، فَلَا تَكُنْ خَارِجِيّاً، وَلَا تَكُنْ إِرْجَائِيّاً.. وَلَا تَكُنْ طَرَفاً مِنَ الأَطْرَافِ، وَلَكِنْ كُنْ وَسَطاً.. وَسَطاً بَيْنَ الأَطْرَافِ.

وَلَا تُقِيمَنَّ خُطْبتَكَ عَلَى رِدَّةِ الفِعْلِ العَاجِلَةِ.. فَمَا أَكْثَرَ مَا يَنْدَمُ المُتعَجِّلُونَ! وَمَا أَكْثَرَ مَا يَفْتَضِحُونَ! وَمَا أَكْثَرَ مَا يَرْجِعُونَ وَيَعْتَذِرُونَ! اسْتَوعِبْ خُطْبَتَكَ جَيِّداً.. خُذْ مَوْضُوعَكَ الَّذِي أَثَارَكَ أَوَّلًا، ثُمَّ تَحقَّقْ مِنْهُ بِحَيْثُ لَا يَبْقَى عِنْدَكَ مَجالٌ لِلشَّكِّ، ثُمَّ انْظُرْ لَهُ بِنَظَرِ المُنْتَقِدِ القَادِحِ لَا بِنَظَرِ المُعْجَبِ المَادِحِ.. وَخُصُوصاً إِذَا كَانَتِ الخُطْبَةُ مَبْنِيَّةً عَلَى مَوَاضِيعِ صَحَافَةٍ أَوْ أَخْبَارٍ، أَوْ تَقَارِيرَ، أَوِ اكْتِشَافَاتٍ عِلْمِيَّةٍ إِعْجَازِيَّةٍ حَدِيثَةٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ.. فَمَا أَكْثَرَ مَا تَكُونُ التَّقَارِيرُ كَاذِبَةً! وَمَا أَكْثَرَ مَا تَكُونُ مُؤَلَّفَةً مُصْطَنَعَةً! وَمَا أَكْثَرَ مَا تَكُونُ مُجْتَزَأَةً..! وَمَا أَكْثَرَ مَا تَكُونُ قَاصِرَةً..! فَإِنَّ سَبَبَ ذَلِكَ هُوَ الاعْتِمَادُ الكُلِّيُّ عَلَى وَكَالَاتِ الإِعْلَامِ، وَهِيَ يَهُودِيَّةٌ بِنِسْبَةٍ عَالِيَةٍ جِدّاً..! وَهَذَا لَا يَعْنِي أَنْ مَطْلُوبَنَا هُوَ رَدُّ كلِّ شَيءٍ، وَلَكِنْ يَعْنِي مَزِيدَ التَّحقُّقِ، فَإِنَّ مَنْ طَلَبَ الحَقَّ - بِإِذْنِ اللَّهِ - أَدْرَكَهُ، وَإِنَّ مَنْ

جَعَلَ مَنْهَجَهُ التَّحَقُّقَ وَمَرْجِعَهُ: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]، لم يَضْحَكْ عَلَيْهِ هَؤُلَاءِ، كَما لَمْ يَرُدَّ كُلَّ مَا يَأْتِي مِنْهُمْ؛ لأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَالَ: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: (فَتَثَبَّتُوا)، وَمَا قَالَ: فكَذِّبُوا أَوْ فَرُدُّوا.

أَيُّهَا الخَطِيبُ! اتَّقِ اللَّهَ: وَكُنْ وَسَطاً فِي الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ مِنْ حَيْثُ الفَاعِلِونَ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَتَغَاضَى عَنْ مُنْكَرَاتِ المَسَاجِدِ، وَمَا فِيهَا مِنْ بِدَعٍ، وَتَحْصُرَ إِنْكَارَكَ عَلَى مُنْكَرَاتِ الأَسْوَاقِ وَالشَّوَارِعِ وَالفَنَادِقِ! وَإِيَّاكَ أَنْ تُرَكِّزَ عَلَى مُنْكَرَاتِ المَسَاجِدِ حَتَّى كَأَنَّ كُلَّ عُبَّادِنَا مُبْتَدِعَةٌ، وَالمَسَاجِدَ أَوْكَارُ ضَلَالَةٍ..

إِيَّاكَ أَنْ تُرَكِّزَ عَلَى مُنْكَرَاتِ الشَّوَارِعِ وَالسَّوَاحِلِ والإِعْلَامِ.. وَتَتَغَافَلَ عَنِ مُنْكَرَاتِ أَهْلِ العِلْمِ وَالدَّعْوَةِ إِذَا ظَهَرَ مِنْهُمْ المُنْكَرُ وَدَعَوْا إِلَيْهِ! أَوْ ظَهَرَ مِنْهُمُ النِّفَاقُ وَهَرَعوا إِلَيْهِ، وَلَا العَكْسُ كَذلِكَ! إِيَّاكَ أَنْ تَقْتَصِرَ عَلَى إِنْكَارِ مُنْكَرَاتِ الشِّرْكِ بِاللَّهِ فِي التَّشْرِيعِ وَالتَّحَاكُمِ وَالمَحَاكِمِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ، وَتَنْسَى إِنْكَارَ مُنْكَرَاتِ الشِّرْكِ بِاللَّهِ فِي عِبَادَةِ القُبُورِ، وَالطَّوَافِ حَوْلَ الأَضْرِحَةِ وَالنَّذْرِ لَها، واعْتِقَادِ نَفْعِهَا وَضُرِّهَا، أَوْ تَنْسَى مُنْكَرَاتِ السَّحرَةِ وَالسِّحْرِ وَالدَّجلِ والشَّعْوَذَةِ!

إِنَّهُ مِيزَانٌ لَا يَقْبَلُ التَّطْفِيفَ، وَلَا يُطفِّفُ فِيهِ إِلَّا مَنْ حَسَبَ حِسَابَ مَصْلَحَةِ نَفْسِهِ أَوْ غُشَّ فِي مَنْهَجِهِ.

الثَّالِثَ عَشْرَةَ: أَيُّهَا الخَطِيبُ اتق اللَّه... الحِكْمَةَ الحِكْمَةَ:

كُلُّنَا نُنَادِي بِالحِكْمَةِ، لَكِنْ مَنْ ذَا الَّذِي يُمَارِسُهَا... مَنْ يُمَارِسُهَا مَعَ قَوْلِ كَلِمَةِ الحَقِّ؟! تَرى المُنْكَرَاتِ فِي بَلَدِكَ أَحْيَاناً، فَتَأْمُرُ وَتَنْهَى، فَجَزَاكَ اللَّهُ خَيْراً، لَكِنْ يَأْتِي شَيْطَانٌ مِنْ شَيَاطِينِ البَاطِنِيَّةِ مَثَلًا فِي بَلَدٍ تَغَلْغَلَ فِيهِ عُمَلَاؤُهُ، فَيُثِيرُ الإِنْكَارَ، وَيُهَوِّلُ تِلْكَ المُنْكَرَاتِ، وَيَذْكُرُهَا بِالأَرْقَامِ وَالأَحْدَاثِ، فَيَمْلأُ القُلُوبَ سَوَاداً وَنِقْمَةً عَلَى الحَاكِمِ، وَيَذْهَبُ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى لِلحَاكِمِ، وَيُظْهِرُ حِقْدَ هَؤُلَاءِ الصَّالِحِينَ عَلَيْهِ، وَيَجْلِسُ هُوَ كَالنَّاصِحِ لَهُ، حَتَّى يَكُونَ هُوَ الثِّقَةَ المُوَثَّقَ المُحَبَّبَ المُقَرَّبَ، صَاحِبَ المَشُورَةِ المُجَرَّبِ، فَيَحُوزُ الحِرَاسَةَ وَالتَّوْجِيهَ الخَفِيَّ، فَيُلْبِسُ الحَاكِمَ نَظَّارَتَهُ، حَتَّى يَنْظُرَ لِشَعْبِهِ وَأَهْلِهِ وَرَعِيَّتِهِ عَلَى أَنَّهُمْ خُصُومُهُ وَالمُتَرَبِّصُونَ بِهِ!

هُنَا يَنْبَغِي أَنْ نُفَوِّتَ عَلَيْهِ مُخَطَّطَهُ، وَنَجْرِي فِي غَيْرِ خَطِّهِ، وَنُسِرَّ بِالنَّصِيحَةِ، وَنَتَوَحَّدَ عَلَى مَرْضَاةِ اللَّهِ وَحِمَايَةِ الأَرْضِ وَالأَهْلِ وَالعِرْضِ وَالوَطَنِ مِنْ هَؤُلَاءِ، فَمَا أَعْظَمَ المَنَاحَاتِ الَّتِي حَلَّتْ فِي بِلَادِ الإِسْلَامِ بِسَبَبِهِمْ مِنْ قَبْلُ... قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤفَكُونَ! وَهُنَا يَجِبُ أَنْ نَسْتَذْكِرَ: لَا تُعِينُوا الشَّيْطَانَ عَلَى أَخِيكُمْ.. عَلَى بَلَدِكُمْ .. عَلَى أَعْرَاضِكُمْ وَدِينِكُمْ!، نَعَمْ يَجِبُ أَلَّا نَتْرُكَ النَّصِيحَةَ، وَلَكِنْ رُبَّمَا يَتَغَيَّرُ الأُسْلُوبُ، وَرُبَّمَا تَأَجَّلَ بَعْضُ الإِنْكَارِ، ورُبَّما يَكُونُ المَخْرَجُ عَلَى

أَيْدِي الخُطَبَاءِ، وَلَجْنَةِ وُجَهَاءِ يُقَرِّبُونَ النَّظَرَ، وَيُظْهِرُونَ حَقِيقَةَ هَؤُلَاءِ اللِّواذِ المُتَخَلِّلِينَ فَيُخرِجُونَهُم، وَيَنْزِعُونَ الفَتِيلَ، وَيقَعُ التَّوَافُقُ عَلَى البِرِّ والتَّقْوَى، لَا عَلَى الإِثْمِ وَالعُدْوَانِ.

وَمِنَ الحِكْمَةِ هُنَا أَنْ لَا يَطْعَنَ الخَطِيبُ فِيمَنْ خَالَفَهُ مِنَ العُلَمَاءِ، وَلَا يُشَهِّرَ بِهِمْ، وَخُصُوصاً فِي أَوْقَاتِ الفِتَنِ، إِلَّا إِذَا لَمْ يَحْتَمِلِ الأَمْرُ السُّكُوتَ أَبداً، لَا، بَلْ يَحْتَاطُ أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ، فَإِنَّ الأَعْدَاءَ مَا دَخَلُوا بِلَادَ العَرَبِ المُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ فَتَحُوا ثَغْرَةً، وَكَانَتْ تِلْكَ الثَّغْرَةُ بِالطَّعْنِ فِي العُلَمَاءِ، وَالتَّشْهِيرِ بِهِمْ فِي الخِطَابَاتِ وَالرَّسَائِلِ، وَكَذَا الطَّعْنُ عَلَى بَعْضِ مَنْ تَولَّى المُوَاجَهَةَ، وَكَانَ بِالإِمْكَانِ تَفْوِيتُ الفُرْصَةِ، وَتَأْجِيلُ هَذَا لإِنْكَارِ المُنْكَرِ لِئَلَّا تُصْبِحَ بِلَادُنَا كَمَا أَصْبَحَتْ تِلْكَ البِلَادُ المُسْلِمَةُ - كَمَا نَرَاهَا اليَوْمَ - مَلْعَباً لِلبَاطِنِيِّينَ وَاليَهُودِ وَالنَّصَارَى!

لَابُدَّ مِنَ الحِكْمَةِ الَّتِي تَسْتَخْرِجُ البَدِائِلَ النَّافِعَةَ لِلنَّاسِ مِنْ وَسَطِ حُقُولِ الأَلْغَامِ، وَيَعدو الأَمَلِ مِنْ عمقِ الإِيَاسِ(١).

---

(١) من المفيد هنا جدًّا أن يقرأ القارئ «اصطناع عقلية البدائل النافعة» من كتابنا «الغراس».

الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: يَا أَيُّهَا الخَطِيبُ! اتَّقِ اللَّهَ، وَابْعَثِ الأَفْكَارَ مِنْ مَعِينِ المَحَبَّةِ: إِنَّ مُرَادَ الإِسْلَامِ الرَّحْمَةُ وَالخَيْرُ، وَإِنَّ مَقْصُودَ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ لَيْسَ هُوَ النَّقْدَ المُجَرَّدَ وَالنِّقْمَةَ المُحْتَقِنَةَ الَّتِي تَكَادُ تَنْفَجِرُ، وَإِنَّمَا الرَّحْمَةُ وَالهِدَايَةُ إِنَّكَ لَا تَكَادُ تَجِدُ حِوَارَ نَبِيٍّ مَعَ قَوْمِهِ وَإِنْكَارِهِ عَلَيْهِمْ فِي القُرْآنِ إِلَّا وَالنَّبِيُّ يُظْهِرُ رَحْمَةَ اللَّهِ بِهِمْ، وَلُطْفَهُ سُبْحَانَهُ، وَمَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ الخَيْرِ إِنْ هُمُ اسْتَجَابُوا، فَقَالَ سُبْحَانَهُ عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي خِطَابِهِ لِقَوْمِهِ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠ - ١٢]، وقال سُبْحَانَهُ عَنْ دَاعِي الجِنِّ: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٣١، ٣٢].

يَجِبُ أَنْ تَقُولَ ذَلِكَ وَأَنْتَ تَعِيشُ مِنْ أَعْمَاقِكَ مَحَبَّةَ الخَيْرِ لِقَوْمِكَ.. مَحَبَّةَ مَنْ يَفْدِيهِمْ بِرُوحِهِ لِيَهْتَدُوا.. مَحَبَّةَ مَنْ يُضَحِّي بِنَفْسِهِ فِي المَخَاطِرِ لأَجْلِهِمْ لِيَنْجُوا.. مَحَبَّةَ مَنْ يُجَازِفُ لأَجْلِهِمْ.. مَحَبَّةَ مَنْ يَدْرَأُ عَنْهُمْ بِصَدْرِهِ وَنَحْرِهِ.. مَحَبَّةَ مَنْ لَا يُرِيدُ فِي مُقَابِلِ كُلِّ ذَلِكَ أَيَّ مَادَّةٍ، وَلَا عُلُوّاً فِي الدُّنْيَا.. مَحَبَّةً تُغْرِقُ حِقْدَ الحَاقِدِينَ وَتُحْرِجُهُمْ وَتَفْضَحُهُمْ.. مَحَبَّةَ النَّاقِدِ البَصِيرِ.. المُحِبِّ العَاقِلِ..

مَحبَّةَ الَّذي يَفِيضُ مَحبَّةً حِينَ يَكُونُ فِي ذِرْوَةِ إِنْكَارِهِ الْمُنْكَرَ.. فَالمُحِبُّ الصَّادِقُ مَنْ لَا يتمنَّى لَهُمُ الهَلَاكَ، وَيَهْتِفُ بربِّه، وَهُمْ فِي ذِرْوَةِ إِيذَائِهِ: «اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

كَيْفَ لَا وَهُوَ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ رَبٍّ غَفُورٍ، رَحِيمٍ، وَدُودٍ، قَرِيبٍ: يَفْرَحُ سُبْحَانَهُ فَرَحاً لَا مِثْلَ لَهُ، وَلَا عِدْلَ لَهُ بِتَوْبَةِ مَنْ أَشْرَكَ بِهِ وَمَنْ أَسْرَفَ عَلَى نَفْسِهِ بِالزِّنَا وَالسَّرِقَةِ وَفِعْلِ الْمُنْكَرَاتِ، كَمَا قَالَ المُصْطَفَى ﷺ: «للَّهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ أَحدِكُمْ مِنْ أَحَدِكُمْ بِضَالَّتِهِ إِذَا وَجَدَهَا»[1].

كَيْفَ وَهُوَ سُبْحَانَهُ الَّذِي يُخَاطِبُ عِبَادَهُ الْمُسْرِفِينَ، فَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]؟ كَيْفَ يَتمنَّى لَهُمُ الهَلَاكَ وَهُوَ مِنْ أُمَّةِ مَنْ طُرِدَ مِنْ قَوْمِهِ وَأُخْرِجَ، وضُرِبَ مِنْ قَوْمٍ آخَرِينَ، وَأُخْرِجَ، وَرُجِمَ بِالحِجَارَةِ، وَهُوَ إِذْ ذَاكَ يَأْتِيهِ مَلَكُ الجِبَالِ مَعَ جِبْرِيلَ، فَيَقُولُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «... يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ

(١) رواه مسلم في صحيحه (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ: ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ» فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً»(١).

إِنَّها المَحَبَّةُ الصَّادِقَةُ الَّتِي تَجْعَلُ صَاحِبَهَا يُحَذِّرُهُمْ وَيُنْذِرُهُمْ وَيُبَشِّرُهُمْ وَإِن رَأَى عَلَامَاتِ الهَلَاكِ.. فَكَيْفَ يُسَوِّدُ المُسْتَقْبَلَ فِي وُجُوهِهِمْ، أَوْ يُعَامِلُهُمْ كَأَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ، بَلْ يَفْتَحُ لَهُمْ بَابَ الأَمَلِ، وَطَرِيقَ الخَلَاصِ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ»(٢).

المُحِبُّ الصَّادِقُ مَنْ لَيْسَ مَنْهَجُهُ الإِحْبَاطَ وَلَا التَّحْبِيطَ.. فَكَثِيراً مَا تَجِدُ خُطَبَاءَ لَيْسَ لَدَيْهِمْ مِنْ عَالَمِ الخَطَابَةِ إِلَّا نَبْرَةَ العِتَابِ، وَمُصْطَلَحَاتِ المَلَامَةِ عَلَى النَّاسِ، وَالنَّعِيقَ المُسْتَعْجِلَ عَلَى مَصَايِرِهِمْ! فَلَا تَسْمَعُ فِي قَامُوسِهِ إِلَّا: مَنْ نَحْنُ؟! أَيْنَ نَحْنُ؟ فَكَيْفَ بِنَا وَنَحْنُ فِي زَمَنِ الفِتَنِ وَالرِّدَّةِ وَ..؟ وَهَكَذَا حَتَّى لَكَأَنَّ ظُلَّةَ عَذَابِ قَوْمِ يُونُسَ نَزَلَتْ وَحَقَّتْ، وَلَا رَافِعَ لَها أَبَداً! رُبَّما قَالَ بَعْضَ هَذِهِ الأَلْفَاظِ بَعْضُ العُلَمَاءِ أَثْنَاءَ شَرْحِ حَدِيثٍ، أَوْ فِي ظِلِّ مَوْقِفٍ مَا.. أَمَّا أَنْ تُصْبِحَ مَنْهَجاً وَطَرِيقَةً.. فَلَا!

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها. رواه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٢٦٢٣).

وَلَقَدْ جَرَّبْتُ أُسْلُوبَيْنِ؛ التَّشْدِيدَ عَلَى النَّاسِ، وَأُسْلُوب فَتْح أَبْوَابِ الأَمَلِ، فَمَا وَجَدْتُ بَيْنَهما مُقَارَبَةً.. حَقّاً إِنَّ بَعْضَ النُّفُوسِ يُصْلِحُهَا هَذَا، وَبَعْضَ النُّفُوسِ يُصْلِحُهَا ذَاكَ الأُسْلُوبُ، لَكِنْ مَنْ يُصْلِحُهُمْ فَتْحُ أَبْوَابِ الأَمَلِ وَالتَّرْغِيبِ أَكْثَرُ بِكَثِيرٍ.. وَلِهَذَا أَسْبَابُهُ الوَجِيهَةُ:

فَالأَوَّلُ: هُوَ أَنَّكَ لَا تَكَادُ تَجِدُ خَطِيباً إِلَّا وَهُوَ يُشَدِّدُ عَلَى النَّاسِ، وَرُبَّما يُقَنِّطُهُمْ وَيُحَبِّطُهُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَشْعُرَ، فَإِذَا ظَهَرَ مَنْ يَتَبَنَّى الوَجْهَ الآخَرَ بِفَتْحِ الأَمَلِ وَالتَّرْغِيبِ وَإِحْسَانِ الظَّنِّ وَجَدْتَ قَبُولَ العُصَاةِ عَلَيْهِ كَبِيراً.

وَالثَّانِي: لَوْ فَرَضْتَ أَنَّ أَمَامَكَ شَخْصَيْنِ مِنَ الحُضُورِ، كِلَاهُمَا مُفرِّطٌ فِي جَنْبِ اللَّهِ، وَقَدْ خَطَبْتَ خُطْبَتَيْنِ، إِحْدَاهُمَا كَانَتْ أَمَلًا وَتَرْغِيباً عَظِيماً، وَالثَّانِيَةُ كَانَتْ تَرْهِيباً وَتَشْدِيداً... فَإِنَّ أَسْوَأَ نَتَائِجِ خُطْبَةِ التَّرْغِيبِ أَنْ يَزْدَادَ هَذَا الفَاشِلُ بِالْفَسَادِ، وَأَمَّا قُصَارَى خُطْبَةِ التَّشْدِيدِ فَإِنَّهَا قُنُوطُ هَذَينِ الشَّخْصَينِ كَمَا يَقْنُطُ غَيْرُهُمَا، هَذَا بِالإِضَافَةِ إِلَى أَنَّ الحَقِيقَةَ الَّتِي وَجَدْتُهَا هِيَ أَنَّ التَّرْغِيبَ يَأْتِي بِالقُلُوبِ أَكْثَرَ مِنَ التَّرْهِيبِ، وَالتَّذْكِيرَ بِالنِّعَمِ يَأْتِي بِهَا أَكْثَرَ مِنَ التَّهْدِيدِ بِالنِّقَمِ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ إِلَّا اسْتَخْدَمَ هَذَا الأُسْلُوبَ العَظِيمَ أَكْثَرَ مَا يَكُونُ كَمَا مَرَّ مَعَنَا ذَلِكَ.

الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أَيُّها الخَطِيبُ اتَّقِ اللَّهَ إِيَّاكَ وَالتَّعَالُمَ!: فَالمِنْبَرُ لَيْسَ رُتْبَةً عِلْمِيَّةً.. فَكَمْ مِنَ الشَّبَابِ مَنْ تَوَلَّى المِنْبَرَ وَظَنَّ نَفْسَهُ أَنَّهُ بِمُجَرَّدِ ارْتِقَائِهِ المِنْبَرَ تَبوَّأَ فِي العِلْم مَنْزِلَةَ الأَعْلَم بَيْنَ الجُمُوعِ... وَأَصْبَحَ عِنْدَهُ مِنَ العَيْبِ أَنْ يَسْأَلَ وَلَا يُجِيبَ، أَوْ يَقُولَ لَا أَعْلَمُ.. وَأَصْبَحَ يُفْتِي كُلَّ يَوْمٍ بِانْتِهَاءِ الخُطْبَةِ..! وَيُرَجِّحُ بَيْنَ أَقْوَالِ العُلَمَاءِ! وَيَقُولُ: قُلْتُ: الرَّاجِحُ..! وَإِنَّمَا هُوَ نَاقِلٌ، وَلَيْسَ مُرَجِّحاً، هَذَا إِنْ نَقَلَ نَقْلًا دَقِيقاً عَنْ أَهْلِ العِلْمِ!

وَأَصْبَحَ لَا يَقْبَلُ تَرْجِيحَ غَيْرِهِ! وَيَرُدُّهُ رَدّاً عَنِيفاً لَوِ اعْتُرِضَ عَلَيْهِ! وَرُبَّمَا عَقَّبَ عَلَى المُعْتَرِضِ عَلَيْهِ فِي الجُمُعَةِ القَادِمَةِ، وَاجْتَهَدَ طَوَالَ الأُسْبُوعِ فِي البَحْثِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ فِيهِ مِنْ غَايَةٍ إِلَّا نُصْرَةَ رَأْيِهِ، وَرِفْعَةَ رَايَتِهِ، وَتَرْجِيحَ مَا رَجَّحَهُ أَمَامَ النَّاسِ فِي الأُسْبُوعِ المُنْصَرِمِ!

وَرُبَّمَا تَمَنَّى فِي دَاخِلِ نَفْسِهِ أَنَّهُ رَجَّحَ الرَّأْيَ الآخَرَ!

وَكَمْ يَتَغَيَّرُ وَيَتَلَوَّنُ لَحْظَةَ الإِنْكَارِ عَلَيْهِ، وَيَبْحَثُ ذَاتَ اليَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ عَنْ عُذْرٍ أَوْ مُسَوِّغٍ يُسَوِّغُ بِهِ جَهْلَهُ بِتَرْجِيحِ مَا لَيْسَ بِرَاجِحٍ.. أَوْ تَصْحِيحِ مَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ، أَوْ تَصْوِيبِ مَا هُوَ خَطَأٌ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ.. كُلُّ ذَلِكَ انْتِصَاراً لِنَفْسِهِ.

وَلَوْ أَنَّهُ وَصَلَ إِلَى قَنَاعَةٍ أَنَّ اعْتِرَافَهُ أَمَامَ النَّاسِ فِي الجُمُعَةِ القَادِمَةِ بِخَطَئِهِ سَوْفَ يَرْفَعُهُ لَقَالَ: أَخْطَأْتُ، **وَهُوَ لَا يُرِيدُ إِلَّا أَنْ يَعْلُوَ أَكْثَرَ فِي**

أَعْيُنِ النَّاسِ رَاجِياً مَدْحَ النَّاسِ لَهُ بِهَذَا الاعْتِرَافِ، فَإِنَّهُ بِهَذَا الطَّرِيقِ يَكُونُ قَدْ كَسَبَ أَمْرَيْنِ؛ الأَوَّلُ: مَدْحُ النَّاسِ لَهُ بِالإِنْصَافِ وَالرَّجُوعِ إِلَى الحقِّ. وَالثَّانِي: تَخَلُّصٌ مِنَ التَّمسُّكِ بِالخَطَأ بِأَحْسَنِ طَرِيقَةٍ حَيْثُ يُمْدَحُ فِيهَا، وَلَا يُذَمُّ، ويُنْسَى فِيهَا جَهْلُهُ، وَلَا يُذْكَرُ!

وَالأَصْلُ فِي كُلِّ هَذَا: النِّيَّةُ.. وَلَوْ كَانَتْ وَرَاءَ الاعْتِرَافِ بِالخَطَأ نِيَّةٌ صَالِحَةٌ فَمَا أَعْظَمَهُ مِنْ خَطِيبٍ! وَمَا أَعْظَمَهُ مِنْ مَوْقِفٍ!

أَيُّهَا الخَطِيبُ: يَجِبُ أَنْ تُعرِّفَ النَّاسَ عِنْدَ أَوَّلِ مَوْقِفٍ يَقْتَضِي ذَلِكَ أَنَّكَ لَسْتَ بِعَلَّامةٍ وَلَا مُفْتٍ - إِنْ لَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ - لِئَلَّا يُحمِّلَكَ النَّاسُ مَا لَا تُطِيقُ.. وَتُحمِّلَكَ نَفْسُكَ مَا يُهْلِكُكَ، وَيَصْعُبُ عَلَيْكَ بَعْدَ ذَلِكَ الرُّجُوعُ.

تَذَكَّرْ أَنَّهُ رُبَّما يَكُونُ مِنَ المُصَلِّينَ عِنْدَكَ مَنْ تَكُونُ تِلْمِيذاً فِي حَلَقَاتِهِمْ، ورُبَّما يَكُونُ مِنْ تَلامِيذِهِمْ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، وَشَيْخٌ عَلَيْكَ.. فَلَا تَحسبَنَّ المَسْأَلَةَ صِرَاعاً بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ.. فَتَتَّخِذَ أَعْلَمَ النَّاسِ - بِمُرُورِ الأَيَّامِ - لَكَ خُصُوماً، وتُصبِحَ حَسَاسِيَّتُكَ مِنْ هَؤُلَاءِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَهَذَا هُوَ مَطْلُوبُ الشَّيْطَانِ - نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْهُ - فِي إِيقَاعِ الفُرْقَةِ وَالافْتِرَاقِ بَيْنَ قَادَةِ المُجْتَمَعِ وَقُدُوَاتِهِ.

فَعَلَيْكَ أَنْ تُعَظِّمَ هَؤُلَاءِ فِي نَفْسِكَ، وَتُعَظِّمَهُمْ أَمَامَ النَّاسِ،

وَتُؤدِّبَ نَفْسَكَ حَتَّى تُؤْلَفَ، وَتُحِبَّ التَّوَاضُعَ لَهُمْ، وَلَا تَأْنَفْ مِنْ تَقْبِيلِ رَأْسِ مَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ وَالعِبَادَةِ أَمَامَ النَّاسِ، تُرِيدُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ، لَا العُلُوَّ فِي أَعْيُنِ الخَلْقِ.

وَتُحِيلُ فِي الفَتْوَى عَلَى مَنْ تَعْتَقِدُ عِلْمُهُ وَتَقْوَاهُ... وَصَدْرُكَ بِذَلِكَ مُنْشَرِحٌ.

السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: أَيُّهَا الخَطِيبُ! اتَّقِ اللَّهَ، دَعْ عَنْكَ الحَسَدَ وَتَوَابِعَهُ، فَإِنَّ حَسَدَ كُلِّ مَيْدَانٍ مِنْ صِنْفِهِ، وَالشَّيْطَانُ - نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْهُ - يَأْتِي لِكُلِّ قَوْمٍ مِنْ مَدْخَلِهِمُ الخَاصِّ بِهِمْ.. وَالنَّفْسُ دَائِمَةُ الطَّلَبِ لِذَاتِهَا، وَمِنْ طَلَبِهَا فِي هَذَا المَقَامِ: العُلُوُّ، وَالرِّفْعَةُ، وَمَزِيدُ العُلُوِّ وَالرِّفْعَةِ عَلَى الأَقْرَانِ.

وَلِذَا فَإِنَّ الخَطِيبَ التَّقِيَّ المُوَفَّقَ لَا يُعْطِي نَفْسَهُ مُرَادَهَا فِي هَذَا الجَانِبِ، وَلَا يَمْشِي خُطْوَةً وَاحِدَةً أبداً مَعَهَا، وَلَا يَتَكَلَّمُ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ يُشْبِعُ فِيهَا حَسَدَهَا، وَالحَسُودُ لَا يُشْبِعُهُ شَيءٌ إِلَّا زَوَالُ نِعْمَةِ الغَيْرِ.. وَهَذَا أَمْرٌ عَظِيمٌ وحَسَّاسٌ، وَهُوَ مُفْسِدٌ لِلثَّمَرِ وَحَالِقٌ لِلأَجْرِ وَالدِّينِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الحَسَدُ وَالبَغْضَاءُ، هِيَ الحَالِقَةُ، أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعْرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ»، ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا»، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَمْرٍ إِذَا

فَعَلْتُمْ تَحَابَبْتُمْ؟» قَالُوا: مَا هُوَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»[(١)].

وَلِذَا فَإِنِّي أَخْتَصِرُ الوَصَايَا فِي هَذَا الجَانِبِ بِأُمُورٍ:

الأَوَّلُ: الصِّدْقُ فِي الدُّعَاءِ: إنَّ الإِنْسَانَ إِذَا عَجَزَ عَنْ نَفْسِهِ لجَأَ إِلَى الَّذِي خَلَقَهَا فَسَوَّاهَا، وَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، يَدْعُو رَبَّهُ دُعَاءَ المُضْطَرِّ، وَاللَّهُ يُجِيبُ المُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ، وَيَكْشِفُ السُّوءَ، فَلْيَسْتَعِذِ العَبْدُ صَادِقاً مِنْ شَرِّ نَفْسِهِ، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ.. وَلْيَلْزَمْ دُعَاءَ المُصْطَفَى ﷺ مُتَفكِّراً مُتَضرِّعاً كُلَّ مَرَّةٍ مَهْمَا طَالَ الزَّمَانُ: «اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءاً أَوْ أَجُرَّهُ إِلَى مُسْلِمٍ»[(٢)].

الثَّانِي: عَدَمُ التَّوَقُّفِ عِنْدَ سَلْبِيَّاتِ الخُطَبَاءِ الصَّالِحِينَ مِن الأَقْرَانِ

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١/ ١٦٧)، والترمذي في جامعه (٢٥١٠)، من حديث عبد اللَّه بن الزبير رضي الله عنهما. قال الدمياطي في المتجر الرابح (٢٨٥): رواته ثقات، وجوَّد إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٣٣)، والغزي في كتابه «إتقان ما يحسن» (٢/ ٦٩٢)، وحسنه الألباني.

(٢) رواه الترمذي في جامعه (٣٥٢٩) من حديث عبد اللَّه بن عمرو العاص رضي الله عنهما، وصححه ابن القيم في زاد المعاد(٢/ ٣٣٨)، وابن باز في فتاويه (٢٦/ ٢٧)، والألباني.

فَضْلًا عَنِ البَحْثِ فِيهَا، فَإِنَّ الالْتِفَاتَ لِلمَعَايِبِ مُؤذِنٌ بِقَبُولِهَا، ثُمَّ تَبْيِينِهَا، ثُمَّ العَمَلِ عَلَى مُقْتَضَاهَا.

الثَّالِثُ: إِيَّاكَ أَنْ تُقَابِلَ الحَسَدَ بِالحَسَدِ: مَنْ حَسَدَكَ مِنْ إِخْوَانِكَ أَوْ مِنَ الخُطَبَاءِ فَعَامِلْهُ مِنْ حَيْثُ مَقَامُكَ فِي دِينِكَ، فَإِنْ كُنْتَ حَسُوداً فَرُدَّ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ رُدَّ الحَسَدَ بِالذِّكْرِ الحَسَنِ، وإِلَّا فَبِالدُّعَاءِ وَالعَفْوِ وَالتَّرَفُّعِ عَنْ ذِكْرِ الحَاسِدِ فِي المَجَالِسِ العَامَّةِ أَوِ الخَاصَّةِ.. فَالنَّاسُ يُفَرِّقُونَ جَيِّداً عَاجِلًا أَمْ آجِلًا، فَمَا دَامَ لَكَ طَرِيقٌ فَلَا تَتَعَثَّرْ فِي مَسِيرِكَ، وَلَا تَتَأَخَّرْ عَنْ غَايَتِكَ.

إِنَّ البَعْضَ يُضَيِّقُ عَلَى نَفْسِهِ الطَّرِيقَ حَتَّى يُخَيَّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا طَرِيقَ إِلَّا مِنْ هَذَا المَضِيقِ الَّذِي يَقِفُ عَلَيْهِ الحَاسِدُ، وَأَنَّهُ لَا مُرُورَ إِلَّا عَلَى جُثَّتِهِ، وَمَا هَذَا إِلَّا مِنَ الضِّيقِ فِي الفِكْرِ وَالنَّظَرِ.

وَلَوْ أَنَّهُ أَخَذَ الأُمُورَ بِهُدُوءٍ... وَنَظَرَ لَهَا بِمِنْظَارِ الإِسْلَامِ، وَمَصْلَحَةِ الإِسْلَامِ، وَمَصْلَحَتِهِ هُوَ فِي الآخِرَةِ.. لَكَانَ أَوَّلَ مَنْ يَغُضُّ الطَّرْفَ عَنْ هَذَا، بَلْ يَعْتَبِرُهُ مُعَطِّلًا لَهُ عَنْ غَايَتِهِ، وَهُوَ لَا يُرِيدُ أَكْثَرَ من هَذَا التَّأَخُّرِ، بَلْ يَرَى التَّأَخُّرَ بِالرَّدِّ، أَوِ الكِبْرَ مَزِيدَ غَبَاءٍ.

ثُمَّ إِنَّهُ إِذَا نَظَرَ لَهُ بِمِنْظَارِ العَدُوِّ، وَرَأَى سَعَادَةَ عَدُوِّ الإِسْلَامِ بِهَذَا.. لَتَقَرَّبَ إِلَى اللَّهِ بِإِغَاظَةِ العَدُوِّ، وَتَفْوِيتِ الفُرْصَةِ عَلَيْهِ.

وَلَوْ نَظَرَ لَهُ بِمِنْظَارِ المُقْتَدِينَ بِهِ لَأَنِفَ أَنْ يَقْتَدِيَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ بِهِ فِي نِقْمَتِهِ.

وَلَوْ نَظَرَ لَهَا بِمِنْظَارِ المُسْتَقْبَلِ لَرَأَى أَنَّ الحَسُودَ إِنْ لم يَعُدْ فَسَوْفَ يَتَآكَلُ كَمَا يَتَآكَلُ الحَطَبُ بِنَارِهِ.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

الفصل الثاني
الخطبة

المبحث الأول: دوافع التجديد في الخطبة.

المبحث الثاني: موارد الخطيب والتجديد فيها.

المبحث الثالث: خطوات تحضير الخطبة.

المبحث الأول
دَوَافِعُ التَّجْدِيدِ فِي الخُطْبَةِ

لَيْسَ التَّجْدِيدُ وَرْدَةً تُشمُّ، فَتَأْخُذُ طَرِيقَهَا إِلَى شِعَابِ الصَّدْرِ، وَمَسَارِبِ الفِكْرِ.

لَيْسَ التَّجْدِيدُ سَفُوفاً يُسْتَفُّ، وَيُشْرَبُ فَوْقَهُ كَأْسُ مَاءٍ يَسْرِي، فَتَبْتَلُّ بِهِ العُرُوقُ، وَيَذْهَبُ بِهَا الظَّمَأُ.

إِنَّما السُّؤالُ هُوَ: مَا قُدْرَةُ هَذَا أَوْ ذَاكَ مِنَ الخُطَبَاءِ عَلَى التَّجْدِيدِ؟

لَكِنْ مَنْ لَمْ تُوجَدْ لَدَيْهِ رَغْبَةٌ فِي التَّجْدِيدِ أَنَّى لَهُ أَنْ يَبْلُغَ التَّجْدِيدَ؟

وَمَنْ كَانَ مُقْتَنِعاً بِحَالِهِ، رَاضِياً بِدُنُوِّهِ، أَنَّى لَهُ أَنْ يَفْهَمَ التَّجْدِيدَ فَضْلًا أَنْ يَبْلُغَهُ؟ وَمَنْ كَانَ يَظُنُّ نَفْسَهُ الأَعْلَى فِي مَيْدَانِهِ أَنَّى لَهُ أَنْ يَرْتَفِعَ؟ إِذْ مَا يُمْكِنُ أَنْ تَصْنَعَ لِمُسْتَغْنٍ عَنْكَ، غَيْرِ شَاعِرٍ بِأَيِّ حَاجَةٍ نَحْوَكَ؟ أَتُرِيدُ مِنَ المَتْخُومِ بِالأَوْهَامِ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ زَادِكَ وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ شَبْعَانُ؟ أَمْ تُرِيدُ مِنْهُ أَنْ يَسْتَقِيءَ لِيَأْكُلَ طَعَامَكَ؟!

إِنَّكَ بِطَلَبِكَ مِنْهُ أَنْ يُجَدِّدَ إِنَّما تُعَذِّبُهُ كَمَا يَتَعَذَّبُ مَنْ يَسْتَقِيءُ قَسْراً مِنْ شِبَعٍ!

أَيُّهَا الخَطِيبُ، لَيْسَ لَكَ إِلَّا أَنْ تَصْنعَ عِنْدَ هَؤُلَاءِ القَنَاعَةَ الدَّاخِلِيَّةَ الكَافِيَةَ بِأَهَمِّيَّةِ التَّجْدِيدِ.. قَنَاعَةً تَسْلُبُ الفِكْرَ.. وَتُلْهِبُ القَلْبَ.. وَتَتَعَطَّشُ لأَجْلِهَا العُرُوقُ لِغَيْثِ التَّجْدِيدِ.. قَنَاعَةَ مَنْ يُرِيدُ النَّجَاةَ لآخِرَتِهِ بِأَدَاءِ حَقِّ هَذِهِ الأَمَانَةِ العُظْمَى... الَّتِي يَشْعُرُ أَلَّا طَرِيقَ لِبُلُوغِهَا إِلَّا بِالتَّجْدِيدِ.

إِذاً، لَابدَّ أَنْ تَصْنَعَ القَنَاعَةَ الدَّاخِلِيَّةَ بِضَرُورَةِ التَّجْدِيدِ لِلخَطَابَةِ.

دَوَافِعُ التَّجْدِيدِ فِي الخُطْبَةِ:

الدَّافِعُ الأَوَّلُ: تَجدُّدُ الوَسَائِلِ الهَائِلِ: بِمَا أَنَّ الخُطْبَةَ وَسِيلَةٌ لإِيصَالِ رِسَالَةٍ وَتَبْلِيغِ أَمْرٍ مَا فَلَابُدَّ أَنْ تَتَغيَّرَ الوَسِيلَةُ، ذَلِكَ أَنَّ طَبِيعَةَ الوَسَائِلِ التَّغْيِيرُ، هَكَذَا هِيَ وَسَائِلُ الاتِّصَالِ الحَدِيثَةُ، وَوَسَائِلُ المُوَاصَلَاتِ، وَوَسَائِلُ الصُّعُودِ، وَوَسَائِلُ الهُبُوطِ، وَوَسَائِلُ الكِتَابَةِ وَصُورُهَا، وَمَنْ رَفَضَ السَّيْرَ مَعَ هَذَا التَّيَّارِ المُطَّرِدِ سَوْفَ يُطْرَدُ خَارِجَ سِكَّةِ السَّيْرِ، وَيُلْقَى مُهْمَلًا عَنْ يَمِينِ الطَّرِيقِ أَوْ شِمَالِهِ.

وَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ مَا يَكُونُ تَغيُّراً: **وَسَائِلَ الخِطَابِ** وَطَرَائِقَهُ وَإِنْ تَوحَّدَ المَوْضُوعُ، فَإِنَّ تَغيُّرَ الوَسِيلَةِ لَا يَعْنِي المَسَاسَ بِالْغَايَةِ، ذَلِكَ أَنَّ الخَطَابَةَ أَصْبَحَتْ عِلْماً لَهُ أُصُولُهُ، وَقَدْ ضُبِطَتْ قَوَاعِدُهُ كَمَا ضَبَطَ الشَّافِعِيُّ وَمَنْ بَعْدَهُ قَوَاعِدَ القَوَاعِدِ أَوْ أُصُولَ الأُصُولِ، وَكَما ضَبَطَ أَبُو الأَسْوَدِ الدُّؤَلِيُّ وَغَيْرُهُ أُصُولَ اللُّغَةِ، بَلْ ثَمَّةَ دِرَاسَاتٌ عِلْمِيَّةٌ

مُتَخَصِّصَةٌ حَتَّى فِي صَوْتِ الخَطِيبِ وَتَكْيِيفِهِ، وَلِذَا فَلَا يَنْبَغِي لِمَنْ يَجْهَلُ هَذِهِ الأَشْيَاءَ أَنْ يَعْتَرِضَ عَلَيْهَا، كَمَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْتَقَدَ أَنَّ كُلَّ مَنْ لَمْ يَدْرُسْ هَذِهِ لَا يُحْسِنُ الخَطَابَةَ، فَإِنَّ المَلَكَةَ أَمْرٌ قَبْلَ التَّدْرِيبِ، لَكِنْ مَا أَحْسَنَهَا إِذَا صُقِلَتْ إِنْ كَانَتْ تَحْتَاجُ إِلَى صَقْلٍ!

الدَّافِعُ الثَّانِي: تَغَيُّرُ الأَحْدَاثِ وَتَلَوُّنُهَا: كَمْ هِيَ فَصَاحَةُ الفَارُوقِ رضي الله عنه.. لَكِنَّ الحَدَثَ الجَدِيدَ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يَتَحَدَّثَ فِيهِ كَانَ حَدَثاً اسْتَحَقَّ أَنْ يَسْتَجْمِعَ لَهُ الفَارُوقُ مَخْزُونَهُ اللُّغَوِيَّ، وَيَنْتَقِي لَهُ مَا يَخْدُمُ غَايَتَهُ، وَهِيَ بَيْعَةُ الأُمَّةِ لأَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه.

فَإِذَا كَانَ هَذَا هُوَ إِعْدَادُ الفَارُوقِ لِهَذَا الحَدَثِ الجَدِيدِ، فَإِنَّ هَذَا التَّجْدِيدَ فِي الخَطَابَةِ لَازِمٌ كُلَّ خَطِيبٍ لِكُلِّ حَدَثٍ جَدِيدٍ، ذَلِكَ أَنَّ كُلَّ خَطِيبٍ بَعْدَ الفَارُوقِ رضي الله عنه دُونَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَفِي الخَطَابَةِ خُصُوصاً.

الدَّافِعُ الثَّالِثُ: التَّنَافُسُ المَحْمُومُ: كُلُّ صَاحِبِ بِضَاعَةٍ يَعْتَمِدُ تَحْسِينَ عَرْضِ بِضَاعَتِهِ، وَتَزْيِينَهَا، وَالتَّرْغِيبَ فِيهَا حَتَّى لَوْ كَانَتْ مَعْنَوِيَّةً، فَإِذَا تَكَرَّرَ العَرْضُ انْصَرَفَتْ عَنْهُ الاهْتِمَامَاتُ، وَعَافَتْهُ الأَذْهَانُ، وَالْتَفَتَتْ إِلَى غَيْرِهِ.. انْظُرْ إِلَى الرُّسُومِ المُتَحَرِّكَةِ، فَإِذَا تَكَرَّرَتْ أَمَامَ الطِّفْلِ انْصَرَفَ عَنْهَا إِلَى غَيْرِهَا بَاحِثاً عَنِ الجَدِيدِ الَّذِي لَمْ يَرَهُ.. وَمَهْمَا كَانَتْ اهْتِمَامَاتُ الشَّبَابِ فِي مُبَارَيَاتِ كُرَةِ القَدَمِ أَوْ

غَيْرِهَا عِنْدَ انْتِظَارِ المُبَارَاةِ، وَمَهْمَا كَانَتْ تَفَاعُلَاتُهُمْ أَثْنَاءَ المُبَارَاةِ فَإِنَّهُمْ بِمُجَرَّدِ أَنْ تَنْتَهِي المُبَارَاةُ تَنْتَهِي عِنْدَهُمُ الرَّغْبَةُ فِي النَّظَرِ إِلَى إِعَادَةِ تَسْجِيلِ المُبَارَاةِ... السَّبَبُ أَنَّهَا مُكَرَّرَةٌ... فَمَا بَالُكَ إِذَا صُنِّفَ الخَطِيبُ عَلَى أَنَّهُ مُكَرَّرٌ، أَوْ مُكَرِّرٌ؟ حَقّاً إِنَّهُ لَا مَكَانَ لِغَيْرِ المُنَافِسِ.. المُسَيْطِرِ عَلَى النُّفُوسِ، الخَطَّافِ لِلُّبِّ.

الدَّافِعُ الرَّابِعُ: المَصَادِرُ المُجَدِّدَةُ: لَيْسَ عِنْدَ أَحَدٍ مَادَّةٌ تَتفَجَّرُ بِالجَدِيدِ مِثْلُ الخَطِيبِ المُسْلِمِ، ذَلِكَ أَنَّ مَصْدَرَهُ هُوَ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَوَاقِعُ النَّاسِ المُتَجَدِّدُ الَّذِي تَجِدُ جَدِيدَهُ مَهْمَا تَجَدَّدَ، فَإِنَّ فِي القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ عِلَاجاً لِمَرَضِهِ الجَدِيدِ، وَحَالِهِ المُتَجَدِّدِ، وَزِيَادَةَ فَيْضٍ، فَهَلْ يَلِيقُ بِخَطِيبٍ هَذَا حَالُهُ أَنْ يَقْنَعَ بِمَا قَالَهُ هُوَ أَوْ غَيْرُهُ مِنْ قَبْلُ، فَيُكَرِّرُهُ مُعْجَباً بِعَرْضِهِ الأَوَّلِ، مُتَوَقِّفاً عِنْدَ حَدِّهِ وَدَوْرِهِ، قَانِعاً بِمَا قَالَ؟!

الدَّافِعُ الخَامِسُ: دَافِعُ الغَيْرَةِ: فَإِنَّ المَنَابِرَ فِي صِرَاعٍ، وَالنَّاسُ تَبَعٌ لِلمِنْبَرِ المُنْتَصِرِ، وَلَا أَقْصِدُ بِهَا الصِّرَاعَ بَيْنَ مَنَابِرِ المَسَاجِدِ، إِنَّمَا أُعِدُّ مَنَابِرَ المَسَاجِدِ مِنْبَراً وَاحِداً.. هَكَذَا أُخَاطِبُهَا، وَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ... لَكِنَّ المَنَابِرَ الأُخْرَى تُحْسِنُ اللُّعْبَةَ، وَتَعْرِفُ الخُرُوجَ عَلَى الطَّوْرِ التَّقْلِيدِيِّ وَاجْتِذَابِ الجُمُوعِ بِسَلْبِ أَفْكَارِهِمْ، وَسَاحَةُ هَذَا الصِّرَاعِ هِيَ قُلُوبُ هَؤُلَاءِ النَّاسِ وَأَدْمِغَتِهِمْ.. فَإِنْ كَانَ الجَمِيعُ يَشْتَغِلُ عَلَى هَذَا المَرْكَزِ وَخَطِيبُنَا لَا يَدْرِي أَنَّ ثَمَّةَ صِرَاعاً فَهَذِهِ هِيَ

الكَارِثَةُ، كَيْفَ وَهُوَ صِرَاعٌ يَدُورُ فِي مَرْكَزِنَا، وَفِي مَقَرِّ قِيَادَتِنَا، وَقِيَادَتُنَا لَا تَدْرِي.. وَوُجُودُ هَذَا الخَطِيبِ عَلَى المِنْبَرِ إِنَّمَا هُوَ مَزِيدُ تَقْدِيمِ خَسَائِرَ، وَفِقْدَانِ أَرَاضٍ وَمَوَاقِعَ، وَذَهَابِ ثَرَوَاتٍ، أَلَا إِنَّهَا القُلُوبُ وَالتَّصَوُّرَاتُ الصَّحِيحَةُ، وَالشَّبَابُ وَالشَّابَّاتُ، وَالرِّجَالُ وَالصِّغَارُ، فَمَنْ أَدْرَكَ أَنَّهُ فِي صِرَاعٍ أَعَدَّ لَهُ سِلَاحَهُ، وَجَدَّدَ خُطَطَهُ؛ لأَنَّهُ إِنْ جَاءَ بِنَفْسِ الخُطَطِ التَّقْلِيدِيَّةِ خَسِرَ عُنْصُرَ المُفَاجَأَةِ، وَغَلَبَهُ العَدُوُّ.

وَبِشَكْلٍ عَامٍّ: مَنْ حَسِبَ فِي هَذَا الزَّمَنِ أَنَّ دَوْرِ الخَطِيبِ مَحْصُورٌ فِي أَنْ يَدْخُلَ المَسْجِدَ لِيَرْتَقِيَ المِنْبَرَ مُبَاشَرَةً، ثُمَّ يُصَلِّي بِالنَّاسِ وَيَنْصَرِف فَوْراً بَعْدَ الصَّلَاةِ، ثُمَّ لَا يَعُودُ إِلَى المِنْبَرِ إِلَّا فِي الجُمُعَةِ الَّتِي تَلِيهَا، وَهَكَذَا عَلَى مَدَارِ العَامِ، وَعَلَى مَدَى عُمُرِ الخَطِيبِ، فَقَدْ ظَلَمَ الجُمُعَةَ، وَظَلَمَ أَهْلَهَا!

إِنَّ الجُمُعَةَ عِيدُ الإِسْلَامِ، وَلَيْسَ هَذَا هُوَ حَقُّ العِيدِ.

لَقَدْ كَانَتِ الجُمُعَةُ أَيَّامَ النَّبِيِّ ﷺ وَصَدْرِ الإِسْلَامِ يَوْماً لِلتَّسَابُقِ وَالتَّبْكِيرِ، وَيَوْمَ ارْتِقَابِ سَاعَةِ الإِجَابَةِ، وَيَوْمَ دَوَامِ الذِّكْرِ، وَخُصُوصاً الصَّلَاةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ اليَوْمَ الَّذِي يَفِيءُ الأَعْرَابِيُّ فِيهِ إِلَى المَدِينَةِ، فَيَشْتَكِي هَذَا القَحْطَ، فَيَسْتَسْقِي لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ عَلَى المِنْبَرِ، وَيَطْلُبُ أُولَئِكُم الثِّيَابَ أَوِ الطَّعَامَ، وَكَانَ يَوْمَ التَّضْيِيفِ وَالاجْتِمَاعِ عَلَى طَعَامِ الغَدَاءِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، كَمَا كَانَتْ تِلْكَ

المَرْأَةُ تَصْنَعُ السِّلْقَ للصَّحَابَةِ كَمَا فِي حَدِيثِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَتْ فِينَا امْرَأَةٌ تَجعَلُ عَلَى أَرْبَعَاءَ فِي مَزْرَعَةٍ لَها سِلْقاً، فَكَانَتْ إِذَا كَانَ يَوْمُ الجُمُعَةِ تَنْزِعُ أُصولَ السِّلْقِ، فَتَجْعَلُهُ فِي قِدْرٍ، ثُمَّ تَجْعَلُ عَلَيْهِ قَبْضَةً مِنْ شَعِيرٍ تَطْحَنُهَا، فَتَكُونُ أُصُولُ السِّلْقِ عَرْقَهُ، وَكُنَّا نَنْصَرِفُ مِنْ صَلَاةِ الجُمُعَةِ، فَنُسَلِّمُ عَلَيْهَا، فَتُقَرِّبُ ذَلِكَ الطَّعَامَ إِلَيْنَا فَنَلْعَقُهُ، وَكُنَّا نَتمَنَّى يَوْمَ الجُمُعَةِ لِطَعَامِهَا ذَلِكَ[١].

إِنَّهُ يَوْمُ التَّسابُقِ مِنْ غُرُوبِ شَمْسِ لَيْلَتِهِ إِلَى غُرُوبِ شَمْسِ يَومِهِ

هَذَا بَعْضُ مَا ظَهَرَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، أَمَّا مَا لَمْ يَظْهَرْ فَذَلِكَ هُوَ الأَصْلُ عِنْدَهُمْ، وَذَلِكَ هُوَ شَأْنُهُمْ فِي التَّسابُقِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَهُوَ مَا سَتَكْشِفُهُ الصَّحَائِفُ إِذَا نُشِرَتْ، وَلِذَا أَقُولُ: إِنَّ قِيَاسَ هَذِهِ الجُمُعَةِ اليَتِيمَةِ الَّتِي لَمْ يَعُدْ مِنْ كُلِّ مَا ذَكَرْنَا عِنْدَ عَامَّةِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ اليَوْمَ ذَاكَ المَقَامُ وَالقِيمَةُ إِلَّا عِنْدَ أَقَلِّ القِلَّةِ، وَالنَّادِرُ كَمَا يُقَالُ لَا حُكْمَ لَهُ، وَالجُمُعَةُ فِي أَسَاسِهَا لِلأُمَّةِ.

لَقَدْ أَثْقَلَ كَاهِلَ الخَطِيبِ اليَوْمَ التَّيَّارُ العَامُّ الَّذِي أَصْبَحَ تيار هَدْمٍ فِي العَقِيدَةِ، وَفِي الشَّرِيعَةِ، وَفِي الأَخْلَاقِ، وَلَوْ تَفَحَّصَ الخَطِيبُ حُضُورَهُ فَإِنَّهُ لَا يَكَادُ يَجِدُ وَاحِداً مِنْ حُضُورِهِ هَؤُلَاءِ مَنْ يُحَافِظُ عَلَى

(١) رواه البخاري (٩٣٨).

دِرَاسَةٍ شَرْعِيَّةٍ فِي مَسْجِدٍ عَلَى كِتَابٍ، أَوْ عَلَى مَوْعِظَةٍ، وَلَا يَكَادُ يَجِدُ مَنْ يُحَافِظُ عَلَى القِرَاءَةِ فِي بَيْتِهِ، وَلَا يَكَادُ يَجِدُ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَى المُحَاضَرَاتِ، وَلَوْ تَسْجِيلًا.. بَلْ إِنَّ الهَدْمَ أَصْبَحَ يَأْخُذُ الابْنَ مِنْ بَيْتِهِ، وَالطَّالِبَ مِنْ مَدْرَسَتِهِ، وَالمُوَظَّفَ مِنْ مَيْدَانِ عَمَلِهِ وَصَحْبِهِ فِي العَمَلِ، وَمَا مِنْ شَيْءٍ مِنَ الأَجْهِزَةِ الحَدِيثَةِ إِلَّا أَصْبَحَ مُشَارِكاً فِي الهَدْمِ، فَكَيْفَ بِالصَّحِيفَةِ وَالبَرَامِجِ... كُلُّ هَذَا أَصْبَحَ عِبْئاً عَلَى الجُمُعَةِ، وَلِذَا سَمَّيْتُهَا «اليَتِيمَةَ».. صَحِيحٌ أَنَّ ثَمَّةَ طُلَّابَ عِلْمٍ وَمُحَافِظِينَ عَلَى المَوَاعِظِ المُسْتَمِرَّةِ.. وَلَكِنِ انْظُرْ فِي حُضُورِ الجُمُعَةِ: مَا نِسْبَةُ هَؤُلَاءِ النُّدْرَةِ فِي بَحْرِ حُضُورِكَ؟!

هُنَا كَانَ الوَاجِبُ الأَوَّلُ أَنْ يَتَّقِيَ الخَطِيبُ اللَّهَ فِي هَؤُلَاءِ النَّاسِ، وَيُرَاعِي كُلَّ هَذِهِ العَوَامِلَ فِي حُضُورِهِ، وَيَتَّقِي اللَّهَ، وَيَحْسِبُ لِلأُسْبُوعِ القَادِمِ حِسَابَهُ.. يَتَّقِي اللَّهَ فِي خُطْبَتِهِ، فَيَجْمَعُ فِيهَا كُلَّ العَنَاصِرِ الَّتِي تَجْعَلُهَا مِحْوَرَ الأُسْبُوعِ عِنْدَ كُلِّ مَنْ يَحْضُرُ.. يَجْعَلُهَا تَصْفِيَةً وَتَزْكِيَةً.. يَجْعَلُهَا تَخْلِيَةً وَتَحْلِيَةً.. يَجْعَلُهَا إِعْدَاداً وَإِمْدَاداً... يَجْعَلُهَا تَطْهِيراً وَوِقَايَةً.

كُلُّ كَلِمَةٍ مِنْ هَذِهِ الكَلِمَاتِ قَصَدْتُهَا... كُلُّ كَلِمَةٍ نَظَرْتُ فِيهَا إِلَى الأُسْبُوعِ المُنْصَرِمِ بَيْنَ يَدَيِ الجُمُعَةِ وَالأُسْبُوعِ القَادِمِ.

لَمْ أَقْصِدْ أَنْ تَكُونَ كُلُّ الجُمُعَةِ طَلَبَ اسْتِغْفَارٍ، وَأَمْراً بِوِقَايَةٍ!

إِنَّما قَصَدْتُ أَنْ يَكُونَ مَوْضُوعُ الخُطْبَةِ - أيّاً كَانَ ذَلِكَ المَوْضُوعُ - مِنَ القُوَّةِ بِكُلِّ مَعَانِيهَا بِحَيْثُ يَحْتَوِي مِنَ الطَّاقَةِ الإِيمَانِيَّةِ وَالطَّاقَةِ العَقْلِيَّةِ الهَائِلَةِ الَّتِي تَجْعَلُ الحَاضِرَ يَنْشَغِلُ بِهَذَا المَوْضُوعِ؛ قَلْباً وَعَقْلاً وَعَمَلاً طَوَالَ الأُسْبُوعِ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، مَعَ تَطْهِيرِهِ الحَاضِرَ مِنْ تَبِعَاتِ الأُسْبُوعِ المُنْصَرِمِ... تَجْعَلُ قَلْبَ الحَاضِرِ يَتَلَهَّفُ عَلَى العَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي تَصُبُّ فِيهِ تِلْكَ الطَّاقَةُ، وَلِذَا كَانَ لَابدَّ لَهَا مِنْ لَوَازِمَ عَمَلِيَّةٍ، فَإِنَّ الطَّاقَةَ إِذَا تُرِكَتْ لِاجْتِهَادِ الفَرْدِ بِالكُلِّيَّةِ رُبَّما دُمِّرَتْ.

لَا تَقُلْ هَذَا بَعِيدٌ..! أَوْ هَذَا خَيَالٌ وَمُحَالٌ؛ فَإِنَّ النَّفْسَ إِنَاءٌ وَاحِدٌ إِذَا مَلأْتَهُ بِمَاءٍ طَرَدَ الهَوَاءَ، وَمَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ، وَمَنِ اسْتَأْجَرَ مَنْزِلاً مَكَثَ فِيهِ بِقَدْرِ عَقْدِ الإِيجَارِ.. فَمِنَ النَّاسِ مَنْ عَقْدُهُ مِنَ القُلُوبِ يَنْتَهِي بِانْتِهَاءِ الجُمُعَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَهِي بِنِهَايَةِ وَجْبَةِ الغَدَاءِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَهِي بِمَجِيءِ الخُطْبَةِ القَادِمَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْضُرُ جُمُعَةً فَتُغَيِّرُ حَيَاتَهُ إِلَى الأَبَدِ.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

المبحث الثاني
مَوَارِدُ الخَطِيبِ وَالتَّجْدِيدُ فِيهَا

أَنَا لَنْ أَزِيدَ عَلَى مَا يَذْكُرُهُ غَيْرِي مِنْ أَهْلِ هَذَا المَيْدَانِ - جَزَاهُمُ اللَّهُ خَيْراً - فِي هَذَا الشَّأْنِ، وَمَوَارِدُ الْخَطِيبِ أَكْثَرُ مِمَّا أُعَدِّدُهُ هُنَا بَكَثِيرٍ، وَلَكِنَّ الَّذِي يُمَيِّزُ هَذَا الْمَوْرِدَ عَنْ ذَاكَ هُوَ الخَطِيبُ نَفْسُهُ... الخَطِيبُ هُوَ الفَيْصَلُ.

كَانُوا يَقُولُونَ: كَيْفَ تَعْرِفُ الْعَسَلَ الطَّبِيعِيَّ مَنَ الْعَسَلِ الْمَغْشُوشِ؟

فَيُقَالُ لَهُمْ: ثَمَّةَ طُرُقٌ كَثِيرَةٌ، لَكِنَّ مَعْرِفَةَ الْعَسَلِ الطَّبِيعِيِّ مِنْ غَيْرِهِ بِمَعْرِفَةِ صَاحِبِهِ، هَذَا هُوَ الفَيْصَلُ، فَإِنَّ النَّحْلَ نَفْسَهُ يُمْكِنُ أَنْ يَغُشَّ الْعَسَلَ، فَيَخْرجَ مِنْ بَطْنِهَا عَسَلٌ مَغْشُوشٌ، أَلَا تَرَى كَيْفَ يُوضَعُ تَحْتَ خَلِيَّةِ النَّحْلِ فِي الشِّتَاءِ طَسْتٌ فِيهِ مَاءٌ وَسُكَّرٌ لِئَلَّا تَذْهَبَ النَّحْلَةُ بَعِيداً فَلَا تَرْجِعُ بِسَبَبِ الرِّيَاحِ وَالبَرْدِ، فَلَا تَزَالُ تَشْرَبُ مِنْ هَذَا السُّكَّرِ الْمُذَابِ لِتُخْرِجَ لَنَا عَسَلاً مَغْشُوشاً بِأَعْلَى نِسْبَةٍ، وَأَكْبَرِ كَمِّيَّةٍ.

نَعَمْ، إِنَّ الْخَطِيبَ هُوَ الْفَيْصَلُ، وَلَيْسَ تَعْدَادُ المَوَارِدِ وَلَا الْعِلْمُ بِهَا فَحَسْبُ، فَإِنَّ خَطِيباً يَرِدُ هَذِهِ المَوَارِدِ وَيَنْهَلُ مِنْهَا وَهُوَ لَا يَعْرِفُ مُصْطَلَحَاتِهَا وَأَسْمَاءَهَا خَيْرٌ مِنْ خَطِيبٍ يَعْرِفُهَا وَلَا يَرِدُهَا.

بَأَيِّ نِيَّةٍ تُجهِدُ نَفْسَكَ أَيُّهَا الْخَطِيبُ؟

بِأَيِّ هِمَّةٍ تَتَنَاوَلُ المَعْلُومَةَ؟ وَأَيِّ شَغَفٍ وَرَاءَ هَذَا التَّنَاوُلِ؟

أَيُّ تَفَاعُلٍ يَحْدُثُ فِي نَفْسِكَ؟ وَأَيُّ تَفْعِيلٍ يَحْدُثُ فِي قَلْبِكَ؟

فَالْجَدِيدُ لَيْسَ تَلْقِيناً يُكتَبُ وَيُنْقَلُ فَحسْبُ، فَمَنْ أَكْثَرُ مِنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قِرَاءَةً لِلْقُرْآنِ وَتَأَثُّراً بِالْقُرْآنِ وَالْتِصَاقاً بِمَنْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ ﷺ... وَمَعَ هَذَا فَحِينَ قَرَأَ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] قَالَ عُمَرُ: «كَأَنَّنِي لَمْ أَسْمَعْهَا مِنْ قبلُ»، هَكَذَا حِينَ تَأْتِي الْآيَةُ عَلَى الْحَدَثِ تَكُونُ جَدِيدَةً وَتَصْنَعُ جَدِيداً وَتَجْدِيداً، وَهَذَا هُوَ سِرُّ مُلَازَمَةِ الْقُرْآنِ، وَعَلَى الْأَخَصِّ بِاللَّيْلِ.

فَيَا أَيُّهَا الخَطِيبُ! إِلَيْكَ هَذِهِ المَوارِدُ وَالتَّجْدِيدُ فِيهَا:

الْمَوْرِدُ الْأَوَّلُ: الْقُرْآنُ هُوَ الْمَوْرِدُ الْأَوَّلُ وَالْأَخِيرُ، وَهُوَ كُلُّ شَيْءٍ، وَلَا يُقَدَّمُ شَيْءٌ عَلَيْهِ إِطْلَاقاً، فَلَا يَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يَتَنَازَلَ عَنْ قِرَاءَةِ جُزْءٍ وَاحِدٍ عَلَى الْأَقَلِّ يُوَزِّعُهُ مَا بَيْنَ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ.. لَابُدَّ أَنْ يُصَلِّي بِجُزْءٍ، وَلَوْ بَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ مُبَاشَرَةً، وَلَوْ قَبلَ النَّوْمِ،

وَأَفْضَلُ مَا يَكُونُ - بِغَيْرِ شَكٍّ - آَخِرَ اللَّيْلِ، أَمَّا أَنْ تَفُوتَ لَيْلَةٌ مِنْ غَيْرِ قِيَامٍ فَلْيَعُدَّهَا الْخَطِيبُ مَنْقَصَةً فِي حَقِّهِ، وَلَا يَمْلِكُ لَهَا كَفَّارَةً إِلَّا أَنْ يُعَوِّضَ، وَلَا يَرْتَاحُ حَتَّى يَقْضِيَهَا فِي نَهَارِهِ، وَلَا يُحَطِّمُ هِمَّتَهُ بِالْإِحْبَاطِ مِنْ أَثَرِ فَوَاتِ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ.. سَيَجِدُ مَنْ لَمْ يَتَعَوَّدْ أَوَّلَ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ فِيهَا مَشَقَّةً كَمَا يَجِدُ تَعَثُّراً.. وَلَكِنْ بِالْمُغَالَبَةِ وَالْمُجَاهَدَةِ يَسْتَمِرُّ الْأَمْرُ، ثُمَّ يَسْهُلُ، ثُمَّ يُصْبِحُ الْتِزَاماً، ثُمَّ يُصْبِحُ مِنَ الْمَشَقَّةِ عَلَى النَّفْسِ تَرْكُهُ.

لَابُدَّ أَنْ يَعِيشَ الْخَطِيبُ مَعَ الْقُرْآنِ.. لَابُدَّ أَنْ يُعَايِشَ النُّزُولَ مَا اسْتَطَاعَ.. لَابُدَّ أَنْ يَتَلَذَّذَ بِالْقُرْآنِ.. وَسَوْفَ يَرَى كَيْفَ يُوَسِّعُ الْقُرْآنُ مَجَارِيَ الْإِيمَانِ إِلَى الْقَلْبِ.. وَيُوَسِّعُ أَقْدَارَ أَوْدِيَةِ الْقَلْبِ وَيَمْلَؤُهَا.. وَيُنِيرُ زَوَايَا وَخَبَايَا فِي الْأَلْبَابِ كَانَتْ مَهْجُورَةً مُظْلِمَةً لَمْ تَكُنْ مُكْتَشَفَةً مِنْ قَبْلُ.. وَسَيَرَى كَيْفَ تَأْتِيهِ الْمَوَاضِيعُ لِلْخُطَبِ وَالْخَوَاطِرُ بِطَرِيقَةٍ لَمْ يَكُنْ يَتَوَقَّعُهَا؛ نَوْعِيَّةً وَكَثْرَةً، وَسَيَرَى الْأَدِلَّةَ لِمَوَاضِيعِهِ مِمَّا يَبْهَرُ وَيُثْرِي وَيُثْمِرُ، وَسَيَرَى رَحَابَةَ طُرُقِ خُرُوجِهَا إِلَى الْعَلَنِ سَالِكَةً وَاسِعَةً، وَثَمَرَةً مُهِمَّةً لِهَذَا الْقِيَامِ وَالْقُرْآنِ لِلْخَطِيبِ إِلَّا أَنَّهُ حُسْنُ اسْتِدْلَالِهِ بِالْقُرْآنِ، وَهَذَا الْحُسْنُ يَنْبُعُ مِنْ كَوْنِهِ جَدِيداً لِمُخَالَطَتِهِ الْقَلْبَ وَتَأْثِيرِهِ فِيهِ، فَيَعْرِضُهُ اللِّسَانُ كَأَنَّهُ لَمْ يُطْرَقْ مِنْ قَبْلُ، وَاضِحاً لَا يُمْكِنُ لِعَاقِلٍ إِلَّا أَنْ يُسَلِّمَ لَهُ، قَوِيّاً لَا يُمْكِنُ أَنْ يُرَدَّ، مُؤَثِّراً

تَخْضَعُ الْقُلُوبُ عِنْدَ سَمَاعِهِ كَمَا خَضَعَ قلبُك فِي اللَّيْلِ عِنْدَ التَّفكُّرِ بِهِ، وَسِرُّ هَذا التَّأْثِيرِ الْمَخْصُوصِ هُوَ قَوْلُهُ تعالَى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦] فَانْتَقَلَ أَثَرُ نَاشِئَةِ اللَّيْلِ مِنْ قَلْبِكَ إِلَى إِنْشَاءِ أَثَرٍ فِي الْقُلُوبِ الْمُتَلَقِّيَةِ... وَمِنْ ثَمَّ كَانَ الْمُرُورُ عَلَى كِتَابِ تَفْسِيرٍ بَأَكْمَلِهِ كَتَفْسِيرِ الْجَلاَلَيْنِ وَابْنِ كَثِيرٍ وَالسَّعْدِيِّ أَمْراً مُهِمّاً.

الْمَوْرِدُ الثَّانِي: الْقِرَاءَةُ فِي السُّنَّةِ: مَهْمَا كَانَ عِلْمُ الْخَطِيبِ فَلَابُدَّ أَنْ يُحَافِظَ عَلَى الْقِرَاءَةِ فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَهِيَ الْحِكْمَةُ، وَهِيَ التَّزْكِيَةُ، وَهِيَ المَوْرِدُ، فَإِنِ احْتَاجَ إِلَى شَرْحِ الْحَدِيثِ قَرَأَ شَرْحَه، الْمُهِمُّ أَنْ يُوَاصِلَ الْقِرَاءَةَ فِي السُّنَّةِ، فَإِنَّ أَكْثَرَ مَنْ يُنْفِقُ مِنْ مَخْزُونِهِ العِلْمِيِّ هُوَ الْخَطِيبُ، فَهُوَ أَحْوَجُ مَا يَكُونُ إِلَى أَنْ يَمْلأَ حِيَاضَهَ بِالعِلْم دَائِماً حَتَّى تَفِيضَ.. فَإِذَا لَمْ يُوَاصِلِ الْقِرَاءَةَ فَسُرْعَانَ مَا سَيَلْفِظُ خُطْبَتَه النَّاسُ، وَذَلِكَ لِتَكْرَارِهِ.. أَمَّا الْمُتَجَدِّدُ بِالْعِلْمِ فَإِنَّهُ يَزْدَادُ تَلَأْلُؤاً كُلَّمَا زَادَ حَدِيثاً، وَيَزْدَادُ النَّاسُ حَوْلَهُ مَعَ مُرُورِ الْأَيَّامِ تَجَمُّعاً وَتَآلُفاً.

لَا يَسْتَغْنِي كُلُّ خَطِيبٍ أَنْ يَقْرَأَ الْأَحَادِيثَ الْمُتَّفَقَ عَلَيْهَا، وَيَقْرَأَ «الصَّحِيحَيْنِ» وَ«السُّنَنَ» وَمَا يَحْتَاجُ لِشَرْحٍ مِنْهَا، لَا يَسْتَغْنِي أَنْ يَكُونَ لَهُ قِرَاءَةٌ خَاصَّةٌ فِي «فَتْحِ البَارِي».

الْمَوْرِدُ الثَّالِثُ: مُوَاصَلَةُ طَلَبِ الْعِلْمِ:

الفَارِقُ مَا بَيْنَ خَطِيبٍ يَوَاصِلُ طَلَبَ العِلْمِ وَالنَّهْلَ مِنْهُ فِي كُلِّ

وَقْتٍ، وَبَيْنَ خَطِيبٍ حُدُودُهُ حُدُودِ خُطْبَتِهِ هُوَ الفَارِقُ مَا بَيْنَ مَن اتَّخَذَ الخُطْبَةَ وَظِيفَةً، وَبَيْنَ مَنْ اتَّخذَها تَكْلِيفاً يُرِيدُ أَنْ يَقُومَ بِحَقِّهِ وَيَخْشى الهَلاكَ عِنْدَ سُؤَالِ اللَّهِ لَهُ، وَنِعْمَةً يُرِيدُ شُكْرَهَا، وَحِصْناً يُرِيدُ حِرَاسَةَ الإِسْلامِ مِنْ خِلالِهِ... وَعَلَماً يُرِيدُ رَفْعَ رَايَةِ الإِسْلَامِ عَلَى سنَامِهِ.

إِنَّهُ لَابُدَّ لِلْخَطِيبِ إِنْ كَانَ كَثِيرَ اللَّحنِ أَنْ يَدْرُسَ مُخْتَصَراً فِي النَّحوِ، أَوْ الْأَبْوَابَ الَّتِي يَكْثُرُ مُرُورُهَا عَلَى لِسَانِ الْخَطِيبِ مِنْ مَبَادِئ فِي الأَبْوَابِ الَّتِي لَا يَسَعُ المُسْلِمَ جَهْلُهَا فِي النَّحْوِ.

وَكَثِيراً مَا يُحطِّمُ الْبَعْضُ الْخَطِيبَ الَّذِي يَلْحَنُ بِالنَّقْدِ وَالانْتِقَاصِ، أَوْ يُحَطِّمُ الْخَطِيبُ نَفْسَهُ، وَأَنَا أَرَى أَنَّ ذَلِكَ حَافِزٌ لِلْخَطِيبِ أَنْ يَتَعَلَّمَ، وَلَكِنْ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَحطَّمَ مَا دَامَ كَلَامُ اللَّهِ وَكَلَامُ رَسُولِهِ ﷺ سَلِيماً مِنْ هَذَا، وَأَيُّ خَطِيبٍ لَيْسَ فِيهِ نَقْصٌ؟! وَلَكِنَّ نَقْصاً فِي النَّحْو خَيْرٌ مِنْ نَقْصٍ فِي الصِّدْقِ وَكَلِمَةِ الْحَقِّ وَالإِخْلَاصِ، أَوْ نَقْصٍ فِي الْخُلُقِ أَوْ خَطَأٍ مُطَّرِدٍ فِي فَهْمِ الْآيَاتِ أَوْ قِرَاءَتِهَا أَو انْعِدَامِ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ مِنَ الْمَوْضُوعَةِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، أَلَا فَلْيَسْتَمِرَّ الْخَطِيبُ وَلْيَسْعَ فِي جَبْرِ نَقْصِهِ.

الْمَوْرِدُ الرَّابِعُ: الْمَيْدَانُ: وَلَابُدَّ لِلْخَطِيبِ كَذَلِكَ أَنْ يُتَابِعَ الْأَخْبَارَ اليَوْمِيَّةَ، وَيَنْظُرَ فِي تَأْثِيرَاتِهَا فِي النَّاسِ.. وَيُرَاعِي شُعُورَ جَمِيعِ مَنْ حَضَرَ عِنْدَهُ، وَلَكِنْ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُرَاعِيَ أَبْنَاءَ بَلَدِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ،

وَلْيَكُنِ الْخَطِيبُ الْحِصْنَ الَّذِي يَأْتِي بَعْدَ كُلِّ الْحُصُونِ.. الْحِصْنَ الَّذِي لَا يُخْتَرَقُ فَيُصْبِحُ لِسَاناً لِلْعِامَةِ، نَاقِلًا لِأَخْبَارِهِمْ الَّتِي يُرِيدُونَ تَرْوِيجَهَا! وَلَا يَبْلُغُ ذَلِكَ الْمبلغ حَتَّى يَكُونَ ذَا بَصِيرَةٍ حَدِيدِيَّةٍ، لَا يُضَيِّعُ الضَّوَابِطَ الشَّرْعِيَّةَ فَيَسْتَخِفَّ بِهِ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ لِسُرْعَةِ الْأَحْدَاثِ وَسُرْعَةِ رِدَّةِ الْفِعْلِ، وَلِذَا يَلْزَمُ الْخَطِيبَ أَنْ يُرَاجِعَ بَعْضَ الْمَجَلَّاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ الصَّافِيَةِ الْمُتَخَصِّصَةِ، وَفِي كَثِيرٍ مِنْ الْمَجَلَّاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، وَقَدْ سَدَّتْ بَاباً كَبِيراً، بِبُحُوثِهَا الشَّرْعِيَّةِ، وَتَحْلِيلَاتِهَا لِلْأَحْدَاثِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ!

أَيُّهَا الْخَطِيبُ: قَدْ جَاءَكَ هَؤُلَاءِ الْحَاضِرُونَ مِنْ أَوْدِيَةِ هَذِهِ الدُّنْيَا وشُعَبِهَا وأَزِقَّتِهَا.. جَاؤُوا يَحْمِلُونَ هُمُومَهُم الشَّخْصِيَّةَ وَالْعَامَّةَ.

هَؤُلَاءِ النَّاسُ هُمْ مَيْدَانُ الصِّرَاعِ بَيْنَ أَهْلِ الْحَقِّ وَأَهْلِ الْبَاطِلِ.. فَكُلُّ الْأَجْهِزَةِ التَّأْثِيرِيَّةِ السَّيِّئَةِ مُسَلَّطَةٌ عَلَى هَؤُلَاءِ.. جَاؤُوكَ بَعْدَ مَا تَعَرَّضُوا طَوَالَ الْأُسْبُوعِ إِلَى مُؤَثِّرَاتٍ مُرَكَّزَةٍ.. مُنَوَّعَةٍ.. بَاهِرَةٍ.. فَاتِنَةٍ.. لَا يَكَادُ يَقِفُ لَهَا عَقْلٌ، أَوْ يَثْبُتُ لَهَا جَنَانٌ.. فَهَلْ يَسَعُكَ إِغْفَالُ مَيْدَانِهِمْ إِغْفَالًا مُطْلَقاً؟ هَلْ يَسَعُكَ أَنْ تَعِيشَ فِي عَالَمِكَ الْخَاصِّ بِكَ أَيّاً كَانَ عَالَمُكَ.. عِلْمِيّاً أَوْ إِيمَانِيّاً أَوْ فِكْرِيّاً؟

إِنَّ الْقَضَايَا الْمَصِيرِيَّةَ الَّتِي تَتَفَجَّرُ بِالْأَحْدَاثِ بَيْنَ الْفَيْنَةِ وَالْأُخْرَى فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ تَجْعَلُ كُلَّ قَادِمٍ لِلْمَسْجِدِ مُتَحَسِّباً مُنْتَظِراً لِحَدِيثِ

الْجُمُعَةِ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ؛ تُرَى: كَيْفَ سَيَعْرِضُ خَطِيبُنَا هَذَا الْأَمْرَ؟ كَيْفَ سَيَسْتَدِلُّ لَهُ؟

بَلْ عَادَةُ الْحَاضِرِينَ أَنْ يُعَظِّمُوا شَأْنَ خُطْبَتِهِمْ.. وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِحُسْنِ ظَنِّهِمْ بِخَطِيبِهِمْ وَتَعْظِيمِهِمْ لِشَأْنِهِ.. فَكَيْفَ سَتَكُونُ رِدَّةُ فِعْلِهِمْ وَصِدْقِهِمْ إِذَا رَأَوْا أَنَّ خَطِيبَهُمْ غَيْرُ مُهْتَمٍّ بِمَا أَهَمَّهُمْ، وَلَا يَعْنِيهِ شَأْنُ أُمَّتِهِمْ؟!

إِنَّهُ يَتَحَدَّثُ فِي عَالَمٍ آخَرَ..! تُرَى؛ أَلَا يَعِيشُ هَذَا الْخَطِيبُ مَعَنَا فِي هَذَا الْعَالَمِ.. أَمْ أَنَّهُ غَيْرُ مُهْتَمٍّ بِشَأْنِ أُمَّتِهِ؟ أَمْ هَذَا لَيْسَ مِنَ الدِّينِ؟ أَمْ أَنَّهُ يَخَافُ أَنْ يَقُولَ كَلِمَةَ الْحَقِّ وَهُوَ يَعْلَمُهَا؟

أَمْ أَنَّهُ مِمَّنْ اشْتَرَى الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ..؟

أَخِي الْخَطِيبُ، مَنْ حَسِبَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْحَاضِرِينَ سُذَّجٌ.. أَوْ أَنَّهُمْ يُسْتَغْفَلُونَ بِلَيِّ الْأَلْسُنِ وَتَزْوِيقِ الْعِبَارَةِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ.. فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ هُوَ مَنْ يُسْتَغْفَلُ مِنْ قِبَلِ هَؤُلَاءِ.. فَهَؤُلَاءِ كِبَارٌ وَكُثُرٌ.. وَهُمْ يَجْتَمِعُونَ بَعْدَ خُطْبَتِكَ، وَقَبْلَ أَنْ يُغَادِرُوا إِلَى بُيُوتِهِمْ، ثُمَّ فِي مَجَالِسِهِمْ وَفِي دَوَائِرِ أَعْمَالِهِمْ.. وَيُحَلِّلُونَ شَخْصِيَّةَ الْخَطِيبِ وَنَفْسِيَّتَهُ مِنْ خِلَالِ كَلِمَاتِهِ، فَمَا مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا خِرِّيجٌ وَمُتَأَهِّلٌ فِي الْمَدْرَسَةِ الصُّغْرَى.. أَوْ الْمَدْرَسَةِ الْكُبْرَى، وَهِيَ مَدْرَسَةُ الْحَيَاةِ.. فَهَؤُلَاءِ يَكْتَشِفُونَ قُوَّةَ إِيمَانِ خَطِيبِهِمْ أَوْ خَفَاءَ نِفَاقِهِ مِنْ خِلَالِ مَا ظَهَرَ مِنْ

عَرْضِهِ لِقَوْلِ الْإِسْلَامِ فِيمَا جرَى. . وَأَنَّ مَن اسْتَطَاعَ أَنْ يُرْبِكَهُمْ عَنِ التَّرْكِيزِ عَلَى كَلِمَةِ الْحَقِّ مَرَّةً بِعُلوِّ صَوْتِهِ وَصُرَاخِهِ فَإِنَّهُمْ سَيكْتَشِفُونَهُ قَرِيباً، وَسَوْفَ يَكُون ذَلِكَ عَلَيْهِ وَبالًا وَحُجَّةً!

أَيُّهَا الْخَطِيبُ: إِيَّاكَ أَنْ تَجعَلَ خُطْبَتَكَ كَأَنَّها عَمُودٌ فِي صَحِيفَةٍ يَوْمِيَّةٍ مُقْتَصِرَةٍ عَلَى ذِكْرِ أَحْدَاثٍ وَاقِعِيَّةٍ وَتَحْلِيلَاتٍ سِيَاسِيَّةٍ أَوِ اجْتِمَاعِيَّةٍ!

وَإِيَّاكَ أَنْ تَجعَلَ خُطْبَتَكَ مَقْطُوعَةَ نِقْمةٍ، وَكُتْلَةَ أَحْقَادٍ كَأَحْقَادِ الشُّيُوعِيَّةِ الاشْتِرَاكِيَّةِ الَّذِينَ لَا هَمَّ لَهُمْ إِلَّا التَّصَيُّدَ وَالتَّشْهِيرِ لِلتَّثْوِيرِ.

كَمَا لَا يَنْبَغِي أَنْ تَجعَلَ خُطْبَتَكَ مَقْطُوعَةً أَدَبِيَّةً، أَوْ نُصُوصاً شَرْعِيَّةً مُجَرَّدَةً لَا عَلَاقَةَ لَها بِالْوَاقِعِ وَلَا الْأَحْدَاثِ وَلَا الْمَيْدَانِ.

فَمَا قِيمَةُ أَمْرِ اللَّهِ بِوُجُوبِ إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ لَوْ كَانَ الْأَمْرُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْإِذْنِ؟!

وَمَا قِيمَةُ تَهْدِيدِ النَّبِيِّ ﷺ السَّاكِتِينَ عَنِ الْإِنْكَارِ بِالْعَذَابِ الْعَامِّ لِلْمُجْتَمَعِ لَوِ احْتَاجَ الْأَمْرُ لِغَيْرِ أَمرِ اللَّهِ وَأَمْرِ رَسُولِهِ ﷺ؟

وَمِمَّنْ يُتَصَوَّرُ الْإِذْنُ إِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْمُرُنَا بِالْإِنْكَارِ قَوْلًا، بَلِ الْأَخْذِ عَلَى الْيَدِ، وَمَنْعِ الْوَالِي عَنِ الظُّلْمِ، وَصَاحِبِ الْمُنْكَرِ بِكُلِّ طَرِيقٍ؟!

لِذَا كَانَ لَابُدَّ أَنْ تَكُونَ زِيَارَاتٌ لِمَجَالِسِ الْحَيِّ، وَقِرَاءَةٌ فِي أَخْبَارِ

الْيوم أَوِ اسْتِمَاعٌ لَهَا، لَابَدَّ أَنْ تَلْتَقِطَ مِنَ الْأَقْوَالِ بَعْضَ الْأَفْكَارِ وَأَحْيَاناً مَوَاضِيعَ بَأَكْمَلِهَا. . وَلَا يَفُوتَنَّكَ كَيْفَ كَانَتْ خُطْبَةُ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّها عَادَةً ما تَنْبُعُ مِنَ الْمَيْدَانِ، بَلْ مَا كَانَ ﷺ مِنْ عَادَتِهِ أَنْ يَنْتَظِرَ حَتَّى تَأْتِيَ خُطْبَةُ الْجُمُعَةِ بَلْ يَجْمَعُهُمْ مِنْ فَوْرِهِ وَيَقُومُ فِيمَنْ حَضَرَ خَطِيباً لِيُصَحِّحَ أَخْطَاءَ الْمَيْدَانِ فِي أُمُورٍ فَرْدِيَّةٍ كَانَ بِإِمْكَانِهِ أَنْ يُسِرَّ بِنُصْحِهَا لِلْمُخْطِئِينَ، لَكِنَّهُ كَانَ يَقُومُ فَيَخْطُبُ فِي النَّاسِ وَفِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ كَانَ النَّاسُ يَعْرِفُونَ ذَاكَ الْمُخْطِئَ بِشَخْصِهِ - لِعُمُومِ النَّفْعِ وَخُطُورَةِ تَكْرَارِ الْخَطَأِ، وَلَرُبَّمَا أَصْبَحَ الْإِسْرَارُ بِالنُّصْحِ سُكُوتاً عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ كَالسُّكُوتِ، وَلِمَا فِي الْإِجْهَارِ مِنْ فَائِدَةٍ عَامَّةٍ فِي الْحَالِ وَتَبْقَى إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، حَتَّى لَوْ كَانَ الْمُنْكَر عَلَيْهِ وَالِياً مِنْ وُلاتِهِ، كَمَا فِي حَدِيثِ ابْنِ اللَّتَبِيَّةِ، فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ: عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ: اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا عَلَى صَدَقَاتِ بَنِي سُلَيْم يُدْعَى ابْنَ اللَّتَبِيَّةِ، فَلَمَّا جَاءَ حَاسَبَهُ، قَالَ: هَذَا مَالُكُمْ، وَهَذَا هَدِيَّةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَهَلَّا جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ حَتَّى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقاً» ثُمَّ خَطَبَنَا، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ عَلَى الْعَمَلِ مِمَّا وَلَّانِي اللَّهُ، فَيَأْتِي فَيَقُولُ: هَذَا مَالُكُمْ، وَهَذَا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي، أَفَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ وَاللَّهِ، لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئاً بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلَّا لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُهُ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلأَعْرِفَنَّ أَحداً مِنْكُمْ لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُ بَعِيراً لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ، أَوْ شَاةً تَيْعَرُ» ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ حَتَّى رُئِيَ بَيَاضُ إِبْطِهِ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ بَصُرَ عَيْنِي وَسَمْعَ أُذُنِي»(١).

فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي الْخُطَبِ الَّتِي فِي أَثْنَاءِ الْأُسْبُوعِ فَكَيْفَ بِمَنْ لَا يَخْطُبُ إِلَّا مَرَّةً فِي الْأُسْبُوعِ، وَمَنْ لَا يَجْتَمِعُ لَهُ النَّاسُ إِلَّا فِي الْجُمُعَةِ؟!

إِنَّ أَحْدَاثَ الْمَيْدَانِ تُغَذِّي خُطْبَةَ الْجُمُعَةِ بِالْجَدِيدِ، وَتُعْطِي النُّصُوصَ الشَّرْعِيَّةَ فُرْصَةَ التَّجْدِيدِ وَالتَّصْحِيحِ لِلْحَيَاةِ، إِنَّ التَّجْدِيدَ لَيْسَ مَحْصُوراً بِتَجْدِيدِ الْفِكْرِ الْمُجَرَّدِ، بَلِ التَّجْدِيدُ الْحَقُّ هُوَ تَجْدِيدُ الْحَيَاةِ، وَبَعْثُ الْحَيَاةِ، وَتَصْحِيحُ مَسَارِ النَّاسِ فِي الْحَيَاةِ، وَهَذَا هُوَ مَا صَنَعَهُ هَذَا الدِّينُ آنَذَاكَ، وَهُوَ مَا كَانَ يَصْنَعُهُ ﷺ حَتَّى فِي حَيَاةِ الصَّحَابَةِ أَنْفُسِهِمْ، وَهُوَ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَصْنَعَهُ الْخَطِيبُ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ، فَمَرَّةً يُصَحِّحُ عَقِيدَةً، وَمَرَّةً يُحْيِي سُنَّةً، وَمَرَّةً يُجَدِّدُ حَيَاةً، وَمَرَّةً يُعَدِّلُ مَجْرَى حَيَاةٍ شَطَّ، وَمَرَّةً يُمِيتُ بِدْعَةً، وَمَرَّةً يُطْفِئُ فِتْنَةً، وَمَرَّةً يَقْبُرُ مُنْكَراً، وَمَرَّةً يَقِي مِنْ مَكْرٍ، وَهَذَا دَأْبُهُ، وَبِغَيْرِ هَذَا فَإِنَّ التَّجْدِيدَ يَبْقَى زَعْماً وَأَمَانِيَّ.

* * * * *

(١) متفق عليه. رواه البخاري (٦٩٧٩)، ومسلم (١٨٣٢).

المبحث الثالث
خُطُوَاتِ تَحْضِيرِ الْخُطْبَةِ

إِنَّ مَا يَحْتَاجُهُ الْخَطِيبُ الْيَوْمَ لَيسَ التَّلْقِينَ النَّظرِيَّ، فَهُوَ إِمَّا خَطِيبٌ يُرِيدُ الدُّخُولَ إِلَى الْمَيْدَانِ، أَوْ هُوَ خَطِيبٌ وَسْطَ الْمَيْدَانِ، وَهَذَا يَحْتَاجُ لِأَنْ تَدْخُلَ مَعَهُ الْمَيْدَانَ أَوْ تُدْخِلَهُ الْمَيْدَانَ فِعْلِيّاً، وَالثَّانِي يَحْتَاجُ أَنْ تُصَحِّحَ لَهُ خَطَأَهُ فِي الْمَيْدَانِ، أَوْ تُضِيفَ لَهُ شَيْئاً عَمَلِيّاً.. فَمَا تُغْنِي الْوَصَايَا النَّظَرِيَّةُ إِذَا ضَرَبَتْ صَخْرَةَ الْمَيْدَانِ بِقُرُونِهَا.. وَهَذَا لَا يُخَالِفُ الْقَوَاعِدَ العِلْمِيَّةَ لِعِلْمِ الْخَطَابَةِ.. لَكِنْ مَا أَكْثَرَ النَّظَرِيَّاتِ وَمَا أَسْرَعَ تَبَخُّرَهَا إِذَا غَلَتْ بِهَا قُدُورُ الْمَيْدَانِ!!

أَمَامَكَ الْآنَ الْجُمُعَةُ.. تُرِيدُ أَنْ تَرْتَقِي الْمِنْبَرَ لِلْخُطْبَةِ بِالنَّاسِ فَمَا تَصْنَعُ..ضَعْ نَفْسَكَ مَكَانِي.

لِلْخُطْبَةِ مَرَاحِلُ، مِنْهَا مَا قَبْلَ الْخُطْبَةِ، وَمِنْهَا أَثْنَاءَ الْخُطْبَةِ وَالصَّلاةِ.

وَكُلُّ مَا سَأَذْكُرُهُ أَمْرٌ اجْتِهَادِيٌّ قَابِلٌ لِلْأَخْذِ وَالرَّدِّ، لَكِنَّهُ عُصَارَةُ تَجْرِبَةٍ قَارَبَتِ ثَلَاثِينَ سَنَةً قَدْ أُخْضِعَتْ لِلتَّصْحِيحِ وَلِلْمُرَاجَعَةِ وَالتَّنْقِيحِ مِرَاراً وَتَكْرَاراً، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ عُصَارَةً لِمَرْحَلَةٍ زَمَنِيَّةٍ تُعِينُ عَلَى

خَطِيبِ أُمَّةٍ جَدِيدَةٍ فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ، وَلَعَلَّكَ سَتُدْرِكُ أَنَّ أَهَمِّيَّةَ هَذَا الْمَكْتُوبِ تَنْبُعُ مِنْ كَوْنِهِ عِلْمِيّاً عَنْ عِلْمٍ، وَعَمَلِيّاً عَنْ عَمَلٍ، كَمَا تُدْرِكُ أَنَّهُ جَدِيدٌ نَافِعٌ، وَالْفَضْلُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، فَلْنَأْخُذِ الْأَمْرَ خُطْوَةً خُطْوَةً.

الْخُطْوَةُ الْأُولَى: الْتِقَاطُ مَوَاضِيعِ الْخُطْبَةِ:

يُخْطِئُ الْخَطِيبُ خَطَأً كَبِيراً حِينَ يَحْصِرُ نَفْسَهُ فِي فِكْرَةِ مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ وَعُنْوَانٍ وَاحِدٍ لِلْأُسْبُوعِ الْقَادِمِ، بَلْ يَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يَكُونَ ثَرْوَةً مِنَ الْعَنَاوِينِ وَالْمَوَاضِيعِ.. فَإِنَّ كَثْرَةَ الْعَنَاوِينِ الْمَرْصُودَةِ عِنْدَ الْخَطِيبِ فِي كُرَّاسِهِ الْخَاصِّ دَلِيلُ اهْتِمَامِهِ الدَّائِمِ وَتَفَاعُلِهِ الْمُسْتَمِرِّ مَعَ مِنْبَرِهِ وَجُمْهُورِهِ كَتَفَاعُلِ الْكَرِيمِ مَعَ ضُيُوفِهِ وَأَكْثَرَ، وَكَمْ مِنْ خَطِيبٍ اخْتَارَ مَوْضُوعاً لِلْخُطْبَةِ الْقَادِمَةِ وَارْتَاحَتْ نَفْسُهُ إِلَيْهِ لَكِنْ حِينَ جَاءَ الْمَوْعِدُ وَضَاقَ الْوَقْتُ انْصَرَفَتْ نَفْسُهُ عَنْ هَذَا الْمَوْضُوعِ، فَأَصْبَحَتْ تَطْرُدُ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَلَا تَجِدُ، وَمِنْ بِدَايَةِ الْفَشَلِ أَنْ يَتَحَدَّثَ الْخَطِيبُ فِي مَوْضُوعٍ لَمْ يَنْبُعْ مِنْ قَنَاعَتِهِ، وَلَمْ تَتَفَاعَلْ مَعَهُ رُوحُهُ، وَلَمْ يَعِشْ مَوْضُوعَهُ فِي دَاخِلِ قَلْبِهِ.

وَكَثِيراً مَا يَأْتِي الْخَطِيبُ فِي لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ أَوْ قَبْلَهَا أَوْ فِي صُبْحِهَا لِمَوْضُوعٍ رَكَنَ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ سَجَّلَ نِقَاطَهُ وَأَفْكَارَهُ، لَكِنْ يَعْجُمُ عَلَيْهِ اسْتِهْلَالُهُ، فَلَا يَمْلِكُ مِفْتَاحَ الدُّخُولِ، أَوْ يَأْتِي لِيَرْبِطَ أَفْكَارَ الْخُطْبَةِ الْمَكْتُوبَةِ عِنْدَهُ فَلَا يَمْلِكُ الرَّبْطَ بَيْنَهَا، وَهَذَا أَمْرٌ كَثِيرُ الْحُدُوثِ، لِذَا

كَانَ لَا بُدَّ مِنْ تَعدُّدِ الْخِيَارَاتِ، وَتَحْدِيدِ الْخُطْبَةِ الْمُخْتَارَةِ لِلْجُمُعَةِ الْقَادِمَةِ بِمَا لَا يَقِلُّ عَنْ ثَلَاثَةِ أَيَّام.. وَكِتَابَةِ اسْتِهْلَالِهَا وَرَبْطِ أَفْكَارِهَا.. فَإِذَا وَقَعَ مَوْضُوعٌ خَطَفَ اهْتِمَامَ الْحُضُورِ فِي آخِرِ الْأُسْبُوعِ، فَإِنَّهُ يَتَيَسَّرُ بِشَكْلٍ لَافِتٍ حَقّاً.

وَغَالِباً مَا يَكُونُ الْمَوْضُوعُ ضِمْنَ الْمَوَاضِيعِ الْكَثِيرَةِ الْمُعَدَّةِ فِي دَفْتَرِ الْخَطِيبِ الْكَبِيرِ، إذاً فَإِنَّ اخْتِيَارَ الْمَوَاضِيعِ أَمْرٌ مُهِمٌّ، وَإِذَا مَا اخْتَرْتَ الْمَوْضُوعَ فَاحْرِصْ أَنْ تَخْتَارَ لَهُ عُنْوَاناً جَذَّاباً وَلَوْ فِي دَفْتَرِكَ، فَإِنَّ الْعُنْوَانَ مِفْتَاحُ الْخُطْبَةِ، وَهُوَ قَبْلَ ذَلِكَ مِفْتَاحٌ نَفسِيٌّ، وَمِفْتَاحُ فَهْمٍ، وَاحْرِصْ أَكْثَرَ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْعُنْوَانِ أَنْ تَكْتُبَ اسْتِهْلَالَ الْخُطْبَةِ.. فَاسْتِهْلَالُ الْخُطْبَةِ إِنَّمَا هُوَ رَسْمُ خَارِطَةِ أَفْكَارِ الْخُطْبَةِ، بَلْ هُوَ وَضْعُ الْخُطَى الْأُولَى لِلْمَعَانِي عَلَى سَلَالِمِ الْخُطْبَةِ الَّتِي أَخذَتْ شَكْلَهَا الْفِعْلِيَّ مِنْ سَلَالِمِهَا الْأُولَى.

وَمِنَ النَّادِرِ جِدّاً أَنْ يَكْتُبَ الْخَطِيبُ أَفْكَارَ الْخُطْبَةِ وَيَكْتُبَ عُنْوَانَهَا وَاسْتِهْلَالَهَا ثُمَّ يَعْزِفُ عَنْهَا إِذَا جَاءَ وَقْتُهَا حَتَّى لَوْ كَانَ فِي صَبَاحِ الْجُمُعَةِ.. فَالاسْتِهْلَالُ مِفْتَاحٌ، وَهَلْ سَمِعْتُمْ عَنْ عَائِدٍ عَائِفٍ بَعْدَ مَا فُتِحَ لَهُ؟!

وَسَنَأْتِي لِتَفْصِيلِ مَعْنَى الاسْتِهْلَالِ وَكَيْفِيَّتِهِ، وَتَفْصِيلُ هَذَا سَيَأْتِي فِي الْمَرْحَلَةِ الْقَادِمَةِ، وَهِيَ مَرْحَلَةُ إِنْضَاجِ الْخُطْبَةِ، إِنْ شَاءَ اللَّه.

الْخُطْوَةُ الثَّانِيَةُ: إِنْضَاجُ الْخُطْبَةِ:

وَلِتَحْقِيقِ ذَلِكَ لَابُدَّ مِنْ أَمْرِينِ:

أَوْلًا: اتَّخِذْ كُرَّاسَيْنِ: يَنْبَغِي أَنْ يَجْعَلَ الْخَطِيبُ عِنْدَهُ دَفْتَراً كَبِيراً بِنَحْوِ مِائَتَي صَفْحَةٍ يَجْعَله فِي الْبَيْتِ، وَيَكُونَ مَعَهُ دَفْتَرٌ آخَرُ يُلَازِمُهُ فِي جَيْبِهِ، فالْفِكْرَةُ لَا تَسْتَأْذِنُ فِي الْعَادَةِ.. فَكُنْ مُسْتَعِدّاً لَهَا فِي كُلِّ لَحْظَةٍ جَاءَتْكَ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، فَعِنْدَ أَوَّلِ حُضُورِ الْفِكْرَةِ اكْتُبْهَا فِي الدَّفْتَرِ الصَّغِيرِ كَمَا جَاءَتْ كَامِلَةً حَسْبَ مَا هِيَ عِنْدَكَ فِي لَحْظَتِهَا وَحَرَارَتِهَا وَقُوَّتِهَا، وَاجْعَلْ لَهَا عُنْوَاناً مِنْ لَحْظَتِهَا.

فَلَقَدْ وَجَدْتُ الْفِكْرَةَ إِذَا جَاءَتْ فَلَمْ أُقَيِّدْ مِنْهَا إِلَّا عُنْوَانَهَا ظَنّاً مِنِّي أَنِّي سَوْفَ أَسْتَحْضِرُهَا كَمَا هِيَ الْآنَ عِنْدِي، فَإِنِّي عِنْدَمَا أَرْجِعُ إِلَيْهَا فِي الدَّفْتَرِ فَأَنْظُرُ فِي عُنْوَانِهَا لَا أَفْهَمُ مِنَ الْعُنْوَانِ شَيْئاً، وَلَا أَدْرِي عُنْوَانَ أَيِّ شَيْءٍ، وَمَا الْمَدْلُولَاتِ الَّتِي تَحْتَهَا.. هَكَذَا تَتَكَرَّرُ مَعِي هَذِهِ الْحَقِيقَةُ كُلَّ مَرَّةٍ، وَتَذْهَبُ الْفِكْرَةُ تِلْوَ الْفِكْرَةِ، فَلَمْ أَجِدْ لَهَا عِلَاجاً إِلَّا مَا ذَكَرْتُ لَكَ!

إِنَّ الْفِكْرَةَ لَا تَثُورُ فِي الذِّهْنِ إِلَّا عَلَى سُخُونَةِ الْجَوِّ الدَّاخِلِيِّ الَّذِي تَفَاعَلَ مَعَ الْفِكْرَةِ الدَّاخِلِيَّةِ أَوِ الْحَدَثِ الْخَارِجِيِّ.. وَكَأَنَّ هَذِهِ الْفِكْرَةَ مَعَ سُخُونَةِ الْجَوِّ الدَّاخِلِيِّ فِي تَصَاعُدِهَا وَتَنَامِيهَا كَأَنَّهَا الْبُخَارُ يَتَصَاعَدُ مِنَ الْمُسَطَّحَاتِ الْمَائِيَّةِ لِيَتَكَثَّفَ ثُمَّ يُصْبِحُ سَحَاباً مُمْطِراً. فَإِذَا الْتَقَطْتَ الْعُنْوَانَ وَحْدَهُ مِنْ غَيْرِ سُخُونَةِ الْفِكْرَةِ الْأَسَاسِيَّةِ لَمْ يَنْزِلْ مَطَرٌ؛ لِأَنَّهُ

لَمْ يَتصَاعدْ فِي الْأَسَاسِ بُخَارٌ لِانْعِدَامِ الْحَرَارَةِ، فَقَيِّدِ الْفِكْرَةَ فَوْراً أَوَّلَ مَا تَأْتِيكَ كَمَا هِيَ بِظَرْفِهَا وَكُلِّ مَا فِيهَا حَتَّى إِذَا جِئْتَهَا بَعْدَ فَتْرَةٍ وَجدْتَهَا طَرِيَّةً لَمْ تَنْشَفْ كَمَا تَرَكْتَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ.. عِنْدَهَا سَوْفَ تَعُودُ النَّفْسُ فَوْراً وَتَعِيشُ الْجَوَّ وَالْحَالَةَ.. وَتُضِيفُ لَهَا مَا يَزِيدُهَا وَاقِعِيَّةً وَعَقْلَانِيَّةً وَشُمُولًا وَحُسْنَ تَدْلِيلٍ وَتَنْزِيلٍ.

ثَانِياً: تَعَوَّدِ الْعَمَلَ بِمَنْهَجِيَّةِ الْأَشْبَاهِ وَالنَّظَائِرِ: عِنْدَمَا تُقَيِّدُ الْفِكْرَةَ فِي دَفْتَرِكَ الصَّغِيرِ (دفْتَرِ الْجَيْبِ) انْقُلْهَا فِي أَوَّلِ فُرْصَةٍ أَوْ أَوَّلِ رُجُوعِكَ إِلى الْبَيْتِ إِلَى الدَّفْتَرِ الْكَبِيرِ، وَأَضِفْ لَهَا مَا اسْتَطَعْتَ.. وَاكْتُبْ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ مَرَاجِعَ هَذِهِ الْخُطْبَةِ كَيْ تَرْجِعَ لَهَا وَقْتَ الْإِعْدَادِ الْكَامِلِ. وَهُنَا أَمْرٌ مُهِمٌّ، وَهُوَ أَنَّكَ عِنْدَ كِتَابَتِكَ الْخُطْبَةَ وَعُنْوَانَهَا احْرِصْ عَلَى أَنْ تَجْمَعَ لَهَا فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ كُلَّ مَا فِي ذَاكِرَتِكَ بِطَرِيقَةِ اسْتِدْعَاءِ «الْأَشْبَاهِ وَالنَّظَائِرِ»، وَتَجْمَعَهَا فِي نِقَاطٍ مُرَقَّمَةٍ؛ حَتَّى لَا تَخْتَلِطَ، فَتَسْتَعِينَ بِهَا إِذَا رَجَعْتَ لَهَا بَعْدَ فَتْرَةٍ، وَهَذِهِ النُّقْطَةُ هِيَ أَهَمُّ مَا فِي الْمَوْضُوعِ؛ لِأَنَّهَا «تَأْصِيلُ التَّأْصِيلِ» لِلْخُطْبَةِ أَيْ: أَسَاسُ التَّأْصِيلِ، أَوْ «الْعُيُونُ السَّاقِيَةُ لِلْخُطْبَةِ» **فَإِنَّ اسْتِقْرَاءَ مَا فِي الذِّهْنِ فِي نَفْسِ اللَّحْظَةِ قَبْلَ الرُّجُوعِ** إِلَى أَيِّ مَرْجِعٍ مَكْتُوبٍ لَهُ ثِمَارٌ عَظِيمَةٌ، مِنْهَا: أَنَّهُ يُعَوِّدُ الذِّهْنَ عَلَى التَّجَاوُبِ شَيْئاً فَشَيْئاً، وَتَزْدَادُ مَلَكَةُ اسْتِجَابَةِ الذِّهْنِ بِمُرُورِ الْأَيَّامِ وَمَزِيدِ الطَّلَبَاتِ

حَتَّى يَتعَوَّدَ الرَّكْضَ فِي مَيْدَانِ الْإِعْدَادِ وَالتَّحْضِيرِ، وَتَتَسَارَعُ إِجَابَتُه بِمَزِيدِ الطَّلَبَاتِ حَتَّى يُسْرِعَ وَيُسْرِعَ، بَلْ يُومِضُ وَيَبْرُقُ وَيَرْعُدُ وَيُمْطِرُ وَيَسْقِي وَيَرْوِي، كُلُّ هَذَا فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ.. لَا أَقُولُ هَذَا لِمُجَرَّدِ التَّصَوُّرِ وَالْإِثَارَةِ، بَلْ هُوَ تَقْرِيبٌ لِلْحَقِيقَةِ، وَإِلَّا فَإِنَّ الْحَقِيقَةَ الْعَقْلِيَّةَ أَكْبَرُ مِنْ هَذَا وَأَسْرَعُ. وَثَمَرَةُ هَذَا الرَّعْدِ وَالْبَرْقِ وَالْغَيْثِ أَنْ يُغِيثَهُ عَقْلُهُ بَعْدَ ذَلِكَ - بِإِذْنِ اللَّهِ - مَتَى رَغِبَ، وَيُصْبِحُ التَّأْصِيلُ رَهْنَ إِشَارَتِهِ.. وَلَا يَخْذُلُهُ عَقْلُهُ - بِإِذْنِ اللَّهِ - فِي مَوْقِفٍ، وَسَوْفَ يَسْتَغْرِبُ مَنْ حَضَرَ الْحِوَارَ أَوِ الْمَوْضُوعَ لِسُرْعَةِ تَأْصِيلِهِ الشَّرْعِيِّ لِكُلِّ فِكْرَةٍ عَابِرَةٍ أَوْ إِلْمَاحَةٍ طَائِرَةٍ لَمْ يَحْسَبُوا أَنَّ الشَّرْعَ جَاءَ لَهَا بِخَبَرٍ، وَطَرِيقَةُ «الْأَشْبَاهِ وَالنَّظَائِرِ» تَأْتِي إِمَّا بِالاسْتِقْرَاءِ اللَّفْظِيِّ أَوْ الاسْتِقْرَاءِ الْمَوْضُوعِيِّ بَالنَّظَرِ لِنُقْطَةٍ وَاحِدَةٍ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ بِطَرِيقَةٍ سَرِيعَةٍ؛ لَكِنَّهَا مُرَتَّبَةٌ، يَطُوفُ فِيهَا الْعَقْلُ عَلَى أَشْبَاهِهَا وَنَظَائِرِهَا فِي مَظَانِّهِ مِنْ كُتُبِ التَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ أَوِ الْفِقْهِ أَوِ السِّيرَةِ أَوِ الْعِلْمِ الْحَدِيثِيِّ أَوْ كُلِّ ذَلِكَ، ثُمَّ يَسْبُرُ الْوَاقِعَ كَذَلِكَ سَبْراً بِطَرِيقَةِ الْأَشْبَاهِ وَالنَّظَائِرِ لِتَطْبِيقَاتِ فِكْرَتِكَ.

وَتَبْقَى هَذِهِ الْخُطْبَةُ عِنْدَكَ فِي الدَّفْتَرِ الْكَبِيرِ.. ثُمَّ تَأْتِيكَ فِكْرَةٌ لِخُطْبَةٍ ثَانِيةٍ فَتُسَجِلُهَا بِنَفْسِ الطَّرِيقَةِ.. وَهَكَذَا الثَّالِثَةِ وَالرَّابِعَةِ، وَرُبَّمَا اجْتَمَعَ عِنْدَكَ فِي فَتْرَةٍ قَصِيرَةٍ أَرْبَعٌ وخمسون خطبة جمعةٍ، أي: عَلَى عَدَدِ جُمَعِ سَنَةٍ بِأَكْمَلِهَا.. وَلَيْسَ مُهِمّاً كَمْ اجْتَمَعَ عِنْدَكَ..

فالمهمُّ أن هَذَا الدفتر كنزٌ مُدَّخرٌ، وَأَنْتَ كُلَّمَا الْتقطت فكرة حِفظْتَهَا فِي مَوْضِعِهَا كَمَا يَحْفَظُ الجَمُوعُ المَنوعُ الجَواهِرَ فِي صَنَادِيقِهَا.

هنا سَوْفَ ترى مَيْدَان الْحَيَاة يُكْملها شيئاً فشيئاً.. وترى قراءتك تَزِيدها شيئاً فشيئاً.. وترى الأسئلة الَّتِي تُوجَّه إليك أَوْ الْمشاكل تنضمُّ لِخُطْبَةٍ هُنا وَأُخْرَى هُنَا، تَنْضَجُ الْفِكْرَةُ شَيْئاً فَشَيْئاً.. تَرَى الْأَفْكَار الْجَدِيدَة تُضَافُ لِتِلْكَ الْخُطَبِ.. وَهَكَذَا تَتَغَذَّى الْخُطْبَةُ الْجَدِيدَةُ فَتَنْمُو شَيْئاً فَشَيْئاً حَتَّى تَغْدُوَ مُزْهِرَةً مُثْمِرَةً، وَتَغْدُوَ الْخُطْبَةُ الْأُخْرَى مِثْلَهَا، وَالثَّانِيَةُ وَالثَّالِثَةُ، وَهَكَذَا الدَّفْتَرُ كُلُّهُ حَتَّى يَغْدُوَ وَكَأَنَّهُ جَنَّةٌ جَمِيلَةٌ عَظِيمَةٌ فِي عَيْنَيْك.

حَتَّى إِنَّكَ لَتَسْتَغْرِبُ إِذَا جَاءَ وَقْتُ اخْتِيَارِ خُطْبَةٍ قَدْ كَتَبْتَهَا مُنْذُ زَمَنٍ لِتَكُونَ هِيَ خُطْبَةَ الْجُمُعَةِ الْقَادِمَةِ كَيْفَ نَضجتْ، وَكَيْفَ تَكَامَلَتْ، مِنْ أَيْنَ كُلُّ هَذِهِ الْعَنَاصِرِ كَيْفَ تَوَارَدتْ، كَيْفَ تَتَابَعَتِ التَّطْبِيقَاتُ عَلَى الْوَاقِعِ، وَكَيْفَ اسْتُحْضِرَتْ.؟! فَتَحْمَدُ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ، ذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ عَالِمٌ كَبِيرٌ، وَلَهُ صَفَحَاتٌ كَثِيرَةٌ، فَإِذَا كَتَبَ فِي أَوْقَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ فَقَدْ كَتَبَ فِي صَفحَاتٍ مُتَجَدِّدَةٍ، بَيْنَمَا لَوْ لَمْ يَكْتُبْ إِلَّا فِي يَوْمِ تَحْضِيرِ الْخُطْبَةِ أَوْ لَمْ يَكْتُبْ إِلَّا يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَإِنَّهُ لَنْ يَكْتُبَ إِلَّا فِي صَفْحَةٍ وَاحِدَةٍ؛ لِأَنَّهَا الْمَعْرُوضَةُ أَمَامَ عَيْنَيْهِ فِي هَذَا الْيَوْمِ، فغَطَّتْ فِكْرَةُ الْيَوْمِ بِحَجْمِهَا الصَّغِيرِ كَوْنَهُ الْكَبِيرَ، فَلَمْ يَرَ إِلَّا

مَا أَمَامَهُ مَخْدُوعاً بِأَنَّ هَذَا هُوَ كُلُّ الأُفُق، وَمَا هُوَ إِلَّا صَفْحَةُ الْيَوْم، فَمَا يُعْرَضُ مُلَاصِقاً لِلْعَيْنَيْنِ يُغَطِّي السَّمَوَاتِ عَلَى سَعَتِها، وَلِذَا فَكُلُّ مَرَّةٍ تَكْتُبُ فِيهَا وَتُضِيفُ فَإِنَّكَ إِنَّمَا تَكْتُبُ مِنْ وَجْهٍ غَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي كَتَبْتَ فِيهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ. . وَلَكَأَنَّكَ فِي نِهَايَةِ الْأَمْرِ طَرَقْتَ الْفِكْرَةَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، فَخَرَجَتْ مُتَكَامِلَةً، كَأَنَّهَا بَحْثٌ مُسْتَقِلٌّ، قَدِ اسْتُشِيرَ بِهِ الكَثِيرُ مِنَ الْمُتَخَصِّصِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَجَالِ.

لَكَ أَيُّهَا الْخَطِيبُ أَنْ تَتَصَوَّرَ خُطْبَةَ جُمُعَةٍ أَخَذَ التَّفْكِيرُ فِيهَا سَنَةً أَوْ سِتَّةَ أَشْهُرٍ. . كَيْفَ سَتَكُونُ إِتْقَاناً وَفَيْضاً بِالْجَدِيدِ النَّافِعِ، وَكَيْفَ سَتَكُونُ شُمُولِيَّةً لِلْوَاقِعِ وَشَاهِداً مِنْهُ؟!

الْخُطْوَةُ الثَّالِثَةُ: تَحْدِيدُ هَدَفِ الْخُطْبَةِ:

كُنْتُ أَحْيَاناً أَكْتُبُ أَوَّلَ دَفْتَرِ تَحْضِيرِ خُطْبَةِ الْجُمُعَةِ: أَهْدَافَ الْخُطْبَةِ، وَأَحْيَاناً لَا أَكْتُبُهُ، وَأَكْتَفِي بِمَعْرِفَتِي الدَّاخِلِيَّةِ لِلْهَدَفِ، وَمَعَ هَذَا فَإِنَّ الْهَدَفَ إِذَا كَتَبْتَهُ كَانَ ذَلِكَ أَنْفَعَ بِكَثِيرٍ، فَإِنَّ رُؤْيَةَ الْهَدَفِ أَمَامَكَ مَكْتُوباً يُعْطِيهِ وُجُوداً عِيَانِيّاً، وَبِذَا أُخْرِجُهُ مِنْ عَقْلِي البَاطِنِ وَأَضَعُهُ أَمَامِي، فَأُصْبِحُ رَابِطاً لِخُيُوطِ الْخُطْبَةِ الَّتِي أَكْتُبُهَا رَبْطاً مُحْكَماً، فَلَا يَكَادُ يَنْفَلِتُ شَيْءٌ مِنْهَا، وَتُصْبِحُ كُلُّ النِّقَاطِ تَتَوَجَّهُ نَحْوَ تَحْقِيقِ الْهَدَفِ، أَمَّا إِذَا تَهَاوَنْتُ فِي كِتَابَةِ الْهَدَفِ أَمَامِي فَمَا أَكْثَرَ مَا تَتَبَعْثَرُ الْخُيُوطُ! وَأَحْتَاجُ لِإِعَادَةِ تَجْمِيعِهَا فِي كُلِّ مَرَّةٍ. . كَمَا أَنَّهَا

تَأْخُذُ أَكْبَرَ مِنْ حَجْمِهِا وَأَكْثَرَ مِنْ وَقْتِهِا فَكَيْفَ إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْخُطْبَةِ هَدَفٌ وَاضِحٌ فِي ذِهْنِ الْخَطِيبِ نَفْسِهِ فَضْلاً عَنْ كِتَابَتِهِ، إِنَّ هَدَفَ الْخُطْبَةِ هُوَ الْغَايَةُ، بَيْنَمَا مَوْضُوعُ الْخُطْبَةِ وَسِيلَةٌ.

ثُمَّ إِنَّ كِتَابَةَ الْهَدَفِ يُثْرِي الْأَهْدَافَ، فَمَا أَكْثَرَ مَا تَتَصَوَّرُ أَنَّ هَذِهِ الْخُطْبَةَ يَجِبُ أَنْ تُحَقِّقَ هَدَفَيْنِ، وَلَكِنْ عِنْدَ كِتَابَةِ الْأَهْدَافِ تَرَاهَا تُحَقِّقُ خَمْسَةَ أَهْدَافٍ وَاضِحَةٍ وَمُحَدَّدَةٍ، فَإِذَا مَا جِئْتَ تَكْتُبُ الْخُطْبَةَ فَإِنَّكَ سَوْفَ تُثْرِي الْأَهْدَافَ بِالْأَدِلَّةِ وَالشَّوَاهِدِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ.

وَلَا أَفْتَأُ مُؤَكِّداً - مِنْ غَيْرِ مَلَلٍ - الاسْتِغَاثَةَ بِاللَّهِ بِدُعَاءٍ يَدْعُو بِهِ الْخَطِيبُ لِنَفْسِهِ لِأَجْلِ تَحْقِيقِهِ هَدَفَهُ مِنْ خُطْبَتِهِ، دُعَاءٍ يُفْضِي فِيهِ بِهِمَّةٍ إِلَى رَبِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، عَارِضاً ضَعْفَهُ، مُتَبَرِّئاً مِنْ ذُنُوبِهِ، مُعَظِّماً طَلَبَاتِهِ، فَاللَّهُ عَظِيمٌ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ.

إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أَرَادَ مُخَاطَبَةَ فِرْعَوْنَ حَدَّدَ مُشْكِلَتَهُ وَطَلَبَ مِنْ رَبِّهِ أَنْ يَحُلَّهَا لَهُ، فَقَالَ: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾

[طه: ٢٥- ٣٦].

فَكَمْ عَظَّمَ مُوسَى طَلَبَهُ.. وَهَلْ أَعْظَمُ مِنْ مَنْزِلَةِ النُّبُوَّةِ مِنْ مَنْزِلَةٍ؟

وَمَعَ هَذَا طَلَبَهَا مِنْ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ.

وَلِذَا، فَإِنَّ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْخَطِيبِ أَنْ تَطْلُبَ لِنَفْسِكَ أَعْظَمَ مَا يَصِحُّ طَلَبُهُ، وَلَيْسَ أَقَلَّ مِنْ أَنْ تَطْلُبَ بِإِلْحَاحٍ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَجْعَلَ فِي كَلِمَاتِكَ إِحْيَاءَ مَوَاتِ الْقُلُوبِ، وَتَقْوِيمَ طَرِيقِ النَّاسِ وَتَفْكِيرِهِمْ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ سَدّاً مَنِيعاً أَمَامَ أَعْدَاءِ الإِسْلَامِ، وَنُوراً لِظُلْمَةِ الْجَهْلِ وَالْجَاهِلِيَّةِ، لَابُدَّ أَنْ تَطْلُبَ وَتُعَظِّمَ طَلَبَكَ، اطْلُبْ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا وَأَكْبَرَ، اطْلُبْ وَلَا تَحْمِلْ هَمَّ كَيْفِيَّةِ الإِجَابَةِ، فَذَاكَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

اطْلُبْ وَأَسْنِدْ طَلَبَكَ بِالأَسْبَابِ.. اللَّهَ اللَّهَ بِالثِّقَةِ عِنْدَ الطَّلَبِ وَحُسْنِ الظَّنِّ بِإِجَابَةِ الطَّلَبِ، اطْلُبْ بِإِلْحَاحٍ شَدِيدٍ، وَاطْلُبْ وَقْتَ الإِجَابَةِ، اطْلُبْ إِذَا اقْشَعَرَّ جِلْدُكَ، أَوْ فَاضَتْ عَيْنُكَ، اطْلُبْ مِنَ اللَّهِ حِينَ تَكُونُ كَأَنَّكَ تَرَى اللَّهَ، وَتَقَصَّدْ شُرْبَ زَمْزَمَ لِأَجْلِ خُطْبَتِكَ.. لِأَجْلِ أَنْ تَتَفَجَّرَ بِالْجَدِيدِ كَمَا تَفَجَّرَ زَمْزَمُ مُحْيِياً تِلْكَ الْبِقَاعَ مُبَارَكاً سُقْيا وَغِذَاءً وَشِفَاءً.

الْخُطْوَةُ الرَّابِعَةُ: التَّخَصُّصُ فِي التَّخَصُّصِ: مِمَّا اعْتَادَ النَّاسُ سَمَاعَهُ مِنَ الْخُطَبَاءِ هُوَ تَنَاوُلُ مَوْضُوعِ الْخُطْبَةِ بِشَكْلٍ عَامٍّ؛ يَسْتَوِي فِي ذَلِكَ خُطَبُ الْمَوَاسِمِ - كَمَا تُسَمَّى - وَخُطَبُ الأَحْدَاثِ أَوِ الْخُطَبُ الْعَامَّةُ.

وَتَنَاوُلُ الْخُطْبَةِ بِشَكْلٍ عَامٍّ هُوَ جَيِّدٌ، لَكِنْ عَلَى قِلَّةٍ قَلِيلَةٍ مِنَ

الْخُطَبِ، وَلَا أَرى أَنَّ تُتَنَاوَلَ بِشَكْلٍ عَامٍّ، إِنَّمَا بِشَكْلٍ شُمُولِيٍّ لِلمَوْضُوعِ. أَمَّا التَّعْمِيمُ فَهُوَ أَخُو التَّعْوِيمِ، وَالْفَارِقُ مَا بَيْنَ التَّعْمِيمِ وَالشُّمُولِ يَتَجَلَّى بِالْمِثَالِ فِي مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ تَتَنَاوَلُه مَرَّةً بِشَكْلٍ عَامٍّ، وَمَرَّةً بِشَكْلٍ شَامِلٍ، **وَلْنَأْخُذْ مَوْضُوعَ التَّدْخِينِ مَثَلًا**.

فَأَمَّا تَنَاوُلُهُ بِشَكْلٍ عَامٍّ: فَيَتَنَاوَلُهُ الْخَطِيب مِنْ ضِمْنِ الْمُسْكِرَاتِ وَالْمُفَتِّرَاتِ، ثُمَّ يَصِلُ إِلَى التَّدْخِينِ، وَيُبَيِّنُ أَضْرَارَهُ وَحُكْمَ الْعُلَمَاءِ فِيهِ.

أَمَّا بِالشَّكْلِ الشُّمُولِيِّ: فَإِنَّهُ يُحَاوِلُ أَنْ لَا يَتْرُكَ نُقْطَةً مِنْ نِقَاطِ هَذَا الْمَوْضُوعِ إِلَّا تَطَرَّقَ لَهَا، أَيْ: يَشْمَلَ نِقَاطَهَا فِي الْبَحْثِ نُقْطَةً نُقْطَةً، رَابِطاً بَيْنَ تِلْكَ النِّقَاطِ رَبْطاً مُحْكَماً، فَلَهُ أَنْ يُؤَصِّلَ الْمَوْضُوعَ شَرْعاً أَوَّلًا، ثُمَّ يَبْدَأُ بِتَنَاوُلِ مَوْضُوعِ التَّدْخِينِ مِنَ الْجَوَانِبِ التَّالِيَةِ: تَكْوِين مَادَّةِ الدُّخَانِ وَخُطُورَتِهَا، وَأَنَّهَا تَضُرُّ بِكَذَا وَكَذَا مِمَّا يُنَفِّرُ مِنْهُ أَشَدَّ التَّنْفِيرِ، «خُطُورَةُ الدُّخَانِ عَلَى الشَّبَابِ»، وَأَنَّهُ مَرْحَلَةٌ خَطِيرَةٌ مِنْ مَرَاحِلِ الْفَسَادِ الْخُلُقِيِّ، وَالتَّجَمُّعِ عَلَى الْفَاسِدِينَ، وَالرِّضَا بِمَا بَعْدَ التَّدْخِينِ، فَعَادَةً مَا يَكُونُ الْمُدخِّنُونَ جُيُوباً مُنْعَزِلَةً فِي الْمَدْرَسَةِ وَفِي الشَّوَارِعِ.

التَّدْخِينُ خُطوةٌ ضَرُورِيَّةٌ لَازِمَةٌ لِلْوُصُولِ إِلَى الْمُخَدِّرَاتِ، فَمَا عُهِدَ مُدْمِنٌ إِلَّا وَقَدْ مَرَّ بِالتَّدْخِينِ وَلَا عَكْس.

التَّدْخِينُ مُجَاهَرَةٌ بِالْمَعْصِيَةِ، فَيَجِبُ عَلَى الْمُجْتَمَعِ وَالْمَسْؤُولِينَ

تَحَمُّلُ مَسْؤُولِيَاتِهِمْ.

تتَنَاوَلُهُ: كَتِجَارَةٍ مُحرَّمَةٍ، فَالْوِكَالَةُ لِشَرِكَاتِ التَّدْخِينِ حَرَامٌ، وَرِزْقُ أَهْلِهِا حَرَامٌ، وَأَهْلُهَا مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَفِي الْبِلَادِ.

الْكَفَالَةُ لِلْعُمَّالِ فِيهِ وَغَيْرِهِمْ حَرَامٌ - الدِّعَايَةُ لَهَا حَرَامٌ - بَيْعُهَا فِي الْمَحلَّاتِ الصَّغِيرَةِ وَالْكَبِيرَةِ حَرامٌ.. بِالْإِضَافَةِ إِلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ جَمِيعاً مُدَمِّرُونَ لِأَبْنَاءِ الْمُجْتَمعِ وَإِنْ صَدَرَتْ لَهُمُ الرُّخَصُ، وَسُمِحَ لَهُمْ بِذَلِكَ!

ثُمَّ كَيْفِيَّةُ التَّوْبَةِ مِنْهُ، وَكَيْفِيَّةُ الْإِعَانَةِ عَلَى الْعِلَاجِ وَالتَّعَافِي مِنْهُ بِالطُّرُقِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ الْحَدِيثَةِ.

فَكَمْ مِنْ فَارِقٍ بَيْنَ الْخُطْبَتَيْنِ؟!

وَالَّذِي أَرَى أَنَّهُ أَرْحَبُ مَيْدَانٍ لِلتَّجْدِيدِ الْمَوْضُوعِيِّ لِلْخُطْبَةِ مَعَ مَا فِيهِ مِنْ دِقَّةٍ عِلْمِيَّةٍ، وَنَفَاذٍ لِلْقَلْبِ وَالذِّهْنِ كَنَفَاذِ الْحَرْبَةِ كُلَّمَا ازْدَادَ رَأْسُهَا دِقَّةً وَحِدَّةً، هُوَ دِقَّةُ النُّقْطَةِ الْمُتَنَاوِلَةِ لِلْمَوْضُوعِ، هَاتِ أَيَّ مَوْضُوعٍ مِنَ الْمَوَاضِيعِ، وَانْظُرْ لَهُ بِالْمِجْهَرِ الْمُدَقِّقِ، وَخُذْ مِنْهُ أَدَقَّ نُقْطَةٍ وَأَخْطَرَ نُقْطَةٍ تَظْهَرُ لَكَ مِنْ بَيْنِ الْحَلَقَاتِ الَّتِي فَوْقَهُ، وَاسْتَخْرِجْهَا، ثُمَّ كَبِّرْهَا مَا اسْتَطَعْتَ، وَاضْرِبْهَا مِنْ كُلِّ جِهَاتِهَا بِالْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ، ثُمَّ اجْمَعْ لَهَا كُلَّ صُوَرِهَا الْوَاقِعِيَّةِ.. وَإِيَّاكَ أَنْ يَكُونَ هَدَفُكَ التَّوَسُّعَ لِمُجَرَّدِ التَّوَسُّعِ، أَوْ يَأْخُذَكَ الاسْتِطْرَادُ الْعِلْمِيُّ، فَالْخُطْبَةُ لَا تَحْتَمِلُ ذَلِكَ،

فَالدِّقَّةُ فِي اخْتِيَارِ نُقْطَةِ الْمَوْضُوعِ، كَالدِّقَّةِ فِي ذِكْرِ أَدِلَّةِ مَوْضُوعِكَ، كَالدِّقَّةِ فِي تَوْجِيهِ الْأَدِلَّةِ وَالاسْتِنْتَاجِ مِنْهَا، وَكَالدِّقَّةُ فِي تَنْزِيلِ الْمَوْضُوعِ وذِكْرِ صُورِهِ الْوَاقِعِيَّةِ، وَهَذِهِ الطَّرِيقَةُ عَلَى مَا فِيهَا مِنْ تَجْدِيدٍ فَإِنَّ فِيهَا الْحُلُولَ النَّاجِعَةَ الْقَرِيبَةَ، وَالْغَائِبَةَ عَلَى مَشَاكِلَ مُسْتَعْصِيَةٍ، وَمِثَالُهَا مَثَالُ مُشْكِلَةِ الطَّلَاقِ.. حَيْثُ تَقَعُ زَوْبَعَةٌ وَخِصَامٌ كَبِيرٌ... وَالْجَمِيعُ يُحَاوِلُ التَّهْدِئَةَ.. وَلَوْ جَاءَ صَاحِبُ مِجْهَرٍ يُعَيِّنُ أَكْثَرُ النِّقَاطِ دِقَّةً وَخطراً لَرُبَّمَا وَجَدَهَا صَغِيرَةً لَا تَسْتَحِقُّ الذِّكْرَ... فَحَلَّهَا فِي لَحْظَةٍ، وَأَصْبَحَ الطَّلَاقُ فِي خَبَرِ كَانَ، وَعَادَ الوِئَامُ عَلَى أَحْسَنِ حَالٍ.

الْخُطْوَةُ الْخَامِسَةُ: كِتَابَةُ الْخُطَبَةِ: التَّحْضِيرُ النِّهَائِيُّ: مَعَ كُلِّ هَذَا الَّذِي ذَكَرْتُ فَإِنَّ كِتَابَةَ الْخُطْبَةِ كَامِلَةً بِكُلِّ تَفَاصِيلِهَا الَّتِي سَوْفَ تُلْقَى عَلَى النَّاسِ شَيْءُ آخَرَ.. إِنَّهَا خُطْوَةٌ نِهَائِيَّةٌ ضَرُورِيَّةٌ لَا يَسْتَغْنِي عَنْهَا الْخَطِيبُ الْمُحَقِّقُ الَّذِي يُحسِنُ إِعْدَادَ خُطْبَتِهِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ؛ إِحْسَاناً فِي الاسْتِهْلَالِ، وَإِحْسَاناً فِي تَرْتِيبِ الْأَفْكَارِ؛ تَصَاعُدِيّاً أَوْ أُفُقِيّاً أَوْ تَنَازُلِيّاً، أَيْ: مِنَ الْأَدْنَى إِلَى الْأَعْلَى، أَوْ مِنَ الْأَعْلَى إِلَى الْأَدْنَى، يَجْعَلُهَا ذَاتَ مَرْكَزٍ تَدُورُ عَلَيْهِ أَفْكَارُهَا بِنَغَمٍ مُتَنَاسِقٍ، وَإِحْسَاناً فِي الاسْتِشْهَادِ، وَإِحْسَاناً فِي حِفْظِ النُّصُوصِ الْوَارِدَةِ فِي الْخُطْبَةِ، وَإِحْسَاناً فِي تَذْيِيلِ الْخُطْبَةِ، وَإِحْسَاناً مُهِمّاً فِي انْتِقَاءِ الْكَلِمَاتِ

الْمُوَصِّلَةِ لِكُلِّ نُقْطَةٍ مِنَ النِّقَاطِ بِأَبْلَغِ أَثَرٍ، وَإِحْسَاناً فِي تَشْكِيلِ الْكَلِمَاتِ الْمُشْكِلَةِ.

وَبَعْدَهَا فَإِنَّ الْكِتَابَةَ سَبِيلٌ لِتَحْوِيلِ الْخُطَبِ الْمَكْتُوبَةِ إِلَى صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ مَكْتُوبَةٍ فِي مُؤَلَّفَاتٍ تَبْقَى بَعْدَ مَوْتِ صَاحِبِهَا. . وَسَيَجِدُ بَعْدَ سَنَوَاتٍ أَنَّ عِنْدَهُ ثَرْوَةً مِنَ الْخُطَبِ، بَلْ مِنَ الْبُحُوثِ قَلَّ نَظِيرُهَا، مَا كَانَ لَهَا أَنْ تَبْقَى لَوْلَا هَذِهِ الْكِتَابَةُ.

وَكَمْ يَجِدُ الْخَطِيبُ بِسَبَبِ هَذِهِ الْكِتَابَةِ الْكَامِلَةِ لِلْخُطْبَةِ مِنْ تَطَوُّرٍ فِي أُسْلُوبِهِ، وَتَحْدِيدٍ لِأَفْكَارِهِ، وَتَجْدِيدٍ لِمَوَاضِيعِهِ.

وَكَمْ تُثْبَطُ النَّفْسُ عَنِ الْكِتَابَةِ الْكَامِلَةِ، لَكِنِّي أَقُولُ لَكَ: إِيَّاكَ أَنْ تَسْتَجِيبَ لَهَا، فَهَذَا زَادُكَ أَنْتَ وَإِنْ كُنْتَ لَا تَدْرِي.

الْخُطْوَةُ السَّادِسَةُ: بَثُّ الْحَيَاةِ فِي الْخُطْبَةِ وَنَفْخُ الرُّوحِ فِيهَا:

لَيْسَتْ خُطْبَةُ الْخَطِيبِ لَوْحَةً فَنِيَّةً رَائِعَةً مَرْفُوعَةً عَلَى جِدَارٍ. . بَلْ هِيَ جَنَّةٌ مُزْدَانَةٌ، جَمِيلَةٌ فَوَّاحَةٌ، مُثْمِرَةٌ حَيَّةٌ تَهْتَزُّ، فَعُنْصُرُ الْحَيَاةِ فِي الْخُطْبَةِ هُوَ الْعُنْصُرُ الْأَسَاسُ الَّذِي إِنْ فَقَدَتْهُ تَحَوَّلَتْ إِلَى جُثَّةٍ هَامِدَةٍ، وَلَوْحَةٍ جَامِدَةٍ مَهْمَا زُيِّنَتْ بِالْأَلْفَاظِ الْمُقَعَّرَةِوَالْأَصْوَاتِ الْمُفَخَّمَةِ. . . لَكِنْ لِيَعْلَمِ الْخَطِيبُ أَنَّ رَحِمَ هَذِهِ الْحَيَاةِ الْمَطْلُوبَةِ هُوَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ الْحَيِّ الَّذِي تَوَلَّدَ مِنْهُ. نَعَمْ، لَابُدَّ أَنْ تَخْرُجَ الْخُطْبَةُ مِنْ قَلْبٍ حَيٍّ

مُؤْمِنٍ.. قَلْبٍ يَدْفُقُ الْحَيَاةَ دفْقاً.. وَذَلِكَ لَا يَكُونُ لِلْقَلْبِ حَتَّى يَحْصُلَ عَلَى غِذَائِهِ الْإِيمَانِي الْكَافِي، وَكُلُّ خَطِيبٍ يَعْرِفُ كَيْفَ يُغَذِّي قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ، فَمِنْ خِلَالِ الْمُحَافَظَةِ عَلَى أَوْرَادِهِ الْيَوْمِيَّةِ؛ اللَّيْلِيَّةِ وَالنَّهَارِيَّةِ، وَأَذْكَارِهِ الصَّبَاحِيَّةِ وَالْمَسَائِيَّةِ، وَأَعْمَالِهِ الْعِبَادِيَّةِ، وَخَلَوَاتِهِ التَّفَكُّرِيَّةِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِمَّا لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَهَاوَنَ بِهَا أَبداً..

وَأَنَا أُؤَكِّدُ ذَلِكَ أَعْظَمَ تَأْكِيدٍ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ الَّذِي يَكْثُرُ ظُهُورُهُ لِلنَّاسِ يَحْتَاجُ إِلَى رَصِيدٍ هَائِلٍ مِنَ الْإِخْلَاصِ وَالْإِيمَانِ، وَكَأَنَّ الظُّهُورَ أَمَامَ النَّاسِ إِنْفَاقٌ مِنْ مُدَّخَرَاتِ الْخَفَاءِ.. فَإِذَا نَفِدَتِ الْمُدَّخَرَاتُ أَصْبَحَ يُنْفِقُ مِنْ لِسَانِهِ، وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ: أَصْبَحَ يُنْفِقُ مِنَ الْعُمْلَةِ الْمُزَيَّفَةِ الْمُزَوَّرَةِ.

وَمِنْ ثَمَّ تَجِدُ طُولَ خَلْوَةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَمَنْ بَعْدَهِمْ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي لَيْلِهِمْ كَانَ أَمْراً لَازِماً، وَهَكَذَا كَانَ الْعُلَمَاءُ؛ لِأَنَّهُمْ بِغَيْرِ زَادِ الْخَفَاءِ لَا يَقْوُونَ عَلَى الْقِيَامِ وَالْقُعُودِ وَالْكَلَامِ وَالْمُنَاصَحَةِ؛ لِأَنَّهُ يُنْفِقُ مِنْ لِسَانِهِ وَبَيَانِهِ، لَكِنَّ قَلْبَهُ يَخْذُلُهُ، وَسِيمَاهُ تَفْضَحُهُ، وَلَحْنُ الْقَوْلِ يَقْطَعُ بِهِ، هُوَ صَادِقٌ فِيمَا يَقُولُ، لَكِنَّهُ صَادِقٌ بِغَيْرِ شَوَاهِدَ، كَمَنْ يَحْلِفُ لِلنَّاسِ بِاللَّهِ عَلَى أَنَّ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ مَاءً، فَيَحْفِرُونَ وَلَا يَجِدُونَ.

وَلَوْ كَانَ قَلْبُهُ حَيّاً لَدَفَقَ شَوَاهِدَ الصِّدْقِ كَمَا تَدْفُقُ الْأَرْضُ مِيَاهَ الْعُيُونِ بِالنِّسْبَةِ لِلْمِيَاهِ الْغَائِرَةِ فِي الْأَرْضِ.

فَإِذَا مَا حَافَظَ الْخَطِيبُ عَلَى عِبَادَةِ السِّرِّ وَخَلْوَةِ الْعِبَادَةِ أَصْبَحَ

حَدِيثُ العَلَنِ عِنْدَهُ يَزِيدُ إِيمَانَهُ تَوَقُّداً، وَيَزِيدُ نَارَهُ نُوراً؛ لِأَنَّهُ يَنْبُعُ مِنْ غَيْرَتِهِ الصَّافِيَةِ عَلَى إِيمَانِهِ... فَالْعَمَلُ أَصْبَحَ جُزْءاً لَا يَتَجَزَّأُ مِنَ الْإِيمَانِ... يَزْدَادُ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ، وَيَنْقُصُ أَحَدُهُمَا بِنَقْصِ الْآخَرِ... وَمَعَ هَذَا فَالْخُطَباءُ الْمُتَّقُونَ لَا يَأْمَنُونَ عَلَى مُدَّخَرَاتِهِمُ الْإِيمَانِيَّةِ أَنْ تَنْفَدَ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ يَعُدُّونَهَا أَثْمَنَ الْمُدَّخَرَاتِ وَسِرَّ حَيَاةِ مَا ظَهَرَ مِنْهُمْ مِنْ كَلِمَاتٍ وَطَاعَاتٍ، وَالْخَطِيبُ لَا يَعْمَلُ هَذِهِ الْخَبَايَا العِبَادِيَّةَ لِيَظْهَرَ عَلَيْهِ الْإِخْلَاصُ وَالصِّدْقُ وَالنُّورُ.. فَإِنَّهُ إِنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يُرِيدُ لِبَاسَ الدِّينِ لِيُقْبَلَ شَخْصُهُ وَيُرْفَعَ ذِكْرُهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] إِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ لِشُعُورِهِ الْمُتَزَايِدِ بِتَقْصِيرِهِ فِي جَنْبِ اللَّهِ، فَهُوَ مَدْفُوعٌ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ نَحْوَ مَنَازِلَ أَعْلَى دَفْعاً، كَأَنَّهُ مَدْعُوٌّ إِلَى مَقَامَاتٍ أَقْرَبَ لَا يَمْلِكُ إِلَّا الْإِجَابَةَ، فَالاسْتِمْرَارِيَّةُ دَيْدَنُهُ، وَكَأَنَّهَا لَيْسَتْ بِيَدِهِ، فَـ «لَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»(١) لِزَاماً دَاخِلِيّاً لَا يَمْلِكُ مِنْهُ تَحَلُّلاً وَلَا مَكَاناً.. حُبّاً وَذَهَاباً وَإِحْسَاناً وَإِدْرَاكاً.. فَمَا اسْتَقَرَّ فِي مَقَامٍ حَتَّى أَشْرَقَ لَهُ مَقَامٌ أَعْلَى، فَارْتَقَى إِلَيْهِ، وَنَظَرَ لِمَقَامِهِ

---

(١) «صحيح البخاري» باب التواضع.

السَّابِقِ، فَاسْتَغْفَرَ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ، وَشُعُورُهُ بِتَقْصِيرِهِ فِي ذَاكَ الْمَقَامِ نِسْبَةً لِهَذَا الْمَقَامِ الْجَدِيدِ، فَهُوَ لَا يَزَالُ مُسْتَغْفِراً، أَوَ لَمْ يَقُلِ الْمُصْطَفَى ﷺ: «إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»(١).

هَذَا مَا يَدْفَعُ الْخَطِيب دَفْعاً إِلَى خَلْوَةِ الزَّادِ وَزَادِ الْخَلْوَةِ.. وَأَحْيَاناً يَسْتَذْكِرُ مَا مَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الْمَقَامِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَيَهْرَعُ فِي ظُلْمَةِ لَيْلِهِ مُخْتَلِياً بِرَبِّهِ سُبْحَانَهُ، وَلِسَانُ حَالِهِ يَقُولُ لِسَائِلِهِ: «إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ عَبْداً شَكُوراً»، ثُمَّ إِنَّ أَكْرَهَ شَيْءٍ عِنْدَهُ أَنْ يُمْدَحَ بِمَا لَيْسَ فِيهِ، وَأَنْ يَظُنَّ النَّاسُ بِهِ فَوْقَ قَدْرِهِ، وَقَبْلَ ذَلِكَ خَشْيَةً مِنَ اللَّهِ وَتَعْظِيماً لَهُ أَنْ يَرَاهُ مُعَظِّماً خَلْقَهُ فِيمَا يَظْهَرُ عَلَيْهِ أَكْثَرَ مِنْ تَعْظِيمِهِ رَبَّهُ حِينَ يَظْهَرُ مُنْفَرِداً بَيْنَ يَدَيْهِ، أَوْ لَا يَكُونُ مَعَهُ كَمَا هُوَ حِينَ يَكُونُ مَعَ عَبِيدِهِ.

* * * * *

(١) رواه مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأغر المزني رضي الله عنه.

الفصل الثالث
التجديد في عناصر الخطبة

المبحث الأول: التجديد في العنوان.

المبحث الثاني: التجديد في الافتتاح.

المبحث الثالث: التجديد في الاستهلال.

المبحث الرابع: التجديد في موضوع الخطبة.

المبحث الخامس: التجديد في طريقة عرض الخطبة.

المبحث السادس: التجديد في الوحدة الموضوعية.

المبحث السابع: التجديد في تنزيل الخطبة.

المبحث الثامن: التجديد في أنواع الخطب.

المبحث التاسع: التجديد في الخطبة الثانية.

المبحث الأول
التَّجْدِيدُ فِي الْعُنْوَانِ

إِنَّ عُنْوَانَ التَّجْدِيدِ هُوَ التَّجْدِيدُ فِي الْعُنْوَانِ، فالْعُنْوَانُ الَّذِي تَكْتُبُهُ فِي وَرَقَةِ تَحْضِيرِ خُطْبَتِكَ لَابُدَّ أَنْ يَكُونَ عُنْوَاناً غَيْرَ تَقْلِيدِيٍّ، نَعَمْ، إِنَّ الْخَطِيبَ غَيْرُ مُلْزَمٍ بِأَنْ يَذْكُرَ عُنْوَانَ الْخُطْبَةِ فِي أَوَّلِهَا.. فَمِنَ التَّجْدِيدِ أَنْ لَا يَذْكُرَ عُنْوَاناً طَوَالَ فَتْرَةٍ زَمَنِيَّةٍ مِنَ الْخُطَبِ بِحَيْثُ يَجْعَلُ النَّاسَ يَسْتَنْتِجُونَ وَيُنَوِّعُونَ الْعَنَاوِينَ، كُلٌّ بَحَسْبِ فَهْمِهِ، لَكِنِ الْجَمِيعُ فَهِمَ وَقْتَهَا أَنَّ الْمَوْضُوعَ وَاحِدٌ، وَمِثَالُ هَذَا كَثِيرٌ جِدّاً، بَلْ هُوَ الْأَكْثَرُ، فَالْخُطْبَةُ لَيْسَتْ كَالْمُحَاضَرَةِ حَتَّى يُوضَعَ لَهَا عُنْوانٌ مُقدَّماً، بَلْ إِنَّ ذِكْرَ الْعُنْوَانِ لِلْخُطْبَةِ فِي أَوَّلِهَا رُبَّمَا أَفْسَدَ بَرَاعَةَ الاسْتِهْلَالِ، وَأَضَرَّ بِمَزِيدِ تَحْفِيزِ الْقَلْبِ لِلْمَعْرِفَةِ وَالاسْتِنْتَاجِ، وَلِأَنَّ أَغْلَبَ خُطَبِ النَّبِيِّ ﷺ مَا كَانَ يَذْكُرُ فِي أَوَّلِهَا عُنْوَاناً، بَلْ يَتْرُكُهَا لِلسَّامِعِينَ.

وَمَعَ هَذَا فَمِنَ التَّجْدِيدِ أَنْ يَذْكُرَ الْخَطِيبُ الْعُنْوَانَ فِي أَوَّلِ الْخُطْبَةِ فِي أَحْيَانٍ قَلِيلَةٍ بِطَرِيقَةٍ تَزِيدُ مِنْ تَحْفِيزِ الذِّهْنِ لِيَعْرِفَ الْجَدِيدَ الَّذِي سَيَطْرَحُهُ الْخَطِيبُ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ الْحَسَّاسِ أَوْ الْخَطِيرِ، وَهَذَا يَكُونُ عَادَةً فِي مَوْضُوعٍ لَا يَزِيدُ انْتِظَارَ السَّامِعِ لِمَعْرِفَةِ مَوْضُوعِهِ إِلَّا مَلَلًا، أَوْ جَهَالَةً، أَوْ فِي تَأْجِيلِ ذِكْرِ الْعُنْوَانِ مِنَّةٌ اعْتِبَارِيَّةٌ عَلَى الْحَاضِرِينَ.. وَلَيْسَتِ الْمِنَّةُ

بِمَمْدُوحَةٍ، وَلَا يَفْعَلُهَا إِلَّا مَنْ فِي خُلُقِهِ لَآمَةٌ! وَأَحْيَاناً لَا يَحْتَمِلُ الْمَوْضُوعُ الْأَسَاسُ الانْتِظَارَ إِلَى آخِرِ الْخُطْبَةِ، بَلْ يُعْرَضُ الْمَوْضُوعُ بِرُمَّتِهِ كَامِلًا مِنْ أَوَّلِ الْخُطْبَةِ، وَلَا يُغَادِرُهُ حَتَّى آخِرِهَا، مِثْلُ مَا رَوَاهُ أَبُو جُحَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: دَهَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَاسٌ مِنْ قَيْسٍ مُجْتَابِي النِّمَارِ، مُتَقَلِّدِينَ السُّيُوفَ، فَسَاءَهُ مَا رَأَى مِنْ هَيْئَتِهِمْ، فَصَلَّى، ثُمَّ دَخَلَ بَيْتَهُ، ثُمَّ خَرَجَ، فَصَلَّى، وَجَلَسَ فِي مَجْلِسِهِ، فَأَمَرَ بِالصَّدَقَةِ أَوْ حَضَّ عَلَيْهَا، فَقَالَ: «تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِرْهَمِهِ، تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ» فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ مِنْ ذَهَبٍ فَوَضَعَهَا فِي يَدِهِ، ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَى كَوْمَيْنِ مِنْ ثِيَابٍ وَطَعَامٍ، فَرَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ، ثُمَّ قَالَ عِنْدَ ذَلِكَ: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً عُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَمِثْلُ أُجُورِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْتَقِصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً عُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَمِثْلُ أَوْزَارِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْتَقِصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئاً»(١).

وَيَبْقَى ذِكْرُ الْعُنْوَانِ أَمْراً اجْتِهَادِيّاً، وَلَيْسَ مِنَ الْمَصْلَحَةِ اتِّبَاعُ طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ فِي اخْتِيَارِ الْعَنَاوِينِ وَذِكْرُهَا فِي كُلِّ الْأَحْيَانِ.

---

(١) رواه البزار في مسنده (١٠/ ١٤٥)، قال الهيمثي في مجمع الزوائد (٣/ ٢٧٨): «فيه أبو إسرائيل الملائي وفيه كلام وقد وثق». والحديث رواه كذلك مسلم في صحيحه (١٠١٧) بلفظ مقارب من حديث جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَخَيْرُ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ، وَحَدِيثُهُ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ، وَقَصَصُهُ أَحْسَنُ الْقَصَصِ، وَعِظَاتُهُ أَعْظَمُ الْعِظَاتِ، وَحُجَّتُهُ هِيَ الْحُجَّةُ البَالِغَةُ... وَإِنَّ الْمُتَأَمِّلَ فِي السُّوَرِ وَأَسْمَائِهَا يَجِدُهَا تَتَنَوَّعُ تَنَوُّعاً كَبِيراً، أَمَّا الْأَعَمُّ الْأَغْلَبُ فَهُوَ مَا تُذْكَرُ أَسْمَاؤُهُ فِي دَاخِلِ السُّوَرِ، وَذِكْرُ الْأَسْمَاءِ لَمْ يَكُنْ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ، إِنَّمَا كَانَ فِي عَرْضَةِ الْقُرْآنِ الْأَخِيرَةِ كَمَا هُوَ الْأَرْجَحُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَقِلَّةٌ قَلِيلَةٌ مِنَ السُّوَرِ ذُكِرَ اسْمُهَا فِي أَوَّلِ آيَةٍ فِي السُّورَةِ، وَمِنَ السُّوَرِ الَّتِي ذُكِرَ عُنْوَانُهَا فِي أَوَّلِهَا: سُورَةُ طَهَ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١، ٢]، وَمِنْهَا سُورَةُ الْمُلْكِ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

أَمَّا عُنْوَانُ الْخُطْبَةِ الَّذِي يُعَنْوِنُ بِهِ الْخَطِيبُ خُطْبَتَهُ لِتُطْبَعَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ أَوْ مُنْفَرِدَةً أَوْ تُنْشَرَ تَسْجِيلًا فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عُنْوَاناً جَدِيداً قَصِيراً وَاضِحاً، وَلَا يَكُونُ مُغْرَقاً فِي التَّعْمِيَةِ أَوْ طَوِيلًا مَسْجُوعاً أَوْ طَوِيلًا غَيْرَ مَسْجُوعٍ.

تَنْبِيهٌ أَوَّلُ:

يُعْنَى الْبَعْضُ بِاخْتِيَارِ عُنْوَانٍ لِخُطْبَتِهِ أَكْثَرَ مِنْ عِنَايَتِهِ بِمَوْضُوعِ الْخُطْبَةِ. فَتَجِدُ الْخُطْبَةَ فِي وَادٍ، وَالْعُنْوَانَ فِي وَادٍ، فَكَأَنَّكَ تَبْحَثُ عَنْ مَاءٍ فِي صَحْرَاءَ، فَتَرَى عَلَماً بَعِيداً عَلَى وَفْرَةِ الْمَاءِ فَتَأْتِيهِ فَيَتَبَيَّنُ لَكَ أَنَّ الْمَاءَ كَانَ مَوْجُوداً فِعْلًا، وَأَنَّ هَذِهِ الْعَلَامَةَ قَدْ وُضِعَتْ مِنْ

قَبْلُ فِي هَذَا الْمَكَانِ، وَلَمْ تُرْفَعْ. . . فَإِذَا تَكَرَّرَ مَعَكَ الْأَمْرُ مَرَّتَينِ أَوْ ثَلَاثاً فَسَوْفَ تَضْعُفُ ثِقَتُكَ كَثِيراً بِهَذِهِ الْعَنَاوِينِ كَمَا فَقَدَ هَذَا الْبَاحِثُ عَنِ الْمَاءِ الثِّقَةَ فِي الْأَعْلَامِ.

خَيْرُ عُنْوَانٍ هُوَ مَا يَكُونُ كَخُلَاصَةٍ لِمُكَوِّنَاتِ الْخُطْبَةِ، وَكَأَنَّهُ رَحِيقٌ مَجْمُوعُ الْأَزْهَارِ الَّتِي أَخَذَتْهَا النَّحْلَةُ فِي غُدُوِّهَا وَعَادَتْ بِهِ.

تَنْبِيهٌ ثَانٍ:

جُلُّ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَى الْعُنْوَانِ وَالْعِنَايَةِ بِهِ يَنْسَى أَنَّهُ جُزْءٌ مِنَ الْخُطْبَةِ، وَأَنَّ الْخُطْبَةَ عِبَادَةٌ، فَإِنَّ الْإِخْلَاصَ عِنْدَ وَضْعِ الْعُنْوَانِ وَاخْتِيَارِهِ أَمْرٌ وَاجِبٌ، وَهَذَا مَوْقِعٌ خَطِيرٌ، فَلَا يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَضَعَ الْعُنْوَانَ تَزَيُّناً بِهِ، أَوْ تَزَيُّناً بِمَا لَيْسَ فِيكَ وَلَا فِي خُطْبَتِكَ، أَوْ مَحَبَّةً لِجَذْبِ وُجُوهِ الْخَلْقِ لَكَ، إِنَّمَا تَضَعُهُ كَجُزْءٍ مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ الَّتِي مَا أَرَدْتَ بِهَا إِلَّا وَجْهَ اللَّهِ، فَإِنْ كَانَ ثَمَّةَ تَزَيُّنٌ فَهُوَ لَيْسَ لِشَخْصِكَ إِنَّمَا لِدَعْوَتِكَ الَّتِي تُرِيدُ رِفْعَتَهَا وَإِنْ كَانَ عَنْ طَرِيقِ غَيْرِكَ وَإِخْمَالِ ذِكْرِكَ.

فَاتَّقِ اللَّهَ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّهُ مِفْتَاحٌ، فَلْيَكُنْ مِفْتَاحَ صِدْقٍ. . . فَمَا بَعْدَ مِفْتَاحِ الصِّدْقِ إِلَّا الْفَتْحُ ثُمَّ الدُّخُولُ ثُمَّ قَدَمُ الصِّدْقِ، ثُمَّ مَقْعَدُ الصِّدْقِ عَلَى مِنْبَرِ الصِّدْقِ، بِإِذْنِ اللَّهِ.

* * * * *

المبحث الثاني
التَّجْدِيدُ فِي الافْتِتَاحِ

لَا نِقَاشَ فِي أَنَّهُ لَا تُوجَدُ صِيغَةٌ مُحَدَّدَةٌ لافْتِتَاحِ خُطْبَةِ الْجُمُعَةِ، وَقَدِ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي جَوَازِ الْتِزَامِ خُطْبَةِ الْحَاجَةِ فِي أَوَّلِ كُلِّ خُطْبَةِ جُمُعَةٍ، وَالصَّحِيحُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّهُ جَائِزٌ، وَأَقْرَبُ مِنْ كُلِّ الصِّيَغِ الْأُخْرَى وَإِنْ عدَّ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ ذِكْرَ خُطْبَةِ الحَاجَةِ بِدْعَةً فِي خُطْبَةِ الْجُمُعَةِ، وَعدَّ آخَرُونَ الْتِزَامَهَا فِي خُطْبَةِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ بِدْعَةً[(١)].

وأُذكِّر بِخُطْبَةِ الْحَاجَةِ، وَهِيَ:

«إِنَّ الْحَمْدَ للَّهِ، نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ باللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، مِنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِىَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

---

(١) الشامل في فقه الخطيب والخطبة ص ٢٢٦ .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾

[آل عمران: ١٠٢].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾

[الأحزاب: ٧٠- ٧١]».

وَلَكِنَّ الْجَدِيدَ الْمُتَجَدِّدَ هُوَ أَنْ يَعِيشَ الْخَطِيبُ هَذَا الافْتِتَاحَ أَوْ غَيْرَهُ حِينَ يَذْكُرُهُ.. يَعِيشُ مَعَانِيهَا.. مُتَفَكِّراً فِي كَلِمَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَفِي آيَاتِ اللَّهِ فِيهَا، فَوَاللَّهِ، مَا أَعْظَمَ مَا فِيهَا لَوْ تَأَمَّلَهَا الْخُطَبَاءُ، وَكُلَّمَا كَانَ الْخَطِيبُ مُتَفَكِّراً فِيهَا مُتَأَثِّراً صَادِقاً كَانَ وُصُولِ هَذَا التَّأْثِرِ إِلَى الْقُلُوبِ أَشَدَّ وَأَوْضَحَ، فَوَاللَّهِ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ. وَإِنَّه لَمُشَاهَدٌ.. وَإِنَّ النَّاسَ عَلَى ذَلِكَ لَشُهُودٌ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً. وَهَذَا أَمْرٌ يَكُونُ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى فِي الْمَجْلِسِ العَادِيِّ فِي الْبَيْتِ، وَفِي الْمُحَاضَرَةِ فِي الْقَاعَةِ، فَكَيْفَ بِجَوِّ الْجُمُعَةِ وَبَرَكَةِ الْجُمُعَةِ، وَالْمَلَائِكَةُ الَّتِي اجْتَمَعَتْ لِأَعْظَم حَدِيثٍ فِي أَعْظَمِ يَوْمٍ، وَمَلَائِكَةُ الْجُمُعَةِ الَّتِي طَوَتْ صُحُفَهَا وَجَلَسَتْ تَسْتَمِعُ الْخُطْبَةَ مَعَ النَّاسِ! كَيْفَ وَالنَّاسُ الْيَوْمَ عَلَى أُهْبَةِ الاسْتِعْدَادِ لِلتَّلَقِّي، وَأَعْظَمِ مَا يَكُونُونَ حَسَاسِيَةً وَاسْتِشْعَاراً.. إِنَّ الرَّهَافَةَ بَلَغَتْ بِالنَّاسِ حَدّاً لَمْ يَبْلُغُوهُ مِنْ قَبْلُ، حَتَّى لَوْ كَانَ الْبَعْضُ مُتَبَلِّداً فَإِنَّهُ الْيَوْمَ شَيْءٌ آخَرُ نِسْبَةً لِمَا كَانَ عَلَيْهِ..

فَغُصْ أَيُّهَا الْخَطِيبُ فِي أَعْمَاقِ مَعَانِي كَلِمَاتِ الافْتِتَاحِ.. وَاجْعَلْ

قَلْبَكَ يَخْشَعُ بِهَا، ثُمَّ يَفِيضُ بِهَا فَيْضاً، وَيَذْهَبُ مَعَ كَلِمَاتِهَا وَآيَاتِهَا..

وَلَسَوْفَ تَتْبَعُكَ قُلُوبُ الْحَاضِرِينَ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَأَنْتَ لَا تَدْرِي(١).

فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ ضِمَاداً قَدِمَ مَكَّةَ وَكَانَ مِنْ أَزْدِ شَنُوءَةَ وَكَانَ يَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ أَهلِ مَكَّةَ يَقُولُونَ إِنَّ مُحَمَّداً مَجْنُونٌ، فَقَالَ: لَوْ أَنِّي رَأَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ لَعَلَّ اللَّهَ يَشْفِيهِ عَلَى يَدَيَّ، قَالَ: فَلَقِيَهُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ وَإِنَّ اللَّهَ يَشْفِي عَلَى يَدَي مَنْ شَاءَ فَهَلْ لَكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَمَّا بَعْدُ، قَالَ: فَقَالَ: أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ] فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ: فَقَالَ لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ وَقَوْلَ السَّحَرَةِ وَقَوْلَ الشُّعَرَاءِ فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ وَلَقَدْ بَلَغْنَ نَاعُوسَ الْبَحْرَ قَالَ: فَقَالَ: هَاتِ يَدَكَ أُبَايِعُكَ عَلَى الْإِسْلَامِ قَالَ فَبَايَعَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَعَلَى قَوْمِكَ، قَالَ: وَعَلَى قَوْمِي، قَالَ: فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً فَمَرُّوا بِقَضوْمِهِ

---

(١) يقول البزار في ترجمة شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه الأعلام العلية: «وكان إذا أحرم بالصلاة تكاد تتخلع القلوب لهيبة إتيانه بتكبيرة الإحرام، فإذا دخل في الصلاة ترتعد أعضاؤه يميله يمنة ويسره».

فَقَالَ صَاحِبُ السَّرِيَّةِ لِلْجَيْشِ هَلْ أَصَبْتُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ شَيْئاً فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ أَصَبْتُ مِنْهُمْ مِطْهَرَةً فَقَالَ: رُدُّوهَا فَإِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمُ ضِمَادٍ[1].

وَإِنَّهَا لَنَقْلَةُ قُلُوبٍ، نَقْلةٌ أَشْبَهُ بِالنَّهْضَةِ... نَقْلَةٌ نَوْعِيَّةٌ... لَكِنَّ تَلَقِّي هَذِهِ الْمَعَانِي وَتَنَقُّلَهَا مِنَ الْخَطِيبِ إِلَى سَامِعِهِ إِنَّمَا هُوَ عَبْرَ أَثِيرِ الْقَلْبِ وَلَيْسَ عَبْرَ إِفْصَاحِ اللِّسَانِ... فَاذْهَلْ أَيُّهَا الْخَطِيبُ عَنِ النَّاسِ.. عَمَّا حَوْلَكَ وَأَنْتَ تَقُولُهَا ذَاهِباً مَعَ رَبِّكَ سُبْحَانَهُ.. غَيْرَ آبِهٍ بِمَا حَوْلَكَ وَمَنْ حَوْلَكَ.. بِمَنْ حَضَرَ أَوْ بِمَنْ غَابَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ حَضَرَ ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

إِيَّاكَ أَنْ تَتَهَاوَنَ بِمُعَايَشَةِ قَلْبِكَ لِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْعَظِيمَةِ.. سَوَاءٌ أَقُلْتَهَا بِإِدْرَاجٍ وَحَذْرٍ أَمْ قُلْتَهَا بِتَمَهُّلٍ وَتَرَسُّلٍ.. فَلَا تَنْفَلِتُ الْكَلِمَاتُ فِي غَفْلَةٍ فَتَمُرَّ مِنْ خَارِجِ طَرِيقِ قَلْبِكَ، فَإِنَّهَا لَنْ تَصِلَ إِلَى قُلُوبِ الْحَاضِرِينَ وَإِنْ قَرُبُوا مِنْكَ... لِأَنَّ الطُّرُقَ مَقْطُوعَةٌ إِلَيْهَا إِلَّا عَنْ طَرِيقٍ وَحِيدٍ هُوَ طَرِيقُ قَلْبِكَ... وَالافْتِتَاحُ هُوَ أَوَّلُ الطَّرِيقِ، فَإِذَا فَاتَكَ أَوَّلُهُ فَرُبَّمَا أَتْعَبَكَ الرُّجُوعُ أَكْثَرَ لِبُعْدِ الطَّرِيقِ أَكْثَرَ.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٨٦٨).

أَمَّا عَنِ البِدَايَةِ بِمُقَدِّمَةٍ مُعْتَادَةٍ فَإِنَّ ذَلِكَ رَاجِعٌ لِاجْتِهَادِ كُلِّ خَطِيبٍ، لَكِنِّي لَا أَرَى الْتِزَامَ أَيِّ مُقَدِّمَةٍ إِلَى الْأَبَدِ مَهْمَا حَسُنَتْ مُحَسِّنَاتُهَا، وَاسْتَحْكَمَ سَجْعُهَا، وَكَثُرَ إِعْجَابُ الْمُعْجَبِينَ بِهَا.. فَإِنَّهَا تُمَلُّ؛ لِأَنَّهَا نَظْمُ الْبَشَرِ.. وَإِنَّ ذَلِكَ يُؤَثِّرُ عَلَى مَوْضُوعِ الْخُطْبَةِ مِنْ أَكْثَرِ مِنْ جِهَةٍ، فَمِنْهَا إِيقَافُ ذِهْنِ الْحَاضِرِ مُنْتَظِراً يُرِيدُ عُبُورَ هَذِهِ الْقَنْطَرَةِ الْمَعْرُوفَةِ الْمَأْلُوفَةِ إِلَى بَرِّ الْخُطْبَةِ وَمَوْضُوعِهَا.. وَهَذَا الْفُتُورُ الذِّهْنِيُّ مُضِرٌّ إِذَا أُصِيبَ بِهِ الْحَاضِرُ فِي أَوَّلِ الْخُطْبَةِ، وَهُوَ مُؤَشِّرٌ سَيِّئٌ بِغَيْرِ شَكٍّ!

وَمَهْمَا قِيلَ - أَيُّهَا الْخَطِيبُ - إِنَّ افْتِتَاحِيَّتَكَ هَذِهِ جَمِيلَةٌ، وَإِنَّهَا حُفِظَتْ مِنْ قِبَلِ الصِّغَارِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ فَتَجَاوَزْهَا إِلَى غَيْرِهَا سَرِيعاً، وَلَا تَسْتَقِرَّ عَلَى افْتِتَاحِيَّةٍ وَاحِدَةٍ، وَهَذَا مِنَ التَّجْدِيدِ.

فَإِنَّ النَّفْسَ لَا تَلْتَزِمُ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَابِ الْإِعْجَابِ بِهِ، سَوَاءً كَانَ مَرْكُوباً أَوْ مَلْبُوساً أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، اللَّهُمَ إِلَّا إِنْ كَانَتْ لَا خِيَارَ لَهَا سِوَاهُ.

وَإِنَّ إِعْجَابَ النَّفْسِ بِقَوْلِهَا مَدْعَاةٌ لِلْمُرَاءَاةِ بِهِ، وَالدِّفَاعِ عَنْهُ، وَمَحَبَّةِ امْتِدَاحِ النَّاسِ لَهُ بِهِ.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

المبحث الثالث
التَّجْدِيدُ فِي الاسْتِهْلَالِ

الْمِفْتَاحُ الْعَمَلِيُّ الْأَوَّلُ لِمُمَارَسَةِ التَّجْدِيدِ فِي الْخُطْبَةِ يَكْمُنُ فِي بَرَاعَةِ الِاسْتِهْلَالِ.

وَيُخْطِئُ مَنْ ظَنَّ أَنَّ بَرَاعَةَ الِاسْتِهْلَالِ تَرْجِعُ إِلَى الْبَرَاعَةِ فِي انْتِقَاءِ الْأَلْفَاظِ اللُّغَوِيَّةِ.. أَوْ أَنَّهَا مَقْطُوعَةٌ أَدَبِيَّةٌ كَمَقَامَاتِ الْحَرِيرِيِّ، أَوْ مُقَدِّمَاتِ قُسِّ بْنِ سَاعِدَةَ الْإِيَادِيِّ، أَوْ أَمْثَالِهِمْ، إِنَّ الْمُقَدِّمَةَ الَّتِي تَصْلُحُ لِخَطِيبٍ رُبَّمَا لَا تَصْلُحُ لِخَطِيبٍ آخَرَ، وَإِنَّ الْمُقَدِّمَةَ الَّتِي تَصْلُحُ فِي بَلَدٍ رُبَّمَا لَا تَصْلُحُ فِي بَلَدٍ آخَرَ، وَالْمُقَدِّمَةُ الَّتِي تَصْلُحُ فِي زَمَنٍ رُبَّمَا لَا تَصْلُحُ فِي زَمَنٍ آخَرَ، وَهَذَا لَيْسَ كَلَاماً عَامّاً، إِنَّمَا هِيَ الْحَقِيقَةُ الْمُتَعَلِّقَةُ فِي الِاسْتِهْلَالِ خَاصَّةً.. فَإِنَّ مَقْصُودَ الِاسْتِهْلَالِ هُوَ تَهْيِئَةُ نُفُوسِ حَاضِرِيكَ لِمَوْضُوعِكَ لِيَكُونُوا بِأَعْلَى دَرَجَاتِ الْحُضُورِ وَالتَّهَيُّؤِ.. وَالتَّحَفُّزِ، وَهَذِهِ الْأُمُور - كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ - مُتَغَيِّرَةٌ مِنْ أُنَاسٍ لِآخَرِينَ، وَمِنْ بَلَدٍ لِآخَرَ، وَمِنْ زَمَنٍ لِآخَرَ.

فَيَا أَيُّهَا الْخَطِيبُ: حَافِظْ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ كُلَّ مَرَّةٍ: مَا الْجَدِيدُ فِي اسْتِهْلَالِ هَذِهِ الْخُطْبَةِ؟!

إِيَّاكَ وَالِاسْتِهْلَالَ الْمُتَكَلَّفَ.. إِيَّاكَ وَالِاسْتِهْلَالَ الطَّوِيلَ.. إِيَّاكَ وَالِاسْتِهْلَالَ الْمَنْقُولَ.. فَالِاسْتِهْلَالُ عُنْوَانُ شَخْصِيَّةِ الْخَطِيبِ.. فَلَا تُقَلِّدْ فِيهِ خَطِيباً أَيّاً كَانَ مَا اسْتَطَعْتَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا.

أَيُّهَا الْخَطِيبُ: الِاسْتِهْلَالُ مَيْدَانُكَ وَشَخْصِيَّتُكَ فِي مَيْدَانِ الْخَطَابَةِ وَالْخُطَبَاءِ.. الِاسْتِهْلَالُ هُوَ طَارِقُ الِابْتِدَاءِ الَّذِي تَطْرُقُ بِهِ الْقُلُوبَ فَتَسْتَفِزُّهَا حَتَّى تَبْقَى مُفَتَّحَةً عَنْ آخِرِهَا تَنْتَظِرُ مَوْضُوعَكَ الَّذِي سَتَنْفُذُ بِهِ إِلَيْهَا.

بَرَاعَةُ الِاسْتِهْلَالِ هِيَ الَّتِي تَجْعَلُ الْحَاضِرِينَ أَحْرَصَ مَا يَكُونُونَ عَلَى التَّبْكِيرِ إِلَيْكَ فِي أَوَّلِ الْخُطْبَةِ قَبْلَ أَنْ يَفُوتَهُمْ جَدِيدُ اسْتِهْلَالِكَ.

بَرَاعَةُ الِاسْتِهْلَالِ تَرْسُمُ صُورَةَ خُطْبَتِكَ، وَخُطَّةَ مَوْضُوعِكَ، فَأَحْسِنْ مَا اسْتَطَعْتَ رَسْمَ خُطْبَتِكَ مِنْ خِلَالِ اسْتِهْلَالِكَ، وَأَحْكِمْ مَلَامِحَ حَرَكَةِ رِيشَتِكَ.

وَمَا أَحْسَنَ الْخُطْبَةَ إِذَا جَاءَتْ مَوْلُوداً طَبِيعِيّاً يَخْرُجُ مِنْ رَحِمِ الِاسْتِهْلَالِ، وَإِنَّ مِنْ سُوءِ الِاسْتِهْلَالِ أَنْ يَكُونَ الِاسْتِهْلَالُ فِي وَادٍ وَالْخُطْبَةُ فِي وَادٍ، أَوْ يَضْعُفَ الرَّبْطُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَوْضُوعِ، فَيَشْعُرَ ذِهْنُ السَّامِعِ بِتَعَثُّرٍ، أَوْ يَرَى فَجْوَةً عِنْدَ الِانْتِقَالِ مِنَ الِاسْتِهْلَالِ إِلَى مَوْضُوعِ الْخُطْبَةِ، فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى عَمَلِيَّةٍ مُجْهِدَةٍ لِلْوُصُولِ إِلَى الْمَطْلُوبِ بِسَلَامٍ كَمَا هِيَ الْعَمَلِيَّةُ الْقَيْصَرِيَّةُ، وَرُبَّمَا لَا يَصِلُ.

أَمَّا إِذَا وُلِدَتِ الْخُطْبَةُ مِنْ رَحِمِ الِاسْتِهْلَالِ فَإِنَّ هَذَا يُوَفِّرُ وَقْتاً وَيَحْسُنُ بِهِ التَّمْهِيدَ لِلْوُصُولِ إِلَى الْغَايَةِ.

وَمَا أَحْسَنَ الاسْتِهْلَالَ الَّذِي هُوَ جُزْءٌ لَا يَتَجَزَّأُ مِنَ الْخُطْبَةِ.. وَبِهِ يَدْخُلُ السَّامِعُ إِلَى الْخُطْبَةِ مُبَاشَرَةً مُنْبَهِراً مُسْتَعِدّاً لِقَبُولِ مَا سَيَأْتِي فِي الْخُطْبَةِ مِنْ تَكَالِيفَ وَتَحَمُّلِ مَا تَقْتَضِيهِ الْغَايَةُ، بَلْ أَحْيَاناً لَا يَشْعُرُ إِلَّا وَهُوَ فِي صُلْبِ الْمَوْضُوعِ، وَإِذَا بِالْخُطْبَةِ قَدْ انْتَهَتْ، وَذَلِكَ لِوَحْدَةِ اللُّحْمَةِ بَيْنَ الِاسْتِهْلَالِ وَالْخُطْبَةِ.

وَمَا أَحْسَنَ الِاسْتِهْلَالَ أَحْيَاناً بِتَرْكِ الِاسْتِهْلَالِ، فَبَيْنَمَا السَّامِعُ مُتَوَقِّعٌ اسْتِهْلَالاً مُعَيَّناً، قَدْ أَعَدَّ ذِهْنَهُ لِذَلِكَ إِعْدَاداً. فَإِذَا بِكَ تَأْتِيهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، فَتَأْسِرُهُ مِنْ أَوَّلِ لَحْظَةٍ، فَلَا يَتَمَكَّنْ مِنَ الْفِرَارِ مِنْ مَوْضُوعِكَ، وَسِرُّ هَذِهِ الْمُفَاجَأَةِ أَنَّ الْبَعْضَ رُبَّمَا أَصْبَحَ لِشِدَّةِ تَحَفُّزِهِ يَوَدُّ الْقَفْزَ عَلَى الاسْتِهْلَالَاتِ، وَكَأَنَّهُ يُخَاطِبُكَ: تَخَطَّ الِاسْتِهْلَالَ وَأَعْطِنَا الْمَوْضُوعَ.. - وَهُوَ لَا يَتَوَقَّعُ ذَلِكَ أَبَداً - فَإِذَا بِكَ تَتَخَطَّى وَتُعْطِيهِ الْمَوْضُوعَ مُبَاشَرَةً، فَيُصْبِحُ فِي الْمَرَّاتِ الْقَادِمَةِ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَوَقَّعُ مَعَكَ شَيْئاً مُحَدَّداً، وَكَمْ مِنَ الْإِخْوَةِ الْخُطَبَاءِ مَنْ يَسْتَرْجِعُ فِي أَوَّلِ خُطْبَةِ الْجُمُعَةِ مَا مَرَّ عَلَيْهِ فِي خُطْبَةِ الْجُمُعَةِ السَّابِقَةِ.. وَالْحَاضِرُونَ هُمُ الْحَاضِرُونَ.. فَلَا يَزَالُ يُرَاجِعَ مَعَهُمُ الْخُطْبَةَ السَّابِقَةَ لِيَبْنِيَ عَلَيْهَا خُطْبَتَهُ الْجَدِيدَةَ.. وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ هَذَا الْأُسْلُوبَ التَّقْلِيدِيَّ

فِي مُرَاجَعَةِ الْخُطْبَةِ السَّابِقَةِ هُوَ دَلِيلُ عَجزِ اسْتِهْلَالٍ يَجمَعُ مَا مَضَى وَمَا يُرَادُ تَقْدِيمُهُ بِأُسْلُوبٍ لَا تَكْرَارَ فِيهِ، وَلَا تَقْلِيدَ.. إِنَّ اسْتِشْهَادَ الْإِنْسَانِ بِأَقْوَالِهِ دَلِيلُ عَجْزِهِ الْمَبْدَئِيِّ عَنْ جَدِيدٍ.. جَدِيدٍ يُذَكِّرُ بِمَا ذَكرَهُ مِنْ قَبْلُ فِي لَمْحَةٍ، وَيُضِيفُ مَا يُرِيدُ، فَيَصْرِفُ عَنِ السَّامِعِينَ الْمَلَلَ وَالسَّآمَةَ.

دَعْنِي أَتْرُكْ لَكَ التَّصْنِيفَ النَّظَرِيَّ إِلَى التَّطْبِيقِ الْوَاقِعِيِّ لِنَمَاذِجَ مِنَ الِاسْتِهْلَالِ، ثُمَّ أُبَيِّنْ بَعْضَ مَا فِيهَا مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ كَيْ يَتَعَدَّى الْقَارِئُ التَّلْقِينَ إِلَى الصِّنَاعَةِ وَالْإِبْدَاعِ بَعْدَ مَا يَسْتَوْعِبُ طَرِيقَتَهَا، وَيَكْشِفُ سِرَّهَا، وَمَا أَسْهَلَهُ مِنْ سِرٍّ وَأَوْضَحَهُ!!

نَمَاذِجُ مُتَنَوِّعَةٌ مِنَ الِاسْتِهْلَالِ:

قَدْ ذُكِرَت فِي أَثْنَى عَشَرَ نَوْعاً مِنْ نَمَاذِجِ الاسْتِهْلَالِ بَيْنَمَا لَمْ أَذْكُرْ لِمَوَاضِيعِ الْخَطِيبِ نَمَاذِجَ كَثِيرَةً وَذَلِكَ لِتَهَاوُنِ الْكَثِيرِينَ بِالاسْتِهْلالِ رُغْمَ أَهَمِّيَّتِهِ، وَلِعَجْزِ آخَرِينَ عَنْ فَنِّهِ، وَلِأَنَّ مَوَاضِيعَ الْخُطَبِ طَوِيلَةً وَسَيأْتِي بِإِذْنِ اللَّهِ إِصْدَارُ كِتَابٍ كَامِلٍ فِي الْخُطَبِ.

التَّطْبِيقُ الْأَوَّلُ: لَيْسَ عَلَيْنَا إِلَّا الدُّعَاءُ!

«كَانَ الدُّعَاءُ جُزْءاً مِنْ إِعْدَادِ الْعُدَّةِ، وَزَعَمُوا أَنَّ الدُّعَاءَ الْيَوْمَ وَحْدَهُ الْعُدَّةُ!

كَانَ الدُّعاءُ قَبْلَ وَبعْدَ وَفِي أَثْنَاءِ الْأَخْذِ بِالاسْتِطَاعَةِ، وَأَصْبَحَ الْمُسْتَطَاعُ هُوَ الدُّعَاءُ!

هَكَذَا، إِذَا ثَقُلَ التَّكْلِيفُ عَلَى الكُسَالَى قَالُوا: لَيْسَ لَنا إِلَّا الدُّعاءُ! وَإِذَا قَعَدَ الْخَوَالِفُ عَنِ الْمَسِيرِ قَالُوا: لَيْسَ لَنا إِلَّا الدُّعاءُ! وَاللَّهُ تَعَالَى يُكَذِّبُهُمْ فَيَقُولُ: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

أَمَا كَانَ يَكْفِي دُعاءُ ذَاكَ الرَّسُولِ العَظِيمِ كَيْ يُهْلِكَ اللَّهُ قَوْمَهُ بِغَيْرِ سَفِينَةٍ؟

أَمَا شَفَعَتْ تِسْعُمِائَةٍ وَخَمْسُونَ عاماً كَيْ يُنْزِلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ سَخطَهُ، وَيُنَجِّي نُوحاً مِنْ غَيْرِ سَفِينَةٍ وَلَا بَحْرٍ وَلَا طُوفَانٍ؟!

لَا.. لَابُدَّ مِنْ سَفِينَةٍ، وَلَابُدَّ مِنْ هَذَا النِّظَامَ الدَّقِيقَ لِأَجْلِ حُصُولِ النَّجَاةِ وَنُزُولِ النَّصْرِ: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٧- ٣٩] وَمِنْ قَبْلِهِ هَتَفَ الْأَبَوَانِ بِالدُّعَاءِ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، أَمَا كَانَ يَكْفِي هَذَا الدُّعَاءُ؟ لَا، قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ البَقَرَةِ: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى

هُدَى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩].

فَهَلْ تَوَقَّفَ الْأَمْرُ عِنْدَ النَّدَمِ وَالدُّعَاءِ؟ لَا، ثُمَّ لَا، سَيَأْتِيكُمْ مِنِّي هُدًى وَتَشْرِيعٌ ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩]» اهـ.

تَحْلِيلُ الِاسْتِهْلَالِ: فَهَذَا الِاسْتِهْلَال جُزْءٌ لَا يَتَجَزَّأُ مِنَ الْمَوْضُوعِ، فَإِنْ شِئْتَ أَسْمَيْتَهُ اسْتِهْلَالًا، وَإِنْ شِئْتَ أَسْمَيْتَهُ الْمَوْضُوعَ ذَاتَهُ، وَالْجَدِيدُ فِيهِ كَذَلِكَ هُوَ أَنَّ الْمَوْضُوعَ لَيْسَ كَمَا يَتَبَادَرُ لَكَ مِنْ عُنْوَانِهِ أَوْ مِنْ بِدَايَتِهِ، وَهُوَ أَنَّهُ عَنِ الدُّعَاءِ...! لَا.

إِنَّهُ مَوْضُوعٌ مُعْتَادٌ، عُرِضَ بِطَرِيقٍ غَيْرِ مُعْتَادٍ، ذَلِكَ هُوَ «الْأَخْذُ بِالْأَسْبَابِ» جَعْلُ اسْتِهْلَالِهِ عَنِ الدُّعَاءِ، وَجَاءَ عَرْضُهُ بِطَرِيقَةِ شَدٍّ وَجَذْبٍ وَمُقَارَنَةٍ مَحْسُومَةِ النَّتِيجَةِ مَا بَيْنَ فِعْلِ مَنْ لَا يَشُكُّ بِصَوَابِهِمْ، وَوَاقِعٍ يُرَادُ تَصْحِيحِهِ، وَفِي هَذَا شَدٌّ مُبَاشِرٌ لِذِهْنِ السَّامِعِ أَيَّمَا شَدٍّ حَيْثُ لَامَسَ الْمَوْضُوعُ الْوَاقِعَ بِشَكْلِ عَرْضِ شُبْهَةٍ وَاقِعِيَّةٍ مُؤَثِّرَةٍ فِي النُّفُوسِ تَقُولُ: لِمَاذَا نَدْعُو اللَّهَ وَلَا يُسْتَجَابُ لَنَا..؟! عُرِضَتْ بِطَرِيقَةِ الْمُقَارَنَةِ الْحَقِيقِيَّةِ مَا بَيْنَ الدُّعَاءِ عِنْدَ مَنِ اسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُمْ وَبَيْنَ دُعَائِنَا..

ثُمَّ إِنَّ هَذَا الِاسْتِهْلَالَ رُغْمَ جِدِّيَّتِهِ وَإِثَارَتِهِ فَالِانْتِقَالُ مِنْهُ إِلَى ذَاتِ

الْمَوْضُوعِ لَمْ يَكُنْ مُتَكَلَّفاً وَلَا عَسِيراً، وَلَا احْتَاجَ إِلَى جُمْلَةِ رَبْطٍ؛ لِأَنَّهُ وُلِدَ مِنْ ذَاتِ الْمَوْضُوعِ، بَلْ الْمَوْضُوعُ وُلِدَ مِنْهُ، وَبِإِمْكَانِ الْقَارِئِ عِنْدَ تَأَمُّلِهِ جَيِّداً أَنْ يُنْشِئَ عَلَى مِنْوَالِهِ خُطَباً كَثِيرَةً، وفِي مَوَاضِيعَ كَثِيرَةٍ غَيْرِ هَذَا الْمَوْضُوعِ، وَسَيَتَّضِحُ لِلْخَطِيبِ هَذَا الْأَمْرُ أَكْثَرَ لَوْ أَنَّهُ قَرَأَ الْخُطْبَةَ كَامِلَةً، فَإِنَّ الْبَرْقَ وَالرَّعْدَ وَالْغَمَامَ لَا يُعْرَفُ أَثَرُهُ، وَلَا يُمْدَحُ مَطَرُهُ إِلَّا بِمَا يَحْمِلُهُ.

التَّطْبِيقُ الثَّانِي: الْمَحَبَّةُ:

«حَرْفَانِ يُكَوِّنَانِ أَلَذَّ كَلِمَةٍ.. الْحَرْفُ الْأَوَّلُ يَنْبُعُ مِنْ أَقْصَى الْحَلْقِ، وَالْآخَرُ مِنَ الشَّفَتَيْنِ.. إِنَّهَا كَلِمَةُ حُبٍّ.

فَالْحَرْفَانِ - إِذاً - شَمِلَا الْجَنَانَ وَاللِّسَانَ، شَمِلَا الْكَيَانَ وَالْكَلَامَ، شَمِلَا البَاطِنَ وَالظَّاهِرَ، شَمِلَا الابْتِدَاءَ وَالانْتِهَاءَ..

فَكَيْفَ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ إِذَا شُدَّتْ إِلَى أَعْظَمِ كَلِمَةٍ سَمِعَتْهَا أُذُنٌ، وَتَحَرَّكَ بِهَا لِسَانٌ: (اللَّهُ) فَأَصْبَحَتْ: الْحُبُّ فِي اللَّهِ.

أَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ أَتَحَدَّثَ عَنِ الْحُبِّ فِي اللَّهِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ، لَكِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَطْرُقَ جَوَانِبَ يَكْثُرُ فِيهَا الْخَطَأُ فِي مَيْدَانٍ» اهـ.

تَحْلِيلُ الاسْتِهْلَالِ: كَمْ تَرَى بَيْنَ السَّطْرِ الْأَوَّلِ وَالسَّطْرِ الْأَخِيرِ مِنْ قَفْزَةٍ كَبِيرَةٍ رُغْمَ قِصَرِ الْكَلَامِ الَّذِي بَيْنَهُمَا، لَكِنَّكَ إِذَا تَأَمَّلْتَ وَجَدْتَ أَنَّ

التَّدَرُّجَ كَانَ مَنْطِقِيّاً جِدّاً.

هَذَا أَوَّلًا، وَأَمَّا ثَانِياً: فَإِنَّ مَوْضُوعَ الْحُبِّ فِي اللَّهِ مَوْضُوعٌ مُعْتَادٌ بَحْثُهُ وَالْخُطْبَةُ فِيهِ، وَلَوْ أَنَّ الْخَطِيبَ قَالَ: إِنَّ مَوْضُوعَنَا الْيَوْمَ هُوَ: (الْحُبُّ فِي اللَّهِ) لَمَا كَانَ فِي ذَلِكَ إِثَارَةٌ لِعُقُولِ الْحُضُورِ لِانْعِدَامِ الْبَرَاعَةِ فِي عَرْضِهِ، فَهُوَ اسْتِهْلَالٌ مُسْتَهْلَكٌ، لَكِنِ الْجَدِيدُ فِي هَذَا الِاسْتِهْلَالِ هُوَ مَا جَعَلَهُ كَأَنَّهُ مَوْضُوعٌ جَدِيدٌ يُعْرَضُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ.

تَأَمَّلْ هَذَا الِاسْتِهْلَالَ مِنْ وِجْهَةٍ أُخْرَى، فَإِنَّ الْخَطِيبَ قَدْ طَرَقَ سَمْعَ الْحُضُورِ بِكَلِمَاتٍ قَصِيرَةٍ وَأَحْرُفٍ مُقَطَّعَةٍ هِيَ أَشْبَهُ بِاللُّغْزِ الَّذِي يَطْلُبُ الْإِجَابَةَ عَلَيْهِ، فَمَا مِنْ سَامِعٍ إِلَّا وَهُوَ يُحَاوِلُ أَنْ يُدْرِكَ الْإِجَابَةَ بِنَفْسِهِ يَسْبِقُ بِهَا إِجَابَةَ الْخَطِيبِ.. لَكِنَّ الْخَطِيبَ لَمْ يَضِنَّ عَلَى حُضُورِهِ بِالْإِجَابَةِ، أَوْ يُذِلَّ عُقُولَهُمْ بِإِطَالَةِ الْكَلَامِ وَإِضَاعَةِ الْوَقْتِ، إِنَّمَا أَعْطَاهُمُ الْإِجَابَةَ فِي السَّطْرِ الثَّانِي مُبَاشَرَةً.

وَالْأَهَمُّ مِنْ هَذَا أَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ تِلْقَائِيّاً وَدُونَ إِشْعَارٍ بِأَنَّ هَذَا الْإِلْغَازَ وَالْجَوَابَ عَلَيْهِ لَمْ يَكُنْ مُجَرَّداً عَنِ الْهَدَفِ، إِنَّمَا هَدَفُهُ عَقَدِيٌّ، فَلَهُ ارْتِبَاطٌ بِالْعَقِيدَةِ، وَلَهُ ارْتِبَاطٌ بِكِيَانِ الْإِنْسَانِ وَأَعْضَائِهِ، أَعِدْ قِرَاءَةَ الْمُقَدِّمَةِ تَجِدْ هَذَا وَاضِحاً.

ثُمَّ رَفَعَ شَأْنَ هَذَا الْأَمْرِ حِينَ رَبَطَهُ بِأَعْظَمِ كَلِمَةٍ وَهِيَ (اللَّهُ) فَأَصْبَحَتْ كَالْمُعَادَلَةِ الَّتِي وَجَدَتِ الْحَلَّ، وَلَرُبَّمَا يَتَوَقَّفُ السَّامِعُ عِنْدَ

هَذَا الْحَدِّ عَنِ الْمُتَابَعَةِ وَيُقُولُ فِي نَفْسِهِ - بَعْدَمَا أَدْرَكَ الْحَلَّ -: عَرَفْنَا الْخُطْبَةَ وَلَطَالَمَا سَمِعْنَاهَا! لَكِنَّ الْخَطِيبَ لَمْ يُعْطِهِ هَذِهِ الْفُرْصَةَ لِيُفَتِّرَ ذِهْنَهُ بِهَذَا الظَّنِّ، فَقَالَ بَعْدَهَا مُبَاشَرَةً: «أَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ أَطْرُقَ مَوْضُوعَ الْحُبِّ فِي اللَّهِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ، وَلَكِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَتَحَدَّثَ عَنْ جَوَانِبَ يَكْثُرُ فِيهَا الْخَطَأُ» وَبِذَا أَعَادَ ذِهْنَ الْحَاضِرِينَ أَسْرَعَ وَأَقْوَى مِمَّا كَانَ فِي الِابْتِدَاءِ، مُسْتَغِلّاً مَا فِي ذِهْنِ السَّامِعِ مِنْ مَيْلٍ إِلَى التَّحَدِّي وَالنَّقْدِ، وَمَا عِنْدَ الْمُسْلِمِ مِنْ مَحَبَّةٍ لِلتَّصْحِيحِ، وَعَلَى هَذَا الْمِنْوَالِ تَتَصَاعَدُ الْخُطْبَةُ وَيَزْدَادُ طَرْقُهَا عَلَى الْقَلْبِ مِنْ خِلَالِ وَاقِعِيَّتِهَا وَأَدِلَّتِهَا، وَكُلُّ نُقْطَةٍ تُفْضِي إِلَى مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهَا وَأَكْثَرُ عَمَلِيَّةً وَجَاذِبِيَّةً حَتَّى تُصَحَّحَ هَذِهِ الْقَضِيَّةُ الْعَظِيمَةُ.

التَّطْبِيقُ الثَّالِثُ: وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ:

«أَيَحْتَاجُ الْمَذْبُوحُ إِلَى أَنْ تُكْسَرَ عُنُقُهُ، أَيَحْتَاجُ الْكَلُّ إِلَى أَنْ يَزْدَادَ مِنْ حِمْلِهِ؟! أَمْ يَحْتَاجُ الْغَرِيقُ أَنْ يُوطَأَ عَلَى مِنْكَبِهِ، أَمْ يَحْتَاجُ الْقَانِطُ إِلَى مَنْ يُذَكِّرُهُ بِذَنْبِهِ؟

هَذَا حَالُ مَنْ يَقِفُ عَلَى رَأْسِ الْأُمَّةِ وَهِيَ مَرِيضَةٌ غَرِيقَةٌ نَازِفَةٌ، يَنُوحُ عَلَى رَأْسِهَا وَيَنْدُبُهَا حَظَّهَا دُونَ أَنْ يُقَدِّمَ لَهَا عِلَاجاً نَاجِعاً أَوْ بَدِيلاً نَاجِحاً، بَيْنَمَا اللَّهُ تَعَالَى قَدْ خَاطَبَ الْأُمَّةَ وَهِيَ فِي شِدَّةِ مُصَابِهَا، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن

كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]! مَتى نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ؟ وَفِي أَيْ ظَرْفٍ نَزَلَتْ؟ وَعَلى مَنْ نَزَلَتْ؟

فَماذَا بَقِيَ مِنْ مَرارَةِ الْبُؤْسِ وَالنَّكْبَةِ وَالْهَزِيمَةِ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ؟ لَمْ يَبْقَ أَمامَ هَؤُلاءِ إِلَّا أَنَّ يَكُونُوا الأَعْلَونَ كَما وَصَفَهُمْ رَبُّهُمْ حَتَّى وَهُمْ فِي جِرَاحِهِمْ وَبَيْنَ مَوْتَاهُمْ» اهـ.

تَحْلِيلُ الاِسْتِهْلَالِ: إِنَّ هَذَا الاِسْتِهْلَالَ يَذْكُرُ مُسَلَّماتٍ، لَكِنَّهَا مُثِيرَةٌ لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ إِلَّا اسْتِنْكَارَهَا وَالنُّفْرَةَ مِنْ فَاعِلِهَا! يَذْبَحُهُ وَلَا يَرْحَمُهُ، بَلْ يَكْسِرُ عُنُقَهُ.. وَغَيْرُهَا مِنَ الصُّوَرِ الشَّنِيعَةِ.

لَكِنَّ هَذِهِ الأُمُورَ رُغْمَ نُفْرَةِ كُلِّ النَّاسِ مِنْهَا إِلَّا أَنَّهَا دَيْدَنُ أَكْثَرِ الْخُطَباءِ الْغَيارَى، فَمَنْهَجُهُمْ هُوَ دَوامُ الْعِتابِ وَالنَّقْدِ الْقاتِلِ، وَكَأَنَّ هَذَا الْأُسْلُوبَ هُوَ خَتْمُ الشَّجاعَةِ، وَدَلِيلُ الصَّدْعِ بِالْحَقِّ، وَهَذَا خَطَأٌ يَنْشَأُ عَلَيْهِ خُطَباءُ وَيَكْبُرُونَ وَيَشِيبُونَ.. وَلِذَا اسْتَحَقَّ هَذَا الْأُسْلُوبُ فِي الْإِنْكارِ هَذَا الْإِنْكارَ فِي هَذِهِ الْخُطْبَةِ، وَجاءَ الشَّاهِدُ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسِّيرَةِ مُباشَرَةً وَفِي نَفْسِ الاِسْتِهْلَالِ، ثُمَّ جاءَتِ الْخُطْبَةُ كُلُّها عَلى هَذَا النَّسَقِ، إِنَّها تُعالِجُ أَمْراً خَطِيراً جِدّاً، تَصْحِيحُهُ واجِبٌ مَعَ أَنَّهُ أَمْرٌ نَفْسِيٌّ، إِلَّا أَنَّهُ الرَّكِيزَةُ الْأُولَى فِي التَّغْيِيرِ وَالتَّصْحِيحِ؛ لِأَنَّهُ تَصْحِيحٌ فِي مَرْكَزِ التَّغْيِيرِ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣] وَالْعُنْوانُ

الْأَوَّلُ فِي تَحْوِيلِ الْهَزِيمَةِ إِلَى انْتِصَارٍ... إِنَّهُ التَّغْيِيرُ فِي النَّفْسِيَّةِ مِنَ النَّفسِيَّةِ الْمَهْزُومَةِ الْمُحطَّمَةِ إِلَى النَّفْسِيَّةِ العَلِيَّةِ الْمُنْتَصِرَةِ، وَهَذَا أُسْلُوبٌ يُمْكِنُ لِلْخَطِيبِ أَنْ يُنْشِئَ خُطَباً عَلَى مَنْهَجِيَّتِهِ تَارِكاً وَرَاءَهُ مَنْهَجِيَّةَ الْعِتَابِ الْقَاتِلِ، أَوْ التَّعْذِيبِ بِالْعِتَابِ إِلَى مَنْهَجِيَّةِ الْعِلَاجِ بِاسْتِثَارَةِ الْعِزَّةِ وَالنَّخْوَةِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ...!

التَّطْبِيقُ الرَّابِعُ: بَرْنَامَجٌ عِبَادِيٌّ:

«بِغُرُوبِ شَمْسِ الْأَمْسِ، ابْتَدَأَ السِّبَاقُ، وَانْطَلَقَ الْمُتَسَابِقُونَ، لَكِنَّ ظُهُورَ النَّتِيجَةِ سَيَكُونُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ.

خُطْبَتُنَا مُحَدَّدَةٌ وَمُبَرْمَجَةٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَعْمَلُوا، بَلْ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يُعَوِّضُوا، وَلِلَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَسْبِقُوا، لِلَّذِينَ هَتَفُوا مِنْ دَاخِلِهِمْ: أَبْوَابُ النِّيرَانِ مُغْلَقَةٌ، فَمَا لَنَا عَلَى أَبْوَابِهَا وُقُوفٌ! الشَّيَاطِينُ مَحْبُوسَةٌ، فَمَا لَنَا مَعَهَا مَحْبُوسُونَ! وَأَبْوَابُ الْجَنَّةِ مُفَتَّحَةٌ، فَمَا لَنَا عَنِ الْحَرَكَةِ نَحْوَهَا مُقَيَّدُونَ! وَمُنَادِي اللَّهِ يُنَادِي: يَا بَاغِيَ.. فَمَا لَنَا عَنْهُ مُعْرِضُونَ! هَاكُمْ يَا أَيُّهَا الصَّائِمُونَ!

يَا أَيُّهَا الشَّبَابُ، هَذَا الْبَرْنَامَجُ الْمُحَدَّدُ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْعَمَلَ، تُرِيدُونَ التَّعْوِيضَ، تُرِيدُونَ السَّبْقَ... إِذاً ضَعُوا يَوْمَ الصِّيَامِ كُلَّهُ أَمَامَكُمْ.

لِنَبْتَدِئَ مِنْ هَذِهِ اللَّحْظَةِ مِنَ الظُّهْرِ، فَهِيَ أَوَّلُ وَقْتٍ شُرِعَتْ فِيهِ الصَّلَاةُ، وَهُوَ وَقْتُ الْجُمُعَةِ الْحَالِي، وَوَقْتُنَا الْحَاضِرُ الْآنَ» اهـ.

تَحْلِيلُ الِاسْتِهْلَالِ: هَذَا الْمَوْضُوعُ مَوْضُوعُ ابْتِدَاءِ شَهْرِ رَمَضَانَ الْمُبَارَكِ، وَهُوَ مِنَ الْمَوَاضِيعِ الَّتِي يَخْطُبُ فِيهَا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ جَمِيعُ الْمَسَاجِدِ عَلَى الْأَرْضِ؛ وَلِذَا فَيَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يَجْتَهِدَ اجْتِهَاداً عَظِيماً فِي صِنَاعَةِ اسْتِهْلَالٍ لَا نَظِيرَ لَهُ مِنْ بَيْنِ الْجُمُوعِ الْخَاطِبَةِ فِي الجُمَعِ فِي يَوْمِهِ هَذَا.

لَمْ يَتْرُكِ الْخَطِيبُ مَوْضُوعَ الْخُطْبَةِ مُتَأَخِّراً فِي الذِّكْرِ، أَوْ يَتْرُكْهُ لِاسْتِنْتَاجِ السَّامِعِ، فَمَا فَائِدَةُ تَكَلُّفِ تَأْجِيلِ ذِكْرِ الْعُنْوَانِ بَيْنَمَا الْمَوْضُوعُ ذَاتُهُ قَدْ ابْتَدَأَ بِالْأَمْسِ، ثُمَّ إِنَّ الْمَوْضُوعَ مَوْضُوعُ بَرْنَامَجٍ عَمَلِيٍّ، فَهُوَ لَا يَحْتَمِلُ التَّأْخِيرَ وَلَا ذَهَابَ الْوَقْتِ، وَأَمْرٌ آخَرُ هُوَ أَنَّ عَرْضَ الْبَرْنَامَجِ الْعِلْمِيِّ عَادَةً مَا يَكُونُ فِي الْمُحَاضَرَاتِ لَا فِي خُطَبِ الْجُمَعِ.. وَلَكِنْ مَنْ يَضْمَنُ مَجِيءَ هَذِهِ الْجُمُوعِ كِلِّهَا لِلْمُحَاضَرَاتِ، وَمَجَالِسِ الذِّكْرِ، فَالْخَطِيبُ أَرَادَ اسْتِنْفَارَ الْعَدَدِ الْأَكْبَرِ وَالْحَشْدِ الْأَعْظَمِ لِعَرْضِ بَرْنَامَجِهِ، وَكَمَا يُرِيدُ الْخَطِيبُ إِدْخَالَ الْجُمُوعِ لِلسِّبَاقِ فَإِنَّهُ يُرِيدُ هُوَ كَذَلِكَ الدُّخُولَ فِي سِبَاقٍ مَعَ إِخْوَانِهِ الْخُطَبَاءِ.

وَمَعَ أَنَّ الْقَضِيَّةَ قَضِيَّةُ نِقَاطٍ فِي بَرْنَامَجٍ فَإِنَّ الْخَطِيبَ مَا تَرَكَهُ جَافّاً، وَلَكِنْ أَعْطَى جُرْعَةً إِيمَانِيَّةً لِلْهِمَّةِ فِي أَوَّلِ سَطْرٍ فِي الْخُطْبَةِ - كَمَا تَرَى -

فَقَالَ: «بِغُرُوبِ شَمْسِ الْأَمْسِ ابْتَدَأَ السِّبَاقُ، وَانْطَلَقَ الْمُتَسَابِقُونَ.. لَكِنَّ ظُهُورَ النَّتِيجَةِ سَيَكُونُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ».

ثُمَّ بَعْدَ مَا وَضَّح أَنَّ الْخُطْبَةَ بَرْمَجَةٌ عَمَلِيَّةٌ، وَهَذِهِ الْبَرْمَجَةُ عَامَّةٌ وَلَيْسَتْ خَاصَّةً، فَهِيَ تَشْمَلُ الصَّالِحَ وَغَيْرَ الصَّالِحِ مِمَّنْ أَدْرَكَهُ رَمَضَانُ، فَقَالَ: «خُطْبَتُنَا مُحَدَّدَةٌ وَمُبَرْمَجَةٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَعْمَلُوا، بَلْ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يُعَوِّضُوا، وَلِلَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَسْبقُوا».

وبَعْدَ مَا بَيْنَ أَنَّهَا برنامجٌ لِكُلِّ هَؤُلَاءِ أشار إِلَى سهولة تطبيق البرنامج فِي هَذَا الشهر الْمبارك حِينَ قال: «لِلَّذِينَ هَتَفُوا مِنْ دَاخِلِهِمْ: أَبْوَابُ النِّيرَانِ مُغْلَقَةٌ، فَمَا لَنَا عَلَى أَبْوَابِهَا وُقُوفٌ! الشَّيَاطِينُ مَحْبُوسَةٌ، فَمَا لَنَا مَعَهَا مَحْبُوسُونَ! وَأَبْوَابُ الْجَنَّةِ مُفَتَّحَةٌ، فَمَا لَنَا عَنِ الْحَرَكَةِ نَحْوَهَا مُقَيَّدُونَ! وَمُنَادِي اللَّهِ يُنَادِي: يَا بَاغِيَ.. فَمَا لَنَا عَنْهُ مُعْرِضُونَ!».

فَإِذَا لَاحظْتَ هَذا الاسْتِهْلَالَ وَجَدْتَهُ اسْتِهْلَالًا مَنْصُوصاً، وَوَجَدْتَ الْخَطِيبَ بَدَلًا أَنْ يَجْعَلَهُ عِتَاباً مُوَجَّهاً مِنْهُ إِلَى النَّاسِ فَيَكُونَ لَاذِعاً وَرُبَّمَا مُؤْذِياً جَعَلَ الْهَاتِفَ بِهَذَا الْخِطَابِ مِنْ دَاخِلِ نَفْسِ السَّامِعِ، فَقَالَ: «لِلَّذِينَ هتَفُوا مِنْ دَاخِلِهِمْ: أَبْوَابُ...».

وَلَمْ يَقُلْ: «أَبْوَابُ النِّيرَانِ مُغَلَّقَةٌ، فَمَا لَكُمْ عَلَى أَبْوَابِهِمْ وُقُوفٌ،

الشَّيَاطِينُ مَحْبُوسَةٌ فَمَا لَكُمْ مَعَهَا مَحْبُوسُونَ..!».

ثُمَّ وَضَعَ نُقْطَةً عَمَلِيَّةً، وَمُهِمَّةً جِدّاً، وَتَوْقِيتاً مُوَحَّداً بِدَايَةَ انْطِلَاقِ الْبَرْنَامَجِ، وَهِيَ صَلَاةُ الظُّهْرِ، وَبَيَّنَ فِي نَفْسِ الْكَلِمَةِ سِرَّ هَذَا الاخْتِيَارِ.

وَالنِّقَاطُ الْأُخْرَى فِي هَذَا الاسْتِهْلَالِ عَدِيدَةٌ، أَكْتَفِي بِهَذِهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

التَّطْبِيقُ الْخَامِسُ: مَنْ رَكِبَ أَخِيراً:

«بَعْدَ مَا كَانَ ثُلُثُ الْأَيَّامِ الْمَعْدُودَاتِ عَشْراً أَصْبَحَ ثُلُثُ الْمُتَبَقِّي عَلَى أَطْوَلِ تَقْدِيرٍ يَوْماً وَاحِداً، أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ تَفَلَّتَتْ مِنْ بَيْنِ الْأَيْدِي كَاللَّحَظَاتِ الْمَعْدُودَةِ وَكَالْوَمَضَاتِ الْخَاطِفَاتِ، أَوْ كَالطُّيُورِ السَّارِحَاتِ الْمُسْرِعَاتِ.

سَفِينَةُ رَمَضَانَ تُوشِكُ عَلَى الْإِبْحَارِ فِي مُحِيطِ الزَّمَانِ الْمَاضِي الْبَعِيدِ، وَمَا زَالَ الْبَعْضُ فِي صَحْرَاءِ الْغَفْلَةِ وَالْغُرُورِ سَارِحاً مَارِحاً، غَادِياً وَرَائِحاً، وَمُنَادِي السَّفِينَةِ يَصِيحُ عَلَيْهِ: يَا بُنَيَّ، ارْكَبْ مَعَنَا، وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ، يَا أُخَيَّ، ارْكَبْ مَعَنَا، وَلَا تَكُنْ مِنَ الْهَالِكِينَ، أَقْبِلْ إِلَى السَّفِينَةِ، فَمَا زَالَ أَمَامَكَ غُرُوبُ شَمْسَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ، وَيَسْتَحِيلُ بَعْدَهَا اللَّحَاقُ بِالسَّفِينَةِ، وَيَنْقَطِعُ الْغَافِلُ فِي صَحْرَائِهِ.

وَلِذَا فَقَدْ جِئْتُ الْيَوْمَ لِأَقُولَ خِصِّيصاً لِمَنْ فَرَّطَ فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ فِي

الْعِبَادَاتِ أَوْ أَسْرَفَ فِيمَا مَضَى مِنَ الشَّهْرِ، أَوْ سَكِرَ أَوْ فَعَلَ كَبِيرَةً: أَقْبِلْ إِلَى السَّفِينَةِ، فَالسَّفِينَةُ لَمْ تُبْحِرْ بَعْدُ، وَمَنْ رَكِبَ أَخِيراً رَكِبَ وَنَجَا، لَكِنْ مَنْ يَئِسَ وَبَكَى وَقَعَدَ أَوْ أَصَرَّ فَقَدْ هَلَكَ.

أَقْبِلْ، مُنَادِي الشَّهْرِ مَا زَالَ يَصِيحُ: يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ» اهـ.

تَحْلِيلُ الِاسْتِهْلَالِ: هَذَا الاسْتِهْلَالُ يَقُولُ لِلْخَطِيبِ: بِإِمْكَانِكَ أَنْ تَبْتَدِئَ تَنَاوُلَ الْمَوْضُوعِ الْوَاحِدِ بِطَرَائِقَ كَثِيرَةٍ دُونَ أَنْ تَفْقِدَ الْبِدَايَةُ جَاذِبِيَّتَهَا أَوْ جِدَّتَهَا، وَلَكَ أَنْ تَتَأَمَّلَ النِّقَاطَ التَّالِيَةَ دُونَ ذِكْرِ إِيضَاحٍ مِنِّي:

١) كَيْفَ تَعَامَلَ الْخَطِيبُ مَعَ الْأَرْقَامِ؟

٢) كَيْفَ قَرَّبَ الْخُرُوجَ وَصَوَّرَ الْخَطَرَ؟

٣) كَيْفَ أَعْطَى الْخُطْبَةَ حَيَوِيَّةً وَتَفَاعُلًا حَتَّى قَالَ: «جِئْتُ الْيَوْمَ خِصِّيصاً لِأَقُولَ... ».

٤) كَيْفَ فَتَحَ الْبَابَ رُغْمَ قِصَرِ الْوَقْتِ الْمُتَبَقِّي مِنْ رَمَضَانَ؟

وَمَا مِنْ أَحَدٍ لَا يَعْرِفُ السَّفِينَةَ لَكِنْ فِي تَصْوِيرِ رَمَضَانَ بِالسَّفِينَةِ الَّتِي تُوشِكُ عَلَى الْإِبْحَارِ أَثَرٌ كَبِيرٌ وَفَهْمٌ عَمِيقٌ عِنْدَ مَنْ كُنْتُ أَخْطُبُ فِيهِمْ، وَهُمْ أَهْلُ مِنْطَقَةِ (جميرا) فِي دُبَيٍّ، وَهُمْ أَهْلُ الْبَحْرِ.

أَخِي الْخَطِيبُ! لَوْ وَقَفْتَ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ فِرْقَةَ اسْتِبَانة تَسْأَلُ النَّاسَ فِي آخرِ أَيَّامِ رَمضَانَ مِنْ آخَرِ أُسْبُوعٍ فِيهِ عَنْ تَوقُّعِهِمْ عَنْ مَوْضُوعِ الْخُطْبَةِ لَمْ تَكدْ تَجِدُ مَنْ يُخَالِفُ أَنَّ مَوْضُوعَ الْخُطْبَةِ سَوْفَ يَكُونُ عَنْ خِتَامِ رَمضَانَ وَالتَّوْبَةِ وَأَحْكَامِ الْفِطْرِ وَالْمُحَافظَةِ عَلَى الْعَهْدِ مَعَ اللَّهِ! وَهُنَا يَكُونُ الْمَحكُّ: مَنِ الَّذِي يَخْطُبُ فِيهِمْ فِي نَفْسِ الْمَوْضُوعِ وكَأَنَّهُ لَيْسَ هُوَ؟ مَنِ الَّذِي سَلَبَ أَلْبَابَهُمْ مِنْ أَوَّلِ الْخُطْبَةِ إِلَى حَيْثُ يَعْرِفُونَ، وَهُمْ لَا يَمْلِكُونَ مُفَارَقَتَهُ لِسَيْرِهِمْ خَلْفَ قُلُوبِهِم الذَّاهِبَةِ مَعَ الْكَلِمَاتِ الْأُولَى حَتَّى الْأَخِيرَةِ؟

التَّطْبِيقُ السَّادِسُ: الدَّوَاءُ فِي الْحَجِّ:

«فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَيَّامِ مِنْ كُلِّ عَامٍ يَتَوَقَّفُ حَدِيثُ الْمَنَابِرِ عَلَى مَوْضُوعِ الْحَجِّ.. لَكِنَّنِي أَرَى لِهَذَا الرُّكْنِ فِي هَذَا الْعَامِ شَيْئاً آخَرَ، وَشَهَادَةً أُخْرَى، وَطَعْماً آخَرَ..

إِنَّهُ يَأْتِي لِلْأُمَّةِ هَذِهِ الْأَيَّامَ كَالدَّوَاءِ الْخَاصِّ لِلْمَرْضَى، أَوْ كَالسَّحَابِ المَسُوقِ فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ لِلْأَرْضِ الْمُتَعَطِّشَةِ، يَأْتِي لِيَقُولَ لِلنَّاسِ جَمِيعاً وَيَقُولَ لِلَّذِينَ يَئِسُوا مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَرَادُوا إِدْخَالَهَا غُرْفَةَ الْإِنْعَاشِ: تَوَقَّفُوا، فَهَا هِيَ الْأُمَّةُ الْيَوْمَ سَوْفَ تُعْلِنُ فِي أَعْلَى مَشْهَدٍ وَأَكْبَرِ مَعْشَرٍ، وَأَجْلَى مَظْهَرٍ وَأَعْلَى صَوْتٍ، وَمِنْ كُلِّ مَكَانٍ فِي الْأَرْضِ حَتَّى نُقْطَةِ ارْتِكَازِهَا: نَحْنُ الْأُمَّةُ الْأَعْلَى، نَحْنُ

الْأُمَّةُ الْأَبْقى، نَحْنُ الْغَالِبُون ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

فَمِنْ أَيْنَ فَهِمْنَا هَذا، وَكَيْفَ تَدرَّجَ هَذا الْأَمْرُ حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى هَذِهِ الْقِمَّةِ فِي هَذَا الْمَشْعَرِ الْعَظِيمِ؟ فَلْنَتَأَمَّلْ هَذَا التَّرَابُطَ وَهَذَا التَّدَرُّجَ، فَتَأَمَّلُوا» اهـ.

تَحْلِيلُ الاِسْتِهْلَالِ: هَلْ مِنْ مَرَضٍ أَخْطَرُ مِنْ مَرَضِ الْيَأْسِ وَالْإِحْبَاطِ الَّذِي أُصِيبَتْ بِهِ الْأُمَّةُ؟ تَأَمَّلْ كَيْفَ عَالَجَ الْخَطِيبُ هَذَا الْمَرَضَ مِنْ خِلَالِ الْحجِّ... بَلْ كَيْفَ جَعلَهُ الْمَنْفَذَ، وَكَأَنَّهُ الْخَارِجُ مِنْ تَحْتِ الرُّكَامِ؟

وَهُنَا أَتَسَاءَلُ: مَاذَا لَوْ ذَكَرَ الْخَطِيبُ الْعِلَاجَ دُونَ هَذَا الاسْتِهْلَالِ، أَكَانَ لَهُ قِيمَةٌ؟ أَمْ كَانَ السَّامِعُ سَوْفَ يَأْخُذُهُ كَمَا يَأْخُذُهُ الْمَرِيضُ؟!

أَخِي الْخَطِيبُ: كَمْ نَحْتَاجُ إِلَى أَنْ نُعِيدَ ثِقَةَ الْأُمَّةِ بِنَفْسِهَا، وَعَوْدَتَها مِنْ خِلَالِ النِّقَاطِ الْإِيجَابِيَّةِ الَّتِي فِيهَا وَخُصُوصاً مِنْهَا الْجَمَاعِيَّةِ؟!

دُونَكَ هَذَا الْمَيْدَانَ فَارْكُضْ، وَنَافِسْ، وَاسْبِقْ.

التَّطْبِيقُ السَّابِعُ: الشَّجَرَةُ الْخَبِيثَةُ:

«إِنَّ الْقَلْبَ لَيَتَفَطَّرُ كَمَداً وَإِشْفَاقاً عَلَى أُنَاسٍ مُسْلِمِينَ مُصَلِّينَ مُزَكِّينَ، وَرُبَّمَا مُجْتَنِبِينَ لِفِعْلِ الْكَبَائِرِ، لَكِنَّهُمْ يَتَسَاهَلُونَ فِي سَنِّ السُّنَّةِ السَّيِّئَةِ.. وَإِنْشَاءِ السَّيِّئَاتِ الْجَارِيَةِ.

لَقَدْ جَاءَنِي أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ وَرَثَةُ أَكْثَرَ مِنْ مُتَوفًّى أَوْ مُتَوفَّاةٍ يَسْأَلُونَ عَنْ أَفْضَلِ عَمَلٍ يَعْمَلُونَهُ لِأَبِيهِمْ أَوْ مُوَرِّثِهِمْ مِنَ الصَّدَقَاتِ الْجَارِيَةِ وَالْمَنَافِعِ الْبَاقِيَةِ، فَقُلْتُ لَهُمْ: إِنَّ أَفْضَلَ شَيْءٍ وَأَوَّلَ عَمَلٍ تَعْمَلُونَهُ لَهُ الْآنَ أَنْ تَقِفُوا عَنْ مُوَرِّثِكُمْ كُلَّ سَيِّئَةٍ جَارِيَةٍ أَنْشَأَهَا، كُلَّ مَبْنًى، كُلَّ شَرِكَةٍ، كُلَّ حِسَابٍ، كُلَّ مَحَلٍّ مِنْ مَحَلَّاتِ السَّيِّئَاتِ الْجَارِيَةِ الَّتِي أَنْشَأَهَا فِي حَيَاتِهِ، وَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْتَقِدُ لَوْ أَنَّهُ اسْتَطَاعَ أَنْ يُوَصِّلَ إِلَيْكُمْ رِسَالَةً لَقَالَ لَكُمْ فِيهَا: أَغْلِقُوا عَنِّي أَبْوَابَ الْعَذَابِ، لَا تُعَذِّبُونِي بِمُوَاصَلَةِ الْمَسِيرِ عَلَى طَرِيقِ الْآثَامِ وَأَنْتُمْ تَفْرَحُونَ، قِفُوهَا فَوْراً، أَغْلِقُوهَا فَوْراً» اهـ.

تَحْلِيلُ الِاسْتِهْلَالِ: هَذَا الِاسْتِهْلَالُ يُعْطِي هَذَا الْمَوْضُوعَ فِي نَفْسِ السَّامِعِ وَاقِعِيَّةً وَتَفَاعُلاً لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ لَوْ عُرِضَ بِطَرِيقَةِ تَأْصِيلِ الْمَسْأَلَةِ شَرْعاً! ثُمَّ إِنَّهُ - رُغْمَ خُطُورَتِهِ وَحَسَاسِيَّتِهِ إِذِ الْمَلَأُ هُمْ مَنْ يُبْتَلَى بِهِ عَادَةً - أَصْبَحَ مَقْبُولاً، ذَلِكَ حِينَ عَرَضَهُ مَعْرِضَ الْإِشْفَاقِ، وَكَانَ الْمَوْضُوعُ لَهُمْ وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: «إِنَّ الْقَلْبَ لَيَتَفَطَّرُ كَمَداً وَإِشْفَاقاً..» ثُمَّ تَأَمَّلْ كَيْفَ صَبَغَهُ بِصِبْغَةٍ وَاقِعِيَّةٍ حَقِيقِيَّةٍ قَدْ عُرِضَتْ

عَلَيْهِ، فَقَالَ: «عَلَى أُنَاسٍ مُسْلِمِينَ مُصَلِّينَ مُزَكِّينَ وَرُبَّمَا مُجْتَنِبِينَ لِفِعْلِ الْكَبَائِرِ..».

ثُمَّ عُرِضَ أَمْرُ الْأَحْبَابِ الرَّاحِلِينَ وَهُمْ فِي قُبُورِهِمْ عَلَى وَرَثَتِهِمْ حَيْثُ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْعَمَلِ الَّذِي يَنْفَعُهُمْ، وَبِذَا أَصْبَحَتِ النُّفُوسُ مُهَيَّأَةً تَمَاماً لِاسْتِقْبَالِ سُؤَالَيْنِ: مَا السُّنَنُ السَّيِّئَةُ؟ وَكَيْفَ أَتْرُكُهَا وَأَتَحَلَّلُ مِنْهَا الْيَوْمَ قَبْلَ ذَهَابِي؟

وَكَيْفَ أُحَلِّلُ مُوَرِّثِي الَّذِي ذَهَبَ وَتَرَكَهَا.

أَيُّهَا الْخَطِيبُ: تَسْتَطِيعُ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ أَنْ تَنْسِجَ رَوَائِعَ فِي الِاسْتِهْلَالِ مُؤَثِّرَةً مُغَيِّرَةً لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُصَلِّينَ قَبْلَ أَنْ يُغَادِرُوا الْمَسْجِدَ لِمَا فِيهِ جَمْعٌ بَيْنَ الْعَوَاطِفِ وَالْأَحْكَامِ.. فِي صُورَةٍ قَادِمَةٍ مِنَ الْآخِرَةِ وَرِسَالَةٍ يَحْمِلُهَا الْخَطِيبُ.

التَّطْبِيقُ الثَّامِنُ: فَكُّ أَسْرَارِ الْآخِرَةِ:

«سَوْفَ نَتَحَدَّثُ هَذَا الْيَوْمَ - بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى - عَنْ عَصَبٍ هَامٍّ لِفَهْمِ سِرٍّ عَظِيمٍ مِنْ أَسْرَارِ الدَّارِ الْآخِرَةِ وَحَلِّهِ وَفَكِّهِ.. إِنَّهُ نِظَامُ الْحَيَاةِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، فَكَمَا أَنَّ لِلدُّنْيَا نِظَامَهَا وَسُنَنَهَا وَقَوَانِينَهَا الَّتِي نَفْهَمُهَا الْآنَ وَنُسَلِّمُ بِهَا الْآنَ، فَإِنَّ لِلدَّارِ الْآخِرَةِ نِظَامَهَا الَّذِي يَجِبُ أَنْ نَفْهَمَهُ وَسَوْفَ نَسِيرُ عَلَيْهِ؛ شِئْنَا أَمْ أَبَيْنَا، وَيَجْرِي عَلَيْنَا وَنُسَلِّمُ بِهِ، وَمَنْ لَمْ يَفْهَمْ نِظَامَ الْحَيَاةِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ رُبَّمَا أَسَاءَ وَتَعَدَّى وَظَلَمَ!

إنَّ الَّذِي يَسْتَمِعُ إِلَى عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَنَوْعِهِ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ إِنَّ جُزْئِيَّةً وَاحِدَةً مِنْ ذَاكَ الْعَذَابِ كَافِيَةٌ لِأَنْ تَقْضِيَ عَلَى ذَلِكَ الْمُعَذَّبِ فَيَمُوتَ بَعْدَهَا وَيَسْتَرِيحَ، فَلِمَاذَا لَا يَقْتُلُهُ ذَلِكَ الْعَذَابُ الْعَظِيمُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوا رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١] فَيَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُمَا: إِنَّ تَفْسِيرَ الْمَوْتَتَيْنِ وَالْإِحْيَاءَيْنِ هُوَ مَا وَرَدَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨] وَلِذَلِكَ يَقُولُ أَهْلُ الْجَنَّةِ: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الصافات: ٥٨].

قَالَ الْحَسَنُ: «اعْلَمُوا أَنَّ كُلَّ نَعِيمٍ فَإِنَّ الْمَوْتَ يَقْطَعُهُ»(١)، هَذَا هُوَ النِّظَامُ الْأَوَّلُ، وَهُوَ أَنَّ نِظَاماً كَانَ سَارِياً فِي الدُّنْيَا أُلْغِيَ، أَلَا إِنَّه الْمَوْتُ» اهـ.

تَحْلِيلُ الِاسْتِهْلَالِ: أَحْسَبُ أَنَّكَ أَيُّهَا الْخَطِيبُ بَدَأْتَ تَقْرَأُ بِفَهْمٍ ثَاقِبٍ طَرِيقَةَ الاسْتِهْلَالِ وَمَا بَقِيَ إِلَّا أَنْ تُمَارِسَهَا. لَكِنْ أَنْ يُظَنَّ أَنَّهَا كُلَّهَا طَرِيقَةٌ وَاحِدَةٌ فَهَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ!

فَهَذِهِ الْخُطْبَةُ - كَمَا هِيَ أَغْلَبُ الْخُطَبِ الَّتِي تُعْرَضُ عَلَيْكَ - تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ بَحْثاً مُتَكَامِلاً، هُوَ أَضْعَافُ الْخُطْبَةِ الَّتِي أَمَامَكَ،

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ١٦).

وَهُوَ جَدِيدٌ نَافِعٌ فِي بَابِهِ، فَهَذِهِ الْخُطْبَة مُحَاوَلَةٌ جَادَّةٌ لِفَكِّ أَسْرَارِ الْآخِرَةِ، وَرُبَّمَا أَقُولُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ، وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ، وَسَوْفَ أُبَيِّنُ هَذَا الْأَمْرَ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - فِي تَحْلِيلِ الْخُطْبَةِ.

وَالْجَدِيدُ هُنَا أَنَّ الْخَطِيبَ دَخَلَ فِي الْمَوْضُوعِ دُونَ أَيِّ مُقَدِّمَاتٍ، وَصَرَّحَ بِهَذَا دُونَ تَوْرِيَةٍ، فَمِنَ الْجَدِيدِ أَنْ يَكُونَ اسْتِهْلَالًا وَكَأَنَّهُ لَا اسْتِهْلَالٍ، فَالدُّخُولُ الْمُبَاشِرُ فِي الْخُطْبَةِ وَالْإِعْلَانُ الْمُبَاشِرُ عَنْ مَوْضُوعِهَا كَانَ فِي أَوَّلِ الْكَلِمَاتِ، لَكِنْ إِذَا لَاحَظْتَ وَجَدْتَ أَنَّ الدُّخُولَ فِي الْمَوْضُوعِ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ زَادَ الْمَوْضُوعَ إِثَارَةً عَنْ أَيِّ مُقَدِّمَةٍ يُمْكِنُ أَنْ يَبْدَأَ بِهَا، فَمَنْ يَفْهَمُ أَسْرَارَ الدُّنْيَا حَتَّى يَفْهَمَ أَسْرَارَ الْآخِرَةِ؟!

لَكِنْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْخَطِيبُ عَلَى قَدْرِ وَعْدِهِ، وَفِيّاً بِهِ تَمَامَ الْوَفَاءِ، وَلِذَا بَاشَرَ الْخَطِيبُ فِي الدُّخُولِ عَلَى الْأَدِلَّةِ، فَذَكَرَ النِّظَامَ الْأَوَّلَ فَوْراً وَلَمْ يُنْظِرِ الْحَاضِرِينَ أَكْثَرَ، فَقَالَ: «إِنَّ الَّذِي يَسْتَمِعُ إِلَى عَذَابِ اللَّهِ..» إِلَى أَنْ قَالَ: «هَذَا هُوَ النِّظَامُ الْأَوَّلُ وَهُوَ أَنَّ نِظَاماً كَانَ سَارِياً فِي الدُّنْيَا أُلْغِيَ... أَلَا إِنَّهُ الْمَوْتُ».

التَّطْبِيقُ التَّاسِعُ: الْمَدَارِسُ وَالطُّمُوحُ:

«هَلِ الْمُشْكِلَةُ فِي التَّعْلِيمِ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ فِي فِقْدَانِ الْمَادَّةِ الْعِلْمِيَّةِ الْقَوِيَّةِ؟ أَمْ أَنَّ مُشْكِلَتَنَا هِيَ فِقْدَانُ الْعَمَلِ بِالْعِلْمِ وَاسْتِثْمَارِ الْعِلْمِ فِي

الْحَيَاةِ؟ أَمْ أَنَّ مُشْكِلَتَنَا هِيَ فِقْدَانُ الْعِلْمِ هَدَفَهُ؟ أَمْ أَنَّ مُشْكِلَتَنَا هِيَ نُدْرَةُ الْمُعَلِّمِ الْأَلْمَعِيِّ الْحَاذِقِ؟ أَمْ أَنَّ مُشْكِلَتَنَا فِي نُدْرَةِ الْمُعَلِّمِ الْقُدْوَةِ؟ أَمْ أَنَّ مُشْكِلَتَنَا تَكْمُنُ فِي تَوَلِّي رُؤُوسِ الجُهَّالِ - وَأَحْيَاناً الضُّلَّالِ - مَرَاتِبَ الْعُلَمَاءِ، فَهُمْ لَا يُرِيدُونَ فِي مَدَارِسِهِمْ وَلَا فِي مُسْتَشْفَيَاتِهِمْ، وَلَا فِي كُلِّيَّاتِهِمْ، وَلَا فِي مَرَاكِزِهِمُ الْعِلْمِيَّةِ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ؟

أَسْئِلَةٌ تَنْصَبُّ عَلَى رُؤُوسِنَا كَالْمَطَرِ بِالْحَجَرِ لَا يَمْلِكُ الْإِنْسَانُ لَهَا رَدّاً وَلَا صَدّاً، يَشْعُرُ الْغَيُورُ أَنَّهَا فَوْقَهُ وَفَوْقَ الَّذِي فَوْقَهُ» اهـ.

تَحْلِيلُ الِاسْتِهْلَالِ: لَا شَكَّ أَنَّ الِاسْتِهْلَالَ بِالْأَسْئِلَةِ لِبَيَانِ أَمْرٍ مَا هُوَ مِنْ أَسَالِيبِ الْمُصْطَفَى ﷺ، وَفِيهِ مِنْ إِثَارَةِ الْقَلْبِ وَالْمَشَاعِرِ، وَاسْتِنْفَارِ الذَّاكِرَةِ مَا فِيهِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟»(١) وَقَوْلُهُ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَراً بِبَابِ أَحَدِكُمْ»(٢).

وَهُنَا ابْتَدَأَ الْخَطِيبُ بِالْأَسْئِلَةِ عَلَى مُشْكِلَةٍ وَاقِعَةٍ مُسْتَفْحِلَةٍ مُتَجَدِّدَةٍ، تَابَعَ الْأَسْئِلَةَ حَتَّى لَكَأَنَّهَا الْمِطَارِقُ، أَوْ كَمَا وَصَفَهَا هُوَ: «تَنْصَبُّ عَلَى رُؤُوسِنَا كَالْمَطَرِ بِالْحَجَرِ»، وَإِذَا لَاحَظْتَ جَيِّداً تَجِدُ أَنَّ الْمُؤَلِّفَ عَرَضَ أَسْئِلَةً قَوِيَّةً، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مَوْضُوعٌ بِرُمَّتِهِ، لَكِنَّهُ - فِيمَا يَبْدُو - أَحَاطَ

(١) رواه مسلم في صحيحه (٢٥٨١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. رواه البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧).

بِالْمُشْكِلَةِ مِنْ كُلِّ جِهَاتِهَا وَبِكُلِّ أَعْمَاقِهَا. . وَلَمْ يَعْرِضْهَا تَوْصِيفاً خَارِجِيّاً لِمَرَضٍ عُضَالٍ، وَهَذَا يُظْهِرُ الْكَيْفِيَّةَ الَّتِي يَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يَبْحَثَ فِيهَا أَيَّ مُشْكِلَةٍ يُرِيدُ عَرْضَهَا، وَإِذَا لَاحَظْتَ وَدَقَّقْتَ فَإِنَّ الْخَطِيبَ قَالَ كُلَّ مَا يَرَاهُ مِنْ مَشَاكِلَ فِي التَّعْلِيمِ مِنْ خِلَالِ أَسْئِلَةٍ تَقْرِيرِيَّةٍ، لَا يُخَالِفُ فِيهَا السَّامِعَ، وَلَكِنَّهُ لَوْ أَرَادَ عَرْضَهَا عَلَى أَنَّهَا حَقَائِقَ لَرُبَّمَا لَمْ يَسْتَطِعْ وَلَمْ يَسْلَمْ وَلَمْ يُسْعِفْهُ الْوَقْتُ كَذَلِكَ.

وَلَكَ أَنْ تَتَسَاءَلْ بَعْدَ هَذَا الِاسْتِهْلَالِ: أَيُّ حَاضِرٍ أَوْ سَامِعٍ يُمْكِنُ أَنْ يَشْرُدُ ذِهْنُهُ بَعْدَ ذَلِكَ وَقَدْ اسْتَمَعَ إِلَى هَذِهِ الْأَسْئِلَةَ الْكُبْرَى حَوْلَ هَذِهِ الْمُشْكِلَةِ الْكُبْرَى وَلَمَّا يَعْرِفِ الْإِجَابَةَ بَعْدُ.

أَيُّهَا الْخَطِيبُ: عَلَى هَذَا الْمِنْوَالِ، مِنْوَالِ الْأَسْئِلَةِ الْحَسَّاسَةِ، بِإِمْكَانِكَ أَنْ تَسْتَنْتِجَ بَدَائِلَ اسْتِهْلَالِيَّةً تُثِيرُ وَتُؤَثِّرُ وَتَقُولُ مَا تُرِيدُهُ.

التَّطْبِيقُ الْعَاشِرُ: الْقَادِمُونَ مِنَ الدَّارِ الْآخِرَةِ:

«عِبَادَ اللَّهِ: هَلْ تُرِيدُونَ قَادِماً مِنْ عَالَمِ الْبَرْزَخِ وَالْقُبُورِ، أَمْ تُرِيدُونَ قَادِماً مِنْ أَرْضِ الْمَحْشَرِ وَالْحِسَابِ، أَمْ مُخْبِراً عَنْ قَعْرِ جَهَنَّمَ، أَمْ تُرِيدُونَ مَنْ جَاءَ بِرَسَائِلَ مِنَ الْجَنَّةِ دَارِ الْخُلْدِ؟

إِنَّ النَّفْسَ مَجْبُولَةٌ عَلَى حُبِّ الاسْتِطْلَاعِ، وَاسْتِكْشَافِ الْمَخْبُوءِ مِنَ الْأُمُورِ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ ذَلِكَ الْمَخْبُوءُ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ، عَالَمِ الْمَصِيرِ

الَّذِي نَسِيرُ إِلَيْهِ مُمْتَطِينَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ.

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا رَاكِباً ظَهْرَ عُمْرِهِ   عَلَى سَفَرٍ يُفْنِيهِ بِالْيَوْمِ وَالشَّهْرِ

يَبِيتُ وَيَضْحَى كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ   بَعِيداً عَنِ الدُّنْيَا قَرِيباً إِلَى الْقَبْرِ

إِنَّ النَّاسَ لَوْ رَأَوْا ذَلِكَ الْقَادِمَ مِنْ تِلْكَ الْعَوَالِمِ لَاجْتَمَعُوا عَلَيْهِ حَتَّى يَكُونُوا عَلَيْهِ لِبَداً، بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ؛ لِيَسْتَمِعُوا إِلَى مُشَاهَدَاتِهِ، وَيَسْتَمِعُوا إِلَى أَخْبَارِهِ وَيَقْرَءُوا رَسَائِلَهُ. الرِّسَالَةُ الْأُولَى: الْمَبْعُوثَةُ مِنْ عَالَمِ الْبَرْزَخِ» اهـ.

تَحْلِيلُ الِاسْتِهْلَالِ: كَمْ نَحْتَاجُ إِلَى زِيَادَةِ الْيَقِينِ فِي مَوْضُوعِ الْآخِرَةِ؟ وَكَمْ تَكَرَّرَ عَرْضُ مَوْضُوعِ الْبَرْزَخِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ عَرْضاً وَصْفِيّاً مُجَرَّداً حَتَّى لَكَأَنَّ الْبَعْضَ يَجْعَلُهُ رِحْلَةً سِيَاحِيَّةً ذِهْنِيَّةً مُجَرَّدَةً! هُنَا كَانَتِ الصُّورَةُ مُخْتَلِفَةً تَماماً مِنْ جِهَتَيْنِ؛ أَمَّا الْجِهَةُ الْأُولَى فَفِي مَجِيءِ شُهُودٍ وَشَوَاهِدَ عَنْ هَذَا الْعَالَمِ الْغَيْبِيِّ، وَهُوَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَفْسُهَا. وَالْجِهَةُ الثَّانِيَةُ: هُوَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ هُوَ مَا يَتَعَلَّقُ بِحَيَاةِ هَؤُلَاءِ الْأَحْيَاءِ، فَكَيْفَ سَيَكُونُ شُعُورُكَ لَوْ كُنْتَ حَاضِراً بَيْنَ هَذِهِ الْجُمُوعِ، وَرَأَيْتَ أَنَّ رِسَالَةً مِنْهَا مُوَجَّهَةٌ إِلَيْكَ؟ وَكَيْفَ سَيَكُونُ شُعُورُكَ وَأَنْتَ مُشْفِقٌ، وَرُبَّمَا تَكُونَ مَقْصُوداً مُبَاشَرَةً بِرِسَالَةٍ مِنْ تِلْكَ الرَّسَائِلِ؛ لِأَنَّهَا مَوْضُوعُكَ الشَّخْصِيُّ وَمُشْكِلَتُكَ الْآنِيَّةُ؟!

إِنَّهَا نُصُوصٌ صَحِيحَةٌ عَرَضَها النَّبِيُّ ﷺ وُضِعَتْ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ، ولَيْستْ قَضِيَّةً اجْتِهَادِيَّةً، لَكِنْ مَا هَذِهِ الرَّسَائِلُ؟ إِثَارَةُ نَفْسِكَ نَحْوَ الْجَوابِ هُوَ الْمَطْلُوبُ بِالضَّبْطِ، فَكَيْفَ بِالْحَاضِرِ لِلْخُطْبَةِ فِي الْمَسْجِدِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ.

وَسَوْفَ أَتْرُكُكَ مَعَ هَذَيْنِ التَّطْبِيقَيْنِ تُحَلِّلُهُمَا كَيْفَمَا تَشَاءُ، فَإِنَّ فِيهِمَا تَنَوُّعاً لَمْ يَمُرَّ مِنْ قَبْلُ.

التَّطْبِيقُ الْحَادِي عَشَرْ: «أزميت»:

««أزميت» وَمَا أَدْرَاكَ مَا «أزميت».. لَقَدْ أَصْبَحَتْ هَذِهِ الْمَنْطِقَةُ التُّرْكِيَّةُ اسْماً عَلَى مُسَمَّى، وَلَقَدْ كَانَ لَهَا مِنْ اسْمِهَا النَّصِيبُ الْأَوْفَرُ!

خَمْسَةُ أَحْرُفٍ، إِنْ نَظَرْتَ إِلَى أَوَّلِهَا فَهِيَ (أَزْمَةٌ) وَإِن نَظَرْتَ إِلَى آخِرِهَا فَهُوَ (مَوْتٌ)، وَهَكَذَا جَمَعَتْ هَذِهِ الْأَحْرُفُ الْمَعْنَيَيْنِ، فَمَا هِيَ إِلَّا خَمْسٌ وَأَرْبَعُونَ ثَانِيَةً حَتَّى أَصْبَحَتْ هَذِهِ الْمَنْطِقَةُ: أَزْمَةُ مَوْتٍ!

لَا نَدْرِي بِأَيِّ عَيْنٍ نَنْظُرُ إِلَيْهَا، أَنَنْظُرُ إِلَيْهَا بِعَيْنِ الْأَحْيَاءِ الَّذِينَ بَقُوْا تَحْتَ الْأَنْقَاضِ أَيَّاماً يَنْتَظِرُونَ نَجدَةَ الْأَحْيَاءِ، فَإِذَا الْأَوْلَوِيَّةُ فِي الْإِنْقَاذِ لِلْعَسَاكِرِ، وَالْأَوْلَوِيَّةُ عِنْدَ كُلِّ لَجْنَةٍ خَارِجِيَّةٍ إِلَى بَنِي قَوْمِهَا، حَتَّى إِذَا يَئِسُوا رَحَلُوا، لَا نَدْرِي أَنَنْظُرُ لَهَا بِعَيْنِ الَّذِينَ بَاتُوا تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ الْهَادِئَةِ، فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ، فَأَصْبَحَتْ

كَالصَّرِيمِ، فَإِذَا الْأَرْضُ تَبْتَلِعُ الشَّوَاهِقَ، وَإِذَا الشَّوَاهِقُ أَكْوَامٌ مَحْشُوَّةٌ بِالْبَشَرِ تَحْتَ الْأَرْضِ وَفَوْقَ الْأَرْضِ.

أَمْ نَنْظُرْ بِأَعْيُنِ الْأَحْيَاءِ الَّذِينَ غَادَرُوا بُيُوتَهُمْ فِي أَوَّلِ الْأُسْبُوعِ إِلَى خَارِجِ الْمَدِينَةِ إِلَى الْعَمَلِ وَغَيْرِ الْعَمَلِ، فَسَمِعُوا الْخَبَرَ، فَعَادُوا فَلَمْ يَجِدُوا أَهْلًا، وَلَا مَالًا، وَلَا زَوْجاً، وَلَا وَلَداً، وَلَا أَحَداً، إِنَّمَا هُوَ الرُّكَامُ، وَمِنْ تَحْتِ الرُّكَامِ تَنْبَعِثُ رَائِحَةُ الْأَحْبَابِ وَعَفَنُ الْأَهْلِ وَالْعَشِيرَةِ» اهـ.

التَّطْبِيقُ الثَّانِي عَشَرَ: سِتْرُ اللَّهِ:

«مَنْ لَمْ يُقَدِّرْ مَعْنَى سِتْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَقِيمَتَه فَلْيَسْأَلْ مَنْ كَانَ يُعَدُّ شَرِيفاً فِي قَوْمِهِ، طَاهِراً فِي خُلُقِهِ، مَسْتُوراً فِي عَوْرَتِهِ حِينَ كَشَفَ اللَّهُ حَقِيقَتَهُ وَرَفَعَ سِتْرَهُ كَيْفَ خَرَقَتْهُ سِهَامُ النَّاسِ وَأَحْرَقَتْهُ أَلْسِنَتُهُمْ، فَأَصْبَحَ طُعْمَةً لِلرَّائِحِ وَالْغَادِي.

مَنْ لَمْ يَعْرِفْ قِيمَةَ السِّتْرِ فَلْيَسْأَلْ مَنْ أَيْقَظَهُ الِاتِّصالُ الْهَاتِفِيُّ مِنْ أَعْمَاقِ نَوْمِهِ اللَّيْلِيِّ أَنْ تعالَ عَلَى الْفَوْرِ إِلَى مَرْكَزِ الشُّرْطَةِ، فَقَدْ قُبِضَ عَلَى وَلَدِك، وَيَذْهَبُ هُنَاكَ فَيَرَى مَا يَوَدُّ مَنْ لَوْ أَنَّ الْأَرْضَ انْشَقَّتْ فَابْتَلَعَتْهُ وَنُسِيَ حَتَّى لَا يَعِيشَ وَيَسْمَعَ مَا يَقُولُ النَّاسُ.

مَنْ لَمْ يَعْرِفْ قِيمَةَ السِّتْرِ فَلْيَسْأَلْ مَنْ زَوَّرَ أَوْ سَرَقَ أَوْ اخْتَلَسَ وَلَا

يَزَالُ اللَّهُ تَعَالَى يَسْتُرُهُ وَهُوَ يَغْتَرُّ، يَسْتُرُهُ وَهُوَ يَزْدَادُ، يَسْتُرُهُ وَهُوَ يَعْلُو، فَكَشَفَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ سِتْرَهُ، فَأَصْبَحَتْ صِفَةُ السَّارِقِ هِيَ الصِّفَةَ الْمُلَاصِقَةَ لَهُ وَلِوَلَدِهِ مِنْ بَعْدِهِ؟

مَنْ لَمْ يَعْرِفْ قِيمَةَ السِّتْرِ فَلْيَسْأَلْ أَباً أَوْ أُمّاً أَوْ أُسْرَةً قَدْ كَانَتْ مُصِيبَتَهُمْ فِي ابْنَتِهِمْ عِرْضاً مُهَتَّكاً، وَحَمْلًا ظَاهِراً، وَعِرْضاً مَنْشُوراً، اللَّهُمَّ اسْتُرْنَا وَاجْبُرْنَا، وَهُنَا أَتْرُكُ تَحْلِيلَ هَذَا الِاسْتِهْلَالِ لِلْقَارِئِ الْمُكَرَّمِ» اهـ.

* * * * *

المبحث الرابع
التَّجْدِيدُ فِي مَوْضُوعِ الْخُطْبَةِ

أَرَأَيْتَ كُلَّ مَا مَرَّ مَعَنَا مِنْ ذِكْرِ الْجَدِيدِ فِي الْعُنْوَانِ، وَالْجَدِيدِ فِي الافْتِتَاحِ، وَالْجَدِيدِ فِي الاسْتِهْلَالِ، فَمَا ذَلِكَ كُلُّهُ إِلَّا تَهْيِئَةٌ لِبُلُوغِ الْغَايَةِ، وَمَا هُوَ إِلَّا التَّدَرُّجُ لِبُلُوغِ هَذَا اللُّبِّ الَّذِي هُوَ «الْمَوْضُوعُ» ذَاتُهُ.

فَمَنْ قَدَّمَ الْجَدِيدَ فِي كُلِّ مَا مَرَّ وَلَمْ يُقَدِّمْ جَدِيداً فِي مَوْضُوعِهِ يَكُونُ كَمَنْ خَرَجَ لِرِحْلَةِ صَيدٍ، فَأَخَذَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَزَوْرَقَهُ وَكُلَّ شَيْءٍ، وَحِينَ أَصْبَحَ فِي وَسَطِ البَحْرِ اكْتَشَفَ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِشِبَاكِ الصَّيْدِ وَلَا أَدَوَاتِهِ! أَوْ أَنَّهُ أَتَى بِشِبَاكٍ قَدِيمَةٍ بَالِيَةٍ بَدَلَ الشِّبَاكِ الْمُعَدَّةِ.

ثُمَّ لِيَحْذَرِ الْخَطِيبُ أَنْ يَكُونَ «الْمَوْضُوعُ» أَقَلَّ جَدِيداً مِنِ اسْتِهْلَالِهِ، فَإِنَّ النُّفُوسَ تُسْتَنْفَرُ بِقَدْرِ قِرَاءَتِهَا لِمَطْلَعِ الْقَادِمِ لَهَا، فَإِذَا اسْتَنْفَرَ الذِّهْنُ كَثِيراً عِنْدَ الْمَطْلَعِ ثُمَّ تَبَيَّنَ أَنَّ الْأَمْرَ أَقَلُّ أُصِيبَ بِالْفُتُورِ، وَرُبَّمَا بِعَدَمِ الثِّقَةِ النَّفْسِيَّةِ، فَأَثَّرَ ذَلِكَ سَلْباً فِي اسْتِهْلَالَاتِكَ الْقَادِمَةِ أَيُّهَا الْخَطِيبُ، وَلَمْ يَعْبَأْ بَعْدَهَا السَّامِعُ لِاسْتِهْلَالِ هَذَا الْخَطِيبِ وَلَا لِمَوْضُوعِهِ، وَصَنَّفَ السَّامِعُ خَطِيبَهُ بِتَصْنِيفِ «الْمُهَوِّل»، وَهَذِهِ تُهْمَةٌ ضِدَّ الْوَاقِعِيَّةِ، وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ ضِدَّ الْمِصْدَاقِيَّةِ!

وَهَذَا الْأَمْرُ وَاسِعٌ جِدّاً وَهُوَ عِنْدَ التَّطْبِيقِ أَوْسَعُ مِنْ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ، لَكِنَّنِي سَوْفَ أَكْتَفِي بِذِكْرِ نِقَاطٍ مُهِمَّةٍ تَتَعَلَّقُ بِرَصَانَةِ الْخُطْبَةِ وَتَجْدِيدِهَا.

ثُمَّ أَذْكُرُ خُطْبَةً وَاحِدَةً فَقَطْ تَحَاشِياً لِلتَّطْوِيلِ كَأُنْمُوذَجٍ فِي مُلْحَقِ الكِتَابِ.

الْأَوَّلُ: بَعْثُ الْحَيَاةِ فِي الْمَوْضُوعِ: هَذَا مَا لَا أَمْلِكُ أَنْ أَصْطَادَهُ بِقَلَمِي لِأُظْهِرَهُ لِلْقَارِئِ، لَكِنَّنِي - وَاللَّهِ - أَجِدُهُ فَارِقاً هَائِلًا مَا بَيْنَ خُطْبَةٍ وَخُطْبَةٍ، وَكِلَاهُمَا أَنَا أُلْقِيهَا.. وَحِينَ أَرْجِعُ إِلَى السَّبَبِ وَأُهْدَى إِلَى السِّرِّ أَجِدُهُ الرُّوحَ فِي هَذِهِ، وَانْعِدَامَهَا أَوْ ضَعْفَهَا فِي تِلْكَ عَلَى الرُّغْمِ مِنْ تَكَامُلِ الْخُطْبَتَيْنِ بَحْثِيّاً وَعِلْمِيّاً.

إِنَّ رَحِمَ مَوْضُوعِ الْخُطْبَةِ هُوَ قَلْبُ الْخَطِيبِ الْمَلِيءُ بِالْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ الَّذِي يَمُورُ بِالهِمَّةِ مَوْراً، الْمُتَفَجِّرُ بِحُبِّ قَوْمِهِ وَأُمَّتِهِ، البَصِيرُ بَالوَاقِعِ وَمَآلَاتِهِ، الْمُتَطَلِّعُ إِلَى الْإِحْيَاءِ فِي كُلِّ مَيَادِينِ الْحَيَاةِ وَفْقَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ..

لَا أَقُولُ هَذَا اسْتِهْلَالًا وَلَا اسْتِطْرَاداً.. بَلْ هَذَا هُوَ لُبُّ التَّجْدِيدِ، وَبِغَيْرِ هَذَا الْقَلْبِ وَهَذَا الْقَدْرِ لَنْ تَنْضَحَ خُطْبَةٌ بِإِحْيَاءٍ وَلَا حَيَاةٍ... اللَّهُمَّ إِلَّا مَا فِي الْخُطْبَةِ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ إِنْ فَقِهَ ذَلِكَ الْحَاضِرُونَ.

أَخِي الْخَطِيبُ: إِذَا أَتْمَمْتَ إِعْدَادَكَ لِلْخُطْبَةِ مَهْمَا كَانَتْ مُتَكَامِلَةً

بَحْثِيًّا فقِفْ بَعْدَهَا وَتَسَاءَلْ: أَيْنَ بَذْرُ الْحَيَاةِ فِيهَا...؟ أَيْنَ الرُّوحُ الَّتِي تُحَرِّكُهَا..؟ أَيْنَ الرُّوحُ الَّتِي سَوْفَ تُحَرِّكُ أَرْوَاحَ مَنْ يَسْتَمِعُهَا؟ فَإِنْ لَمْ تَجِدْهَا فَارْجِعْ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ ثَانِيَةً وَثَالِثَةً، وَأَلِحَّ عَلَيْهِ بِالدُّعَاءِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ هُوَ الْحَيُّ، وَهُوَ الْمُحْيِي، وَهُوَ الْقَائِلُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

هَذِهِ الرُّوحُ عَادَةً مَا تُنْفَخُ فِي الْخُطْبَةِ عِنْدَ أَوَّلِ وِلَادَتِهَا، وَذَلِكَ مِنْ رُوحِكَ الَّتِي عَانَتْ مَا عَانَتْ حَتَّى أَخْرَجَتْ هَذِهِ الْخُطْبَةَ... هَذَا الْعَنَاءُ يَكُونُ مِنْ غَيْرَةٍ عَلَى الْعَقِيدَةِ إِذَا انْتُهِكَتْ مَثَلًا، أَوِ التَّوْحِيدِ الَّذِي خَالَطَهُ الشِّرْكُ، أَوِ الشِّرْكِ فِي التَّشْرِيعِ، وَمِنْ غَيْرَةٍ عَلَى الْأَعْرَاضِ مَثَلًا وَيَكُونُ مِنْ غَيْرَةٍ عَلَى السُّنَّةِ الَّتِي تُهْجَرُ.

وَتَكُونُ هَذِهِ الرُّوحُ مِنْ تَطَلُّعَاتِ الْخَطِيبِ الْعَظِيمَةِ لِإِمَامَةِ الدِّينِ فِي أَيِّ مَيْدَانٍ مِنَ الْمَيَادِينِ السَّالِمَةِ مِنْ حُظُوظِ النَّفْسِ.

أَيُّهَا الْخَطِيبُ: إِنَّكَ لَا تُلْقِي عَلَى النَّاسِ تَعْلِيمَاتٍ، وَلَا تَقْرَأُ عَلَيْهِمْ «فَرَمَانَاتٍ»، وَلَا عَلَاقَةَ لَكَ بِهَذَا الْجَمْعِ الْمُتَنَاثِرِ بَعْدَ الْجُمُعَةِ وَقَبْلَهَا إِلَّا بِقَدْرِ مَا تَرْبِطُ بَيْنَ قَلْبِكَ مَعَ قُلُوبِهِمْ حِبَالَ الرُّوحِ الْوَاثِقَةَ.

إِنَّ خُطْبَتَكَ مِنْ عَلَى مِنْبَرِكَ بِغَيْرِ رُوحٍ كَمِنْبَرِكَ بِغَيْرِكَ.

أَيُّهَا الْخَطِيبُ: حِينَ تَكْثُرُ عِنْدَكَ الْخُطَبُ فِي دَفْتَرِ الْإِعْدَادِ، وَقَدْ وَضَعْتَ فِي كُلِّ خُطْبَةٍ عِلْمَك وَبَحْثَكَ، وَسَقَيْتَهَا مِنْ رُوحِك، يُمْكِنُكَ عِنْدَهَا أَنْ تَخْتَارَ لِجُمُعَتِك الْقَادِمَةِ الْأَنْسَبَ وَاقِعِيّاً، ثُمَّ تَزِيدَهَا مِنْ غَيْثِ رُوحِك مَهْمَا كَانَ إِعْدَادُ خُطْبَتِك مُتْقَناً، فَبَعْدَ مَا تَنْتَهِي مِنْهَا مَكْتُوبَةً مُتَّصِلَةً ارْجِعْ إِلَيْهَا وَتَسَاءَلْ: أَيْنَ رُوحُ الصِّدْقِ؟ أَيْنَ زِينَةُ الْإِيمَانِ كَي نَكُونَ هُدَاةً مُهْتَدِينَ؟!

الثَّانِي: الْجَدِيدُ فِي تَنَاوُلِ الدَّلِيلِ:

أَيُّهَا الْخَطِيبُ: مَا رَأَيْتُ شَيْئاً يَبْعَثُ الْحَيَاةَ فِي كَلَامِ الْخُطَبَاءِ مِثْلَ كَلَامِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَأَكْثِرْ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الْاسْتِشْهَادِ بِالْقُرْآنِ.. حَتَّى لَكَأَنَّ خُطْبَتَك تَنْبَثِقُ نُوراً مُفَاجِئاً مِنْ ثَنَايَا الْكَلَامِ، يَتَفَجَّرُ أَنْوَاراً مِرَاراً وَتَكْرَاراً مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانٍ، فَكُلَّمَا كَانَ حِفْظُكَ لِلْقُرْآنِ أَوْ لِلْآيَاتِ الَّتِي تَسْتَشْهِدُ بِهَا مُتقناً وَكَانَ عَرْضُك لَهَا سَلْسَلًا كَانَتْ مُحْيِيَةً لِكَلَامِك وَلِسَامِعِيك، رَافِعَةً لِشَأْنِ خُطْبَتِك بِإِذْنِ اللَّهِ.

هُنَا يَأْتِي مَا تَقُولُهُ قَبْلَ الدَّلِيلِ مُقَدِّماً، وَمَا تَقُولُهُ بَعْدَهُ مُعَقِّباً، فَكَمْ وَكَمْ وَجَدْتُ مِنَ الْخُطَبَاءِ مَنْ يَقْتُلُ تَفَكُّرَ النَّاسِ بِالدَّلِيلِ الْعَظِيمِ حِينَ يُطِيلُ التَّقْدِمَةَ قَبْلَ ذِكْرِ دَلِيلِهِ، وَيُعِيدُ وَيَزِيدُ، وَرُبَّمَا يَكُونُ الْحَاضِرُونَ قَدْ عَرَفُوهُ، وَرُبَّمَا يَكُونُ وَجْهُ الدِّلَالَةِ غَيْرَ دَقِيقٍ عَلَى الْمَوْضُوعِ.

وَلَا يَزَالُ هَكَذَا حَتَّى إِذَا ذُكِرَ الدَّلِيلُ قَالَتِ النُّفُوسُ: هَلِ الاسْتِدْلَالُ

فَاتِرٌ؟ أَمِ الْخَطِيبُ فَارِغٌ حَائِرٌ؟! قَدْ أَفْسَدَ عُنْصُرَ الْمُفَاجَأَةِ لِلْعَقْلِ وَلِلْقَلْبِ، فَاسْتَقْبَلَ الدَّلِيلَ بِبُرُودٍ!

وَهَكَذَا يَقْتُلُ الْبَعْضُ الْقِصَّةَ الْعَجِيبَةَ بِالْمُقَدِّمَاتِ الطَّوِيلَةِ الْعَرِيضَةِ.

وِمِنَ الْخُطَبَاءِ مَنْ إِذَا ذَكَرَ الدَّلِيلَ يَبْدَأُ يُكَرِّرُ الِاسْتِنْتَاجَاتِ مِنْ بَعْدِ دَلِيلِهِ، وَمَا هُوَ إِلَّا اسْتِنْتَاجٌ وَاحِدٌ، قَدْ نَفَخَ فِيهِ حَتَّى غَدَا كَبِيراً فِي حَجْمِهِ، صَغِيراً فِي لُبِّهِ، وَالْحَاضِرُونَ - وَيَا لَلْحَاضِرِينَ - قَدْ عَافَتْ نُفُوسُهُمْ تَكْرَارَ الِاسْتِنْتَاجِ لِمَا فِيهِ مِنْ طُولٍ وَتَكْرَارٍ كَمَا تَعَافُ النُّفُوسُ مَنْظَرَ الطَّعَامِ عِنْدَ التُّخمَةِ والِاجْتِرَارِ، وَهَذَا الْخَطِيبُ وَذَاكَ إِنَّمَا يَكْشِفُ فِي غَالِبِ الْأَحْيَانِ بِخَفَاءٍ ضَحَالَةَ بَحْرِهِ، وَقِلَّةَ زَادِهِ، وَيَكْشِفُ أَحْيَاناً تَعْظِيمَهُ اسْتِنْتَاجَهُ، وَطَلَبَ مَدْحِهِ، وَقِلَّةَ إِخْلَاصِهِ!

فَمَا أَحْسَنَ الْخَطِيبَ الَّذِي يَرْتَشِفُ الدَّلِيلَ ارْتِشَافَ النَّحْلَةِ لِلرَّحِيقِ سَرِيعاً لِيَتْرُكَ الْعَسَلَ عِنْدَ النَّاسِ طَوِيلاً، يَتَذَوَّقُونَ، وَيَتَدَاوَوْنَ، وَيَأْكُلُونَ، وَيَدَّخِرُونَ. مَا أَحْسَنَ الْخَطِيبَ الَّذِي إِذَا ذُكِرَ الدَّلِيلُ وَأَرَادَ التَّفْصِيلَ اسْتَخْرَجَ مِنْهُ مِنَ الْحَقِّ مَا لَا يَخْطُرُ عَلَى بَالِ الْحَاضِرِينَ، وَكَانَ كُلَّمَا ذَكَرَ اسْتِنْتَاجاً شَهِقَتِ الْقُلُوبُ، وَقَالَتْ: زِدْنَا زَادَكَ اللَّهُ، لَيْتَكَ لَا تَتَوَقَّفُ.

ذَلِكَ أَنَّ النُّفُوسَ مَجْبُولَةٌ عَلَى عِشْقِ الْجَدِيدِ الْجَمِيلِ النَّافِعِ، إِنَّ الْخَطِيبَ الْخِرِّيتَ يَقْرَأُ التَّفَاعُلَ مَعَ كَلِمَاتِهِ مِنْ هَيْئَةِ جُلُوسِ

الْحَاضِرِينَ، وَوَضْعِيَّةِ رُؤُوسِهِمْ، وَنَظَرَاتِ وُجُوهِهِمْ، وَتَفَتُّحِ عُيُونِهِمْ وَأَفْوَاهِهِمْ، وَتَسَمُّرِهِمْ أَوْ حَرَكَتِهِمْ.

رَاقِبْ جَيِّداً أَيُّهَا الْخَطِيبُ حُضُورَكَ، وَسَوْفَ تَرَى الْمُؤَشِّرَ الصَّادِقَ فِي هَذَا الْمَيْدَانِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ، سَوْفَ تَجِدُ أَنَّكَ مَا إِنْ تَبْدَأُ بِالتَّكْرَارِ حَتَّى تَبْتَدِئَ الوُجُوهُ عَنْكَ بِالازْوِرَارِ، وَمَا إِنْ تَعُودَ لِلْجَدِيدِ حَتَّى تُشَدَّ الْوُجُوهُ إِلَيْكَ مِنْ جَدِيدٍ، فَاحْذَرْ أَشَدَّ الْحَذَرِ مِنْ تَكْرَارِ الاجْتِرَارِ، وَاحْرِصْ أَشَدَّ الْحِرْصِ عَلَى الْجَدِيدِ فِي كُلِّ شَيْءٍ فِي تَعْبِيرِ الْعِبَارَةِ، وَفِي نَبْرَةِ الْعِبَارَةِ، وَفِي تَدَرُّجِ الْفِكْرَةِ، فَضْلًا عَنِ الْجَدِيدِ فِي الدَّلِيلِ، وَالْجَدِيدِ فِي وَجْهِ الدِّلَالَةِ.

نَعَمْ، إِنَّ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ هُمَا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، لَكِنْ رُبَّ خَطِيبٍ نَاقِلٍ كَنَقْلِ الْبُوقِ لِلصَّوْتِ، وَرُبَّ مُؤَصِّلٍ يَسْبِقُ تَجَدُّدُهُ سُرْعَةَ الصَّوْتِ.

الْبَعْضُ يَنْفِرُ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ؛ لِأَنَّ التَّجْدِيدَ فِي الْأَدِلَّةِ يُسَاوِي عِنْدَهُ الْخُرُوجَ عَنْ أَدِلَّةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ! وَهَذَا لِغَرَابَةِ التَّجْدِيدِ عَلَى بَعْضِ الْعُقُولِ وَالْهِمَمِ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ نَظُنَّ هَذَا الظَّنَّ بِمُسْلِمٍ مِنْ عَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ، فَنَحْنُ وَغَيْرُنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَا مَرْجِعَ لَنَا إِلَّا كِتَابُ اللَّهِ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ ﷺ، وَكُلُّ الْأُصُولِ الْأُخْرَى مَرْجِعُهَا إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾.

لَكِنَّ السِّبَاقَ هُوَ كَيْفَ نَجْعَلُ النَّاسَ يُطِيعُونَ اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﷺ؟ كَيْفَ

نُقَرِّبُ لَهُمُ الْأَمْرَ؟ كَيْفَ نُرَغِّبُهُمْ؟ كَيْفَ نَأْخُذُ بِأَيْدِيهِمْ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؟ كَيْفَ نَعْرِضُهُمَا عَلَيْهِمْ؟ كَيْفَ؟ وَكَيْفَ؟ هَذِهِ الْكَيْفِيَّةُ هِيَ مَيْدَانُنَا.

هَذَا هُوَ مَيْدَانُ السِّبَاقِ بَيْنَ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَخُطَبَائِهِمْ.

إِنَّ الْأَدِلَّةَ الشَّرْعِيَّةَ كَالْمَادَّةِ الْخَامِ بِالنِّسْبَةِ لِأَهْلِ الصِّنَاعَةِ وَأَهْلِ الْمَنَاجِمِ بَلْ هِيَ مَادَّةُ الْحَيَاةِ، وَبِغَيْرِهَا فَكَلَامُنَا رَمِيمٌ وَهَشِيمٌ؟

وهَذَا مَا نُسَمِّيهِ بِتَأْصِيلِ الْخُطْبَةِ: يُزَيِّنُ الْبَعْضُ لِنَفْسِهِ حُسْنَ مَنْطِقِهِ، فَيَفِيضُ هَذَا إِعْجَاباً مِنْهُ بِنَفْسِهِ إِلَى أَنْ يَجْعَلَ الْخُطْبَةَ كُلَّهَا كَلَامَهُ وَعِبَارَاتِهِ وَتَحْلِيلَاتِهِ الشَّرْعِيَّةَ، وَيَتِيهُ آخَرُونَ بِمَحْفُوظَاتِهِمْ وَمَخْزُونَاتِهِمُ الْأَدَبِيَّةِ، فَيَظَلُّ يَسْرُدُ النُّصُوصَ، وَيُطَعِّمُهَا بِالْأَدَبِ وَالشِّعْرِ، وَيَزِيدُ مَدْحَ الْمَادِحِينَ الْعَاشِقِينَ لِلُّغَةِ وَالْإِمْتَاعِ دُونَ الْإِحْيَاءِ وَالتَّغْيِيرِ، بَيْنَمَا كَانَ مَنْ أُوتِيَ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ﷺ يَقْرَأُ السُّورَةَ كَامِلَةً عَلَى الْمِنْبَرِ كَسُورَةِ ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١] يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي خُطْبَتِهِ، وَهُوَ صَاحِبُ الْخُطْبَةِ الْقَصِيرَةِ، وَالْكَلِمَاتِ الْمُوجَزَةِ الْمُنِيرَةِ.

لِذَا لَزِمَ كُلَّ خَطِيبٍ أَنْ يَنْظُرَ فِي تَأْصِيلِ خُطْبَتِهِ أَوَّلًا، وَتَأْصِيلُ الْخُطْبَةِ يَعْنِي أَدِلَّةَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ عَلَى مَوْضُوعِ الْخُطْبَةِ، فَلَابُدَّ أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الْأَدِلَّةُ وَاضِحَةَ الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَوْضُوعِ، وَأَرَى أَنْ تَكُونَ كَثِيرَةً وَفِيرَةً، فَقُوَّةُ الْخُطْبَةِ فِي الْأَسَاسِ لِقُوَّةِ مَرْجِعِيَّتِهَا، فَأَنْتَ أَيُّهَا الْخَطِيبُ لَسْتَ مَرْجِعاً بِذَاتِكَ مَهْمَا كَانَتْ مَنْزِلَتُكَ، فَأَيُّ بَشَرٍ يَجْرُؤُ

أَنْ يَجْعَلَ نَفْسَهُ بِجِوَارِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَضْلًا أَنْ يَذْكُرَ قَوْلَهُ وَحْدَهُ، وَيُهْمِلَ طَوَالَ خُطْبَةِ الْجُمُعَةِ قَوْلَ اللَّهِ وَقَوْلَ رَسُولِهِ ﷺ؟!

وَإِنَّكَ لَتَحْضُرُ الْخُطْبَةَ عِنْدَ الْبَعْضِ، فَتَجْلِسُ مُسْتَرْجِعاً بَعْدَ الْخُطْبَةِ أَذَكَرَ هَذَا الْخَطِيبُ آيَةً وَاحِدَةً أَمْ لَمْ يَذْكُرْ، كَرُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الْخُطْبَةِ كَمَا هُوَ عِنْدَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ.

وَخُطْبَةٌ تَكَادُ تَخْلُو مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ مَا هِيَ إِلَّا كَعُودِ زرْعٍ جَافٍّ يَخْلُو مِنَ الْمَاءِ. وَيَخْلُو مِنَ الْحَيَاةِ، فَمَا أَحْسَنَهُ! وَلَكِنْ لِلْحَرْقِ!! فَمَا أَحْسَنَ الْخَطِيبَ الَّذِي أُوتِيَ مَقْدِرَةً عَلَى أَنْ يَعْقِدَ عِقْداً دُرَرُهُ آيَاتُ اللَّهِ تَتْرَى، لَا يَفْصِلُ بَيْنَهَا إِلَّا بَيَانُ مَعَانٍ يَجْلُو بَصَائِرَ الْحَاضِرِينَ لِتَرَى نُورَهَا أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ، أَوْ تَطْبِيقُ عَمَلٍ يُظْهِرُ هَيْمَنَةَ الْقُرْآنِ أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ، وَهَكَذَا وَهَكَذَا، فَلَكَأَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ مَنْ يُبَاشِرُ الْخُطْبَةَ، فَتَعْلُو عِنْدَهَا مَهَابَةٌ عَلَى الْحُضُورِ، وَسَكِينَةٌ عَلَى الْقُلُوبِ، وَاتِّبَاعاً دُونَ شُعُورٍ...

وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الْخُطَبِ أَصْبَحَ نَادِراً فِي هَذَا الزَّمَانِ، لَكِنْ حَذَارِ مِنَ الْاسْتِعْرَاضِ بِالْقُرْآنِ، أَوْ مُحَاوَلَةِ تَسْخِيرِ الْقُرْآنِ لِتَرَفِ الِاسْتِعْرَاضِ وَاسْتِعْرَاضِ التَّرَفِ، وَإِظْهَارِ الْمَلَكَاتِ الشَّخْصِيَّةِ عَلَى حِسَابِ الْقُرْآنِ، وَلْيَتَذَكَّرِ الْخَطِيبُ أَنَّهُ إِنَّمَا يُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَ الْعِبَادَ يَتَلَقَّوْنَ مُبَاشَرَةً مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَيُخْرِجَ نَفْسَهُ بِصِفَتِهِ وَسِيطاً.

أَرَادَ أَنْ يُلْقِيَ النُّورَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ وَيَرْبِطَ الْعِبَادَ بِالْقُرْآنِ رَبْطاً وَثِيقاً.

أَرَادَ أَنْ يُحَقِّقَ غَايَتَهُ بِأَقْصَرِ طَرِيقٍ وَأَعْظَمِ كَلَامٍ.

يَا أَيُّهَا الْخَطِيبُ: كَمَا تَنَبَّهْتَ لِتَنَاوُلِ الْقُرْآنِ فَلْتَتَنَبَّهْ لِتَنَاوُلِ السُّنَّةِ، فَالسُّنَّةَ السُّنَّةَ، فَإِنَّكَ لَوْ نَظَرْتَ فِي وُجُوهِ الْحَاضِرِينَ لَرَأَيْتَهُمْ يَنْتَبِهُونَ كَالْمُتَفَاجِئِينَ حِينَ تَبْتَدِئُ تَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْوَهَا، إِنَّهَا تُعْطِي طَابِعَ التَّجْدِيدِ لِلْخُطْبَةِ، إِنَّهَا تَبُثُّ رُوحاً جَدِيدَةً وَحَيَاةً جَدِيدَةً عَلَى الْخُطْبَةِ، وَذَلِكَ لِأَسْبَابٍ، مِنْهَا: الْمُشَارَكَةُ التَّفَاعُلِيَّةُ بِقَوْلِ النَّاسِ: «صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ»، وَمِنْهَا: إِيقَاظُ الْقَلْبِ بِمُوقِظِ الْمَحَبَّةِ الَّذِي يَرْبِطُ هَذِهِ الْقُلُوبَ الْحَاضِرَةَ بِأَحَبِّ إِنْسَانٍ لَهَا، وَمِنْهَا: مَا كَتَبَ اللَّهُ لِنَبِيِّهَا ﷺ فِيهَا لَهُ مِنَ الْمَهَابَةِ وَالتَّعْظِيمِ، وَمِنْهَا: التَّطَلُّعُ إِلَى عِلْمٍ جَدِيدٍ فِي هَذَا الْمَرْوِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فَإِنَّ الْجَدِيدَ ذَاتِيٌّ فِي السُّنَّةِ، لَكِنَّ الَّذِي يُظْهِرُ هَذَا الْجَدِيدَ مِنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ هُوَ الْخَطِيبُ نَفْسُهُ، فَإِذَا كَانَ الْخَطِيبُ لَا يَفْتَأُ مُكَرِّراً مَجْمُوعَةً مُحَدَّدَةً فِي كُلِّ مُنَاسَبَةٍ مِنَ الْأَحَادِيثِ حَتَّى مَلَّ النَّاسُ تَكْرَارَهَا بِسَبَبِهِ، وَعَرَفُوهَا مُقَدَّماً قَبْلَ أَنْ يَذْكُرَهَا، وَإِذَا كَانَ الْخَطِيبُ لَا يَسْتَخْرِجُ الْكُنُوزَ الْجَدِيدَةَ مِنْ مَعَانِي الْحَدِيثِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي يَذْكُرُهَا، وَإِذَا كَانَ الْخَطِيبُ لَا يُحْسِنُ تَنْزِيلَ الْحَدِيثِ عَلَى الْوَاقِعِ، وَلَا يُحْسِنُ سِيَاقَهُ لِيُؤَدِّيَ مَا يُرِيدُ، فَكَيْفَ يُعَاتَبُ الْمُسْتَمِعُ لِلْخُطْبَةِ إِنْ مَلَّهَا؟!

إِنَّ السُّنَّةَ أَمَانَةٌ، وَمِنْ حُسْنِ أَدَاءِ الْأَمَانَةِ أَنْ يُحْسِنَ عَرْضَهَا فِي مَيْدَانِ الْعَرْضِ، وَهَلْ مِنْ مَيْدَانٍ لِعَرْضِ سُنَّةِ الْمُصْطَفَى ﷺ مِثْلُ الْجُمُعَةِ؟!

وَالْبَعْضُ يُسِيءُ تَحَمُّلَ هَذِهِ الْأَمَانَةِ حِينَ يُحَاوِلُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْغَرَائِبِ الْمَرْوِيَّةِ عَنْ رُسُولِ اللَّهِ ﷺ غَيْرَ مُتَحَقِّقٍ مِنْ صِحَّةِ نِسْبَتِهَا لَهُ ﷺ، أَوْ غَيْرَ مُتَحَقِّقٍ مِنْ تَفْسِيرِ أَهْلِ الْحَدِيثِ فِي كُتُبِهِمْ لِمَعْنَى الْحَدِيثِ.

وَكَمْ يُكَرِّرُ الْخُطَبَاءُ مَوْرُوثَاتٍ أَخَذُوهَا سَمَاعاً عَمَّنْ سَلَفَ، فَتَلَقَّتْهَا عَنْهُمُ الْجُمُوعُ مُسْتَسْلِمِينَ غَيْرَ مُسْتَفْهِمِينَ؛ لِذَا لَزِمَ الْخَطِيبَ أَنْ لَا يَرْوِيَ شَيْئاً إِلَّا مُتَحَقِّقاً مِنْ صِحَّتِهِ، وَلَا يُبَيِّنَ شَيْئاً مِنَ السُّنَّةِ إِلَّا بَعْدَ الرُّجُوعِ لِلشُّرُوحِ الْمُعْتَمَدَةِ.

الثَّالِثُ: التَّنْوِيعُ... التَّنْوِيعُ:

أَيُّهَا الْخَطِيبُ: إِنَّ التَّنْوِيعَ فِي التَّنَاوُلِ يَفْتُقُ جَوَانِبَ الْقَبُولِ فِي النُّفُوسِ تَفْتِيقاً، طَبِيعَةٌ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ يَهُولُهُ الْأَمْرُ الْجَدِيدُ، كَمَا أَنَّ مِنْ طَبِيعَتِهِ أَنْ تَأْخُذَ نَفْسُهُ أُهْبَتَهَا لِلشَّيْءِ إِذَا عَرَفَتْهُ قَبْلَ أَنْ تَرَاهُ أَوْ تَسْمَعُهُ، فَإِذَا مَا جَاءَ اسْتَقْبَلَتْهُ اسْتِقْبَالَ الْقَادِمِ الَّذِي تَأَهَّبَتْ لَهُ النَّفْسُ، فَقَدْ سَبَقَ خَبَرُهُ قُدومَهِ، وَأَبْرَدَ هَذَا العِلْمُ مُفَاجَأَةَ اسْتِقْبَالِهِ.

هَكَذَا مَنْ أَخْبَرَ سَامِعِيهِ بِمَوْضُوعِ جُمُعَتِهِ الْقَادِمَةِ، وَهَكَذَا مَنْ

أَخْبَرَهُمْ بِأَنَّ خُطَبَهُ مُتَسَلْسِلَةً فِي مَوْضُوعِ السِّيرَةِ أَوِ الْآخِرَةِ أَوِ التَّفْسِيرِ أَوْ مَا إِلَى ذَلِكَ، وَبِهَذَا خَسِرَ رَوْعَةَ اسْتِهْلَالِهِ مَهْمَا كَانَ رَائِعاً، هَذَا بِالْإِضَافَةِ إِلَى أَنَّ الْجُمُعَةَ حَقٌّ مُشْتَرَكٌ لِلنَّاسِ جَمِيعاً مَنْ أَرَادَ أَنْ يَحْضُرَ مَوْضُوعَكَ وَمَنْ لَمْ يُرِدْ، فَلَا يَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يَسْتَغِلَّ حُكْمَ اللَّهِ بِوُجُوبِ الْجُمُعَةِ عَلَى أُنَاسٍ لَوْ تَرَكَ لَهُمُ الْخِيَارَ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ مَا حَضَرُوا، فَيَكُونُ الْحَاضِرُ وَاحِداً مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِمَّا رَاغِبٌ، وَإِمَّا كَارِهٌ، وَإِمَّا حَاضِرٌ فَاتِرٌ، قَدْ عَرَفَ الْمَوْضُوعَ، فَبَرَدَتْ حَاسَّةُ التَّلَقِّي عِنْدَهُ، وَذَهَبَتْ خَاصَّةً الْقُوَّةُ مِنْ أَخْذَتِهِ، وَالَّتِي هِيَ الْعُنْصُرُ الْأَهَمُّ فِي النَّجَاحِ: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍۖ﴾ [مريم: ١٢].

وَالْخُطَبُ الْمُسَلْسَلَةُ تَحْصُلُ أَحْيَاناً وَتُقْبَلُ إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْهَا بُدٌّ، وَعَلَى أَضْيَقِ حَالٍ، كَأَنْ تَكُونَ خُطْبَتَيْنِ مُتَلَازِمَتَيْنِ تَلَازُمَ الْمَوْضُوعِ الْوَاحِدِ، أَوْ فِي مُجْتَمَعٍ لَهُ خَصَائِصُ تَقْبَلُ هَذَا وَتُفَضِّلُهُ، وَإِلَّا فَالْأَصْلُ مَا ذَكَرْنَا، ثُمَّ إِنَّنَا مَا عَرَفْنَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَسَّمَ مَوْضُوعاً عَلَى خُطْبَتَيْنِ مُتَتَالِيَتَيْنِ، أَوْ قَالَ لِلنَّاسِ: سَنُكْمِلُ فِي الْخُطْبَةِ الْقَادِمَةِ، بَلْ إِنَّهُ حِينَ احْتَاجَ الْمَوْضُوعُ فِي خُطْبَتِهِ الشَّهِيرَةِ فِي عَلَامَاتِ السَّاعَةِ خَطَبَ بَعْدَ صَلَاةِ الصُّبْحِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَعَنْ أَبِي زَيْدٍ قَالَ: «صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْفَجْرَ وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهْرُ، فَنَزَلَ فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الْعَصْرُ،

ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى غَرَبَتْ الشَّمْسُ، فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ، وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا»(١).

وَبِنَاءً عَلَى هَذَا يَنْبَغِي التَّنْوِيعُ الْمَوْضُوعِيُّ، بِمَعْنَى: إِذَا كَانَ مَوْضُوعُ هَذَا الْأُسْبُوعِ عَنِ الْأُسْرَةِ فَلْيَكُنْ مَوْضُوعُ الْأُسْبُوعِ الْقَادِمِ عَنِ الْأُمَّةِ، أَوْ عَنِ السِّيرَةِ، أَوْ عَنْ الِاقْتِصَادِ، أَوْ عَنْ فِلَسْطِينَ، أَوْ عَنْ أَيِّ مَوْضُوعٍ مِنَ الْمَوَاضِيعِ بِالطُّرُقِ الَّتِي ذَكَرْنَا سَابِقاً وَمَا سَيَأْتِي لَاحِقاً، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَهَذَا التَّنْوِيعِ هُوَ الْمُفَاجَأَةُ، وَهُوَ عُنْوَانُ التَّجْدِيدِ وافْتِتَاحُهِ.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(١) رواه مسلم في صحيحه (٢٨٩٢).

المبحث الخامس
التَّجْدِيدُ فِي طَرِيقَةِ عَرْضِ الْخُطْبَةِ

وَهَذَا التَّجْدِيدُ يَحْصُلُ بِأَمْرَيْنِ:

أَوَّلًا: التَّسَلْسُلُ الْمُحْكَمُ السَّلِسُ:

ابْدَأْ بَالْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ، وَالصَّلَاةِ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، ثُمَّ اسْتَهِلَّ خُطْبَتَكَ كَيْفَمَا شِئْتَ، وَاعْرِضْ الْخُطْبَةَ كَيْفَمَا شِئْتَ، وَلَكِن اجْعَلْ لِنَفْسِكَ غَايةً تَقِيسُ بِهَا نَجاحَ خُطْبَتِكَ، تِلْكَ هِيَ: أَنْ يَذْكُرَ الْحَاضِرُ خُطْبَتَكَ كُلَّهَا إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَالْمُوَظَّفُ إِذَا ذَهَبَ إِلَى وَظِيفَتِهِ، وَالصَّغِيرُ إِذَا ذَهَبَ إِلَى مَدْرَسَتِهِ، وَالْمَرْأَةُ إِذَا عَادَتْ إِلَى صُوَيْحِبَاتِهَا وَاجْتَمَعَتْ بِعِيَالِهَا.

وَلَا تَتَنَازَلْ عَنْ ضَابِطِ النَّجاحِ هَذَا مَهْمَا كَانَتِ الْخُطْبَةُ وَنَوْعِيَّتُهَا، بَلْ أَوَدُّ أَنْ أَقُولَ لَكَ: يَنْبَغِي أَنْ لَا تُعَدَّ خُطْبَتُكَ مُؤَثِّرَةً مَا لَمْ تَتْرُكْ أَثَراً فِي حَيَاةِ عُمُومِ حُضُورِكَ مِنْ يَوْمِهَا إِلَى أَنْ يَلْقَوُا اللَّهَ تَعَالَى، وَهَذَا لَا يَكُونُ مَا لَمْ تَكُنِ الْخُطْبَةُ مُتَسَلْسِلَةً بِطَرِيقَةٍ عِلْمِيَّةٍ سَلْسَلَةً مُحْكَمَةً، كُلُّ فِكْرَةٍ تُفْضِي لِلَّتِي بَعْدَهَا ضَرُورَةً مَنْطِقِيَّةً وَاضْطِرَاراً عَقْلِيّاً.

ثانياً: مُخَاطَبَةُ كُلِّ مَنْ فِي الْمَسْجِدِ:

سَيوجَدُ فِي مَسْجِدِكَ لِخُطْبَةِ الْجُمُعَةِ اخْتِلَافُ الْمُسْتَوَيَاتِ الْعُمُرِيَّةِ، وَاخْتِلَافُ الْمُسْتَوَيَاتِ الْعِلْمِيَّةِ، وَالْمُسْتَوَيَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ، وَالْمُسْتَوَيَاتِ الْوَظِيفِيِّةِ، وَكَذَا الْمُسْتَوَيَاتُ الْجِنسِيَّةُ مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ بِأعمارٍ مُخْتَلِفَةٍ، فَاحْرِصْ عَلَى أَنْ يَصِلَ لِكُلِّ فِئَةٍ مِنْ هَؤُلَاءِ نَصِيبُهُمُ الْمَفْرُوضُ، وَلَعَلَّ الْبَعْضَ سَوْفَ يَظُنُّ أَنَّ هَذَا تَنْظِيرٌ مُجَرَّدٌ! وَأَنَا أَرَى أَنَّ غَيْرَ هَذَا جَوْرٌ فِي الْقَسْمِ بَيْنَ حُضُورِكَ وَحِرْمَانٌ مِنْ حَقِّهِم الْمَفْرُوضِ، لَكِنْ لَا يَعْنِي هَذَا أَنْ يَخُصَّ الْخَطِيبُ كُلَّ قِسْمٍ مِنْ هَؤُلَاءِ بِرِسَالَةٍ فِي خُطْبَتِهِ فَتُصْبِحَ عَشَرَةَ مَوَاضِيعَ بَدَلَ مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ مُوحَّدٍ! إِنَّمَا هُوَ النَّهْرُ الْعَذْبُ، كُلٌّ يَغْتَرِفُ مِنْهُ عَلَى قَدْرِهِ، وَمِنَ الْحِرْمَانِ أَنْ لَا يَشْرَبَ مِنْ هَذَا الْعَذْبِ الزُّلَالِ وَاحِدٌ وَيَكْتَفِي بِالنَّظَرِ وَهُوَ عَطْشَانٌ!

خُذْ مَثَلًا قِصَّةً تُرِيدُ أَنْ تَعْرِضَهَا، تُقَالُ بِأُسْلُوبٍ لَا يَفْهَمُهَا إِلَّا قِسْمٌ وَاحِدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ، بَيْنَمَا تُقَالُ نَفْسُ الْقِصَّةِ بِأُسْلُوبٍ آخَرَ يَفْهَمُهَا الْجَمِيعُ وَتَزِيدُ الْجَمِيعَ إِيمَاناً وَعِلْماً، حِكْمَةً وَتَزْكِيةً، وَهِيَ هِيَ الْقِصَّةُ.

وَهَكَذَا كُلُّ مَوْضُوعٍ، وَكَفَى بِالْقُرْآنِ شَاهِداً وَشَهِيداً، وَمَنْ تَأَمَّلَ خُطْبَةَ الْحَاجَةِ الثَّابِتَةَ فِي أَوَّلِ الْخُطَبِ كَمَا رَجحنا جَوَازَهَا مَعَ عَدَمِ الالتزامِ بِهَا يَجِدُهَا لِلْجَمِيعِ؛ غَزَارَةً فِي الْعِلْمِ، وَسُهُولَةً فِي الْفَهْمِ، وَعُمْقاً فِي التَّأْثِيرِ، وَتَأْثِيراً فِي التَّزْكِيَةِ.

إِنَّ الْأَمْرَ لَا يَسْتَدْعِي أَنْ تُحضِّرَ لِكُلِّ قِسمٍ مِنْهُمْ تَحْضِيراً خَاصّاً فِي كُلِّ خُطْبَةٍ حَتَّى آخِرِ خُطْبَةٍ فِي حَيَاتِك، لَكِنَّهَا الْمَنْهَجِيَّةُ فِي كُلِّ خُطْبَةٍ بِحَيْثُ تَكُونُ جَامِعَةً لِعَنَاصِرَ ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [الجمعة: ٢] مَعَ الْإِكْثَارِ مِنَ الشَّوَاهِدِ وَالاِسْتِدْلَالِ، وَالْإِكْثَارِ مِنَ الْقَصَصِ، فَإِنَّ الصُّعُوبَةَ وَالتَّعْقِيدَ يَأْتِيان - عَادَةً - مِنْ مُواصَلَةِ كَلَامِنَا نَحْنُ مُجَرَّداً عَنِ الْأَدِلَّةِ وَالشَّوَاهِدِ.

وَلَكِنْ لِأَهَمِّيَّةِ هَذَا الْأَمْرِ فَلَا بُدَّ لِلْخَطِيبِ أَنْ يَجْعَلَ مِنْ مَحَاسِنِهِ الثَّابِتَةِ عِنْدَ تَحْضِيرِ أَيِّ خُطْبَةٍ أَوْ قَبْلَ إِلْقَائِهَا التَّأَكُّدَ مِنْ نَصِيبِ كُلِّ قِسْمٍ مِنْ حُضُورِهِ.

إِنَّ لِلْخُطْبَةِ فُيُوضَهَا الَّتِي تَغْمُرُ الْجَمِيعَ، لَكِنَّنَا نَحْنُ مَنْ يَحْجرُ تِلْكَ الْفُيُوضَ أَحْيَاناً، وَقُلُوبُ النَّاسِ أَنْوَاعٌ وَأَقْدَارٌ، فَلَا تُؤْخَذُ الْقَضِيَّةُ بِالْمَحْسُوسِ فَحَسْبُ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَشَرَّبُ الْإِيمَانَ مِنْ نُورِ كَلَامِ الْخَطِيبِ، وَطَرِيقَةِ إِيرَادِهِ لِلْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ وَإِنْ لَم يَكُنْ هُوَ صَاحِبَ الْمَوْضُوعِ الرَّئِيسِ، وَمِنَ الصِّغَارِ مَنْ يَرْضَعُ الشَّجَاعَةَ فِي الْحَقِّ مِنْ رُوحِ خَطِيبِهِ وَقِرَاءَتِهِ لِصِدْقِ إِنْذَارِهِ وَإِنْكَارِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْنِيهِ الْمَوْضُوعُ بِشَكْلٍ كَامِلٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ، وَهَكَذَا!

أَخِي الْخَطِيبُ: إِنَّ الطِّفْلَ إِذَا فَهِمَ الْخُطْبَةَ فَهُوَ مَنْ سَيَأْتِي بِأَبِيهِ إِلَى الْمَسْجِدِ مُبَكِراً، وَسَيُحِبُّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بِسَبَبِكَ، وَسَيَرْوِيهِ فِي بَيْتِهِ

لِأَصْحَابِهِ، وَهَذَا مَا تُرِيدُهُ، تُرِيدُ قُلُوباً تَتَفَتَّحُ لِتُفْرِغَ فِيهَا - بِإِذْنِ اللَّهِ - هُدًى وَنُوراً وَمَحَبَّةً لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ وَلِدِينِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ.

أَمَّا أَنْ تَخْطُبَ بِغَيْرِ هَذَا الْمِنْظَارِ فَكَأَنَّكَ الْحَاضِرُ الْغَائِبُ، وَلَرُبَّمَا مَرَّتْ عَلَيْكَ أَشْهُرٌ لَمْ تُخَاطِبْ فِئَةً مِنْ هَذِهِ الْفِئَاتِ، ثُمَّ تَغْفُلُ عَنِ الأُخْرَى أَشْهُراً، وَهَكَذَا وَهَكَذَا، وَلِذَا تَجِدُ الْمَحْرُومِينَ مِنَ الْمُخَاطَبَةِ مِنْ أَصْحَابِكَ حَاضِرِينَ غَائِبِينَ، يَنْتَظِرُونَ دُعَاءَ الْخُطْبَةِ لِيَرْتَاحُوا مِنْ ثِقَلِ الصُّدُودِ عَنْهُمْ.

أَيُّهَا الْخَطِيبُ: لَا تَتْرُكْ أَحداً فِي الْمَسْجِدِ لَا تُضِيفُ لَهُ جَدِيداً، فَرُبَّمَا صَلَّى عِنْدَكَ عُلَمَاءُ كِبَارٌ، فَلْيَخْرُجُوا بِفَوَائِدَ جَدِيدَةٍ لَمْ يَعْرِفُوهَا مِنْ قَبْلُ، وِمِنْ فَضْلِ اللَّهِ أَنَّه مَا مِنْ أَحَدٍ يَحْوِي هَذَا الدِّينَ وَيُحِيطُ بِهِ وَلَا بِكَلِمَةٍ مِنْ كَلِمَاتِ اللَّهِ، وَرُبَّمَا صَلَّى عِنْدَكَ الصِّغَارُ، وَرُبَّمَا الشَّبَابُ، فَأَضِفْ لِكُلِّ قِسْمٍ مِنْهُمْ جَدِيداً.

قَسِّمْ مَسْجِدَكَ نَظَرِيّاً إِلَى مُرَبَّعَاتٍ، وَلَا تَتْرُكْ مُرَبَّعاً وَاحِداً يَخْرُجُ مِنْ أَيِّ جُمُعَةٍ خَالِيَ الْوِفَاضِ، هَا هُوَ الْقُرْآنُ الْعَزِيزُ - رُغْمَ تَيْسِيرِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ - يَعْلُو وَلَا يُعْلَى عَلَيْهِ، يُضِيفُ لِأَكْبَرِ عَالِمٍ فِي تَخَصُّصِهِ جَدِيداً كَمَا يُضِيفُ لِأَقَلِّ النَّاسِ عِلْماً جَدِيداً، فَزِيَادَةُ الْعِلْمِ وَعُمْقُهُ لَا تُضَادُّ التَّيْسِيرَ وَالتَّسْهِيلَ، وَلَا يَعْتَرِضُ عَلَى هَذَا إِلَّا عَاجِزٌ أَوْ غَافِلٌ.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

المبحث السادس
التَّجْدِيدُ فِي الْوَحْدَةِ الْمَوْضُوعِيَّةِ

لَا أَزَالُ أَتَذَكَّرُ شَيْخاً جَلِيلًا وَرِعاً يَقُولُ الْحَقَّ، ذَا سَمْتٍ وَمَهَابَةٍ وَعِبَادَةٍ، وَلِحْيَةٍ بَيْضَاءَ، وَعِمَامَةٍ، وَذُؤَابَةٍ، وَكُنْتُ أَرَى النَّاسَ كَثِيراً مَا يَنْتَقِصُونَهُ فِي خُطْبَتِهِ، وَلَا يَزَالُونَ يَتَنَاقَصُونَ عَنْ خُطْبَتِهِ، وَيَنْفَضُّونَ عَنْهُ شَيْئاً فَشَيْئاً حَتَّى غَدَا فِي مَسْجِدِهِ نَحْواً مِنْ صَفَّيْنِ فَقَطْ إِلَى قَرِيبِ نِهَايَةِ الْخُطْبَةِ! فَحَرَصْتُ عَلَى الْحُضُورِ إِلَى خُطْبَتِهِ، وَكُنْتُ يَوْمَهَا مُتَخَرِّجاً فِي الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، مُقْتَنِعاً أَنَّ هَؤُلَاءِ النَّاسَ مُخْطِئُونَ فِي تَقْرِيرِهِمْ هَذَا وَقَرَارِهِمْ بِهَجْرِ مَسْجِدِ هَذَا الشَّيْخِ الْجَلِيلِ، لَقَدْ حَضَرْتُ عِنْدَهُ فَكَانَتْ نَبْرَتُهُ عَجِيبَةً، وَكَانَ سَمْتُهُ مَهِيباً، وَكَانَتْ كَلِمَاتُهُ بَلِيغَةً، وَمَا كَانَ يَلْحَنُ فِي نَحْوٍ وَلَا لُغَةٍ، وَمَعَ هَذَا لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُبْحِرَ مَعَهُ فِي خُطْبَتِهِ أَكْثَرَ مِنِ افْتِتَاحِيَّةِ الْخُطْبَةِ، وَأَعُودُ لَهُ أَحْيَاناً عِنْدَ رُؤُوسِ الْفِقَرَاتِ، وَأَحْيَاناً لَا أَعُودُ، وَيَا لَطُولِ الْخُطْبَةِ عَلَى النَّفْسِ رُغْمَ قِصَرِهَا الزَّمَنِيِّ! وَانْصَرَفْتُ عَلَى هَذِهِ الْقَنَاعَةِ مُؤَكِّداً فِي نَفْسِي صَوَابَ قَرَارِ النَّاسِ! وَمَرَّتْ أَسَابِيعُ، ثُمَّ عَادَتْ نَفْسِي، فَغَلَبَتْنِي، وَأَقْنَعَتْنِي بِأَنَّ تَقْرِيرِي عَنِ الشَّيْخِ كَانَ خَطَأً، فَقَرَّرْتُ الْعَوْدَةَ لِلْحُضُورِ إِلَيْهِ ثَانِيَةً، فَكَانَتِ النَّتِيجَةُ الْأَخِيرَةُ تُؤَكِّدُ نَتِيجَةَ الْخُطْبَةِ الْأُولَى وَأَكْثَرَ،

وَهَكَذَا تَكَرَّرَتْ عَوْدَتِي، فَكَانَتِ النَّتِيجَةُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ كَنَتِيجَةِ أَوَّلِ مَرَّةٍ..!
إِنَّ سِرَّ انْصِرَافِ الْأَذْهَانِ عَنْ هَذَا الشَّيْخِ هُوَ مَا كَانَ يَفْتَقِدُهُ، وَمَا كَانَ يَفْتَقِدُ إِلَّا الْوَحْدَةِ الْمَوْضُوعِيَّةَ الَّتِي تَرْبِطُ خُطْبَتَهُ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا، فَإِنَّ الْخُطْبَةَ بِغَيْرِ الْوَحْدَةِ الْمَوْضُوعِيَّةِ كَاللَّبِنِ الْمُبَعْثَرِ بِالنِّسْبَةِ لِلْبَيْتِ الْمَبْنِيِّ.

أَعْجَبُ - وَاللَّهِ - أَيَّمَا عَجَبٍ مِنَ الْوَحْدَةِ الْمَوْضُوعِيَّةِ فِي خُطَبِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمِنْ بَعْدِهِ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ، وَمِنْ بَعْدِهِمْ مُعَاوِيَةُ رضي الله عنه وَجَمِيعُ الْبُلَغَاءِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ مَنْ نَظَرَ خُطَبَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَوَهَّمَ أَنَّهُ يُكْثِرُ الْمَوَاضِيعَ الْمُتَفَرِّقَةَ فِي الرِّسَالَةِ الْوَاحِدَةِ أَوِ الْخُطْبَةِ الوَاحِدَة، وَلَكِنَّك عِنْدَ التَّدْقِيقِ تَجِدُ الْخَيْطَ الْحَرِيرِيَّ الْقَوِيَّ الَّذِي يَسْلُكُ دُرَرَ كَلِمَاتِهِ، وَكَأَنَّهُ - وَاللَّهِ - مِنَ الْوَحْيِ لِعَجِيبِ ظُهُورِ الرَّبْطِ أَحْيَاناً وَعَجِيبِ قُوَّتِهِ مَعَ خَفَائِهِ أَحْيَاناً.

أَيُّهَا الْخَطِيبُ: لَا يُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ الْخَيْطُ السَّالِكُ لِفِقَرَاتِ خُطْبَتِكَ وَأَفْكَارِهَا ظَاهِراً، لَكِنْ يُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ مُحْكَماً قَوِيّاً لَا يَنْفَرِطُ.

فَكَثِيراً مَا تَكُونُ الْوَحْدَةُ الْمَوْضُوعِيَّةُ بِخَيْطِ نُورٍ يَعْرِفُهُ الْعَقْلُ، وَيَتَحَسَّسُهُ، وَيَرَاهُ وَاضِحاً، لَا بِخَيْطٍ يَنُصُّ عَلَيْهِ نَصّاً، وَهَذَا مِنْ حُسْنِ الْحُبُكِ، وَهُنَا تَتَفَاوَتُ مَنَازِلُ الْخُطَبَاءِ تَفَاوُتاً بِحَيْثُ لَا تُرَى مَقَامَاتُ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ.

فَأَحْيَاناً يَكُونُ تَرْتِيبُ الْخُطْبَةِ تَصَاعُدِياً مِنَ الْأَدْنَى إِلَى الْأَعْلَى، حَيْثُ يَصْعَدُ الْخَطِيبُ بِحَاضِرِيهِ سُلَّمَةً سُلَّمَةً، فَيَعْرُجُ بِهِمْ عَلَى مِعْرَاجٍ اصْطَنَعَهُ لِخُطْبَتِهِ تِلْكَ، ثُمَّ يُطْلِقُهُمْ فِي الْخُطْبَةِ الثَّانِيَةِ أَوْ فِي آخِرِهَا فِي فَضَاءِ الْمَعَانِي وَمَعَالِي الْهِمَمِ.. فَيَنْصَرِفُونَ مِنَ الْخُطْبَةِ وَدَفْقُ الْإِيمَانِ يَنْبَعِثُ مِنْ وُجُوهِهِمْ وَصُدُورِهِمْ.. بَيْنَمَا لَمْ يَنْسَوْا سَلَالِمَ الْخُطْبَةِ سُلَّمَةً سُلَّمَةً، وَبِذَا اجْتَمَعَتِ الْوَحْدَةُ الْمَوْضُوعِيَّةُ وَالرُّوحُ الْإِيمَانِيَّةُ وَالسَّلَاسِلُ الْفِكْرِيَّةُ، وَيَذْهَبُ حَاضِرُ الْخُطْبَةِ رَاوِياً لَهَا بِتَدَرُّجِهَا وَتَفَاصِيلِهَا مُتَأَثِّراً بِهَا فِي حَيَاتِهِ، عِلْماً بِأَنَّ الْخَطِيبَ لَمْ يُصَرِّحْ بِذِكْرِ وَحْدَةٍ مَوْضُوعِيَّةٍ يَتَطَرَّقُ لَهَا، وَمِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ لِهَذَا هُوَ تَنْظِيمُ الْخَطِيبِ لِأَفْكَارِهِ وَاسْتِيعَابُهُ لَهَا جَيِّداً، ثُمَّ تَصَوُّرُهُ لِلْحَاضِرِينَ جَيِّداً، ثُمَّ وَضْعُهُ خُطْبَتَهُ فِي تَدَرُّجٍ وَاضِحٍ لَدَيْهِ وَاضِحٍ لِمَنْ تُعْرَضُ عَلَيْهِ، يَصْعُبُ نِسْيَانُهُ بَعْدَ الاسْتِمَاعِ إِلَيْهِ. **وَأَحْيَاناً يَكُونُ تَرْتِيبُ الْخُطْبَةِ** بِنَفْسِ الطَّرِيقَةِ وَلَكِنْ **تَنَازُلِيّاً**، أَيْ مِنَ الْأَعْلَى إِلَى الْأَدْنَى، **وَأَحْيَاناً يَكُونُ أُفُقِيّاً**... يَسْتَعْرِضُ مَوْضُوعَهُ كَمَا التَّصْوِيرُ بِالْأَشِعَّةِ الْمَقْطَعِيَّةِ... شَرِيحَةً شَرِيحَةً يُجَلِّي -بِإِذْنِ اللَّهِ- ظُلُمَاتِ الْمَوْضُوعِ.

وَأَحْيَاناً يَصْنَعُ الْخَطِيبُ مَرْكَزاً أَوْ مِحْوَراً، فَيَجْعَلُهُ مَدَارَ خُطْبَتِهِ، فَيَأْخُذُ مَثَلاً صِنَاعَةَ السُّنَنِ الْحَسَنَةِ مِنْ حَيَاةِ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ إِبْرَاهِيمَ

عَلَيْهِ السلام فَيَسْتَقْرِي حَيَاتَهُ عَلَيْهِ السلام اسْتِقْرَاءً مُرَكِّزاً عَلَى السُّنَنِ الْحَسَنَةِ فَقَطْ ثُمَّ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ حَيَاةَ إِبْرَاهِيمَ كُلَّهَا سُنَنٌ حَسَنَةٌ.

فَيَنْطَلِقُ مِنْ طَمْسِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السلام أَكْبَرَ سَيِّئَةٍ جَارِيَةٍ وَهُوَ تَحْطِيمُ الْأَصْنَامِ، حَتَّى وَصِيَّتِهِ لِوَلَدِهِ بِالتَّوْحِيدِ: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢] وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ مِنْ سُنَنٍ: مِنْهَا صِنَاعَةُ أَعْظَمِ شِعَارٍ ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨] وَمِنْهَا سُنَنُ الْفِطْرَةِ، وَمِنْهَا بِنَاءُ الْكَعْبَةِ وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَمِنْهَا سُنَنٌ سَنَّهَا اللَّهُ لَهُ وَجَعَلَهَا فِي مِيزَانِهِ كَالْأُضْحِيَةِ وَالْفِدَاءِ، وَقَتْلِ الْوَزَغِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ.

وَمِثْلُ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ وَهِيَ اخْتِيَارُ مِحْوَرٍ أَوْ صِنَاعَةُ مَرْكَزٍ وَالْإِتْيَانُ بِالشَّوَاهِدِ لَهُ مِنَ الْحَيَاةِ بِشَكْلٍ عَامٍّ أَوْ مِنَ الشَّرْعِ بِشَكْلٍ عَامٍّ، أَوْ مِنْ حَيَاةِ شَخْصٍ بِشَكْلٍ خَاصٍّ مَجَالٌ رَحْبٌ وَعَظِيمٌ فِي صِنَاعَتِهِ لِلْخَطِيبِ، وَطَرِيقَةٌ مُحْكَمَةٌ وَاثِقَةٌ فِي صِنَاعَةِ الْوَحْدَةِ الْمَوْضُوعِيَّةِ الْمَفْهُومَةِ الْمَعْلُومَةِ الَّتِي هِيَ أَظْهَرُ فِي الْعُقُولِ مِنَ الْوَحْدَةِ الْمَوْضُوعِيَّةِ الْمَنْصُوصَةِ وَأَكْثَرُ ثَبَاتاً، وَتَأْثِيراً فِي التَّزْكِيَةِ وَالتَّغْيِيرِ.

وَصِنَاعَةُ هَذَا الْخَيْطِ تَكُونُ بِشَكْلٍ مَنْصُوصٍ بِحَيْثُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى اسْتِنْتَاجٍ، كَأَنْ يَكُونَ الْمَوْضُوعُ خَفِيّاً فَتُرِيدَ أَنْ تُجَلِّيَهُ وَتُظْهِرَهُ، **فَتُعَلِّقَ مَوْضُوعَكَ بِآيَةٍ أَوْ فِقْرَةٍ فِي آيَةٍ**، وَتَجْعَلَهَا مِحْوَرَ الْمَوْضُوعِ، وَتُقَسِّمَ

الْخُطْبَةَ إِلَى فِقَرَاتٍ، وَتَجْعَلَ آيَةَ الْمَوْضُوعِ نَفْسَهَا أَوَّلَ كُلِّ فِقْرَةٍ مِنَ الْفِقَرَاتِ، وَبَعْدَ مَا تَذْكُرُ الآيَةَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ **تَذْكُرُ التَّطْبِيقَاتِ الْوَاقِعِيَّةَ الَّتِي** تُرِيدُ تَأْيِيدَهَا، أَوْ تُرِيدُ تَصْحِيحَهَا، وَبِذَلِكَ تَأْخُذُ خُطْبَتُكَ قُوَّتَهَا مِنَ الْآيَةِ، وَتَبْلُغُ غَايَتَكَ مِنْ قُوَّةِ الآيَةِ، وَمِثْلُ هَذَا أَنْ تَجْعَلَ مِحْوَرَهَا قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ [المائدة: ١٠٠].

أَوْ تَخْتَارُ مُصْطَلَحاً مَغْلُوطاً لَهُ تَطْبِيقَاتٌ خَاطِئَةٌ وَاسِعَةٌ فِي الْمُجْتَمَعِ، وَتُرِيدُ أَنْ تَهُدَّ هَذَا الْمُصْطَلَحَ وَتَطْبِيقَاتِهِ هَدّاً فَتَذْكُرَهُ عِنْدَ بِدَايَةِ كُلِّ فِقْرَةٍ أَوْ نِهَايَتِهَا مِنْ أَوَّلِ الْخُطْبَةِ إِلَى آخِرِهَا، كَمَا فِي مُصْطَلَحِ: «وَدَاوِنِي بِالَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ».

وَأَصْلُ هَذَا النَّوْعِ مِنَ الْوَحْدَةِ الْمَوْضُوعِيَّةِ فِي كِتَابِ اللَّهِ الْعَزِيزِ وَكَلَامِهِ الْبَلِيغِ الْوَجِيزِ فِي سُورَةِ الرَّحْمَنِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن].

وَفِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٨، ٩].

وَلِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا طَرِيقَةُ ذِكْرِ النَّصِّ أَوِ الْقَاعِدَةِ أَوَّلًا، ثُمَّ الْبَيَانِ الْمَطْلُوبِ بَعْدَهَا، فَيُصْبِحُ مَا يَأْتِي بَعْدَهَا تَنْزِيلًا لِمَعَانِي الآيَةِ عَلَى شَوَاهِدَ عِلْمِيَّةٍ عَمَلِيَّةٍ، وَحَوَادِثَ وَاقِعِيَّةٍ، فَتَلْتَصِقُ

هَذِهِ الشَّوَاهِدُ فِي السَّامِعِينَ مِنْ بَرَكَةِ الْآيَةِ أَوِ الْحَدِيثِ، وَيَأْخُذُ التَّغْيِيرُ الْمَطْلُوبُ فَاعِلِيَّتَهُ مِنْ رَبَّانِيَّةِ النَّصِّ الْكَرِيمِ، وَمِنْهَا ذِكْرُهَا بَعْدَ الْفِقْرَةِ بِطَرِيقَةٍ اسْتِنْتَاجِيَّةٍ أَوْ تَقْرِيرِيَّةٍ، وَهُوَ أَيْضاً عَلَى فِقَرَاتٍ، بِحَيْثُ تُصْبِحُ كُلُّ فِقْرَةٍ كَأَنَّهَا مُقَدِّمَةٌ تَنْطِقُ بِهَذِهِ النَّتِيجَةِ الْمُسَلَّمَةِ، فَيَحْدُثُ تَفَاعُلٌ نَفْسِيٌّ وَتَجَاذُبٌ مَا بَيْنَ الْخَطِيبِ وَالسَّامِعِ، فَكَأَنَّ حَاضِرَ الْخُطْبَةِ إِذَا اسْتَمَعَ لِلْكَلَامِ الَّذِي قَبْلَ النَّصِّ نَطَقَ اضْطِرَاراً بِالنَّصِّ الَّذِي هُوَ الْقَاعِدَةُ، وَهَذِهِ الطَّرِيقَةُ تَسِيرُ عَلَى هَدْيِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] حِينَ قَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ الْآيَةَ، فَنَطَقَ عُمَرُ بِهَذِهِ التَّكْمِلَةِ قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمَا رُوِيَ عَنْ عُمَرَ بن الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: وَافَقْتُ رَبِّي فِي أَرْبَعٍ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ صَلَّيْنَا خَلْفَ الْمَقَامِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ ضَرَبْتَ عَلَى نِسَائِكَ الْحِجَابَ، فَإِنَّهُ يَدْخُلُ عَلَيهِنَّ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣] وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فَلَمَّا نَزَلَتْ قُلْتُ أَنَا: تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ، فَنَزَلَتْ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] وَدَخَلْتُ عَلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقُلْتُ لَهُنَّ:

لَتَنْتَهِيْنَ أَوْ لَيُبْدِلَنَّهُ اللَّهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مُنْكُنَّ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ [التحريم: ٥](١).

وَمِنْهَا ذِكْرُ النَّصِّ أَوْ الْقَاعِدَةِ فِي أَثْنَاءِ الْفِقَرَاتِ، وَمِنْهَا ذِكْرُهَا فِي أَوَّلِ الْخُطْبَةِ وَآخِرِهَا فَحَسْبُ، وَمِنْهَا ذِكْرُهَا كَشَرْحِ آيَةٍ أَوْ حَدِيثٍ، وَلَرُبَّمَا يَكُونُ شَرْحُ مَعْنًى وَاحِدٍ مِنْ مَعَانِي الْآيَةِ وَالْحَدِيثِ وَتَوْسِيعِهِ بِجَمْعِ الْأَشْبَاهِ وَالنَّظَائِرِ الشَّرْعِيَّةِ لَهُ مَعَ الْوَاقِعِيَّةِ كَمَا فِي خُطْبَةِ: **لَا تُعِينُوا الشَّيْطَانَ عَلَى أَخِيكُمْ**.

وأَحْيَاناً يَكُون خيط الْخُطْبَة كلمة وَاحِدَة هِيَ عنوان الْخُطْبَة، وَهِيَ رابطها، ورُبَّمَا تَكُونَ هِيَ غايتها ومن أمثلتها خُطْبَة «النفخ»، كَمَا سَتَرَاهَا فِي آخِرِ الكِتَابِ.

وَحَصْرُ طُرُقِ الرَّبْطِ فِي صُورَةٍ مُحَدَّدَةٍ أَمْرٌ صَعْبٌ، فَهُوَ مَيْدَانٌ تَضِجُّ فِيهِ عَادِيَاتُ الْمُجَدِّدِينَ مِنَ الْخُطَبَاءِ، وَتَقْدَحُ فِيهِ أَذْهَانُهُمْ بِعَجَائِبِ خُيُوطِ النُّورِ الرَّابِطَةِ لِأَفْكَارِ الْخُطَبِ الأَبْكَارِ، فَإِذَا هِيَ مُحْكَمَةٌ كَأَنَّهَا كَوَاكِبُ دُرِّيَّةٌ، تَجْتَمِعُ حَوْلَ مَجْمُوعَةٍ شَمْسِيَّةٍ مُحْكَمَةِ النِّظَامِ بِخُيُوطٍ غَيْرِ مَرْئِيَّةٍ، تِلْكَ هِيَ قُوَّةُ الْجَاذِبِيَّةِ.

فَلَا يَفُوتَنَّكَ أَخِي الْخَطِيبُ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ الَّتِي تُخْرِجُكَ مِنْ طَوْرِكَ

(١) أخرجه الطيالسي (ص ٩) رقم (٤١)، وابن عساكر (٤٤/ ١١٣).

الْمُعْتَادِ، وَمِنْ تَقْلِيدِ فُلَانٍ وَعِلَّانٍ حَتَّى لَوْ كَانُوا أَئِمَّةَ هَذَا الْمَيْدَانِ، فَإِلَى مَتَى سَوْفَ تَبْقَى مُقَلِّداً غَيْرَكَ، وَإِلَى مَتَى لَنْ تَخْرُجَ عَنْ طَوْرِهِ لِيَكُونَ لَكَ طَوْرُكَ؟!

إِنَّهَا طَرِيقَةٌ جَدِيدَةٌ وَقَابِلَةٌ لِلتَّجْدِيدِ عَلَى الدَّوَامِ . . . وَبِقَدْرِ مَا فِيهَا مِنْ سُهُولَةٍ فِيهَا عُمْقٌ، وَبِقَدْرِ مَا فِيهَا مِنْ تَرْسِيخٍ لِمَعْنًى عَظِيمٍ أَوْ خُلُقٍ أَوْ قَاعِدَةٍ أَوْ مَا إِلَى ذَلِكَ فِيهَا بِنَاءٌ وَاقِعِيٌّ عَلَى النَّصِّ الْمَذْكُورِ أَوْ الْقَاعِدَةِ الْمَذْكُورَةِ.

وَأَمْرٌ مُهِمٌّ آخَرُ وَهُوَ أَنَّهَا مُرِيحَةٌ لِلْخَطِيبِ أَيَّمَا رَاحَةٍ، فَهِيَ فِقَرَاتٌ مُرَتَّبَةُ الْمَعَانِي تَصَاعُدِيّاً أَوْ تَنَازُلِيّاً أَوْ أُفُقِيّاً، مَحْفُوظَةٌ بِتَرْتِيبِهَا هَذَا، يَقُولُهَا الْخَطِيبُ وَهُوَ فِي غَايَةِ الثِّقَةِ مِنْ حَافِظَتِهِ، وَالِاقْتِدَارِ عَلَى اسْتِحْضَارِ أَفْكَارِهَا، بَلْ وَضْعُ الْخَطِيبِ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ عَنْهُ حِينَ يَتَحَدَّثُ بِالطُّرُقِ الْمُعْتَادَةِ كَمَنْ نَزَلَ الْبَحْرَ فِي زَوْرَقِهِ بَاحِثاً عَنْ مَكَانِ تَجَمُّعِ الْأَسْمَاكِ هُنَا وَهُنَاكَ، وَبَيْنَ مَنْ يَنْزِلُ الْبَحْرَ بِزَوْرَقِهِ وَقَدْ وَضَعَ فِي الْبَحْرِ عَلَامَاتٍ مُحَدَّدَةً، فَهُوَ يَمْشِي مِنْ عَلَامَةٍ إِلَى عَلَامَةٍ، وَعِنْدَ كُلِّ عَلَامَةٍ مَوْقِعُ سَمَكٍ.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

المبحث السابع
الْجَدِيدُ فِي تَنْزِيلِ الْخُطْبَةِ

دِينُنَا دِينُ حَيَاةٍ، وَدِينُ عَمَلٍ وَمُعَامَلَةٍ، فَمَا مِنْ شَيْءٍ فِيهِ إِلَّا وَلَهُ تَأْثِيرٌ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْعَمَلِ حَتَّى الْعَقَائِدُ، فَالْعَقَائِدُ لَيْسَتْ تَصَوُّرَاتٍ لَا تَأْثِيرَ لَهَا فِي حَيَاةِ مُعْتَقِدِيهَا، بَلْ إِنَّ لِلْأُمَّةِ مِنْ خَصَائِصِ النَّبِيِّ ﷺ نَصِيباً، وَمَا مِنْ خِصِّيصَةٍ وَاحِدَةٍ تَحَجَّرَ فَضْلُهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ دُونَ أُمَّتِهِ.

وَلِذَا، فَإِنَّ الْخُطْبَةَ الَّتِي لَا تُحَاكِي حَيَاةَ النَّاسِ وَتَحْكُمُهَا وَتَتَحَكَّمُ بِهَا، وَتُثِيرُهَا وَتُؤَثِّرِ فِيهَا لَهِيَ خُطْبَةٌ أَقْرَبُ إِلَى الدِّيَانَاتِ الْمُنْقَرِضَةِ النَّظَرِيَّةِ الْمِثَالِيَّةِ.

يَا أَيُّهَا الْخَطِيبُ! تَنْزِيلُ خُطْبَتِكَ عَلَى الْوَاقِعِ هُوَ مَيْدَانُكَ الْفَسِيحُ، وَهُوَ فَسَائِلُكَ الْحَيَّةُ الطَّرِيَّةُ لِقِيعَانِكَ الْخِصْبَةِ، تَغْرِسُ فِيهَا مَا تَشَاءُ؛ لِأَنَّ هَذَا التَّنْزِيلَ يَخْتَلِفُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، وَمِنْ زَمَنٍ إِلَى زَمَنٍ، وَرُبَّمَا مِنْ مَسْجِدٍ إِلَى مَسْجِدٍ، إِنَّهُ يَعُودُ إِلَى تَفَاعُلِ الْخَطِيبِ مَعَ مَوْضُوعِهِ وَوَاقِعِهِ قَبْلَ أَنْ يَعُودَ إِلَى تَفَاعُلِ حَاضِرِيهِ وَسَامِعِيهِ.

إِنَّ تَنْزِيلَ الْخُطْبَةِ عَلَى الْوَاقِعِ (وَاقِعِ النَّاسِ) سَوَاءٌ أَكَانَ اعْتِقَاداً أَمْ عَمَلًا هُوَ الثَّمَرَةُ الْحَقَّةُ، وَلَا قِيمَةَ لِخُطْبَةٍ لَا عَلَاقَةَ لَهَا بِدُنْيَا النَّاسِ وَلَا آخِرَتِهِمْ.

أَيُّهَا الْخَطِيبُ: يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ التَّنْزِيلُ فِي أَوَّلِ الْخُطْبَةِ، ثُمَّ يَتْبَعُهُ التَّأْصِيلُ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ فِي أَثْنَاءِ الْخُطْبَةِ، فَيَذْكُرُ الْخَطِيبُ التَّأْصِيلَ، ثُمَّ يُعَقِّبُ مُبَاشَرَةً بِذِكْرِ تَنْزِيلِهَا الْعَمَلِيِّ وَتَطْبِيقِهَا فِي الْحَيَاةِ.

وَفِي أَكْثَرِ الْأَحْيَانِ يَكُونُ تَرْكِيزُ التَّنْزِيلِ عَلَى الْخُطْبَةِ الثَّانِيَةِ، وَهَذَا هُوَ الْأَنْسَبُ، أَقْصِدُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْأَكْثَرَ وَهُوَ الْأَنْسَبَ؛ لِأَنَّ النَّفْسَ بَعْدَ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَى التَّأْصِيلِ لِلْمَوْضُوعِ أَصْبَحَتْ كَأَنَّهَا تَقُولُ: مَا الْمَطْلُوبُ مِنَّا؟

فَصِنَاعَةُ التَّشَوُّفِ وَالِاسْتِعْدَادِ وَالتَّشَوُّقِ حَصَلَت فِي الْخُطْبَةِ الْأُولَى، وَكَانَتْ النَّتِيجَةُ الطَّبِيعِيَّةُ هِيَ: طَلَبَ النُّفُوسِ الْعَمَلَ..

تَمَاماً كَمَا هُوَ الشَّأْنُ فِي مَرْحَلَتِي التَّشْرِيعِ الْمَكِّيَّةِ وَالْمَدَنِيَّةِ.

فَضَعْ خَتْمَكَ عَلَى مَظْرُوفِ خُطْبَتِكَ الَّذِي رَاسَلْتَ بِهَا الْقُلُوبَ.

اغْرِسْ لِدِينِكَ الْآنَ، اغْرِسْ لِآخِرَتِكَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، فَمَاذَا تَنْتَظِرُ بَعْدَمَا أَخْصَبْتَ الْأَرْضَ بِخُطْبَتِكَ، وَأَمْطَرْتَ السَّمَاءَ بِمَا فِيهَا مِنْ كَلَامِ اللَّهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ ﷺ.. فَلَا تَبْخَلْ بِالْفَسَائِلِ عَلَى نَفْسِكَ وَأَنْتَ تَقْدِرُ أَنْ تَغْرِسَهَا.

فَالتَّجْدِيدُ فِي تَنْزِيلِ الْخُطْبَةِ هُوَ الْمَيْدَانُ الَّذِي يَنْفَرِدُ بِهِ خَطِيبٌ عَنْ آخَرَ، إِنَّهُ يُمَثِّلُ شَخْصِيَّةَ الْخَطِيبِ، إِنَّهُ يَعْرِضُ بُعْدَ بَصِيرَتِهِ وَقِصَرَهَا،

يَعْرِضُ عُلُوَّ هِمَّتِهِ وَدُنُوَّهَا، يَعْرِضُ عُمْقَ تَحْلِيلَاتِهِ وَسَطْحِيِّتَهَا، يَعْرِضُ الْتِصَاقَهُ بِوَاقِعِهِ أَوْ نَأْيَهُ عَنْهُ.

فَالْخُطْبَةُ عَادَةً مَا تَكُونَ تَأْصِيلًا شَرْعِيًّا لِلْمَوْضُوعِ، وَهَذَا هُوَ الْمَوْضُوعُ، إِنَّه الْغَايَةُ الَّتِي وُجِّهَتْ لَهَا الْأَدِلَّةُ لِتُصِيبَهَا، وَإِنَّ خُطْبَةً بِغَيْرِ تَنْزِيلٍ عَلَى الْوَاقِعِ بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ لَا مَكَانَ لَهَا فِي الْقُلُوبِ وَلَا الْمَيْدَانِ.

هَذِهِ الدَّارُ الْآخِرَةُ يَذْكُرُهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ، يُبيِّنُ أَنَّ ثَمَّةَ مَطْلُوباً مِنْ ذِكْرِهَا، فَيَقُولُ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦] وَيَقُصُّ سُبْحَانَهُ الْقَصَصَ، وَيَقُولُ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] وَيُنَزِّلُ الْقُرْآنَ نُجُوماً سُبْحَانَهُ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢] وَيَقُصُّ الْقَصَصَ: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٩٩]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

وَكَمْ مِنْ خَطِيبٍ وَقَفَ أَمَامَ خُطْبَتِهِ حَيْرَانَ بَعْدَ مَا رَصَّ أَدِلَّتَهَا رَصّاً لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يُنَزِّلُهَا عَلَى وَاقِعِهِ، كَيْفَ يَسْتَشْهِدُ لَهَا مِنَ الْوَاقِعِ، كَيْفَ

يُصَحِّحُ بِهَا الْوَاقِعَ، كَيْفَ يُزَكِّي بِهَا، كَيْفَ يُعَلِّمُ بِهَا فَلَا يَدْرِي، وَرُبَّمَا عَرَفَ كَيْفَ يُعَلِّمُ بِهَا لَكِنَّهُ لَمْ يَعْرِف كَيْفَ يُزَكِّي بِهَا!

إِنَّ هَذَا عِلْمٌ دَقِيقٌ عَمِيقٌ، شَطْرُهُ الْأَوَّلُ عُمْقُ فَهْمِ النُّصُوصِ، وَشَطْرُهُ الْآخَرُ هِمَّةٌ صَادِقَةٌ وَعَقْلٌ مُتَّسِعٌ مُتَجَدِّدٌ يَرْصُدُ الشَّوَاهِدَ رَصْداً سَرِيعاً، وَأَفْضَلُ طَرِيقٍ لِهَذَا هُوَ أَنْ يَكْتُبَ الْخُطْبَةَ كَمَا ذَكَرْنَا مِنْ قَبْلُ كَامِلَةً قَبْلَ الْخُطْبَةِ بِفَتْرَةٍ، كَي تَمُرّ الخطبة بفترة حَمْلِهَا فِي رَحِمِهَا، فَتَأْخُذَ غِذَائِهَا مِنْ الشَّوَاهِدِ بِنَفْسِهَا عَلَى فَتَرَاتٍ مُتَقَارِبَةٍ أَوْ مُتَبَاعِدَةٍ، وَكُلَّمَا جَاءَكَ شَاهِدٌ وَضَعْتَهُ فِي خُطْبَتِكَ الْمَكْتُوبَةِ فِي الْإِعْدَادِ، وَحِينَ يَأْتِي وَقْتُ هَذِهِ الْخُطْبَةِ سَوْفَ تُذْهَلُ لِكَثْرَةِ الشَّوَاهِدِ، وَسَلَامَةِ الْمَوْلُودِ الْمُبَارَكِ، وَلِسَانُ حَالِكَ يُرَدِّدُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ أَنْ كَتَبْتُ كُلَّ هَذِهِ الشَّوَاهِدَ مِنْ قَبْلُ، إِنَّ الشَّوَاهِدَ تَجْتَمِعُ عِنْدَكَ لِدَرَجَةِ أَنَّكَ لَا تَكَادُ تَتْرُكُ أَحَداً فِي الْمَسْجِدِ إِلَّا أَصَابَهُ مِنْ نُورِهَا وَمَسَّهُ مِنْ دِفْءِ وَهَجِهَا.

وَالتَّنْزِيلُ عَادَةً مَا يَكُونُ فِي الْخُطْبَةِ الثَّانِيَةِ كَمَا سَيَمُرُّ مَعَنَا ذَلِكَ، وَإِنَّ التَّنْوِيعَ مُهِمّ حَتَّى يُصْبِحَ التَّنْوِيعُ مُثِيراً جِدّاً وَمُثْمِراً، فَيُجْعَلَ فِي أَوَّلِ الْخُطْبَةِ الْأُولَى - وَلَكِنْ يَكُونُ هَذَا عَلَى قِلَّةٍ - بِحَيْثُ تَعْرِضُ الثَّمَرَةَ أَوَّلًا، ثُمَّ تَكُونُ بَقِيَّةُ الْخُطْبَةِ بَيَاناً لِأَهَمِّيَّتِهَا وَإِيضَاحاً لِمَوْضُوعِهَا، وَتَعْرِيفاً بِطَرِيقَةِ تَطْبِيقِهَا.

وَأَحْيَاناً يَجْعَلُ الْخُطْبَةَ كُلَّهَا مُخْتَلَطَةً مَا بَيْنَ تَأْصِيلٍ وَتَنْزِيلٍ بِطَرِيقَةٍ مُرَتَّبَةٍ تَرْتِيباً دَقِيقاً مُؤَثِّراً، فَتُصْبِحُ الْخُطْبَةُ كُلُّهَا كَأَنَّهَا مَيْدَانٌ قَدْ بَلَغَ الْمُتَسَابِقُونَ فِيهِ ذِرْوَتَهُمْ مِنْ أَوَّلِهِ، فَإِذَا بِهِمْ يَزْدَادُونَ عُلُوّاً وَتَجَلِّياً عِنْدَ كُلِّ فِقْرَةٍ جَدِيدَةٍ.

* * * * *

المبحث الثامن
التَّجْدِيدُ فِي أَنْوَاعِ الْخُطَبِ

وَمَن الْأَمْثِلَةُ عَلَى ذَلِك:

الْمَثَلُ الْأَوَّلُ: التَّجْدِيدُ فِي خُطَبِ الْقَصَصِ: كُنْتُ كُلَّمَا جعَلْتُ خُطْبَتِي قِصَّةً مِنَ الْقِصَصِ عَزَمْتُ بَعْدَهَا عَلَى أَنْ أَجْعَلَ جُلَّ خُطَبِي قِصَصاً لِمَا أَجِدُ مِنْ أَثَرِ تِلْكَ الْخُطْبَةِ فِي النَّاسِ، وَنُفُوذِهَا فِي مَسَارِبِ قُلُوبِهِمْ وَتَشَرُّبِ أَرْوَاحِهِمْ لَهَا بِطَرِيقَةٍ سَهْلَةٍ وَسَرِيعَةٍ وَنَفَّاذَةٍ، وَهُنَا أَقُولُ لِلْخَطِيبِ: أَيُّ مَوْضُوعٍ يَهُمُّكَ تَسْتَطِيعُ إِيصَالَهُ لِمَنْ تُرِيدُ عَنْ طَرِيقِ الْقِصَّةِ فَافْعَلْ، وَأَيُّ مَوْضُوعٍ تَسْتَطِيعُ إِدْخَالَ قِصَّةٍ فِيهِ فَافْعَلْ، وَأَيُّ غَايَةٍ تَسْتَطِيعُ بُلُوغَهَا عَنْ طَرِيقِ قِصَةٍ فَافْعَلْ، بَلْ أَيُّ غَايَةٍ يَصْعُبُ عَلَيْكَ بُلُوغهَا تُبَلِّغُهَا عَنْ طَرِيقِ الْقِصَّةِ، وَلَا تَتْرُكْ مَوْضُوعاً وَاحِداً لَا تُدْخِلُ فِيهِ الْقِصَّةِ، فَالْقِصَّةَ الْقِصَّةَ، فَالْقَلْبُ أَسِيرٌ لِلْقِصَّةِ، مُرَابِطٌ لَا يَشْرُدُ حَتَّى يَعْرِفَ نِهَايَتَهَا، وَالْغَافِلُ مِنَ الْحَاضِرِينَ مُنْتَبِهٌ لَهَا، حَتَّى الصَّغِيرُ الَّذِي لَا يَقْبِضُ شَيْئاً مِنَ الْخُطْبَةِ يَقْبِضُ مِنَ الْقِصَّةِ، وَ الْقِصَّةُ سَهْلَةُ الْحَمْلِ لِلإِعْلَامِ، سَهْلَةُ التَّبْلِيغِ لِلْأَنَامِ بَلْ أَحْيَاناً لِلْنِيَامِ كَمَا تَفْعَلُ الْحَيَّاتُ مَعَ صِغَارِهَا، وَالْقِصَّةُ لَا تَحْتَاجُ إِلَى حِفْظٍ فِي تَبْرِيدٍ أَوْ تَجْفِيفٍ خَاصٍّ فِي مَخَازِنَ، بَلْ هِيَ تَحْفَظُ ذَاتَهَا

فِي الذَّاكِرَةِ بِذَاتِهَا، وَالْقِصَّةُ تُورِدُ أَمْثَالَهَا فَتَكُونُ مَوَاضِيعَ مُتَجَدِّدَةً وَشَوَاهِدَ مُتَعَدِّدَةً، وَيَتَعَدَّدُ الْمَنْظُورُ لِلْقِصَّةِ بِتَعَدُّدِ زَوَايَا النَّاظِرِينَ، وَلِذَا تَتَعَدَّدُ الاسْتِنْتَاجَاتُ وَالْفَوَائِدُ مِنْ شَخْصٍ إِلَى آخَرَ، وَيَكْفِيكَ أَنْ تَرَى الْقُرْآنَ الْعَزِيزَ، وَكَمْ فِيهِ مِنْ قِصَّةٍ، مِنْ قِصَّةِ الْخَلِيقَةِ الْأُولَى حَتَّى ﴿إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ [الأنبياء: ٩٦]، قِصَّةُ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [فصلت: ١١] إِلَى ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

إِلَى قَصَصِ الْآخِرَةِ، وَمَا أَعْظَمَهَا مِنْ قَصَصٍ! فَمِنْ ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ [المؤمنون: ١٠١] حَتَّى ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥].. إِلَى ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

ثُمَّ قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَصَصِ أَتْبَاعِهِمْ، وَقَصَصِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَالْمَلَائِكَةِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ وَاسْتِغْفَارِهِمْ، وَتَخَاصُمِ الْمَلَإِ الْأَعْلَى إِلَى هَارُوتَ وَمَارُوتَ، إِلَى قَصَصِ الْجِنِّ، وَقَصَصِ الْمَطَرِ وَالنَّبَاتِ وَعِبَرِ الدُّنْيَا إِلَى ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١] وَيَا لَهَا مِنْ قِصَّةٍ هَذِهِ نِهَايَتُهَا.

لَكِنَّ الَّذِي يَتَمَيَّزُ بِهِ خَطِيبٌ عَنْ خَطِيبٍ هُوَ كَيْفَ يَعْرِضُ الْقِصَّةَ، كَيْفَ يَبْرِيهَا وَيَرِيشُهَا وَيُسَدِّدُهَا، كَيْفَ يُفَصِّلُهَا وَيُوَصِّلُهَا، كَيْفَ يُخْرِجُهَا وَيُنْتِجُهَا وَيُخْرِجُ النَّتَائِجَ مِنْهَا، كَيْفَ يُنْزِلُهَا عَلَى الْوَاقِعِ.. بَلْ كَيْفَ يَجْعَلُهَا كَأَنَّهَا الْوَاقِعُ الَّذِي يَعِيشُهُ، فَإِذَا الْوَاقِعُ هُوَ الْقِصَّةُ الْجَدِيدَةُ

الْمَنْشُودَةُ قَدْ تَحوَّلَ مِنْ رَحِمِ الْقِصَّةِ الْقَدِيمَةِ بِبَرَكَةِ الْإِخْلَاصِ، وَذَخَائِرِ الصِّدْقِ الْمَرْصُودَةِ، وَحُسْنِ الْإِعْدَادِ، وَسَبْكِ الْكَلِمَاتِ الْمَعْدُودَةِ.

المَثَلِ الثَّانِي: التَّجْدِيدُ فِي خُطَبِ الرَّسَائِلِ:

شُعُورٌ غَرِيبٌ انْتَابَنِي حِينَ حَضَرْتُ أَوَّلَ خُطْبَةٍ لِي فِي حَيَاتِي بِطَرِيقَةِ رِسَالَةٍ أُوَجِّهُهَا لِلْحَاضِرِينَ، وَأَظُنُّهَا كَانَتْ (يَا وَلَدِي)، سِرُّ ذَلِكَ الشُّعُورِ الْغَرِيبِ هُوَ أَنَّنِي رَأَيْتُ أَنَّ خِطَابِي أَصْبَحَ مُبَاشِراً لِمَنْ أُرِيدُ دُونَ حِجَابٍ، وَأَنَّنِي رَفَعْتُ كَثِيراً مِنْ حُجُبِ الْمَعَانِي عَنِ الْعِبَارَاتِ وَوَسَائِلِ الْاتِّصَالَاتِ وَالْمُوَاصَلَاتِ، وَأَلْغَيْتُ مَا اعْتَدْنَاهُ مِنْ مُقَدِّمَاتٍ وَتَهْيِئَاتٍ لَمْ نَشْعُرُ بِهَا، وَأَصْبَحْتُ أُبَاشِرُ الاتِّصَالَ مَعَ مَنْ أُرِيدُ دُونَ تَكَلُّفٍ، وَلِذَا فَإِنِّي وَفَّرْتُ مِنَ الْوَقْتِ الْكَثِيرَ، وَأَزَلْتُ الْعَرَاقِيلَ مِنَ الطَّرِيقِ، وَجَعَلْتُهَا خَطّاً مُسْتَقِيماً يَصِلُ إِلَى أَقْرَبِ نُقْطَةٍ، وَبِذَلِكَ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَذْكُرَ أَضْعَافَ الْأَدِلَّةِ وَالشَّوَاهِدِ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ دُونَ زِيَادَةِ وَقْتٍ فِي خُطْبَةٍ مُمَاثِلَةٍ.

أَيُّهَا الْخَطِيبُ! يُخْطِئُ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ رَسَائِلَ الْخُطَبِ أَوْ خُطَبَ الرَّسَائِلِ فِيهَا تَمْثِيلٌ أَوْ تَكَلُّفٌ، اللَّهمَّ إِلَّا إِذَا كَانَ الْخَطِيبُ فِي نَفْسِهِ مُتَكَلِّفاً، بَلْ إِنَّ فِيهَا تَقَمُّصَ الشَّخْصِيَّةِ الْمُخَاطَبَةِ قَبْلَ الْخُطْبَةِ، إِنَّ خِطَابَكَ لَنْ يَصِلَ إِلَى مَدْعُوِّيكَ الْمَعْنِيِّينَ فِي الْخُطْبَةِ مَا لَمْ تُحَاوِلْ جَادّاً أَنْ تَتَمَثَّلَ شَخْصِيَّاتِ الْمَعْنِيِّينَ لِدَرَجَةِ التَّقَمُّصِ، فَتَعْرِفُ نَفسِيَّاتِهِمْ مِنْ دَاخِلِهَا وَكَأَنَّكَ أَنْتَ هُم، وَهُم أَنْتَ، كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

(غِبْتُ بِكَ عَنِّي... فَظَنَنْتُ أَنَّكَ أَنِّي)، كُلٌّ بِحَسْبِهِ، لَكِنْ لَا بُدَّ أَنْ تَعِيشَ نَفْسِيَّةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كَمَا يَعِيشُهَا هُوَ لَا كَمَا تَنْظُرُ لَهَا أَنْتَ، هُنَاكَ سَتَأْتِي بِالْعِلَاجِ الْمَقْبُولِ عِنْدَهُ لَا الْمَقْبُولِ عِنْدَكَ أَوْ عِنْدَ بَقِيَّةِ حُضُورِكَ، هُنَاكَ لَنْ يَكُونَ كَلَامُكَ مُجَرَّدَ مَلَامَةٍ، وَلَا إِشَاعَةٍ وَفَضِيحَةٍ، هُنَاكَ تَكْسِبُهُ وَلَنْ تُنَفِّرَهُ، هُنَاكَ يَحْتَرِمُكَ كَمَا احْتَرَمْتَهُ، وَيُفْضِي إِلَيْكَ كَمَا بَاشَرْتَهُ.

هَكَذَا فَلْتُحَدِّثِ الْعَاشِقِينَ، وَتُحَدِّثِ اللَّاعِبِينَ، وَتُحَدِّثِ الْقَمَّارِينَ، وَتُحَدِّثِ الْأَوْلَادَ، وَتُحَدِّثِ الْأَحْفَادَ، وَتُحَدِّثِ الْأَزْوَاجَ، وَتُحَدِّثِ الْحُكَّامَ، وَتُحَدِّثِ الْمَحْكُومِينَ، وَتُحَدِّثْ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ وَغَيْرِهِمْ عَلَى حِدَةٍ، وَكَأَنَّ حَدِيثَكَ نَابِعٌ مِنْ دَاخِلِ أَنْفُسِهِمْ، فَإِنَّ الْجَدِيدَ لَيْسَ مَطْلُوباً لِذَاتِهِ، إِنَّمَا هُوَ وَسِيلَةُ التَّأْثِيرِ الْعُظْمَى، ﴿رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وَإِنَّ مِنْ فَوَائِدَ هَذِهِ الصِّفَةِ أَنَّهُ يَعْرِفُهُمْ مَعْرِفَةَ أَنْفُسِهِمْ، وَيَعِزُّ عَلَيْهِ عَنَتُهُمْ.

وَهَذِهِ أَمْثِلَةٌ لِتِلْكَ الْخُطَبِ الَّتِي سَوْفَ تَمُرُّ مَعَكَ فِي كِتَابِنَا الْقَادِمِ بِإِذْنِ اللَّهِ: إِلَى أَخِي مُدْمِنِ الْخَمْرَ - يَا أَحْفَادَنَا - إِلَى الْمُحْسِنِ وَالْمِسْكِينِ- لَكَ دَعْوَةٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - يَا صَاحِبَ السُّوقِ - يَا أَخَانَا الْمُرَابِي.

وَلَوْلَا خَشْيَتِي كِبَرَ حَجْمِ الْكِتَابِ لَعَرَضْتُ فِيهِ هَذِهِ الْخُطَبَ كَامِلَةً.

* * * * *

المبحث التاسع
التَّجْدِيدُ فِي الْخُطْبَةِ الثَّانِيَةِ

إنَّ الْخُطْبَةَ الثَّانِيَةَ وَإِنْ كَانَتْ تَبعاً لِلأُولَى فَإِنَّهَا يَنْبَغِي أَنْ تُعَامَلَ بِصِفَتِهَا كَيَاناً مُسْتَقِلاً، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ تُهْمَلَ كَأَنَّهَا مُلْحَقٌ فِي الْمَنْطَقَةِ الْخَلْفِيَّةِ لِلْبَيْتِ.

وَمَعَ هَذَا فَإِنَّ مِنَ الْخَطَأِ الَّذِي أَرَاهُ أَنْ تَتَحَدَّثَ الْخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ فِي مَوْضُوعٍ غَيْرِ مَوْضُوعِ الْخُطْبَةِ الْأُولَى بِحُجَّةِ أَنَّ الْخَطِيبَ يُرِيدُ تَعْظِيمَ الْإِفَادَةِ، وَهَذَا مِنْ أَضَرِّ مَا يَكُونُ عَلَى الْوَحْدَةِ الْمَوْضُوعِيَّةِ لِلْخُطْبَةِ، فَإِنَّ الْكَلَامَ إِذَا اخْتَلَفَ أَنْسَى آخِرُهُ أَوَّلَهُ، ثُمَّ إِنَّه يَدُلُّ عَلَى قِصَرِ بَاعِ الْخَطِيبِ فِي مَنْهَجِيَّةِ الْبَحْثِ لِمَوْضُوعِ خُطْبَةِ الْجُمُعَةِ وَإِنْ كَانَ عَلَّامَةً مُتْقِناً، ذَلِكَ أَنَّ الَّذِي يَبْحَثُ فِي مَوْضُوعِ الْجُمُعَةِ مَهْمَا صَغُرَتْ نُقْطَتُهُ يَنْبَغِي أَنْ يَجْعَلَ خُطْبَتَهُ كَبَحْثٍ مُتَكَامِلٍ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ، وَهَذَا فِي الْعَادَةِ مَا تَضِيقُ عَلَيْهِ نِصْفُ السَّاعَةِ بَلِ السَّاعَةُ، وَلَكِنَّهُ يَسْقُطُ مِنْهُ الْمُهِمَّ فَالْأَهَمَّ حَتَّى يَبْقَى مَا لَا غِنَى عَنْهُ، وَمَا يُؤَدِّي الْغَايَةَ عَلَى أَحْسَنِ وَجْهٍ.

هَذَا أَوَّلًا، وَأَمَّا ثَانِياً فَأَرَى مِنَ الْأَفْضَلِ أَنْ تَكُونَ الْخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ فِي

أَغْلَبِ الْأَحْيَانِ تَتَحَدَّثُ فِي تَنْزِيلِ التَّأْصِيلِ، أَيْ: فِي مَطْلُوبِ الْخَطِيبِ مِنَ النَّاسِ فِي خُطْبَتِهِ هَذِهِ، وَلَكِنْ عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِضَهَا بِأُسْلُوبٍ مُؤَثِّرٍ غَايَةَ التَّأْثِيرِ، فَإِنَّ رَفْعَ الصَّوْتِ هُوَ الْأَفْضَلُ فِيهَا، وَهَذَا الَّذِي أَرَاهُ فِي غَالِبِ الْأَحْيَانِ، وَلِكُلِّ خَطِيبٍ شَخْصِيَّتُهُ، وَبِمَا أَنَّ خِتَامَ الْخُطْبَةِ سَيَكُونُ بِالثَّانِيَةِ فَلْتَكُنِ الْأَعْلَى صَوْتاً، الْأَعْلَى تَأْثِيراً، إِلَى الْأَقْوَى نِقَاطاً؛ كَيْ تَكُونَ الْأَبْقَى أَثَراً.

وَهُنَا لَابُدَّ لِلْخَطِيبِ أَنْ يَحْذَرَ أَشَدَّ الْحَذَرِ أَنْ يَتْرُكَ نِقَاطَ الْخُطْبَةِ الثَّانِيَةِ غَيْرَ مُرَتَّبَةٍ فِي ذِهْنِهِ، غَيْرَ مُحَضَّرَةِ الْعَنَاصِرِ، فَرُبَّمَا طَمَسَ الْارْتِبَاكُ فِي الْخُطْبَةِ الثَّانِيَةِ مَحَاسِنَ الْخُطْبَةِ الْأُولَى، إِنَّ الْخُطْبَةَ الْأُولَى أَلْوَاحٌ فِي صِنَاعَةِ سَفِينَةٍ، لَكِنِ الْخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ دُسُرُهَا.

❃ ❃ ❃ ❃ ❃

الفصل الرابع

أولًا: محظورات في التجديد.

ثانياً: الخاتمة.

مَحْذُورَاتٌ فِي التَّجْدِيدِ

المَحْذُورُ الأَوَّلُ: الْخُطْبَةُ الْمَسْجُوعَةُ:

لَا تَقُلْ مَا حُكْمُ السَّجعِ فِي الْخُطْبَةِ، إِنَّ مَنْ كَانَتْ لَهُ غَايَةٌ عَظِيمَةٌ اتَّخذَ كُلَّ وَسِيلَةٍ مَشْرُوعَةٍ لِتَحْقِيقِهَا وَتَرْسِيخِهَا، سَوَاءٌ أَكَانَتْ أَشْعَاراً، أَمْ أَسْجَاعاً، أَمْ حِكَماً، أَمْ قِصَصاً، وَخَيْرُ ذَلِكَ الْقُرْآنُ، وَقَوْلُ سَيِّدِ الأَنَامِ ﷺ.

لَكِنْ مِنَ التَّجَاوُزِ عَنِ الغَايَةِ وَإِشْغَالِ السَّامِعِينَ بِالْوَسِيلَةِ أَنْ يَجْعَلَ الْخَطِيبُ السَّجْعَ لَهُ صَنْعةً وسُنَّةً مُتَّبَعةً.

أَرَأَيْتَ كَيْفَ يَقِفُ الرَّجُلُ طَوِيلًا مُعْجَباً بِلَوْحَةٍ قُرْآنِيَّةٍ مُزَيَّنَةٍ بِأَرْوَعِ الزَّخَارِفِ وَمُخْتَلَفِ الأَشْكَالِ الفَنِيَّةِ وَالهَنْدَسِيَّةِ، بِأَيِّ شَيءٍ سَيَكُونُ انْشِغَالُ هَذَا الرَّجُلِ؟ أَبِخَطِّ اللَّوْحَةِ الَّتِي هِيَ وَسِيلَةٌ؟ أَمْ بِكَلَامِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ غَايَةٌ؟! لَقَدْ نَهَى ﷺ عَنِ الدُّعَاءِ الْمَسْجُوعِ؛ لِأَنَّهَا كَلِمَاتٌ تُرْفَعُ إِلَى اللَّهِ، وَهَكَذَا أَنْتَ إِذَا اعْتَقَدْتَ أَنَّ كَلِمَاتِكَ تَتَوجَّهُ بِهَا إِلَى اللَّهِ، فَمَا يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَتكَلَّفَ سَجعَهَا، دَعْهَا تَجْرِي هَادِرَةً بِعَظَمَتِهَا الْمُطْلَقَةِ، لَا يُقَيِّدُهَا سَجعٌ وَلَا غَيْرُهُ.

لَيْسَ عُذْراً أَنْ تَجعَلَ خُطْبَتَكَ كُلَّهَا مَسْجُوعَةً إِنْ كُنْتَ لَا تَسْتَطِيعُ

إِلَّا ذَلِكَ، أَوْ أَنَّ السَّجْعَ عِنْدَكَ سَجِيَّةٌ غَيْرُ مُتكَلَّفٍ، فَإِنَّ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ مَنْ أَنِفَ الإِكْثَارَ مِنَ الشِّعْرِ مَعَ قَوْلِهِ: «لَوْ شِئْتُ أَنْ أَجْعَلَ كَلامِي كُلَّهُ شِعْراً لجَعَلْتُهُ، لَكِنِّي عَلِمْتُ أَنَّ الشِّعْرَ يُزْرِي بِأَهْلِهِ».

وَلَوْلَا الشِّعْرُ بِالعُلَمَاءِ يُزْرِي ... لَكُنْتُ الْيَوْمَ أَشْعَرَ مِنْ لَبِيدِ

وَمَعَ هَذَا فَإِنَّ كِتَابَ «الرِّسَالَة» للشَّافِعِيِّ وَكِتَابَ «الأُم» وَكِتَابَ «الحُجَّة» لَمْ يُكْتَبْ بِطَرِيقَةِ السَّجْعِ، وَصَاحِبُها هُوَ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجْعَلَهَا كُلَّها شِعْراً.

وَلَوْ أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ هَوِيَ شَيْئاً الْتَزَمَهُ لاتَّبَعْنَا أَهْوَاءَنَا فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَكَمْ لِلنَّفْسِ مِنْ نَصِيبٍ فِي هَذَا السَّجْعِ الْمُلْتَزَمِ مِنْ قِبَلِ صَاحِبِهِ، وَكَمْ تَفُوتُ صَاحِبَهُ مِنَ الْمَعَانِي العَظِيمَةِ، وَهُوَ ذَاهِلٌ بِسَجْعِهِ؟

إِنَّ السَّجْعَ أَسْرٌ لَذِيذٌ، لَكِنَّ الفَكَاكَ مِنْهُ عَسِيرٌ.

وَلَقَدِ الْتَزَمْتُ فَتْرَةً فِي الْخُطْبَةِ بِالسَّجْعِ مُتَلَذِّذاً بِهِ، ذَاهِباً مَعَهُ، وَأَنَا أَحْسِبُ أَنَّ كُلَّ الْمَعَانِي الَّتِي أُرِيدُ قَدْ أَدْرَكْتُهَا بِطَرِيقَةٍ أَجْمَلَ وَأَرْوَعَ، حَتَّى نَبَّهَنِي إِلَى هَذَا أَحَدُ الإِخْوَةِ، وَلَمْ يَدُرْ فِي خَلَدِي إِنْكَارُهُ بِحُكْمِ بَدَاوَتِهِ وَتَذَوُّقِهِ لِلشِّعْرِ وَالفَصَاحَةِ، فَإِذَا بِهِ لِسَلَامَةِ ذَوْقِهِ مِنَ التَّزْوِيرِ وَالتَّزْيِيفِ يُنْكِرُ عَلَيَّ هَذَا، وَيَقُولُ: إِنَّهُ يَشْغَلُنِي وَيَشْغَلُ كُلَّ النَّاسِ عَنِ الْمَعَانِي إِلَى الأَلْفَاظِ، حَيْثُ يَبْقَى الْقَلْبُ مُعَلَّقاً بِالسَّجْعَةِ الْمُقَابِلَةِ

للسَّجْعَةِ الأُولَى، وَكُلُّ هَذَا عَلَى حِسَابِ الْمَعْنَى. وَصَدَقَ واللَّهِ، وَمَا سَجَعْتُ خُطْبَةً بَعْدَهَا.

فَإِيَّاكَ أَيُّهَا الْخَطِيبُ أَنْ تُؤثِّرَ وَسِيلَتُكَ عَلَى غَايَتِكَ، لَا يَلِيقُ بِكَ أَنْ تَرْضَى بِقَيْدٍ أَوْ تَسْتَكِينَ لِأَسْرٍ حَتَّى لَوْ كَانَ خَيْطاً مِنْ حَرِيرٍ، أَوْ قَفَصاً مِنْ ذَهَبٍ، كَيْفَ أَنْتَ مِمنْ يَأْمُرُ النَّاسَ بِكَسْرِ القُيُودِ، بَيْنَمَا قَيْدُكَ ظَاهِرٌ عَلَى خُطْبَتِكَ؟!

إِنَّكَ مُخْطِئٌ خَطَأً كَبِيراً إِذَا حَسِبْتَ أَنَّ هَذَا أَمْرٌ ظَاهِرِيٌّ فَحَسْبُ، إِنَّهُ مَظْهَرٌ لِأَسْرٍ قَوِيٍّ يُقَيِّدُ مَعَانِيكَ الكُبْرَى فَلَا تَخْرُجُ مِنْهَا إِلَّا إِلَى أَسْرٍ آخَرَ. وَكَمْ اسْتَصْعَبَ عَلَيْكَ السَّجعُ مَرَّةً، فَاسْتَبْدَلْتَ بِهِ كَلِمَةَ سَجْعٍ غَيْرِهُ، وَلَوْ كَانَ أَقَلَّ أَدَاءً للمَعْنَى الْمُرَادِ!

كَفَاكَ مَا مَضَى مِنْ عُمرٍ وَأَنْتَ تَحْبِسُ الْمَعَانِي بِحَجَرِ السَّجعِ عَلَى فُوَّهَةِ السَّيلِ، وَقَدْ آنَ لَكَ أَنْ تُطْلِقَ طَاقَتَكَ عَنْ آخِرِهَا، وَتُطْلِقَ مَعَهُ عِبَارَاتِكَ؛ فَإِنَّ القُدْرَةَ الَّتِي أَخْرَجَتِ العِبَارَةَ مَسْجُوعةً مِنْ قَبْلُ لَهِيَ أَقْدَرُ عَلَى البَيَانِ السَّاحِرِ بِالمَعْنَى البَاهِرِ بِغَيْرِ قَيْدٍ مِنْ سَجعٍ وَغَيْرِهِ.

المَحْذُورُ الثَّانِي: الْتِزَامُ الوَرَقَةِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَى تَرْكِهَا:

لَمْ يَثْبُتْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ شَرَعَ بِفِعْلِهِ، أَوْ قَوْلِهِ، أَوْ إِقْرَارِهِ الْخُطْبَةَ مِنْ وَرَقَةٍ، وَلَمْ يَثْبُتْ أَنَّ أَحَداً مِنْ أَصْحَابِهِ الكِرَامِ وَخُلَفَائِهِ العِظَامِ خَطَبَ

يَوْماً مِنَ الأَيَّامِ بِوَرَقةٍ، وَلَا أَعْرِفُ أَنَّ أَحداً مِنْ خُطَبَاءِ الْجُمُعَةِ فِي القُرُونِ الثَّلَاثَةِ الأُولَى خَطَبَ بِوَرَقةٍ.

أَنَا لَا أَقُولُ: إِنَّ الْخُطْبَةَ قِرَاءةً مِنْ وَرَقَةٍ لَا تَصِحُّ، أَوْ لَا تَجُوزُ، أَوْ أَقُولُ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ قَادِراً عَلَى الْقِرَاءَةِ بِوَرَقةٍ، لَكِنَّهُ لَمْ يَقْرَأْ، لَكِنَّ وَسَائِلَ التَّشْرِيعِ كَثِيرَةٌ مَعْرُوفَةٌ. وَلَا أَقُولُ: إِنَّ الأَفْضَلَ لِمَنْ لَا يَعْرِفُ الْخُطْبَةَ ارْتِجَالًا أَنْ لَا يَخْطُبَ بِوَرَقةٍ، لَا هَذَا، وَلَا هَذَا، وَلَكِنْ لَوْ كَانَتِ الْخَطَابَةُ بِوَرَقةٍ كَالْخَطَابَةِ ارْتِجَالًا لَاسْتَوَى الحَافِظُ وَغَيْرُ الحَافِظِ.

وَصدَقَ مَنْ قَالَ: «إِنَّ مَا يَخْرُجُ مِنَ الْقَلْبِ يَدْخُلُ إِلَى القَلْبِ»، وَهَذِهِ قَاصِمَةُ ظَهْرِ الْخُطْبَةِ مِنْ وَرَقَةٍ، فَإِنَّ كُلَّ مَنْ يَرَى خَطِيبَهُ يَخْطُبُ بِوَرَقةٍ يَشْعُرُ أَنَّ خُطْبَتَهُ لَا تَخْرُجُ مِنْ قَلْبِهِ، وَإِنَّما مِنْ وَرَقَتِهِ، فَيَقِلُّ اهْتِمامُهُ حَتْماً.

وَكَمْ تَذْهَبُ مَعَ كَلِمَاتِ الخَطِيبِ البَلِيغَةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَيَأْخُذُ بِلُبِّكَ، وَمَا إِنْ تَرْفَعُ بَصَرَكَ إِلَيْهِ فَتَراهُ يَخْطُبُ بِوَرَقةٍ حَتَّى يَقِلَّ اهْتِمامُكَ بِهِ، وَيَنْصَرِفَ قَلْبُكَ عَنْهُ وَلَوْ بَعْضَ انْصِرَافٍ.

سَلْ صَغِيرَكَ عَنْ فَهْمِهِ لِخَطِيبٍ بِوَرَقةٍ؟ فَإِنَّكَ رُبَّمَا لَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ شَيئاً، وَرُبَّمَا قَالَ لَكَ مُسْتَهْجِناً إِنَّهُ يَنْقُلُ مِنْ وَرَقةٍ! وَسَلْهُ عَنْ خَطِيبٍ مُتَفَاعِلٍ بِنَفْسِ طَرِيقَةِ صَاحِبِ الوَرَقَةِ وَأَقَلَّ بَلَاغَةً مِنْهُ؟ فَلَرُبَّمَا سَرَدَ لَكَ صَغِيرُكَ الْخُطْبَةَ سَرْداً، أَوْ حَفِظَ مَا فِيهَا مِنَ

القَصَصِ عَلَى الأَقَلِّ.

وَكَمْ تتمَنَّى لخَطِيبٍ مُخْلِصٍ مُفوَّهٍ أَنْ لَا يُمْسِكَ بِوَرَقةٍ لِيَتضاعَفَ تَأْثيرُهُ، وَيَزْدَادَ للقُلُوبِ أَسْرُهُ.

أَيُّها الْخَطِيبُ: لَوْ **كُنْتَ تَحْضُرُ الْجُمُعَةَ** عِنْدَ خَطِيبٍ مَا، فَرَأَيْتَهُ يَتلفَّتُ عَنْكَ إِلَى حَائِطِ الْمَسْجِدِ الأَيْمَنِ مَرَّةً، وَالأَيْسَرِ أُخْرَى، أَوْ يَلْتَفِتُ إِلَى قَدَمِهِ، أَوْ ثَوْبِهِ، وَهُوَ مُسْتَمِرٌّ فِي خَطَابَتِهِ أَلَا يَشْغَلُكَ تَلفُّتُه ذَلِكَ، وَيَشْغلُ جَمِيعَ الْمُصلِّينَ عَنْ خُطْبَتِهِ مَهْمَا كَانَتْ بَلِيغةً، فَكَيْفَ وَهَذَا الْخَطِيبُ لَا يَكَادُ يَرْفَعُ رَأْسَهُ لَحْظَةً خَاطِفَةً مِنْ وَرَقَتِهِ فِي وُجُوهِ حَاضِرِيهِ حَتَّى يَعُودَ خَافِضاً رَأْسَهُ إِلَى الوَرَقَةِ ثَانِيةً وَثَالِثَةً وَعَاشِرَةً وَمِائَةً، وَهَكَذَا فِي حَرَكَةٍ مُستَمِرَّةٍ كَحركَةِ الطَّيْرِ يَنْقُرُ الحَبَّ، أَوِ الهُدْهُدِ يَنْقُبُ فِي الأَرْضِ، وَلِذَا تَجِدُ هَذِهِ الرُّؤوسَ الشَّاهِقَةَ لخَطِيبِهَا تَتحَرَّكُ بِحَرَكَتِهِ، بَلْ قُلُوبُهَا تَنْصَرِفُ عَنْهُ حِينَ يَنْصَرِفُ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهَا، وَذَلِكَ لارْتِبَاطِ النَّظَرِ بِالقَلْبِ، وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ ارْتِبَاطَ البَصَرِ بِالبَصِيرَةِ.

إِنَّ السَّامِعَ مَهْمَا كَانَ يَثِقُ بِخَطِيبِهِ، وَمَهْمَا أَظْهَرَ الْخَطِيبُ تَأَثُّرَهُ الصَّادِقَ وَهُوَ يَقْرَأُ خُطْبَتَهُ فَإِنَّ السَّامِعَ لَا يُشَارِكُهُ ذَلِكَ التَّأْثِيرَ كَمَا لَوْ كَانَ يَخْطُبُ بِغَيْرِ وَرَقةٍ، وَلِسَانُ حَالِهِ يَقُولُ: إِنَّهُ هُوَ الَّذِي كَتَبَ هَذَا

مِنْ قَبْلُ، فَكَيْفَ يَبْكِي وَكَلِمَاتُهُ بِالنِّسْبَةِ لَهُ قَدِيمَةٌ؟! إِنَّ هَذَا طَعْنٌ غَيْرَ مُبَاشِرٍ بِالمِصْدَاقِيَّةِ لَدَى قُلُوبِ كَثِيرٍ مِنَ الْحَاضِرِينَ، وإِنْ لَمْ يَصِحَّ ظَنُّهُمْ أَحْيَاناً، وَإِنْ لَمْ يَنْطِقُوا بِهِ بِأَلْسِنَتِهِمْ، بَيْنَمَا الْمُرْتَجِلُ خُطْبَتَهُ مَهْمَا كَانَ قَدْ قَرَأَ خُطْبَتَهُ مِنْ قَبْلِ أَدَائِهَا، فَإِنَّ الْحَاضِرَ يَغْلِبُهُ تَوَهُّمُ اللَّحْظَةِ بِأَنَّهَا وَلِيدَةُ اللَّحْظَةِ؛ لِأَنَّهُ يَحْكُمُ بِنَاءً عَلَى مَا يَرَاهُ... وَلَيْسَ نَوْعاً مِنَ الأَخْبَارِ فِي عُرْفِ الإِنْسَانِ أَقْوَى مِمَّا تُشَاهِدُهُ عَيْنَاهُ، وَتَسْمَعُهُ أُذُنَاهُ، وَلَطَالَما اعْتَذَرَ الْحَاضِرُونَ بِأَنَّ هَذَا التَّأَثُّرَ جَاءَ لِنَتِيجَةِ أَمْرٍ جَدِيدٍ بَدَا للشَّيْخِ الْخَطِيبِ.

إِنَّ السَّامِعَ لِمُرْتَجِلِ خُطْبَتِهِ يَشْعُرُ أَنَّهُ يَتَدَفَّقُ صِدْقاً، وَيَفِيضُ رَحْمَةً، وَيَشْعُرُ إِذَا أَنْذَرَ كَأَنَّهُ النَّذِيرُ العُرْيَانُ، وَإِذَا بُشِّرَ فَكَأَنَّ بِشَارَتَهُ تَنْبَعِثُ مِنْ أَعْمَاقِ قَلْبِهِ مَشْحُونَةً بِمَحَبَّتِهِ، وَإِذَا خَشَعَ خَشَعَتْ مَعَهُ القُلُوبُ قَسْراً، وَإِذَا بَكَى بَكَى مَعَهُ الْحَاضِرُونَ قَهْراً.

سَوْفَ يُدَافِعُ عَنِ الوَرَقَةِ مَنِ الْتَزَمَهَا طَوِيلاً، لَكِنَّهُ حِينَ يَتْرُكُهَا سَيَعْرِفُ بَعْدَ الْخُطْبَةِ الثَّالِثَةِ غَالِباً أَنَّ الوَرَقَةَ كَانَتْ لَهُ أَسْراً.

لَا تَخْشَ الخَطَأَ، وَلَا تَخْشَ التَّلَعْثُمَ، وَلَا تَخْشَ النِّسْيَانَ، فَذَلِكَ طَبِيعِيٌّ، وَأَقُولُ لَكَ سَوْفَ تَتَلَعْثَمُ أَوَّلًا، وَلَنْ تَقْدِرَ أَنْ تَتَجَنَّبَ الخَطَأَ أَبَداً، وَلَابُدَّ أَنْ تَنسَى، لَكِنَّ الأَهَمَّ أَنَّكَ لَنْ تَنْسَى نَفْسَكَ كُلَّهَا إِذَا مَا اكْتَشَفْتَ يَوْماً وَأَنْتَ فَوْقَ الْمِنْبَرِ أَنَّ وَرَقَةَ الْخُطْبَةِ قَدْ بَقِيَتْ فِي البَيْتِ

فِي الثَّوْبِ الآخَرِ الَّذِي لَبِسْتَهُ، ثُمَّ اسْتَبْدَلْتَهُ فِي آخِرِ لَحْظَةٍ لِخُرُوجِكَ عَلَى عَجَلٍ!

وَالأَهَمُّ مِنْ كلِّ هَذَا أَنَّكَ سَوْفَ تتطوَّرُ، سَوْفَ يَزُولُ التَّلَعْثُمُ شَيْئاً فَشَيئاً، سَوْفَ يَذْهَبُ النِّسْيَانُ شَيْئاً فَشَيْئاً، سَوْفَ يَقْوَى الاسْتِحْضَارُ، وَتَقْوَى الذَّاكِرَةُ شَيْئاً فَشَيْئاً، بَلْ سَوْفَ يَقْوَى توكُّلُك عَلَى اللَّهِ أَكْثَرَ كَمَا يَقْوَى أَخْذُكَ بِالأَسْبَابِ أَكْثَرَ، فَأَنْتَ لَنْ تَتمكَّنَ مِنْ تَرْكِ الوَرَقَةِ إِلَّا بِالتَّوكُّلِ، وَلَنْ تَخْطُبَ بِغَيْرِ وَرَقةٍ إِلَّا بِحُسْنِ الإِعْدَادِ.

إِنَّ الْحَقِيقَةَ الخَفِيَّةَ أَنَّ الوَرَقَةَ كَانَتْ حِجَاباً دَاخِلَ النَّفْسِ دُونَ ظُهُورِ مَلَكَاتٍ كَثِيرَةٍ عِنْدَكَ.

مَهْمَا كُنْتَ مُسْتَعِدّاً لِلْخُطْبَةِ بِغَيْرِ وَرَقةٍ فَإِنَّ أَفْكَارَ البَاطِنِ وَصُورَهُ تُعْرَضُ مِنْ ذَاكِرَتِكَ الخَلْفِيَّةِ إِلَى مَعْرُوضٍ أَمَامَ عَيْنَيْكَ كَأَنَّكَ تَرَاهَا وَتَنْتَقِي مِنْهَا، وَلِذَلِكَ قَلَّما يَخْطُبُ خَطِيبٌ مُرْتَجِلًا لَا يَزِيدُ شَيْئاً مَهْمَا كَانَ حِفْظُهُ لخُطْبَتِهِ، تُرَى مِنْ أَيْنَ جَاءَتِ الزِّيَادَةُ وَقَدْ حَضَّرَ الْخَطِيبُ الْخُطْبَةَ، وَانْتَهَى مِنْهَا قَبْلَ بِدَايَتِهَا؟

فَالوَرَقَةُ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ كَسَلِ الذَّاكِرَةِ، وَخُصُوصاً إِذَا رَمَقَتِ الْخَطِيبَ الأَلْحَاظُ، وَتَلَعْثَمَتْ عِنْدَهُ الأَلْفَاظُ.

إِنَّ الوَرَقَةَ تَمْنَعُ قِرَاءَةَ الْحَاضِرِينَ جَيِّداً، فَمَهْمَا كَانَ الْخَطِيبُ ذَا

فِرَاسَةٍ فِي النَّاسِ فإنَّ اخْتِلاسَهُ النَّظَرَ للنَّاسِ لَيْسَ كَتَرْكِيزِهِ النَّظَرَ عَلَى كُلِّ الْحَاضِرِينَ عَلَى دَوَامِ خُطْبَتِهِ.

المَحْذُورُ الثَّالِثُ: لَا بَقَاءَ إِلَّا بِكَلِمَةِ الحَقِ:

أَرَأَيْتَ كَيْفَ حَنَّ الجِذْعُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَنِيناً ضَجَّ بِهِ الْمَسْجِدُ لَمَّا تَرَكَهُ النَّبِيُّ ﷺ؟ كَذَلِكَ هُوَ حَنِينُ الْخَطِيبِ لِمِنْبَرِهِ إِذَا مُنِعَ ظُلْماً مِنْ صُعُودِهِ مَرَّةً أُخْرَى.

حقّاً، إِنَّ حَنِينَ الجِذْعِ كَانَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لَكِنَّ حَنِينَ الْخَطِيبِ الْمَحْرُومِ إِنَّمَا هُوَ حَنِينٌ إِلَى مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

ذَاكِ حَنِينُ الجِذْعِ وَهُوَ جِذْعٌ، وَهَذَا حَنِينُ قَلْبٍ مَوْجُوعٍ وَخَطِيبٍ مَفْجُوعٍ، حَنِينُ إِحْسَاسٍ وَأَلَمٍ وَدُمُوعٍ، حَنِينُ مَحْرُومٍ لَا يَمْلِكُ إِلَّا أَنْ يَصِيحَ مِنْ أَعْمَاقِهِ «وامِنْبَرَاه».

لَكِنَّ ذَلِكَ لَا يَدْفَعُكَ لِأَنْ تَسْتَمْسِكَ بِالْمِنْبَرِ إِذَا كَانَ الْمَطْلُوبُ هُوَ النِّفَاقَ بِأَيِّ صُورَةٍ مِنْ صُوَرِهِ؟ أَوْ كَانَ الْمَطْلُوبُ هُوَ الضِّرَارَ وَالإِضْرَارَ بِأَيِّ فَرِيقٍ مِنْ العُلَماءِ، أَوِ الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ!

أَوْ كَانَ الْمَطْلُوبُ هُوَ تَسْوِيغَ جَرَائِمَ تُتَّخَذُ ضِدَّ الصَّالِحِينَ! أَوْ كَانَ الْمَطْلُوبُ تَمْرِيرَ شَرَائِعَ تُخَالِفُ شَرْعَ رَبِّ العَالمِينَ! أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ.

عِنْدَهَا قُلْهَا بِغَيْرِ تَرَدُّدٍ: ﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ﴾ [هود: ٣٥]، ﴿وَمَآ

أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ﴾ [هود: ٨٨] قُلْهَا ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

أيُّ بَيْعٍ تَدْفعُونَنِي إِلَيْهِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧] أَأَكُونُ فِي تَصْنِيفِكُمْ خَطِيباً، وَأَكُونُ عِنْدَ اللَّهِ شَيْطاناً؟! ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩] قَدْ كُنْتُ آمُلُ أَنْ أَدْفعَ ثَمَنَ وِرَاثَتِي الأَنْبِيَاءَ أَوَّلَ مَا صَعِدْتُ الْمِنْبَرَ، وَهَا قَدْ جَاءَ وَقْتُهُ ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩].

كَيْفَ يَجُوزُ لِي لأَجْلِ بَقَائِي خَطِيباً أَنْ أَخْطُبَ بِالبَاطِلِ، أَوْ أَحْمِيَ البَاطِلَ، أَوْ أُرَوِّجَ لِلبَاطِلِ، أَوْ أَقِفَ ضِدَّ الحَقِّ؟ هَلْ وُجُودِي عَلَى الْمِنبَرِ غَايَةٌ أَمْ أَنَّ الْحَقَّ هُوَ الغَايَةُ؟

مَاذَا أَقُولُ لِهَؤلَاءِ الشُّهُودِ إِذَا ضَلُّوا بِسَبَبِي، وَتَعَلَّقُوا بِي يَوْمَ القِيَامَةِ؟

كَيْفَ أَفْهَمُ الْيَوْمَ قَوْلَهُ تَعالَى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

كَيْفَ أَفْهَمُ إذاً قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

وكَيْفَ أَفْهَمُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

وكَيْفَ أَفْهَمُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩].

مَا يُدْرِينِي إِذَا غَيَّرتُ وَبَدَّلتُ لِمَرْحَلةٍ قَصِيرةٍ عَلَى أَمَلِ العَوْدَةِ أَنِّي لَن أَمُوتَ فِي مَرْحَلَةِ الفِتْنَةِ هَذهِ؟ أَيَجُوزُ لِي أَنْ أَفْسُقَ طَرَفَ النَّهَارِ وَأَتُوبَ آخِرَهُ؟ أَمْ يَجُوزُ لِي أَنْ أَضِلَّ أَوَّلَ النَّهَارِ وَأَرْجِعَ آخِرَهُ؟!

سُنَّةُ اللَّهِ تَقُولُ لأَهْلِ الْمُلْكِ وَالمَمالِكِ الإِسْلَامِيَّةِ: إِنَّ حِفْظَ الْمُلْكِ مَرْهُونٌ بِأَمَانِ الْمَسْجِدِ: مَمالِكُ تَزُولُ فِي عَشَرَاتِ السِّنِينَ، وَمَمْلَكَةُ بِرِيطَانيا أَصْبَحَ لَهَا أَكْثَرُ مِنْ أَلْفِ سَنَةٍ، وَعَائِلَتُهَا تَحكُمُ مُنْذُ ذَلِكَ الْوَقْتِ، فَنتَساءَلُ، فَلا نَرَى سَبَباً لِبَقَائِهَا إِلَّا العَدْلَ، وَعِندَنا مَمالِكُ هُنَا لَمْ تَدُمْ عُمُرَ فَرْدٍ وَاحِدٍ مِنَ الأَفْرَادِ، فَإِذَا جِئْتَ لِلسَّبَبِ وَجَدْتَ الْقُرْآنَ يُخبِرُكَ بِهِ، ذَلِكَ هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤]، يُخرِّبُ بَيْتَ اللَّهِ، وَتُرِيدُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يُعَمِّرَ بَيْتَه

أَوْ بَلَدَهُ؟ وَهَلْ كَانَ فِي سُجُونِ هَؤُلَاءِ غَيْرُ أَهْلِ الْمَسْجِدِ؟ وَهَلْ يُرَكِّزُ جِهَازُهُ الأَمْنِيُّ وَأَجْهِزَةُ تَنَصُّتِهِ إِلَّا عَلَى أَهْلِ الْمَسْجِدِ؟ وهَلْ كَانَ دَمَارُهُمْ إِلَّا دَمَار مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ تُرِيدُونَ أَنْ يَصْفُوَ لَهُمُ الزَّمَانُ إِلَى الأَبَدِ وَهُمْ يَعْتَدُونَ عَلَى خَيْرِ يَوْمٍ فِي الزَّمَانِ ؟

قَدْ رَبَطَ اللَّهُ وُجُودَ آدَمَ عَلَيْهِ السلام وَهُبُوطَهُ إِلَى الأَرْضِ وَذَهَابَ الدُّنْيَا بِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، أَفَلَا يَكُونُ قَدْ ذَهَبَ مَمَالِكُ لَا يُذْكَرُ عُمُرَهَا فِي عُمُرِ الزَّمَانِ، وَلَا يَكَادُ يُرَى مَكَانُها فِي مُلْكِ اللَّهِ إِذَا دُمِّرَتِ الْجُمُعَةُ؟!

يُنَادِي اللَّهُ عِبَادَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الجمعة:٩]، فَإِذَا لَبَّى العِبَادُ النِّدَاءَ، وَسَعَوْا وَجَاؤوا وَجَدُوا ذِكْرَ هَؤُلَاءِ مَعَ ذِكْرِ اللَّهِ؟! يَتْرُكُونَ الدُّنْيَا وَالبَيْعَ، وَيَهْرَعُونَ إِلَى الْمَسَاجِدِ الجَامِعَةِ، فَإِذَا جَاؤُوا وَجَدُوا الْخَطِيبَ قَدْ تَحَوَّلَ إِلَى سِمْسَارٍ، يَشْتَرِي طَاعَاتِهِمْ حَتَّى عَلَى حِسَابِ اللَّهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ، وَهُمْ يَقْرَؤُونَ فِي الرَّكْعَةِ الأُولَى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٦، ١٧] وَيَقْرَؤونَ فِي الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية:٢٥، ٢٦]!

الْمَحْذُورُ الرَّابِعُ: تَرْكُ نَصِيحَةِ الْخُطَبَاءِ:

أَيُّها الحَاضِرُونَ لِخُطْبَةِ الجُمُعَةِ: إِنَّنِي أَخْشَى إِذَا لَمْ أُصارِحْكُمْ بِحَقِّ الْخطِيبِ عَلَيْكُمْ أَنْ تَذْهَبُوا إِلَى اللَّهِ وَأَنْتُمْ مُفَرِّطُونَ فِي حقٍّ، هُوَ مِنْ أَعْظَمِ الحُقُوقِ الشَّرْعِيَّةِ!

خُطَباؤُكُمْ الصَّادِقُونَ لَا يُرِيدُونَ طُقُوساً، وَلَا خُمُساً، وَلَا شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ إِيَّاكُمْ أَنْ يُجَرِّئَكُمْ عَلَى العُلَمَاءِ وَالْخُطَبَاءِ تَوَاضُعُهُمْ بَيْنَكُمْ، وَخُلْطَتُهُمْ لَكُمْ، إِيَّاكُمْ إِذَا جَلَسُوا فِي الْمَجَالِسِ أَنْ تُعَامِلُوهُم كَأَيٍّ وَاحِدٍ فِي الْمَجْلِسِ.

إِيَّاكُمْ إِذَا دَخَلَ الغَنِيُّ أَوْ ذُو السُّلْطَةِ أَنْ تُقَدِّمُوهُم عَلَيْهِمْ.. إِنَّكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ فَإِنَّكُمْ تُقدِّمُونَ دَلِيلًا عَلَى تَعْظِيمِكُمُ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ. وَتَعْظِيمِ الْمَلَأَ عَلَى الرُّسُلِ لَوْ كُنْتُمْ فِي عُصُورِهِمْ!

الأَمْرُ لَيْسَ بِهَذِهِ السُّهُولَةِ الَّتِي تَتَصَوَّرُونَهَا، إِنَّهَا حُقُوقٌ شَرْعِيَّةٌ، وَالحُقُوقُ يَجِبُ أَنْ تَعُودَ إِلَى أَصْحَابِهَا، وَتَعْظِيمُ أَهْلِ العِلْمِ وَالإِيمَانِ وَأَئِمَّتِهِ إِنَّمَا هُوَ للَّهِ، وَلَيْسَ لِذَوَاتِهِمْ، إِنَّمَا هُوَ مِنْ تَعْظِيمِ صَاحِبِ الرِّسَالَةِ الَّذِي حَمَلُوا رِسَالَتَهُ ﷺ عَلَى جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ.

لَا تَنْتَظِرُوا الْخَطِيبَ أَوْ صَاحِبَ العِلْمِ أَنْ يُطَالِبَكُمْ بِهَذَا الْأَمْرِ حَتَّى تُؤَدُّوهُ! لَا تَنْتَظِرُوهُ أَنْ يَطْلُبَ مِنْكُمْ إِعْزَازَهُ وَتَعْزِيزَهُ وَتَكْرِيمَهُ!

بَلْ لَوْ وَجَدْتُمُوهُ يُذِلُّ نَفْسَهُ وَيُهِينُهَا فَخُذُوهُ وَانْصَحُوهُ، ومُرُوهُ أَنْ يَكُونَ كُفْئاً لِهَذَا الْمَقَامِ، وإِلَّا فَلْيَنْزِعْ شِعَارَهُ.

إِنَّ مَنْ يُعَظِّمُ الْقُرْآنَ يُعَظِّمُ حملَتَهُ، وَمَنْ يُعَظِّمُ النَّبِيَّ ﷺ يُعظِّمُ وَرَثَتَهُ، وَمَنْ يُعظِّمُ الإِسْلَامَ يُعَظِّمُ دُعَاتَهُ، وَلَا يَجْتَمِعُ تَعْظِيمُ هَذِهِ الأُصُولِ وَإِهَانَةُ أَصْحَابِهَا، وَلَا يَجُوزُ التَّفْرِيقُ بَيْنَهُمَا أَبَداً، ومَنْ زَلَّ مِنْ هَؤُلَاءِ فَزلَّتُهُ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَحْمِلُ وِزْرَهَا، وَلَا يُحمَّلُ كُلُّ الآخَرِينَ الكِرَامِ زَلَّةَ مَنْ زَلَّ مِنْهُمْ، فَلَوْ أَسَاءَتْ مُتَحَجِّبَةٌ لمَا جَازَ لأَحَدٍ الهُجُومُ عَلَى بَقِيَّةِ الْمُتَحَجِّبَاتِ، أَوِ الْمُنْتَقِبَاتِ، فَضْلًا أَنْ يَصْدُرَ أَمْرٌ بِخَلْعِ النِّقَابِ، أَوْ خَلْعِ الحِجَابِ، حَتَّى لَوْ كَثُرَ الْمُتَهَاوِنُونَ فِي مَقَامِهِمْ مِنَ الْخُطَبَاءِ، وقَلَّ الْمُلْتَزِمُونَ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَدْعَى لإِكْرَامِ هَذِهِ القِلَّةِ الثَّابِتَةِ وَسطَ هَذَا النَّوْعِ مِنَ الْأَكْثَرِيَّةِ، وَالمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا وَتَكْرِيمِهَا.

إِنَّ تَكْرِيمَ الْخُطَبَاءِ وَالمُبَالَغَةَ فِي تَكْرِيمِهِمْ إِنَّمَا هُوَ عُنْوَانُ العَوْدَةِ الصَّحِيحَةِ، ذَلِكَ أَنَّ الْمِنْبَرَ الجَامِعَ هُوَ مَقَرُّ قِيَادَتِنَا الشَّرْعِيُّ، وَهُوَ مِحْوَرُ الْمَحَاوِرِ جَمِيعاً، إِذِ الْجُمُعَةُ مِحوَرُ الأَيَّامِ، وَمِحْوَرُ الْجُمُعَةِ هُوَ الْمِنْبَرُ، فَأَيُّ قِيمَةٍ عَظِيمَةٍ لِمُعْتَلِيهِ!

هَاتِ صِغَارَكَ وَفِتْيَانَكَ لِلجُمُعَةِ، وعَظِّمْ شَأْنَ الشَّيْخِ فِي أَعْيُنِهِمْ بَعْدَ مَا تَنْتَقِيهِ انْتِقَاءً، وَسَتَرَى كَيْفَ يُوفِّرِ عَلَيْكَ هَذَا الْأَمْرُ أَعْظَمَ رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانَ التَّرْبِيَةِ، أَلَا إِنَّهُ حَجزُ مَقَامِ القُدْوَةِ فِي نَفْسِ صَغِيرِكَ، فَمَقَامُ

القُدْوَةِ فِي عَالَمِ الإِعْلَامِ الْيَوْمَ فِي قَلْبِ الصِّغَارِ وَالفِتْيَانِ وَالشَّبَابِ يُمَثِّلُ «عَرْشَ بلْقِيسَ» . . . وَالْكُلُّ يُرِيدُ سُرْعَةَ اخْتِطَافِهِ وَالحَرْبُ دَائِرَةٌ حَوْلَهُ، ومَنْ يَأْخُذْ عَرشَهَا فَقَدِ انْتَصَرَ فِي الْمَعْرَكَةِ، وَإِنَّكَ تَجِدُ هَذَا الصِّرَاعَ دَائِراً فِي الرُّسُومِ الْمُتَحَرِّكَةِ وَبَرَامِجِ الصِّغَارِ، وَالبَرَامِجِ الرِّيَاضِيَّةِ، وَالفَنِّيَّةِ، وَالسِّيَاسِيَّةِ، فَكُلُّهَا تُرَكِّزُ عَلَى الشَّخْصِيَّاتِ وَالأَبْطَالِ، كُلٌّ يُرِيدُ أَنْ يَكْسِبَ الجُمُوعَ لِشَخْصِيَّتِهِ الَّتِي يُقَدِّمُهَا، وَأَنْتَ لَا خِيَارَ لَكَ - أَيُّها الْمُسْلِمُ - إِلَّا أَنْ تَنْتَقِيَ لِوَلَدِكَ خَطِيباً شَهْماً، شُجَاعاً، حَكِيماً، قُدْوةً، وَمُؤَثِّراً، وَسَتَرَى كَيْفَ يَتأَثَّرُ بِهِ، ورُبَّمَا الْتَزَمَ الدِّينَ حُبّاً فِي الشَّيْخِ، ورُبَّمَا أَصْبَحَ حُلْمُهُ الَّذِي يَسْتَيْقِظُ عَلَيْهِ هُوَ أَنْ يُصْبِحَ مِثْلَهُ كَمَا كُنَّا نَحْلُمُ بِذَلِكَ يَوْمَ كُنَّا صِغَاراً.

كَرَّمَ النَّصَارَى وَاليَهُودُ وَالرَّافِضَةُ مَنْ يُفْتُونَهُمْ بِالبَاطِلِ، وَيَخْطُبُونَ بِهِمِ بالضَّلَالِ، وَعُلَمَاؤُهم وَأَئِمَّتُهمْ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالإِثْمِ وَالعُدْوَانِ، لَكِنَّهُمْ أَنْشَأُوا مِنْ ذَلِكَ دُوَلًا، وَجَعَلُوا لَهُمْ مَكَاناً بَيْنَ العَالَمِ، فَمَا بَالُ أَتْبَاعِ سَيِّدِنَا وَقُدْوَتِنَا مُحمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ لَا يُكْرِمُونَ وَرَثَتَهُ ﷺ؟!

أَيُّهَا الْحُضُورُ: انْصَحُونَا: يَقَعُ فِي وَهْمٍ كَبِيرٍ مَنْ ظَنَّ أَنَّنَا - مَعَاشِرَ الْخُطَباءِ - لَا نَحْتَاجُ النَّصِيحَةَ، بَلَى واللَّهِ، إِنَّنَا أَحْوَجُ مِنْكُمْ جَمِيعاً لِلنَّصِيحَةِ.

انْصَحُونَا، فَإِنَّ الرَّجُلَ العَادِيَّ يُنْصَحُ إِذَا أَخْطَأَ خَطَأً بَيِّناً، أَمَّا نَحْنُ

فَانْصَحُونَا حَتَّى عَلَى الخَطَأ الصَّغِيرِ الَّذِي لَا يَكَادُ يُرَى، فَمَقَامُ القُدْوَةِ لَا يَحْتَمِلُ الخَطَأَ وَالاسْتِمْرَارَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الانْحِرَافَ الصَّغِيرَ فِي قَاطِرَةِ القِيَادَةِ الأُولَى يُفْضِي إِلَى الانْحِرَافِ الْكَبِيرِ فِي القَاطِرَاتِ الْمُتأخِّرَةِ.

أَرَأَيْتُم مَاذَا قَالَ الْمُصْطَفَى ﷺ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ... الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»(١).

فنُصْحُكُمْ لَنَا دَلِيلُ دِينِكُمْ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: «الدِّينُ» وَتَخْصِيصُكُمْ لَنَا بِالنُّصْحِ دَلِيلُ مَزِيدِ الدِّينِ عِنْدَكُمْ.

لَا تَغْتَرُّوا بِمَا تَسْمَعُونَ مِنَّا، وَتَحْسبُوا أَنَّا فَوْقَ النَّصِيحَةِ، وأَنَّنَا لَا نَحْتاجُ إِلَيْهَا.

مَا أَحْسَنَ مَا تَكُونُ الْخُطْبَةُ! وَمَا أَعْظَمَ أَثَرَهَا إِذَا قَدَّمَ لَنَا فِكْرتَها شَخصٌ مِنَ الْحَاضِرِينَ لمَّا نَقَلَ لَنَا ظَاهِرَةً خَطِيرَةً بَدَتْ بِالتَّفَشِّي كَالرِّشْوَةِ! أَوْ ذَهَابِ البَنَاتِ إِلَى السِّينمياتِ! أَوِ ابْتِدَاعِ الْمَجَالِسِ الْمُخْتَلَطَةِ بِاللَّيْلِ! أَوْ ظُهُورِ سَاحِرٍ أَوْ عَرَّافٍ يَذْهَبُ إِليه الكثيرُ مِنَ النَّاسِ، أَوِ انْتِشَارِ أَكْثَرَ مِنْ وَكْرٍ لأَهْلِ البِدْعَةِ وَالخُرَافَةِ يُقِيمُونَ فِيهِ مَآتِمَهُمْ، أَوْ ظَوَاهِرَ أُسْرِيَّةٍ سَيِّئَةٍ، أَوْ مَدْرَسِيَّةٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٥٥)، من حديث تميم الداري رضي الله عنه.

فَإِنَّ تَغْذِيَةَ الْخَطِيبِ بِهَذِهِ الْأَفْكَارِ وَأَمْثَالِهَا أُمُورٌ فِي غَايَةِ الأَهَمِّيَّةِ، ثُمَّ أَيُّ أَجْرٍ أَسْهَلُ لَكَ وَأَوْسَعُ - أَيُّها الْمُسْلِمُ - مِنْ هَذَا، فَأَنْتَ مُشَارِكٌ لِلْخَطِيبِ فِي هَذَا الأَجْرِ الوَاسِعِ العَامِّ وَأَنْتَ فِي مَكَانِكَ، وَالنَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ.

تَأَكَّدُوا أَنَّكُمْ مَصْدَرُنَا الْمَيْدَانِيُّ الأَهَمُّ، كَمَا أَنْتُمْ مَوْرِدُنَا الأَهَمُّ، فَلْيَكُنْ هَذَا مَيْدَانَ سِبَاقِكُمْ، وَكَمْ تَقَرُّ عَيْنُ رَجُلٍ يَرَى الْخَطِيبَ يُصَرِّحُ بِفِكْرَتِهِ وَالنَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ؟

مَا أَحْوَجَنَا لِلنَّصِيحَةِ بِالْتِزَامِ كُلِّ سُنَّةٍ لِلمُصْطَفَى ﷺ تَرَوْنَ أَنَّنَا تَرَكْنَاهَا خَطَأً، أَوْ تَهَاوُنَاً، أَوْ نَشْأَةً، فَذَلِكَ هُوَ حَقُّ الجِيلِ وَالْأُمَّةِ الَّتِي تَرَى فِي الْخُطَبَاءِ وَرَثَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَ مِنَ الوَفَاءِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالحِمَايَةِ لِسُنَّتِهِ وَهَدْيِهِ أَنْ نَكُونَ أَشْبَهَ النَّاسِ حَالًا بِهِ ﷺ، وَنَجْعَلَ خُطَبَاءَنَا الْمَثَلَ.

أَيُّهَا الحُضُورُ: ثَبِّتُونَا عَلَى الحَقِّ، ادْفَعُونَا لِقَوْلِ كَلِمَةِ الحَقِّ، ذَكِّرُونَا بِهَدْيِ الأَنْبِيَاءِ، ذَكِّرُونَا بِأَنَّ الْحَقَّ مَرْبُوطٌ بِنَا، فَإِذَا لَمْ نُعْلِنْهُ وَنُعْلِهِ فِي بَلَدِنَا رُبَّمَا طُمِسَ وَنَحْنُ نَتَحَمَّلُ وِزْرَهُ.

إِنَّكُمْ لَا تُقَدِّرُونَ قِيمَةَ كَلِمَةِ التَّثْبِيتِ مِنْ أَحَدِكُمْ، لَكِنَّ تَأْثِيرَهَا الحَقِيقِيَّ فِي نُفُوسِنَا رُبَّمَا يُسَاوِي قِرَاءَةَ مُؤَلَّفَاتٍ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ وَأَكْثَرَ.

أَلَمْ تَرَوْا مَاذَا صَنَعَتِ الكَلِمَةُ فِي تَثْبِيتِ الإِمَامِ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ حِينَ دَخَلَ السِّجْنَ.

أَيُّهَا الْمُصلُّونَ: كَثِيرُونَ هُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَخْتَارُونَ الْمَسْجِدَ الَّذِي يَضْمَنُونَ فِيهِ الصَّفَّ الْأَوَّلَ، وَذَلِكَ لِقِلَّةِ الزِّحَامِ عَلَى خَطِيبِهِ، وَانْصِرَافِ النَّاسِ عَنْهُ، إِمَّا لِضَعْفِهِ عِلْمِيّاً وَخَطَابِيّاً، أَوْ ضَعْفِهِ فِي الصَّدْعِ بِكَلِمَةِ الحَقِّ، وَأَنَّهُ يَقُولُ مَا يُقَالُ لَهُ، وَيَسْكُتُ عَمَّا يُنْهَى عَنْهُ!

وهَذَا فِي الْحَقِيقَةِ خَطَأٌ شَائِنٌ! فَإِنَّ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَكْثَرِ رُوَّاداً فَثَمَّةَ الصَّلَاةُ أَزْكَى «صَلَاةُ الرَّجُلِ مَعَ الرَّجُلِ أَزْكَى مِنْ صَلَاتِهِ وَحْدَهُ . . .»[1] الحديث.

وإِنَّ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَحْرِصَ أَشَدَّ الحِرْصِ عَلَى أَنْ يَحْضُرَ لِلْخَطِيبِ الَّذِي يُحْيِي قَلْبَهُ، وَيُنَوِّرُ بَصِيرَتَهُ، وَخُصُوصاً وَنَحْنُ نَعِيشُ عَصْرَ الفِتَنِ بِنَوْعَيْهَا: الشُّبُهَاتِ، وَالشَّهَوَاتِ.

إِنَّهُ يَوْمٌ وَاحِدٌ فِي الْأُسْبُوعِ، فَإِذَا طُمِسَ هَذَا الْيَوْمُ فَقَدْ تُوَدِّعُ مِنَ الْأُسْبُوعِ كُلِّهِ، وَالْجُمُعَةُ يَوْمٌ لَا يُعَوَّضُ، وَمَا احْتَفَتْ بِهِ خُطْبَتُهَا لَا يُعَوِّضُهَا عَنْهَا شَيْءٌ.

(١) رواه أبو داود في سننه (٥٥٤) وصححه جمع من أهل العلم منهم علي بن المديني في تحفة المحتاج (١/ ٤٣٧)، وكذا يحيى بن معين، والذهبي في خلاصة البدر المنير (١/ ١٨٥)، وحسنه الألباني.

وَكَمَا حَثَّ الشَّرْعُ عَلَى الاسْتِمَاعِ لِصَاحِبِ الصَّوْتِ الحَسَنِ بِالقُرْآنِ، وَلِمَنْ إِذَا سَمِعْنَاهُ رَأَيْنَا أَنَّهُ يَخْشَعُ، فَيَنْبَغِي أَنْ نَكُونَ حَرِيصِينَ غَايَةَ الحِرْصِ عَلَى مَنْ نَظُنُّ أَنَّهُ يَقُولُ كَلِمَةَ الْحَقِّ صَادِقاً لِوَجْهِ اللَّهِ، لَا يَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ، كَمَا نَكُونُ أَبْعَدَ مَا نَكُونُ عَمَّنْ نَشْتَمُّ مِنْ خُطْبَتِهِ رَائِحَةَ نِفَاقِ الخَلْقِ، وَمُدَارَاةِ الأَغْنِيَاءِ أَوِ الأَقْوِيَاءِ، كَمَا نَكُونُ أَعْظَمَ حِرْزاً لِهَذَا الْيَوْمِ مِنْ أَنْ نُضَيِّعَهُ عِنْدَ خَطِيبٍ يَزِيدُنَا غَفْلَةً، أَوْ يُنِيمُنا فِي أَثْنَاءِ الْخُطْبَةِ.

إِنَّ مِنَ العُدْوَانِ عَلَى حَقِّ الصِّغَارِ أَنْ تَأْخُذَهُمْ إِلَى خَطِيبٍ يُسِيءُ لِلْخُطْبَةِ، وَلَا يَشُدُّهُمْ إِلَيْهِ شَدّاً، وَلَا يَقْرَؤونَ مِنْ كَلِمَاتِهِ الصِّدْقَ، وَالحُرْقَةَ، وَالخَوْفَ مِنَ اللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ، وَالوَرَعَ مِنَ الحَرَامِ (مالًا كَانَ أَوْ كَلَاماً)، وَحُسْنَ الخُلُقِ والإِخْلَاصِ، كُلُّ ذَلِكَ يَعْرِفُهُ الصَّغِيرُ مِنْ كَلَامِ الشَّيْخِ وَإِنْ لَمْ يُفْصِح عَنْ إِدْرَاكِهِ.

وَإِنَّ مِنَ النُّصْرَةِ أَنْ تَنْصُرَ مَنْ يَنْصُرُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ، وَذَلِكَ بِالحِرْصِ عَلَى الذَّهَابِ إِلَيْهِ حَتَّى لَوْ كَانَ فِي ذَلِكَ بَعْضُ التَّكَالِيفِ أَوِ الْمُسَاءَلَةِ، فَأَيْنَ مُسَاءَلَتُهُ وَهُوَ فَرْدٌ مِنْ مُسَاءَلَتِنَا وَنَحْنُ مَجَامِيعُ كَثِيرَةٌ؟ وَإِنَّ مِنَ الخِذْلَانِ أَنْ نَنْفِرَ عَنْهُ خَوْفاً، أَوْ طَلَباً لِلرَّاحَةِ، وَالدَّعَةِ، وَالقُعُودِ، وَالسَّلَامَةِ.

إِنَّنَا الْيَوْمَ فِي زَمَنٍ أَصْبَحْنَا نَرَى أَنْفُسَنَا مُتفضِّلِينَ بِذَهَابِنَا لِهَذَا

الْمَسْجِدِ أَوْ ذَاكَ، وَنَنْسَى أَنَّ ذَلِكَ حَتْمٌ لَازِمٌ عَلَيْنَا لَا يَسَعُنَا إِلَّا أَنْ نَخْتَارَهُ مَا دَامَ الْخِيَارُ بَيْنَ صَاحِبِ حَقٍّ وَصَاحِبِ هَوىً أَوْ بَاطِلٍ.

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ حِينَ أَمَرَ بِالسَّعْيِ إِلَى الْجُمُعَةِ إِنَّمَا أَمَرَ بِالسَّعْيِ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ، وكَمْ مِنْ ذَاكِرٍ لِلَّهِ غَيْرُ قَائِمْ بِحَقِّهِ، فَلْنَسْعَ إِلَى مَن يَذْكُرُ اللَّهَ، وَيَرْفَعُ ذِكْرَ اللَّهِ، وَيُعْطِي ذِكْرَ اللَّهِ حَقَّهُ، وَلَا يَذْكُرُ مَعَ اللَّهِ أَحداً ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ١٨ - ٢٣].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّكُمْ مِرْآةُ الْخَطِيبِ الصَّادِقَةُ، فَابْذُلُوا لَهُ النَّصِيحَةَ الصَّادِقَةَ وَإِنْ صَغُرَتْ، ابْذُلُوا النَّصِيحَةَ فِي كُلِّ شَيءٍ لِكُلِّ خَطِيبٍ وَبِكُلِّ أَدَبٍ، فَالخَطَأُ مِنَ الْخَطِيبِ لَا يُبرِّرُ الجُرْأَةَ أَوِ التَّهَجُّمَ عَلَيْهِ، فَهُمْ «أَئِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ».

وَإِيَّاكُمْ أَنْ تَجْعَلُوا الأَئِمَّةَ وَالْخُطَبَاءَ مَثَارَ السُّخْرِيَةِ فِي الْمَجَالِسِ وَتَبَادُلِ الطُّرَفِ وَالضَّحِكَاتِ كَمَا يَفْعَلُ البَعْضُ، فَإِنَّ هَذِهِ الطُّرْفَةَ لَوْ كَانَتْ صَادِقَةً لَمَا حَلَّ ذِكْرُهَا؛ لِأَنَّهَا تُجَرِّئُ عَلَى الإِمَامِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى أَنَّهُ أَكْلُ لَحمٍ حَرَامٍ، فَكَيْفَ وَهُوَ لَحْمُ إِمَامٍ مِنْ أَئِمَّةِ الإِسْلَامِ،

وَحَقُّ الخَطَأ السَّتْرُ، لَا النَّشْرُ، كَمْ يَحْتَاجُ الْخُطَباءُ إِلَى النَّصِيحَةِ؟! إِي واللَّهِ، وَكَمْ يَتطوَّرُ الْخَطِيبُ بِالنَّصِيحَةِ؟!

وَكَمْ تَرَى مِنْ خَطِيبٍ كَانَ فِي بِدَايَتِهِ مَثَارَ الشَّفَقَةِ، فَوَجَدَ مَنْ وَجَّهَهُ مِنْ حُضُورِهِ الْمُبَارَكِينَ، هَذَا حَضَّهُ عَلَى حِفْظِ الْقُرْآنِ وَإِتْقَانِهِ، وَذَاكَ لَاحَظَ عَلَيْهِ الاسْتِشْهَادَ بِالأَحَادِيثِ الَّتِي لَا تَصِحُّ، وَثَالِثٌ كَانَ يَكْتُبُ لَهُ فِي قُصَاصَةٍ كُلَّ جُمُعَةٍ أَخْطَاءَهُ النَّحْوِيَّةَ حِينَ رَآهُ يَلْحَنُ كَثِيراً فِيهَا، وَرَابِعٌ نَصَحَهُ بِعَدَمِ التَّعَجُّلِ فِي الفَتْوَى، وَخَامِسٌ رَغَّبَهُ بِدُخُولِ دَوْرَةٍ فِي الْخَطَابَةِ، وَسَادِسٌ يَشْتَرِي لَهُ كِتَاباً، أَوْ يَكْفِيهِ الدُّخُولَ عَلَى الشَّبْكَةِ العَنْكَبُوتِيَّةِ، وَسَابِعٌ وَثَامِنٌ، وَهَكَذَا حَتَّى نَمَا وَتَكَامَلَ، وَأَصْبَحَ فِي مَيْدَانِهِ إِمَاماً فِي الْخَطَابَةِ بَيْنَ عَامَّةِ الْخُطَبَاءِ.

وَإِنِّي - واللَّهِ - لَا أَزَالُ أَذْكُرُ رَجُلًا عَرَضَ عَلَيَّ فِي أَوَّلِ أَيَّامِ خُطْبَتِي فِي مِنْطَقَةِ «جُمَيْرَا» بِـ «دُبي» أَنْ أَدْخُلَ دَوْرَةً فِي الإِنْجِلِيزِيَّةِ كَيْ أَسْتَطِيعَ الْخَطَابَةَ لِغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ، وَإِقْنَاعَ مَنْ يَحْتَاجُ إِلَى الْمُحَاجَّةِ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ، وَهُوَ يَتَكَفَّلُ بِهَا، فَجَزَى اللَّهُ «أَبَا مُحمَّدٍ علي» خَيْراً، وَلَكِنِّي رَفَضْتُ لأُمُورٍ أُخْرَى.

أَيُّهَا الحُضُورُ الكِرَامُ، الإِحَاطَةَ الإِحَاطَةَ: كَمْ يَحْتَاجُ الْخَطِيبُ إِلَى مَنْ يَحُوطُهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَيُدَافِعُ عَنْهُ مِنْ تَهجُّمِ الْمُتَهجِّمِينَ بِالبَاطِلِ، الْمُتَطَاوِلِينَ عَلَيْهِ بِقِلَّةِ أَدَبٍ حَتَّى لَوْ كَانُوا مِنَ الْمُصَلِّينَ، وَلَا أَقْصِدُ أَنْ

يَكُونَ رَدُّ الهُجُومِ بِقِلَّةِ أَدَبٍ أَكْبَرَ، لَا، وَلَكِنْ بِالحُسْنَى مَا اسْتَطَاعَ النَّاصِحُ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا.. وَالعَامَّةُ يَعْرِفُونَ كَيْفَ يَرُدُّونَ العَامَّةَ، وَيَحْتَاجُ الْخَطِيبُ إِلَى الدِّفَاعِ عَنْهُ، وَخُصُوصاً إِذَا كَانَ فِي ابْتِدَاءِ أَمْرِهِ وَطَرَاوَةِ عُودِهِ.

إِنَّ الدِّفَاعَ عَنِ الْخَطِيبِ دِفَاعٌ عَنِ الدِّينِ، فَالدِّينُ لَيْسَ أَوْهَاماً، وَلَا كَلَاماً، وَلَا أَحْلَاماً فِي مَنَامٍ، وَلَا مُجَرَّدَ مُؤَلَّفَاتٍ وَأَوْرَاقٍ، وَلَا فِقْهاً فِي أَذْهَانٍ، إِنَّمَا هُوَ رِجَالٌ تَتَمَثَّلُهُ... تَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ.. فَالذَّبُّ عَنْهُمْ ذَبٌّ عَمَّا يُمَثِّلُونَهُ وَيَحْمِلُونَهُ، وَالسَّمَاحُ بِإِيذَائِهِمْ سَمَاحٌ بِإِيذَاءِ الدِّينِ، وَلَوْ قُلْتَ إِيذَاءُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ لَصَدَقْتَ؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ فِي الحَدِيثِ القُدُسِيِّ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ»(١).

إِنَّهُمْ حُمَاةُ الدِّينِ، وَيَجِبُ عَلَى الْأُمَّةِ أَنْ تَحْمِيَ حُمَاةَ دِينِهَا، وَيَجِبُ عَلَى أَهْلِ الْمَسْجِدِ أَنْ يَكُونُوا الحِمَى الحَامِي، وَالحِصْنَ الْمَنِيعَ دُونَ خَطِيبِهِمْ مِنَ الإِيذَاءِ وَالعُدْوَانِ.

وَوَاللَّهِ، إِنَّهُ مِنَ الخِزْيِ وَالعَارِ أَنْ يَتَخَلَّى أَهْلُ الْمَسْجِدِ عَنْ خَطِيبِهِمْ، وَلَا يَتَخَلَّى أَهْلُ الصَّحَافَةِ وَالفَنِّ وَالرَّقْصِ - بَلْ وَحُمَاةُ الحَيَوَانَاتِ - عَنْ عُهُودِهِمْ.

وَكَمْ أَتَمَنَّى رَجُلًا هُمَاماً يَغْرِسُ رَابِطَةَ الْخُطَبَاءِ كَمَا ذَكَرْنَاهَا فِي

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كِتَابِنَا «الغِرَاسِ».

أيُّها الحَاضِرُونَ للجُمُعَةِ: إِنَّمَا الْخَطِيبُ رَجُلٌ وَاحِدٌ، لَكِنَّهُ كَثِيرٌ بِصَحْبِهِ، وَإِنَّما الْمَسْجِدُ بِنَاءٌ مِنْ مَوادِّ البِنَاءِ، وَإِنَّما يَحْيَا بِالرِّجَالِ، أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: ﴿فِيهِ رِجَالٌ﴾ [التوبة:١٠٨]؟ وَكَمْ تَجِدُ مِنْ فَارِقٍ مَا بَيْنَ مَسْجِدٍ وَمَسْجِدٍ فِي الْحَيَاةِ وَالفَاعِلِيَّةِ لأَهْلِ الحيِّ، ورُبَّما يَكُونُ ذَاكَ الْمَسْجِدُ أَعْظَمَ بِنَاءٍ، لَكِنَّهُ لَا دَوْرَ لَهُ فِي حَيِّهِ، وَفِي بَلَدِهِ إِلَّا بِالْخُطْبَةِ وَالانْصِرَافِ، وَصَلَاةِ الفَرَائِضِ وَالانْصِرَافِ.

أَنْتُمْ صَحْبِي، وَبِكُمْ أَحْيَا وَيَحْيَا بَيْتُ اللَّهِ تَعَالَى. طَالِبُونِي بِتَحْوِيلِ الْمَسْجِدِ إِلَى رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الجنَّةِ.. إِلَى أَنْ يَكُونَ قَمَراً فِي هَذَا الحَيِّ وَذَاكَ، إِلَى أَنْ يُصْبِحَ مَرْكَزاً لِلإِصْلَاحِ الأُسْرِيِّ، فالأَبْنَاءُ أَبْنَاؤُكُمْ، وَأَنْتُمْ مَنْ يَأْتِي بِهِمْ، فَلْنُنْشِئْ لَهُمْ مَرْكَزاً فَاعِلًا لِحِفْظِ الْقُرْآنِ الكَرِيمِ عَلَى أَحْدَثِ الطُّرُقِ الحَدِيثَةِ وَأَكْثَرِهَا فَاعِلِيَّةً، وَآخَرَ للقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَعُلُومِهِمَا.

لِنَعْمَلْ نِظَاماً لِتَعْلِيمِ الكِبَارِ؛ قِرَاءَةً لِلْقُرْآنِ الكَرِيمِ بِالطُّرُقِ الحَدِيثَةِ، فَلْتَقَرَّ أَعْيُنُهُمْ بِذَلِكَ قَبْلَ لِقَاءِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

لِيَكُنْ لِلْمَسْجِدِ دَوْرٌ فِي ضَبْطِ الانْحِرَافِ الْفِكْرِيِّ عِنْدَ شَبَابِنَا، سَوَاءٌ أَكَانَ فِي اتِّجَاهِ الإِفْرَاطِ أَمْ كَانَ فِي اتِّجَاهِ التَّفْرِيطِ، وَكَذَلِكَ التَّمَيُّعُ أَوِ الغُلُوُّ، فَكِلَا الاتِّجَاهَيْنِ ضَارٌّ للشَّبَابِ وَللبَلَدِ وَلِلأُمَّةِ.

لِيَكُنْ لِلمَسْجِدِ دَوْرٌ فَاعِلٌ فِي التَّزْوِيجِ وَتَسْهِيلِ أُمُورِهِ الَّتِي تَسبَّبتِ الْيَوْمَ فِي تَأْخِيرِ سِنِّ الزَّوَاجِ، وَهَذَا يَعْنِي كَثْرَةَ الانْحِرَافِ الْمُبَكِّرِ.

لِيَكُنْ لِلمَسْجِدِ دَوْرٌ من دَوْرِهِ الْأَوَّلِ، وَهُوَ تَقْوِيَةُ العَلَاقَةِ بِاللَّهِ، وَإِحْيَاءُ الصَّلَاةِ الَّتِي مَرِضَتْ وَكَادَتْ تَمُوتُ بِخُرُوجِ رُوحِهَا، ورُوحُهَا الخُشُوعُ، وَإِقَامَةُ الفَرَائِضِ أوَّلًا لِمَنْ لَمْ يُقِمْهَا، كَتَفَقُّدِ مَنْ لَمْ يُؤدِّ زَكَاةَ مَالِهِ، وَمَنْ لَمْ يَذْهَبْ إِلَى الحجِّ رُغْمَ وُجُوبِهِ عَلَيْهِ وَقُدْرَتِهِ وَاسْتِطَاعَتِهِ، وَلْيَكُنِ الْمَسْجِدُ سَبباً فِي إِطْفَاءِ نَارِ السُّوءِ إِذَا أُوقِدَتْ، كَأَنْ تَكُونَ مِنْ رِجَالَاتِهِ فِرْقَةٌ لإِصْلَاحِ الخُصُومَاتِ فِي الحيِّ قَبْلَ أَنْ تَتفَاقَمَ، وَلِيُمَارِسْ أَصْحَابُ الْمَسْجِدِ وَوُجَهَاؤُهُ مَعَ خَطِيبِهِمْ الذَّهَابَ لِكُلِّ مَنْ يُفْسِدُ مِنْ أَصْحَابِ الحيِّ وَيَنْصَحُونَهُ، وَيُبَيِّنُونَ لَهُ أَثَرَ ذَلِكَ عَلَى أَهْلِ الحيِّ، وَعَلَى البَلَدِ، وَعَلَى دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ، وَخُطُورَةَ الْمُنْكَرِ العَامِّ إِذَا انْتَشَرَ، وَإِثَارَةَ غَيْرَتِهِ وَنَخْوَتِهِ، وَخُطُورَةَ إِصْرَارِهِ حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ رُبَّمَا يَكُونُ يَدْخُلُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨].

وَإِنَّ الْمُنْكَرَ لَيُولَدُ صَغِيراً كَالشَّجَرَةِ الخَبِيثَةِ، فَيَسْكُتُ أَهْلُ الحَيِّ، وَإِنَّ غَارِسَهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ! ورُبَّمَا ضَاحَكُوهُ وَجَالَسُوهُ وجَامَلُوهُ، ثُمَّ شَارَكُوهُ، أَوْ شَارَكَهُ بَعْضُهُمْ حَتَّى يَعْظُمَ وَيَعُمَّ، فَيَصْعُبُ بَعْدَ ذَلِكَ إِيقَافُهُ! انْظُرْ فِي بِدَايَةِ الْمُؤَسَّسَاتِ الَّتِي تُشِيعُ الفَاحِشَةَ فِي الَّذِينَ آمَنُوا

كَالسِّينِمياتِ، أَوِ البَارَاتِ، أَوْ مُؤسَّسَاتِ الرِّبَا، أَوْ شَرِكَاتِ التَّأْمِينِ الْمُحَرَّمَةِ أَوْ نَحْوِهَا، فَإِذَا رَجَعْتَ إِلَى جَذْرِ تِلْكَ الشَّجْرَةِ وَرَاعِيهَا وَسَاقِيهَا وَحَامِيهَا وَجَدْتَهُ وَاحِداً مِنْ أَهْلِ الحَيِّ، ورُبَّمَا كَانَ مِنَ الْمُصَلِّينَ، ورُبَّمَا كَانَ بَانِيَ الْمَسْجِدِ نَفْسَهُ! وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْمَسْجِدِ حَزَمُوا أَمْرَهُمْ، وَعَزَمُوا عَلَى إِطْفَاءِ الْمُنْكَرِ فِي حَيِّهِمْ، وَمُنَاصَحَةِ صَاحِبِهِمْ بِكُلِّ جِدٍّ وَحَزْمٍ، وَعَرْضِ البَدَائِلِ النَّافِعَةِ أَمَامَهُ مَعَ الإِقْنَاعِ، وَإِلَّا كَانَ الزَّجْرُ بِالهَجْرِ حَتَّى يَرْعَوِي عَنْ غَيِّهِ، وَلَوْ فَعلوا ذَلك لمَا وَجَدْتَ هَذَا الانْتِشَارَ للمُنْكَرَاتِ. كَمَا يَكُونُ لمَسْجِدِ الْجُمُعَةِ دَوْرٌ فِي الشَّفَاعَةِ، وَإِيجَادِ الوَظِيفَةِ لِطَالِبِهَا، وَالقَرْضِ للمُحْتَاجِ، وَالسَّكَنِ لِفَاقِدِهِ، وَهَكَذَا.

هَذَا بَعْضُ دَوْرِ الْمَسْجِدِ الَّذِي لَا يُمْكِنُ لِلْخَطِيبِ أَنْ يَقُومَ بِهِ مُنْفَرِداً.

حَقّاً إِنَّ الْخَطِيبَ هُوَ مِحْوَرُ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَهُوَ رُوحُه، لَكِنْ أَنَّى للرُّوحِ أَنْ تَفْعَلَ شَيْئاً، وَلَا جَوَارِحَ تَسْرِي بِهَا الرُّوحُ، وَتَمْشِي بِهَا، وتَبْطِشُ بِهَا، وَتَسْمَعُ بِهَا، وَتُبْصِرُ بِهَا؟!

* * * * *

الخاتمة
أي خَطِيب نُريدُهُ؟

نُرِيدُهُ البَحْرَ إِذَا هَدَرَ، نُرِيدُهُ الجَيْشَ إِذَا اسْتُنْفِرَ فَنَفَرَ، نُرِيدُهُ الهِزَبْرَ إِذَا هزَّ ذَنَبه وزَأَرَ، نُرِيدُهُ مَنْ يَصِيحُ سَامِعُهُ: دُلُّونِي عَلَى قَلْبِ العَدُوِّ لأَنْفُذَ كَالسَّهْمِ الحَارِقِ، وَالشِّهَابِ الثَّاقِبِ.

نُرِيدُهُ ذَاكَ الَّذِي تَهْتَزُّ لَهُ أَعْوادُ الْمَنَابِرِ كَمَا يُقَالُ، وَتَنْتَفِضُ لِكَلِمَاتِهِ هِمَمُ الرِّجَالِ، وَتتزَلْزَلُ لِعِبَارَاتِهِ جُذُورُ الجِبَالِ.

يَسْتَخْرِجُ الإِمَامَةَ مِنْ تَحْتِ القِمَامَةِ، وَالْحَيَاةَ الحُرَّةَ مِنْ وَسَطِ الْمَقْبَرَةِ، أَلَمْ يَسْتَخْرِجْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَسْجِدَهُ مِنْ مَوْقِعِ مَقْبَرةٍ، أَلَمْ يُخْرِجْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ ذَلِكَ الْمَوقِعِ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ؟!

نُرِيدُ ذاكَ الَّذِي مَنْ يَخْلَعُ قُلُوبَ العَاصِينَ، فَيَنْخَلِعُونَ عَنِ الْمَعَاصِي، وَكَأَنَّ جَهَنَّمَ مَسَّتهُمْ مِنْ عَذَابِهَا لِشِدَّةِ تَقْرِيبِهَا لَهُمْ وَوُضُوحِ تَصْوِيرِهَا، مُفَتِّحاً عُيُونَ بَصَائِرِهِمْ وَكَأَنَّ النَّارَ فَتَحَتْ أَبْوَابَهَا فِي وُجُوهِهِمْ!

نُرِيدُ مَنْ يُخْرِجُ اليَائِسَ القَانِطَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ مِنْ ظُلْمَةِ قُنُوطِهِ،

وَيَبْعَثُهُ مِنْ جَدِيدٍ عَامِلًا غَارِساً، وَكَأَنَّهُ عِنْدَ أَبْوَابِ الجَنَّةِ، مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا أَنْ يَمُوتَ.

نُرِيدُ مَنْ يَعْظُمُ فَرَحُ رَبِّنَا العَزِيزِ الرَّحِيمِ بِهِ لِكَثْرَةِ الآيِبِينَ التَّائِبِينَ عَلَى يَدَيْهِ.

نُرِيدُ خَطِيباً بَحْراً إِذَا بَحَثَ، مُحِيطاً لِعَنَاصِرِ مَوْضُوعِهِ فِي أَيِّ حَدِيثٍ تَحَدَّث، مُفَجِّراً الْعَنَاصِرَ الإِيجَابِيَّةَ مِنْ فَكْرَتِهِ فِي صُورَةِ مَشَارِيعَ إِنْ غَرَسَ أَوْ حَرَث.

أَدِيباً لَبِيباً، حَكِيماً حَلِيماً، لا تَخْدَعُهُ فَوْعَةُ الأَحْدَاث، أَوْ رَوْعَةُ تَصْوِيرِ الْمُخَادِعِينَ الأَخْبَاثْ، يَغُوصُ وَرَاءَ الْحَقِيقَةِ كَأَمْهَرِ غَوَّاصْ، فَيَسْتَخْرِجُهَا لِلنَّاسِ وَلَا مَنَاصْ.

نُرِيدُهُ إِمَامَ حِكْمَةٍ يَشُدُّ حَنَكُهُ لِجَامِ الفِتَنِ إِذَا ضَجَّتْ رِكَابُهَا، أَوْ كَثُرَ فِي المُجْتَمَعِ رِكَّابُهَا، هُنَاكَ يَكُونُ هُوَ الغَيْثَ الَّذِي يُطْفِئُ عَنِ الإِسْلَامِ وَالمُسْلِمِينَ نَارَهَا، وَيَجْعَلُ العَدُوَ وَقُودَهَا، وَيُورِثُهُ دَمَارَهَا.

نُرِيدُهُ إِذَا ضَاقَتِ المَضَايِقُ بِالنَّاسِ طَوَالَ الأُسْبُوعِ تَطَلَّعُوا لِلجُمُعَةِ، فَثَمَّةَ الدَّوَاءُ لِلفِكْرِ الْمَفْجُوعِ، والْقَلْبِ الْمَوْجُوعِ.

نُرِيدُ خَطِيبَ إِحْيَاءِ حَيِّهِ، بَلْ إِحْيَاءِ أُمَّتِهِ.

نَتطلَّعُ - بإذْنِ اللَّهِ - لِيَوْم تَتنَادَى فِيهِ الْمَنَابِرُ مِنْ كُلِّ أَحْيَاءِ الأَرْضِ، هَا قَدْ حَيِينَا مَعَاشِرَ الْخُطَباءِ. فَاتَّبِعُوا الْمِنْبَرَ يَا قَوْمَنَا، فَإنَّا خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَائِرُونَ.

* * * * *

الملاحق

إِلَيْكَ أَخِي الخَطِيبَ نَمَاذِجَ مِنْ خَطَبٍ كَمَا وَعَدْنَاكَ بِدُونِ مُقَدِمَاتِ.

الملحق الأول
خُطْبَةُ لَا تُعِينُوا الشَّيْطَانَ عَلَى أَخِيكُم

أَمَّا بَعْدُ:

فَعَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ﵁ قَالَ: «أَنَّ رَجُلًا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ اللَّهِ، وَكَانَ يُلَقَّبُ حِمَارًا، وَكَانَ يُضْحِكُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ، فَأُتِيَ بِهِ يَوْمًا فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: «اللَّهُمَّ الْعَنْهُ مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ»، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَلْعَنُوهُ، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا أَنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»[(١)].

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى أَنَّهُمْ قَالُوا: «مَا اتَّقَيْتَ اللَّهَ! مَا خَشِيتَ اللَّهَ! وَمَا اسْتَحْيَيْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ!»[(٢)] فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَقُولُوا هَكَذَا، لَا

(١) رواه البخاري (٦٧٨٠).
(٢) رواه أبو داود في جامعه (٤٤٧٨) من حديث أبي هريرة ﵁، وقد أشار عبد الحق الإشبيلي في الأحكام الصغرى (٧٦٦) إلى صحته، وكذا صححه الألباني في تعليقه على سنن أبي داود.

تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ»[(١)].

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: «وَلَكِنْ قُولُوا اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ»[(٢)].

رَجُلٌ فِي نَظَرِ النَّاس لَم يُبْقِ عُذْراً لَهُ، يَشْرَبُ، وَيَسْكرُ! وَالسُّكْرُ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ! أُمِّ الخَبَائِثِ! وَيَشْرَبُ فِي أَطْهَرِ الْمُجْتَمَعَاتِ! وَيُكَرِّرُ الشُّرْبَ مِرَاراً كَثِيرَةً، وَيُجْلَدُ عَلَى الشُّرْبِ كَذَلِكَ مِرَاراً كَثِيرَةً! وَيُجْلَدُ عَلَى مَسْمَعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَرْأَى مِنْهُومَعَ هَذَا لَا يَتُوبُ؟!

غَارَ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم عَلَى دِينِهِمْ، غَارُوا عَلَى طَهَارَةِ مُجْتَمَعِهِمْ، غَارُوا، وَلِذَلِكَ دَعَوْا عَلَيْهِ، وَأَنَّبُوهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَقُولُوا ذَلِكَ، وَلَكِنْ قُولُوا: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ».

أَنَا أَعْلَمُ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا يَعْلَمُ أَنَّ الْأَمْرَ صَعْبٌ تَقَبُّلُهُ، تَرَاهُ سَكْرَانَ وَيُجْلَدُ، ثُمَّ تَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، لَكِنْ لَوْ تَصَوَّرْتَ نَفْسَكَ لَحْظَةً أَنَّكَ ذَاكَ الرَّجلُ الَّذِي يُجْلَدُ عَلَى مَرْأَى مِنْهُمْ، النَّاسِ وَيُخْزَى أَمَامَ النَّاسِ، فَرَأَيْتَ الجَمِيعَ يَلْعَنُونَ وَيَشْتِمُونَ إِلَّا وَاحِداً، يَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، أَلَا يَأْسِرُ ذَلِكَ الرَّجُلُ قَلْبَكَ؟ أَلَيْسَتِ الدَّعْوَةُ بِالهِدَايَةِ دَعْوَةً لِلْهِدَايَةِ، دَعْوَةً لِلتَّوْبَةِ، دَعْوَةً لِلأَوْبَةِ، إِلْقَاءَ حَبْلٍ لِغَرِيقٍ أَنْ عُدْ، نَحْنُ إِخْوَانُكَ.

---

(١) رواه البخاري (٦٧٧٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) رواه أبو داود (٤٤٧٨)، وصححه الألباني.

وَلِذَلِكَ مَاذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّهُ أَخُوكُمْ» انْظُرُوا عَلَى مَنْ يُعِينُ الإِنْسَانُ الشَّيْطَانَ؟ عَلَى أَخِيهِ فِي اللَّهِ، وَلِذَا صَحَّ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا تُعِينُوا الشَّيْطَانَ عَلَى أَخِيكُمْ» هَلْ نَحْنُ نُعِينُ الشَّيْطَانَ عَلَى إِخْوَانِنَا؟! هَلْ هَذِهِ الصُّورَةُ هِيَ الوَحِيدَةُ لإِعَانَةِ الشَّيْطَانِ عَلَى الأَخِ فِي اللَّهِ؟

مَسْأَلَةٌ تَحْتَاجُ إِلَى حَصْرٍ، تَحْتَاجُ إِلَى تَنَبُّهٍ، لِئَلَّا يَكُونَ أَحَدٌ مُعِيناً لِلشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيهِ وَهُوَ لَا يَدْرِي، لِئَلَّا يَصْطَفَّ أَحَدُنَا بِجِوَارِ الشَّيْطَانِ فَيَرْمِي بِسِهَامِهِ مَعَ سِهَامِ الشَّيْطَانِ فِي قَلْبِ أَخِيهِ فِي اللَّهِ فِي الْمَقْتَلِ! وَهُوَ مَاذَا يُرِيدُ، يُرِيدُ إِنْقَاذَ أَخِيهِ فِي اللَّهِ، دَقِيقَةٌ يُنَبِّهُنَا عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ؛ لَكِنَّهَا لَيْسَتْ الوَحِيدَةَ، فَقَدْ رَوَى الإِمَامُ البُخَارِيُّ، عَنِ الحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَخْبَرَتْنِي صَفِيَّةُ زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ وَهُوَ مُعْتَكِفٌ فِي العَشْرِ الأَخِيرِ مِنْ رَمَضَانَ، فَتَحَدَّثَتْ مَعَهُ سَاعَةً، ثُمَّ أَرَادَتْ أَنْ تَنْقَلِبَ، أَيْ: تَعُودُ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْلِبُهَا، حَتَّى إِذَا وَصَلَ إِلَى البَابِ - بَابِ أُمِّ سَلَمَةَ- مَرَّ رَجُلَانِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَسَلَّمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ: «عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّهَا صَفِيَّةُ». فَقَالَا: سُبْحَانَ اللَّهِ - وَكَبُرَ ذَلِكَ عَلَيْهِمَا- فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي أَنْفُسِكُمْ شَيْئاً»(١).

---

(١) متفق عليه. رواه البخاري (٣١٠١)، ومسلم (٢١٧٥).

مَنِ الَّذِي يُعِينُ الشَّيْطَانَ هُنَا فِي مِثْلِ هَذَا الأَمْرِ، هَلِ الَّذِي يُعِينُ الشَّيْطَانَ الَّذِي مَرَّ وَرَأَى الرَّجُلَ وَالمَرْأَةَ مَثَلًا أَم الَّذِي يُعِينُ الشَّيْطَانَ هُوَ الرَّجُلُ الَّذِي سَكَتَ عَنْ أَخِيهِ، وَتَرَكَهُ يَذْهَبُ مَذْهَباً بَعِيداً وَتَرَكَ الشَّيْطَانَ يُلَقِّنُهُ الظُّنُونَ السَّيِّئَةَ، لَكِنَّ السُّؤَالَ يَا عِبَادَ اللَّهِ: أَيْنَ الظُّنُونُ هُنَا، أَلَيْسَ هُوَ أَطْهَرَ خَلْقِ اللَّهِ عَلَى الإِطْلَاقِ ﷺ، أَلَيْسَ هُوَ أَبْعَدَ النَّاسِ ﷺ عَنْ الرِّيبَةِ وَالشُّبْهَةِ وَالظُّنُونِ، أَلَيْسَ هُوَ فِي أَطْهَرِ وَقْتٍ فِي رَمَضَانَ، أَلَيْسَ هُوَ فِي أَطْهَرِ عَشْرٍ وَهُوَ العَشْرُ الأَخِيرُ مِنْ رَمَضَانَ، أَلَيْسَ هُوَ ﷺ فِي مُعْتَكَفِهِ، أَلَيْسَ هُمْ أَصْحَابَ النَّبِيِّ وَتَرْبِيَةَ النَّبِيِّ ﷺ، إِذاً أَيْنَ الظُّنُونُ؟ وَمَعَ هَذَا، قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: «عَلَى رِسْلِكُمَا».

يَقُولُ ابْنُ حَجَرٍ: أَرَادَ حَسْمَ المَادَّةِ، وَتَعْلِيمَ النَّاسِ لَوْ وَقَعَ لَهُمْ مِثْلَ هَذَا، وَلَوْ أَنَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ أَحداً ظَنَّ بِالنَّبِيِّ لخَرَجَ مِنَ الإِسْلَامِ، لَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَرَادَ أَنْ يُعَلِّمَنَا نَحْنُ.

فَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ، أَنَّهَا كَانَتْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ قُعُودٌ عِنْدَهُ، فَقَالَ: «لَعَلَّ رَجُلًا يَقُولُ مَا يَفْعَلُ بِأَهْلِهِ، وَلَعَلَّ امْرَأَةً تُخْبِرُ بِمَا فَعَلَتْ مَعَ زَوْجِهَا، فَأَرَمَّ القَوْمُ». فَقُلْتُ: إِي وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُنَّ لَيَقُلْنَ، وَإِنَّهُمْ لَيَفْعَلُونَ، قَالَ: «فَلَا تَفْعَلُوا، فَإِنَّمَا مِثْلَ ذَلِكَ مِثْلُ شَيْطَانٍ لَقِيَ شَيْطَانَةً فِي طَرِيقٍ، فَغَشِيَهَا وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ»[١].

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٦/٤٥٦)، وحسنه الألباني بشواهده، انظر آداب الزفاف (٧١).

هُنَا السُّؤَالُ يَا عِبَادَ اللَّهِ، هَلِ الرَّجُلُ فَعَلَ حَرَاماً مَعَ زَوْجَتِهِ، هَلِ الرَّجُلُ أَخْبَرَ عَنْ شَيءٍ كَذِبٍ، لَا كَذِبٌ وَلَا حَرَامٌ، إِذَنْ أَيْنَ الحَرَامُ؟ أَيْنَ إِعَانَةُ الشَّيْطَانِ؟ أَيْنَ مَوْضُوعُنَا الَّذِي نَتَحَدَّثُ فِيهِ تَحْدِيداً، إِنَّ أَغْلَى سِتْرٍ لِهَذِهِ الأُمَّةِ هُوَ سِتَارُ الحَيَاءِ، السِّتْرُ الَّذِي يُقَاتِلُ الشَّيْطَانُ لِخَرْقِهِ وَلِرَفْعِهِ وَلِكَشْفِهِ، هَذَا الرَّجُلُ حِينما جَاءَ يَتَحَدَّثُ وَهَذِهِ الْمَرْأَةُ حِينَما جَاءَتْ تَتَحَدَّثُ كَشَفَا هَذَا السِّتَارَ بِالمَجَّانِ، أَنْتَ الْمُتَحَدِّثُ تَقُولُ: أَنَا مَا أَخْبَرْتُ عَنْ كَذِبٍ، لَكِنْ أَنْتَ تَنْظُرُ لَهَا بِنَظْرَةٍ أُخْرَى، تَنْظُرُ لِلْمَسْأَلَةِ عَلَى أَنَّهَا زَوْجَتُكَ وَأَنْتَ تُخْبِرُ، رُبَّما تَفَاخُراً، رُبَّمَا أُنْساً، رُبَّمَا تَسْلِيَةً، رُبَّمَا كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنِ الْحَقِيقَةُ أَنَّ الَّذِي يَسْمَعُ يَتَصَوَّرُ أَهْلَكَ، هَكَذَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِي نَفْسِهِ، وَإِذَا كَانَتِ امْرَأَةً يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِي نُفُوسِ النَّاسِ أَنَّ زَوْجَكِ لَهُنَّ.

وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَثَلُهُ كَمَثَلِ شَيْطَانٍ أَتَى شَيْطَانَةً فَغَشِيَهَا وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ» فَيَا عِبَادَ اللَّهِ مَا بَالُ الَّذِينَ يُخْبِرُونَ عَنْ مُغَامَرَاتِ الحَرَامِ، مَا بَالُ الَّذِينَ يُجَنِّدُونَ أَمْوَالَهُمْ لإِشَاعَةِ الفَاحِشَةِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا بَالُ الْمَحَطَّاتِ الَّتِي تُوصِلُ هَذَا، بِهَذَا وَتُعْرَضُ بِالمَجَّانِ، وَاللَّهِ - يَا عِبَادَ اللَّهِ - إِنَّ الإِنْسَانَ يُشْفِقُ كَمْ تَتَحَمَّلُ صَحَائِفُ هَؤُلَاءِ.

وَصَدَقَ النَّبِيُّ ﷺ، إِذْ يَقُولُ: «لَا تُعِينُوا الشَّيْطَانَ عَلَى أَخِيكُمْ».

صُورٌ عَدِيدَةٌ لإعَانَةِ الشَّيْطَانِ بِالمَجَّانِ عَلَى الأَخِ، وَالإِنْسَانُ يُحسِنُ الظَّنَّ بِكَلِمَةٍ.

فَعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ ﵁ قَالَ: اسْتَابَّ رَجُلَانِ فِي مَجْلِسِ النَّبِيِّ ﷺ، فَغَضِبَ أَحدُهُما، وَسَبَّ صَاحِبَهُ، وَاحْمَرَّ وَجْهُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا هَذَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»(١). فَقَالَ الصَّحَابَة: أَمَا سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَاذَا يَقُولُ؟ قُلْ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم. قَالَ: أَمَجْنُونٌ أَنَا.

أَيُّ شَيءٍ يَحْتَاجُهُ الغَضْبَانُ، أَيُّ شَيءٍ يَحْتَاجُهُ بِنِصْفِ عَقْلِهِ، بِثَلَاثَةِ أَرْبَاعِ عَقْلِهِ، بِتِسْعِينَ بِالمِائَةِ مِنْ عَقْلِهِ، أَيُّ شَيءٍ يَحْتَاجُ، هَلْ يَحْتَاج أَنْ تَجْلِسَ وَتَنْفُخَ فِيهِ مَعَ نَفْخِ الشَّيْطَانِ فِي أَوْدَاجِهِ، هَلْ يَحْتَاج أَنْ تَزِيدَهُ أَزّاً فَتَقُومَ مَقَامَ الشَّيْطَانِ وَتُعِينَ الشَّيْطَانَ عَلَى أَخِيكَ، وَرُبَّما تَقُولُهَا وَأَنْتَ غَيُورٌ عَلَى أَخِيكَ، كَيْفَ يُنْتَقَصُ مِنْ قَدْرِهِ، كَيْفَ لَا يُسْمَعُ أَمْرُهُ، كَيْفَ كَذَا وَكَيْفَ كَذَا، فَتَقُولُ لَهُ: مَعَ مَنْ تَقِفُ؟ مَعَ مَنْ أُنزِلَ بِهِ العُقُوبَةُ، قُمْ لَهُ، أَهَذَا الَّذِي يَحْتَاجُهُ، هُوَ هُنَا أَقَلُّ مِنَ الطِّفْلِ، يَسِيرُ لِأَنَّهُ فَقَدَ الْعَقْلَ، أَوْ أَكْثَرَ الْعَقْلِ، وَهُوَ لَا يَدْرِي، إِنَّهُ يَحْتَاج أَنْ تَرُدَّهُ إِلَى عَقْلِهِ، لِيَتَّخِذَ القَرَارَ وَهُوَ فِي كَامِلِ أَهْلِيَّتِهِ وَصَوَابِهِ، هَذَا

(١) متفق عليه. رواه البخاري (٣٢٨٢)، ومسلم (٢٦١٠).

هُوَ الإِنْقَاذُ، لَا أَنْ تَزِيدَهُ، سَوَاءٌ كَانَ رَجُلًا أَمِ امْرَأَةً، فَلا يَنْبَغِي لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَجْلِسَ وَتَنْفُخُ مَعَ زَوْجِهَا مَعَ شَيْطَانِهَا فِي أَوْدَاجِ زَوْجِهَا، مَعَ نَفْخِ الشَّيْطَانِ حَتَّى يَضْرِبَ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِهَا وَيَقُولُ لَهُ: طَلِّقْنِي.

تَرَيْنَهُ قَدْ غَضِبَ غِيبِي عَنْ وَجْهِهِ قَلِيلًا، قُولِي لَهُ: اذْكُرِ اللَّهَ عز وجل، قُولِي لَهُ: صَلِّ عَلَى رَسُولِ اللَّه، ذَكِّرِيهِ بِالآخِرَةِ، ذَكِّرِيهِ بِالأَوْلَادِ، ذَكِّرِيهِ بِكَذَا.

لَحظَاتٌ يَقْتَنِصُهَا الشَّيْطَانُ وَيَتَمَنَّاهَا، فَتَأْتِي الزَّوْجَةُ وَتَقُومُ مَعَ الشَّيْطَانِ فِي صَفٍّ وَاحِدٍ، وَيَزْدَادُ الطِّينُ بِلَّةً حِينَمَا تَقُولُ: طَلِّقْنِي. فِي مِثْلَ هَذَا الحَالِ، وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ- مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ شَرْعِيٍّ- فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الجَنَّةِ»(١). أَيُّ مُجَازَفَةٍ لأَجْلِ غَضْبَةٍ، وَهَكَذَا الزَّوْجُ يَنْبَغِي أَنْ يُعَانِي وَيُعَالِجَ وَيُرَاعِيَ غَضَبَ زَوْجَتِهِ، إِنَّ الحِكْمَةَ هِيَ الْمَطْلُوبَةَ يَا عِبَادَ اللَّهِ.

أَهَؤُلَاءِ وَحْدَهُمْ هُمُ الَّذِينَ يُعِينُونَ الشَّيْطَانَ، ثَمَّةَ مَنْ يُعِينُ الشَّيْطَانَ عَلَى أَخِيهِ فِي صُوَرٍ كَثِيرَةٍ وَمُتَعَدِّدَةٍ، ذَلِكَ القَاضِي إِذَا غَضِبَ، وَأَرَادَ أَنْ

(١) رواه ابن ماجه في سننه (٢٠٥٥) من حديث ثوبان رضي الله عنه، وحسنه السيوطي في الجامع الصغير (٢٩٤٤)، والهيتمي المكي في الزواجر (٥/ ٥١)، وصححه الألباني في سنن ابن ماجه.

يَتَّخِذَ قَرَاراً، ذَاكَ الحَاكِمُ، ذَاكَ الْمُدِيرُ، ذَاكَ الرَّئِيسُ، إِذَا غَضِبَ كَانَ الوَاجِبُ عَلَى النَّاسِ أَنْ يُعِيدُوا إِلَيْهِ صَوَابَهُ، كُلُّ النَّاسِ يَغْضَبُونَ، وَالإِنْسَانُ الَّذِي لَا يَغْضَبُ أَبداً لَيْسَ بِإِنْسَانٍ سَوِيٍّ، وَكُلُّ النَّاسِ يُخْطِئُونَ، هُنَا تَأْتِي الحِكْمَةُ مِنَ الْمُحِيطِينَ بِي وَبِكَ، أَيّاً كَانَ مُسْتَوَانَا، وَمِنْ ثَمَّةَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « وَمَنْ خَاصَمَ فِى بَاطِلٍ وَهُوَ يَعْلَمُهُ لَمْ يَزَلْ فِى سَخَطِ اللَّهِ حَتَّى يَنْزِعَ »[١]. «لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللَّهِ حَتَّى يَنْزِعَ» النَّصِيحَةَ النَّصِيحَةَ، وَالتَّهْدِئَةَ التَّهْدِئَةَ، وَلَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَصْطَفَّ مَعَ الشَّيْطَانِ فَيَنْفُخَ هُوَ وَالشَّيْطَانُ فِي بُوقٍ وَاحِدٍ، بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ بِالقُرْآنِ العَظِيمِ، وَنَفَعَنِي وَإِيَّاكُمْ بِمَا فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الحَكِيمِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ العَظِيمَ، فَإِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ.

الخطبة الثَّانِيَة:

الحَمْدُ للَّه رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا وَنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ وَأَزْكَى التَّسْلِيم.

يَا عِبَادَ اللَّه، لَوْ فَقِهْنَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ لَنَزَعْنَا مِنْ يَدِ الشَّيْطَانِ سِلَاحاً اسْتَغْفَلَنَا بِهِ، وَاسْتَغْفَلَ بِهِ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ، لَوْ فَقِهْنَا مَا قَالَهُ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ، وَفَقِهْنَا هَذِهِ القَاعِدَةَ النَّبَوِيَّةَ العَظِيمَةَ، لَخَفَّ أَنْصَارُ الشَّيْطَانِ،

---

(١) رواه أبو داود (٣٥٩٧) من حديث عبد اللَّه بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه الألباني في سنن أبي داود، والوادعي في الصحيح المسند (٧٦٨).

وَخفَّ ضَحَايَا الشَّيْطَانِ، وَقَلُّوا، فَهلْ نَفْقَهُ، هَلْ نَفْقَهُ مَا بَيَّنَهُ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ، بِقَوْلِهِ: «لَا تُعِينُوا الشَّيْطَانَ عَلَى أَخِيكُمْ» تَذَكَّرْ نَفْسَكَ مَكَانَ أَخِيكَ، فَكَيْفَ تُحِبُّ أَنْ يُعَامِلَكَ الآخَرُونَ، الشَّيْطَانُ - وَاللَّهِ - يَعْجزُ، وَهُوَ عَاجِزٌ، وَهُوَ ضَعِيفٌ، وَكَيْدُهُ ضَعِيفٌ، كَمَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] لَكِنَّ جُنْدَهُ الْمُغَفَّلِينَ هُمُ الَّذِينَ يُعِينُونَهُ.

كَمْ - يَا عِبَادَ اللَّهِ - وَكَمْ مِنْ خَطِيبٍ، مِنْ شَيْخٍ يَأْتِي لِيُنْكِرَ مُنْكَراً يَعْمَلُهُ بَعْضُ النَّاسِ، يَعْمَلُهُ قِلَّةٌ قَلِيلَةٌ، فَيَأْتِي عَلَى الْمِنْبَرِ يُبَيِّنُ هَذَا الْمُنْكَرَ وَيُكَبِّرُ، صُورَتَهُ، حَتَّى يَجْعَلَهُ كَأَنَّهُ ظَاهِرٌ، فَيَسْلَمُ النَّاسُ، وَيَأْتِي الضُّعَفَاءُ فَيُهْرَعُونَ لِعَمَلِ ذَلِكَ الْمُنْكَرِ، مِثْلَ مَا نَسْمَعُ بَعْضَ الْقَصَصِ الَّتِي تَقْشَعِرُّ لَهَا الأَبْدَانُ، مَنْ فِعْلِ كَذَا مِنَ الفَوَاحِشِ بِابْنَتِهِ، حَادِثَةٌ وَقَعَتْ فِي مِلْيَارِ مُسْلِمٍ أَوْ حَادِثَتَانِ أَوْ عَشْرَةٌ، مَاذَا تَعْنِي هَذِهِ؟ أَتُجْعَلُ ظَاهِرَةً؟ كَمْ مِنْ شَيْخٍ مَثَلًا جَاءَ يُنْكِرُ قَضِيَّةَ الْمُخَدِّرَاتِ، وَهِيَ مُنْكَرٌ، وَلَكِنْ جَاءَ يُبَيِّنُ كَيْفِيَّةَ صِنَاعَةِ الْمُخَدِّرَاتِ، وَهُوَ يُرِيدُ إِنْكَارَهَا، فَجَاءَ يُعَلِّمُ الشَّبَابَ الضِّعَافَ الَّذِينَ جَاؤُوا إِلَى الْمَسْجِدِ أَوْ سَمِعَ الطَرِيقَ وَعَرَفُوا طَرِيقَ النُّورِ، تَلْقِينٌ وَهُوَ لَا يَدْرِي، وَصَدَقَ النَّبِيُّ ﷺ إِذْ يَقُولُ: «لَا تُعِينُوا الشَّيْطَانَ عَلَى أَخِيكُمْ».

كَمْ عَجَزَ الشَّيْطَانُ عَنْ إِيقَاعِ النَّاسِ فِي البِدَعِ، فَيَأْتِي شَيْخٌ فِي

صُورَةِ شَيْخٍ، وَيَقُولُ للنَّاسِ، إِنَّ عَمَلَ هَذَا الْأَمْر هُوَ مَحَبَّةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ، وَهُوَ كَذَا وَكَذَا، وَهُوَ بِدْعَةٌ، لَمْ يَقُلْ بِهَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ الْمُعْتَبَرِينَ كَالأَئِمَّةِ الأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ، وَمَا أَكْثَر مَا يُنْسَبُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَيُفْتَرَى عَلَيْهِ أَحَادِيثُ لَمْ يَقُلْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

وَيَأْتِي النَّاس مِنْ مَحَبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ فَيُنْكِرُونَ عَلَى مَنْ يُنْكِرُ عَلَيْهِمْ، وَصَدَقَ النَّبِيُّ ﷺ إِذْ قَالَ: «لَا تُعِينُوا الشَّيْطَانَ عَلَى أَخِيكُمْ» وَرُبَّما هَذَا الشَّيْخُ هَذَا حَدُّ عِلْمِهِ، هُوَ صَادِقٌ، فِيمَ هُوَ صَادِقٌ فِي إِخْلَاصِهِ، وَلَكِنْ لَا يُعْذَرُ الإِنْسَانُ بِاتِّبَاعِ كُلِّ النَّاس، وَلَا يُعْذَرُ الرَّجُلُ بِقَوْلِ كُلِّ شَيءٍ حَتَّى يَتَحَقَّقَ، كَمْ يَعْجزُ الشَّيْطَانُ عَنْ إِيْقَاعِ مُسْلِمِينَ وَمُسْلِمَاتٍ فِي الشِّرْكِ، فَمِنْ أَيْنَ تَأْتِيهِمْ مَعُونَةٌ؟ مِنْ رَجُلٍ نَاصِحٍ مُسْلِمٍ، يَذْكُرُ لَهُمْ فُلَانٌ الشَّيْخُ أَوْ الْمُطَوِّعُ، يَرْقَى مِنْ كَذَا وَكَذَا، فَتبرَّأَ مِنْ كَذَا وَكَذَا، تَحْتَاجُ الْمَرْأَةُ يَوْماً مِنَ الأَيَّامِ، يَحْتَاجِ الرَّجُلُ، قَلْبُهُ ضَعِيفٌ ضَعِيفٌ تَحْتَ تَأْثِيرِ الْمَرَضِ إِلَى هَذَا الْمُخَرِّبِ السَّاحِرِ الْمُخَرِّبِ الكَافِرِ، فَيَقَعُ فِي الشِّرْكِ وَهُوَ لَا يَدْرِي.

كَمْ عَجزَ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ شَرِيفاً مِنَ الشُّرَفَاءِ فِي الفَاحِشَةِ فَمِنْ أَيْنَ يَجِدُ الإِعَانَةَ؟ مِنْ زَوْجَتِهِ، يَأْتِي الرَّجُلُ إِلَى زَوْجَتِهِ، وَفِي دَاخِلِهِ نَارُ الشَّهْوَةِ، يَقَعُ ذَلِكَ يَا عِبَادَ اللَّهِ لِكُلِّ النَّاسِ، فَتَأْتِي الْمَرْأَةُ، تَقُولُ: لَيْسَ هَذَا وَقْتَهُ، أَمَا تَعْرِفُ، أَمَا كَذَا. . . أَمَا كَذَا . . .

مَنِ الضَّحِيَّةُ؟ الدِّيْنُ، الإِيْمَانُ، العِفَّةُ، الزَّوْجُ.

الرَّسُولُ ﷺ الَّذِي أَمَرَ الرِّجَالَ أَنْ يَكُون بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ رَسُولٌ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ، رَاعَى هَذَا الجَانِبَ فِي بَعْضِ الأَوْقَاتِ، فَقَالَ: «إِذَا الرَّجُلُ دَعَا زَوْجَتَهُ لِحَاجَتِهِ فَلْتَأْتِهِ وَإِنْ كَانَتْ عَلَى التَّنُّورِ»[1]؛ لِأَنَّهَا لَوْ لَمْ تُجِبْ لرُبَّما ذَهَبَ الرَّجُلُ وَوَقَعَ فِي تَنُّورِ جَهَنَّمَ، كَيْفَ يُفْرِغُ شَهْوَتَهُ، القَضِيَّةُ لَيْسَتْ قَضِيَّةَ شَهْوَةٍ يَا عِبَادَ اللَّه، قَضِيَّةَ عِفَّةٍ، قَضِيَّةَ دِينٍ، النَّبِيُّ ﷺ وَاقِعِيٌّ، لَا يَتَكَلَّمُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مِنْظَارِهِ هُوَ، مِنْ عِفَّتِهِ هُوَ، يُرَاعِي ﷺ كُلَّ وَاحِدٍ فِي أُمَّتِهِ.

كَمْ مِنَ الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ، مَنْ - يَا عِبَادَ اللَّهِ - أَعَانَ الشَّيْطَانَ حِينَما أَنْكَرَ عَلَى إِنْسَانٍ إِنْكَاراً لَيسَ وَقْتَهُ، جَاءَ إِلَيْهِ، أَنْكَرَ عَلَيْهِ، ذَمَّهُ، شَتْمَهُ، سَبَّهُ، وَحَسِبَ أَنَّ هَذَا شَجَاعَةٌ فِي الحَقِّ، الشَّجَاعَةُ لَيْسَتْ بِهَذَا، الشَّجَاعَةُ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ، مِنْ مِنَّا - يَا عِبَادَ اللَّهِ - كَرَّهَ النَّاس حِينَما نَصَحهُمْ أَمَامَ المَلأ، لَا يَنْصَحُ الإِنْسَانُ أَمَامَ الْمَلأ خُصُوصاً إِذَا كَانَ وَلِيَّ أَمْرِهِ، إِلَّا فِي أَضْيَقِ الْمَضَايِقِ، أَمَّا أَنْ تُصْبحَ النَّصِيحَةُ فِي الْمَلأ وَبِأَسْمَاءِ الأَشْخَاصِ وَفِي الْمَجْلِسِ فلا.

كَمْ عَجزَ الشَّيْطَانُ أَنْ يُخْرِجَ الوَلَدَ إِلَى الشَّارِعِ، حَتَّى نفخ فِي أَبِيهِ

---

(١) رواه الترمذي (١١٦٠) من حديث طلق بن علي رضي الله عنه . وحسنه السيوطي في الجامع الصغير (٦٠٠)، وصححه الألباني.

فَتلَقَّفَتْهُ الذِّئَابُ، وَصَدَقَ النَّبِيُّ ﷺ إِذْ قَالَ: «لَا تُعِينُوا الشَّيْطَانَ عَلَى أَخِيكُمْ» صُورُ ذَلِكَ - يَا عِبَادَ اللَّهِ - كَثِيرَةٌ، فَلْنَتَّقِ اللَّهَ، ولْنَتَفَقَّهْ فِي القَاعِدَةِ النَّبَوِيَّةِ الذَّهَبِيَّةِ الَّتِي ذَكَرَهَا لَنَا رَسُولُ اللَّه، فَرُبَّما وَقَعَ فِيهَا الإِنْسَانُ وَهُوَ لَا يَدْرِي، وَرُبَّما قَاتَلَ الإِنْسَانُ أَخَاهُ مَعَ الشَّيْطَانِ فِي صَفٍّ وَاحِدٍ وَهُوَ لَا يَدْرِي، وَرُبَّما أَصْبَحَ جُنْدِيّاً مِنْ جُنْدِ الشَّيْطَانِ وَهُوَ لَا يَدْرِي، وَكُلُّ ذَلِكَ بِحُسْنِ ظَنٍّ وَبِحُسْنِ نِيَّةٍ، وَمَاذَا يُغْنِي حُسْنُ النِّيَّةِ إِذَا أَهْلَكَ بَعْضُنَا بَعْضاً.

* * * * *

الملحق الثاني
خُطْبَةُ النَّفْخُ

أَمَّا بَعْدُ:

حَدِيثُنَا الْيَوْمَ عَنْ مَوْضُوعٍ هُوَ أَقَلُّ مِنْ خُطْبَةٍ، وَأَقَلُّ مِنَ الْكَلَامِ، وَأَقَلُّ مِنْ الجُمْلَةِ، وَأَقَلُّ مِنَ الْكَلِمَةِ، بَلْ أَقَلُّ مِنْ الحَرْفِ، حَدِيثُنَا الْيَوْمَ عَنْ النَّفْخِ، النَّفْخَةِ، وَمَاذَا يُمْكِنُ لمُتَحَدِّثٍ أَنْ يَتَحَدَّثَ عَنِ النَّفْخِ، النَّفْخَةُ أَصْغَرُ صَغِيرٍ، وَأَقَلُّ شَيءٍ، وَأَحْقَرُ شَيءٍ.

لَكِنَّ النَّفْخَةَ - يَا عِبَادَ اللَّه - إِذَا كَانَتْ مِنْ العَظِيمِ تَكُونَ عَظِيمَةً، وَإِذَا كَانَتْ مِنْ الحَقِيرِ تَكُونَ أَحْقَرَ مِنْهُ، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ هُوَ حَقِيراً وَتَافِهاً وَصَغِيراً فَإِن نَفْخَتَهُ، تَكُونَ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ.

النَّفْخَةُ ابْتِدَاءً مَوْلِدُ البَشَرِيَّةِ كَانَ بِنَفْخَةٍ، فِي التِّرمِذِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ جَعَلَهُ طِيناً، ثُمَّ تَرَكَهُ، ثُمَّ جَعَلَهُ حَمَأً مَسْنُوناً، ثُمَّ خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ، ثُمَّ تَرَكَهُ، ثُمَّ جَعَلَهُ صَلْصَالاً كَالفَخَّارِ، فَكَانَ إِبْلِيسُ يَمُرُّ بِهِ وَيَقُولُ: لَقَدْ خُلِقْتَ لأَمْرٍ عَظِيمٍ، لَا عِلْمَ لَهُ، وَلَا أَحداً مِنْ خَلْقِ اللَّه- يَمُرُّ بِهِ وَيَقُولُ: لَقَدْ خُلِقْتَ لأَمْرٍ عَظِيمٍ، فَنَفَخَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، فَكَانَ أَوَّلُ مَا جَرَى فِيهِ مِنَ الرُّوحِ سَمْعَهُ

وَبَصَرَهُ، وَخَيَاشِيمَهُ، فَعَطَسَ، فَقَالَ آدَمُ: الحَمْدُ للَّه، فَقَالَ اللَّهُ تَعالَى: يَرْحَمُكَ رَبُّكَ»[(١)]. طِينَةٌ هَكَذَا خُلِطَ التُّرَابُ بِالمَاءِ فَتَمَاسَكَ، ثُمَّ يُطَيِّنُهُ، فَإِذَا يَبِسَ سُمِّيَ صَلْصالاً، فَإِذَا جُعِلَ عَلَى النَّارِ، صَارَ فَخَّاراً.

مَرَّ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعالَى بِمَرَاحِلَ، لَكِنَّهُ لَا يَزَالُ فِي مَرْحَلَتِهِ الأَخِيرَةِ فَخَّاراً، وَمَا إِنْ نَفَخَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيهِ الرُّوحَ حَتَّى تَحَوَّلَ ذَلِكَ الفَخَّارُ إِلَى كَائِنٍ آخَرَ، تَحَوَّلَ ذَلِكَ الفَخَّارُ، ذَلِكَ الطِّينُ الْمَحْمِيُّ بِالنَّارِ تَحَوَّلَ لَحماً وَعَظْماً، وَعَصَباً، وَشَعْراً، وَسَمْعاً وَبَصراً، وَفِكْراً، وَإِحْسَاساً وَإِرَادَةً وَقُوَّةً، وَشَهْوَةً . . . إِلَى آخَرَ الأَشْيَاءِ الْمَوْجُودَةِ فِي الإِنْسَانِ، لَكِنَّهَا كَانَتْ كَأَكْمَلِ مَا يَكُون الإِنْسَانُ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ.

لَا تَتَصَوَّرُوا القَضِيَّةَ أَنَّهُ مَوْلُودٌ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، فَكَانَ كَذَلِكَ، لَا، إِنَّهُ تَحَوَّلَ بِتِلْكَ النَّفْخَةِ مِنْ صَلْصَالٍ كَالفَخَّارِ إِلَى أَكْمَلِ مَا يَكُون الإِنْسَانُ.

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ نَفْخَةٍ عَجِيبَةٍ أُخْرَى، وَتَابِعُوا مَعَنَا عَجَائِبَ النَّفْخَةِ إِذَا كَانَتْ مِنَ العَظِيمِ، قَالَ اللَّهُ تَعالَى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ

(١) رواه أبو يعلى في مسنده (٦٥٨٠) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٠٠): فيه إسماعيل بن رافع، قال البخاري: ثقة مقارب الحديث، وضعفه الجمهور وبقية رجاله رجال الصحيح.

ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١] مَرْيَمُ، مَرْيَمُ عليها السلام، الرَّاجِحُ فِي الْمَسْأَلَةِ أَنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام حِينما وَاجَهَها نَفَخَ فِي صَدْرِهَا، فَسَرَتْ تِلْكَ النَّفْخَةُ إِلَى فَرْجِهَا إِلَى رَحِمِهَا، فَكَانَتْ أُعْجُوبَةُ الأَعَاجِيبِ عِيسَى عليه السلام، مِمَّنْ؟ مِنْ مَرْيَم، مَرْيَمُ عَلَيْهَا السَّلام الَّتِي نَذَرَتْهَا أُمُّهَا لِلَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حِينَ كَانَتْ فِي بَطْنِ أُمِّهَا: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: ٣٥] فَتَقَبَّلَهَا اللَّهُ بِقَبُولٍ حَسَنٍ، وَقَبِلَ ذَلِكَ النَّذْرَ.

وَتَفَرَّغَتِ الْمَنْذُورَةُ لِخِدْمَةِ بَيْتِ اللَّهِ وَلِعِبَادَةِ اللَّهِ حَتَّى رُوِيَ أَنَّ قَدَمَيها تَفَطَّرَتا مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ، رُوِيَ ذَلِكَ، لَكِنَّهَا كَانَتْ مُتَفَرِّغَةً لِعِبَادَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مَرْيَمُ الَّتِي كَانَتْ أُعْجُوبَةً لِنَبِيٍّ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّه، زَكَرِيَّا عليه السلام، ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

مَرْيَمُ الَّتِي كَانَ حَمْلُهَا أُعْجُوبَةً، آيَةً مِنْ آيَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْعُظْمَى، لَكِنَّهَا عِنْدَ اللَّهِ يَسِيرَةٌ، فَكَانَ عِيسَى، كَانَ عِيسَى مِنْ تِلْكَ النَّفْخَةِ، وَصَلَتْ تِلْكَ النَّفْخَةُ بِبَرَكَةِ اللَّه، بِأَمْرِ اللَّه، مَعَ عِيسَى عليه السلام، فَكَانَ عِيسَى يُؤْتَى لَهُ بِالمَرِيضِ الَّذِي اسْتَعْسَرَ عِلَاجُهُ، فَيَشْفَى بِإِذْنِ اللَّه، قِفُوا قَلِيلًا، وَتَصَوَّرُوا بِأَعْيُنِكُمْ يَا عِبَادَ اللَّه، طِينَةٌ شُكِّلَتْ عَلَى

شَكْلِ طَيْرٍ، طِينَةٌ، فَجَاءَهَا عِيسَى فَنَفَخَ فِيهَا نَفْخَةً، فَجَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي نَفْخَةِ عِيسَى رُوحاً، فَتَحَوَّلَتْ تِلْكَ الطِّينَةُ إِلَى طَيْرٍ، تَحَوَّلَتِ الطِّينَةُ إِلَى عَصَبٍ، وَلَحْمٍ، وَعَظْمٍ، وَرِيشٍ وَسَمْعٍ وَبَصَرٍ وَقُوَّةٍ وَطَيَرَانٍ، ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آلعمران: ٤٩].

مَيِّتٌ مُسَجَّىً يَأْتِيهِ عِيسَى، فَيَنْفُخُ فِيهِ، فَيَقُومُ الرَّجُلُ كَأَنَّهُ لَمْ يَمُتْ، مَقْبَرَةٌ مُهَجَّرَةٌ، يَمُرُّ عِيسَى بِقَبْرٍ فَيُنَادِي عَلَى الرَّجُلِ أَوْ يَنْفُخُ عَلَى القَبْرِ، فَتَسْرِي الرُّوحُ، فَيَقُومُ الرَّجُلُ بِإِذْنِ اللَّهِ، يَنْفُضُ الغُبَارَ عَنْ نَفْسِهِ، عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذَا الأُعْجُوبَةُ، وَأُمُّهُ الآيَةُ، أَتَرَوْنَ - يَا عِبَادَ اللَّهِ - أَقْوَاماً لَهُمْ شَرَفٌ، وَلَهُمْ إِحْسَاسٌ، وَلَهُمْ إِنْسَانِيَّةٌ - يَتَآمَرُونَ عَلَى رَجُلٍ مِثْلِ عِيسَى، يَتَآمَرُونَ، وَيَتَّهِمُونَ امْرَأَةً مِثْلَ مَرْيَمَ، نَعَمْ، إِنَّهُمْ فَقَط الْيَهُودُ، فَقَط اليَهُودُ.

فَإِذَا تَآمَرُوا وَهُمْ يَرَوْنَ الآيَاتِ، فَمَاذَا تَنْتَظِرُونَ مِنْ أَبْنَاءِ القِرَدَةِ وَالخَنَازِيرِ، مَاذَا تَنْتَظِرُونَ وَقَدْ عَلَوْا عَلَى الْمُسْلِمِينَ بَلْ عَلَى النَّاسِ عُلُوّاً كَبِيراً.

وَتَمْضِي آيَاتُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَتَمْضِي هَذِهِ النَّفْخَةُ الأُعْجُوبَةُ، يُخْبِرُنَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّ هَذِهِ النَّفْخَةَ رُبَّمَا تَكُونُ لَعْنَةً، وَرُبَّمَا تَكُونَ النَّفْخَةُ رَحْمَةً، وَرُبَّمَا تَكُونَ نِعْمَةً، مِنْ ذَلِكَ - يَا عِبَادَ اللَّه - مَا أَخْبَرَنَا بِهِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهَذَا يُبَيِّنُ أَهَمِّيَّةَ هَذَا الْمَوْضُوعِ فِي حَيَاتِنَا، إِنَّه

مَوْضُوع هَادِفٌ فِي غَايَةِ الْهَدَف، وَفِي عُمْقِ الْهَدَف.

يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ ذِي القَرْنَيْنِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٣-٩٥].

فَمَاذَا كَانَ؟ كَانَ - يَا عِبَادَ اللَّهِ - أَنْ جمعَ الحَدِيدَ، وَجمعَ زُبَرَ الحَدِيدِ، ثُمَّ إِذَا جَعلَهُ نَاراً قَالَ لهُمْ: قَالَ: انْفُخُوا، بِغَيْرِ النَّفْخَةِ لَنْ يَكُون السَّدُّ، بِغَيْرِ النَّفْخَةِ لَنْ يَكُون الأَمَانُ مِنْ هَذَا الطُّغْيَانِ، بِغَيْرِ النَّفْخَةِ لَنْ تَعِيشُوا الْيَوْم بِسَلامٍ، سَيَأْكُلُكُمْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، فَكَانَتِ النَّفْخَةُ.

كَانَ العَملُ الَّذِي سَبقَ النَّفْخَة، أَنْ جَاؤُوا بالحَدِيدِ، وَوَضَعُوهُ فِي المَكَانِ الَّذِي عَلَّمَهُمْ إِيَّاهُ قَائِدهُمُ الْمُوَحِّدُ ذُو القَرْنَيْنِ، وَكَانَ العَمَلُ مُوَحَّداً، وَكَانَتِ النَّفْخَةُ مُوَحَّدَةً، فَكَانَ السَّدُّ الَّذِي مَنَعَ أَعْظَمَ طُوفَانٍ سَيَخْرُجُ عَلَى هَذِهِ الأَرْضِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ.

بِمَاذَا؟ بِنَفْخَةٍ، لَكِنَّ النَّفْخَة - يَا عِبَادَ اللَّهِ - كَانَتْ مُوَحَّدَةً، فَمَا بَالُ أُمَّة الإِسْلام لا يَتَوحَّدُ لَهَا عَملٌ، وَلَا يَتَوحَّدُ لَهَا قَرَارٌ، وَلا يَتَوحَّدُ لَهَا مَسْؤُولِيَّةٌ وَلَا قِيَادَةٌ، وَلَا يَتَوَحَّدُ لَهَا كَلامٌ، وَلا يَتَوحَّدُ لَهَا شَيءٌ،

فَضْلًا عَنْ أَنْ تَتَوَحَّدَ فِي نَفْخَةٍ، هَؤُلَاءِ القَوْمُ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ لَكِنَّهُمْ لمَّا تَوَحَّدُوا صَنعُوا أَعْظَمَ سَدٍّ.

وَالأُمَّةُ الَّتِي أَنْزَلَ اللَّهُ عز وجل عَلَيْهَا أَحسَنَ قَوْلٍ، ووَهَبَهَا أَحْسَنَ قَوْلٍ، وَرَزَقَهَا أَفْصَحَ نَبِيٍّ، لَا تَجْتَمِعُ عَلَى نَفْخَةٍ، لَا تَجْتَمِعُ عَلَى نَفْخَةٍ.

سَدُّ صُنْعُ ذِي القَرْنَيْنِ بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَمَنَعَ هَؤُلَاءِ الأَقْوَامَ الأَوْبَاشَ (يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ)، وَالأُمَّةُ الَّتِي أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْهَا كِتَاباً، لَوْ سُيِّرَتِ الجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتِ الأَرْضُ بِكِتَابٍ لَكَانَ هَذَا القُرْآنَ، وَلَيْسَتْ قَضِيَّةَ سَدٍّ فَحسْبُ، عِنْدَنَا الْقُرْآن يَا أُمَّة الإِسْلَامِ، لَا يَعْمَلُ سَدّاً، وَإِنَّمَا يُزِيحُ الجِبَالَ، وَيقْطَعُ الأَرْضَ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ ذَلِكَ لِهَذا القُرْآنِ، وَمَعَ هَذَا نَتَخَلَّى عَنِ الْقُرْآن يَا أُمَّة الإِسْلَامِ، وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَنْ تَذُوقَ نَصْراً وَلَنْ تَذُوقَ عِزّاً وَلَنْ تَذُوقَ عَوْدَةً إِلَى العُلُوِّ الَّذِي قَرَأْتُمُوهُ فِي التَّارِيخِ وَسَمِعْتُمُوهُ مِنْ قَبْلَ حَتَّى تَعُودُوا إِلَى القُرْآنِ، تَعُودُوا إِلَى كِتَابِ اللَّه، تَعُودُوا لتَعْمَلُوا بِكِتَابِ اللَّه، تَعُودُوا لتُشَرِّعُوا وَتَحْكُمُوا بِكِتَابِ اللَّه، تَعُودُوا لتُرَبُّوا أَجْيَالَكُمْ عَلَى كِتَابِ اللَّه، وَتَجْعَلُوا الْقُرْآن يَصْنَعُ مِنْ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ رِجالًا، كَأُولَئِكَ الرِّجَالِ، يَصْنَعُ مِنَ الْقُلُوب قُلُوباً لَا تُوَحِّدُ إِلَّا اللَّهَ، وَلَا تُشْرِكُ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شَيْئاً.

أَمَّا أَنْ نَتْرُكَ الحَبْلَ الْمَتِينَ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَنَا، وَسَمَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ حَبْلًا مَتِيناً، وَنَبْتَغِي العِزَّةَ وَرَاءَ الصَّلِيبِيِّينَ وَوَرَاءَ اليَهُودِ، وَوَرَاءَ شُذَّاذِ الآفَاقِ، وَوَرَاءَ مِنْ يُبِيحُونَ بِشَرَائِعِهِمْ زَوَاجَ الرَّجُلِ مِنَ الرَّجُلِ، وَيُبِيحُونَ بِشَرَائِعِهِم السِّحَاقَ، وَيُبِيحُونَ بِشَرَائِعِهِمْ كُلَّ الْمُنْكَرَاتِ الَّتِي مَرَّتْ عَلَى تَارِيخِ البَشَرِيَّةِ، نُرِيدُ العِزَّةَ مِنْ هَؤُلَاءِ، ذُوقُوا الأَذَلَّيْنِ، ذُوقُوا الْمُرَّ، ذُوقُوا الذِّلَّةَ، مَا دُمْتُمْ تَتْرُكُونَ كِتَابَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إِنَّ مَثَلَ الَّذِي يَطْلُبُ الإِنْقَاذَ بِهَؤُلَاءِ كَمَثَلِ السَّمَكِ، لَمَّا رَأَتْ حَبْلًا وَرَأَتْ سِنَّارَةَ الصَّيَّادِ رَأَتْ أَنَّ النَّجَاةَ فِي السِّنَّارَةِ، فَأَخَذَتِ السِّنَّارَةَ وَأَكَلَتْهَا، فَاصْطَادَهَا الصَّيَّادُ، هَكَذَا إِذَا تَرَكْنَا حَبْلَ اللَّهِ الْمَتِينَ، وَسِرْنَا وَرَاءَ اليَهُودِ وَالصِّلِيبِيِّينَ، نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَرُدَّ هَذِهِ الأُمَّةَ إِلَى دِينِهَا رَدّاً جَمِيلًا.

بَارَكَ لِي وَلَكُمْ بِالقُرْآنِ العَظِيمِ، وَنَفَعَنِي وَإِيَّاكُمْ بِمَا فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الحَكِيمِ، اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ العَظِيمَ، فَيَا فَوْزَ الْمُسْتَغْفِرِينَ.

الحَمْدُ للَّه رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا وَنَبِيِّنَا وَإِمَامِنَا وَقَائِدِنَا وَقُدْوَتِنَا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ وَأَزْكَى التَّسْلِيمِ.

عِبَادَ اللَّه، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه، مَا السُّورُ؟ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ

ﷺ: «قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ». «قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ» هَذِهِ هِيَ النَّفْخَةُ الأَعْظَمُ، نَفْخَةُ قَرْنٍ يُنْفَخُ فِيهِ.

فَبِهَذِهِ النَّفْخَةِ تُسْحَبُ جَمِيعُ الأَرْوَاحِ مِنْ جَمِيعِ البَشَرِ، مِنْ جَمِيعِ مَنْ فِيهِ رُوحٌ بِتِلْكَ النَّفْخَةِ، بِهَذِهِ النَّفْخَةِ، بِهَذِهِ النَّفْخَةِ تَطِيرُ الجِبَالُ، تَذُوبُ السَّمَوَاتُ، تَتَفَجَّرُ البِحَارُ، يَنْفَرِطُ نِظَامُ الْكَوْنِ، بِهَذِهِ النَّفْخَةِ ثَانِيَةً تَعُودُ الأَرْوَاحُ إِلَى ذَوِي الأَرْوَاحِ، وَيَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ، فَمَا أَعْظَمَهَا مِنْ نَفْخَةٍ.

وَلَكِنْ يَبْقَى السُّؤَالُ يَا عِبَادَ اللَّهِ، لِمَاذَا النَّفْخَةُ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَكِيمٌ عَلِيمٌ، كَانَ اللَّهُ عز وجل قَادِراً عَلَى أَلَّا يَجْعَلَهَا نَفْخَةً، يَجْعَلَهُ عَمَلًا، يَجْعَلُهُ قَوْلَهُ، يَجْعَلُهُ قَوْلًا عَظِيماً غَيْرَ النَّفْخَةِ، فَلِمَاذَا النَّفْخَةُ؟ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ لَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَمَا ابْتَدَأَ البَشَرِيَّةَ بِنَفْخَةٍ يُزِيلُ الْكَوْنَ بِنَفْخَةٍ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَهُوَ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ - يُرِيدُ أَنْ يُبَيِّنَ لِلنَّاسِ هَوَانَ الدُّنْيَا عَلَى اللَّه، أَنَّهَا هَذِهِ الَّتِي تَعَلَّقَتْ بِهَا قُلُوبُهُمْ، وَشَهَقَتْ لَهَا أَبْصَارُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ، هَذِهِ الدُّنْيَا يُزِيلُهَا اللَّهُ بِنَفْخَةٍ يُزِيلُهَا اللَّهُ عز وجل بِنَفْخَةٍ، فَهَلْ يَسْتَحِقُّ شَيءٌ لَا يَثْبُتُ بِنَفْخَةٍ أَنْ تَتَعَلَّقَ بِهِ الْقُلُوب.

وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ اللَّهَ عز وجل يُرِيدُ بِالنَّفْخَةِ أَنْ يُبَيِّنَ لِلنَّاسِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ - عَظَمَةَ الجَنَّةِ، الَّتِي لَا تَزُولُ بِنَفْخَةٍ وَلَا بِغَيْرِ نَفْخَةٍ،

عَظمَةَ الجَنَّةِ الَّتِي غَرَسَها اللَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالَى بِيَدِهِ، وَجَمعَ اللَّهُ عز وجل كُلَّ رَحْمَتِهِ، وَوضَعَها فِي الجَنَّةِ لِيَتَمَتَّعَ بِهَا الْمُؤْمِنُونَ.

وَأَعْظَمُ مَا فِي الجَنَّةِ أَنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ بَعْدَ مَا يَحْصُلُونَ عَلَى جَمِيعِ النَّعِيمِ بِمَا فِيهِ رُؤْيَةُ جَلَالِ اللَّهِ وَجَمالِهِ وَوَجْهِ اللَّهِ عز وجل الْكَرِيمِ، أَنَّهُ بَعْدَ كُلِّ ذَلِكَ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨] خَالِدِينَ لَا بِنَفْخَةٍ وَلَا بِغَيْرِ نَفْخَةٍ.

بِالنَّفْخَةِ يُرِيدُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى أَنْ يُبَيِّنَ لِلْعِبَادِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ - عَظَمَةَ اللَّه، عَظَمَةَ رَبِّ العَالمِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى، فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى جَعَلَ القُوَّةَ وَوَهَبَ القُوَّةَ لِمَلَكٍ، مِنْ مَلَائِكَتِهِ، فَكَانَتْ هَذِهِ النَّفْخَةُ الَّتِي تَصْنَعُ بِالْوُجُودِ مَا تَقْرَؤُونَهُ بِكِتَابِ اللَّهِ إِذَا نَفَخَ هَذَا النَّافِخُ فِي السُّورِ أَوْ بِسَبَبِهَا أَوْ عَلَى أَثَرِهَا، إِذَنْ، هَذَا مَخْلُوقٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى، فَكَيْفَ بِرَبِّ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، كَيْفَ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى، ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] كَيْفَ بِكَ سَتُلَاقِي اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى، كَيْفَ بِكَ إِذَا حَاسَبَكَ اللَّهُ حَتَّى عَلَى النَّفْخَةِ، أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ عز وجل: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣] إِذَنْ هِيَ مُرْصَدَةٌ، فَسُبْحَانَ مَنْ يُحَاسِبُ الْوَلَدَ عَلَى أُفٍّ تِجَاهَ أَبِيهِ، سُبْحَانَ الَّذِي يَجْعَلُ الْمِيزَانَ يَزِنُ الأُفَّ، سُبْحَانَ مِنْ لَا يَنْسَى الأُفَّ.

وَلِذَلِكَ النَّفْخَةُ تَجْعَلُ العَبْدَ يُحَاسِبُ نَفْسه قَبْلَ أَنْ يُحَاسِبَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى.

عِبَادَ اللَّه، لَا نُخَادِعَنَّ أَنْفُسَنا، لَا نُخَادِعَنَّ أَنْفُسَنا، وَمَنْ كَانَ يَعِيشُ فِي قِنَاعِ وَوَهْم فَلْيَكْشِفِ القِنَاعَ عَنْ وَجْهِهِ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّ السَّدَّ قَدْ انْهَارَ، سَدُّ بَغْدَادَ، سَدُّ الدَّوْلَةِ العَبَّاسِيَّةِ قَدْ انْهَارَ، وَأَن العَدُوَّ حَلَّ فِي دِيَارِكُمْ، وَأَن الطُّوفَانَ تَخطَّى السَّدَّ، وَأَن القَاتِلَ قَاتِلُكُمْ، أَصْبَحَ لَكُمْ جَارٌ، وَأَن سَارِقَكُمْ وَضعَ يَدَهُ عَلَى خَزَائِنِكُمْ، وَأَن هَاتِكَ الأَعْرَاضِ أَصْبَح يَضَعُ مَنَاهِجَ دِرَاسَتِكُمْ وَتَعْلِيم أَبْنَائِكُمْ، وَأَن الْمُفْسِدَ أَصْبَحَ يُوَجِّهُ إِعْلَامَكُمْ، وَأَن الْمُجْرِمَ هُوَ الَّذِي يُشِيرُ عَلَيْكُمْ، هُوَ الَّذِي يَرْفَعُ اليَهُودَ عَلَى رُؤوسِكُمْ، لَا تُخَادِعُوا أَنْفُسَكُمْ، هَذِهِ حَقِيقَةٌ يَا عِبَادَ اللَّه.

لَا نَذْهَبُ بَعِيداً، لِذَلِكَ عَلَيْنَا أَنْ نُوَجِّهَ قُلُوبَنَا، وَنُوَجِّهَ مَنَاهِجَنَا، وَنُوَجِّهَ مَحَاكِمَنَا، وَنُوَجِّهَ حَيَاتَنَا إِلَى شَيءٍ وَاحِدٍ إِلَى النَّجَاةِ، إِلَى كِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَبِغَيْرِ كِتَابِ اللَّهِ سَيَشْبَعُ الْمَسْؤُولُونَ قَبْلَ الرَّعَايَا، وَيَشْبَعُ الرَّعَايَا السَّاكِتُونَ عَنِ الْحَقّ ذُلًّا فِي الدُّنْيَا وَيَعْقُبُهُ ذُلٌّ أَشَدُّ فِي الدَّارِ الآخِرَةِ، وَالعِيَاذُ بِاللَّهِ تَعَالَى.

عَلَيْنَا يَا عِبَادَ اللَّه، أَنْ نَثِقَ أَنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَادِمٌ، وَأَن هَذِهِ الأُمَّةَ لَنْ يَغْلِبَهَا - بِإِذْنِ اللَّهِ - مَا اسْتَمْسَكَتْ بِكِتَابِ اللَّه، وَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَيُّ أُمَّة مِنْ الأُمَمِ حَتَّى لَوْ كَانَتْ يَأْجُوج وَمَأْجُوجَ، مَا دَامُوا اتَّحَدُوا عَلَى

كِتَابِ اللَّه، وَعَلَى سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، لَكِنْ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ أَنْ تَنْفُخَ مُوَحَّدَةً، فَالنَّفْخُ دَلِيل الْحَيَاة، فَهُوَ دَلِيل الرُّوحِ، النَّفْخُ دَلِيل الإِحْسَاسِ، دَلِيل الإِنْكَارِ، دَلِيل (نَحْنُ هُنَا)، دَلِيل إِشْعَالِ النَّارِ، كَمَا كَانَ الْأَمْر عِنْدَ ذِي القَرْنَيْنِ، لَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّه، وَعِنْدَكُمُ الأَدِلَّةُ، هَا هِيَ أَفْغَانِسْتَانُ قَرِيبَةٌ مِنْكُمْ، لِأَنَّهُمْ مُسْتَمْسِكُونَ بِكِتَابِ اللَّهِ وَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْم إِلَى هَذَا الْيَوْم وَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ فِي تِلْكَ البِلَادِ، بَلْ نُورُ اللَّهِ فِي ازْدِيَادٍ وَفِي ازْدِيَادٍ، وَالْبَشَائِرُ قَادِمَةٌ لِأُمَّةِ الإِسْلَامِ.

يَأْتُونَ إِلَى الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّه، لَنْ يَسْتَطِيعُوا إِطْفَاءَ نُورَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَسَيُقَيِّضُ اللَّهُ عز وجل لِدِينِهِ رِجَالًا، وَإِنْ تَخَلَّتِ الأَغْلَبِيَّةُ، فَالأَغْلَبِيَّةُ إِذَا تَخَلَّتْ فَهِيَ غُثَاءٌ يَذْهَبُ بِنَفْخَةٍ أَوْ بِهَبَّةِ رِيحٍ.

ثِقُوا بِأَن نَصرَ اللَّهِ قَادِمٌ، وَأَعِيدُوا الأَمَلَ إِلَى قُلُوبِكُمْ، أَعِيدُوا النُّورَ وَانْظُرُوا إِلَيْهِ بِأَعْيُنِكُمْ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ الْكِتَابِ وَمِنْ خِلَالِ السُّنَّةِ، فَوَاللَّهِ هَذَا الَّذِي يُخِيفُهُمْ.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

الملحق الثالث
يَا أَيُّها السَّاعِي إِلَى جُمْعَتِكَ(١)

يَا أَيُّها السَّاعِي إِلَى الجُمُعَةِ: اعْرِفْ جُمْعَتَكَ

سَعْيُكَ عَلَى مَدَارِ اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ إِلَى المَسْجِدِ شَيءٌ، وسَعْيُكَ لِفَرْضٍ وَاحِدٍ فِي الأُسْبُوعِ كُلِّهِ مَرَةً وَاحِدَةً شَيءٌ آخَرُ- وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ - وَلَكِنْ هَكَذَا أَرَادَهُ اللَّه سُبْحَانَهُ، وَهَكَذَا كَانَ وبَقِيَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ.

يَا أَيُّها السَّاعِي إِلَى الجُمُعَةِ: سَعْيُكَ اليَوْمَ فَرْضٌ لَازِمٌ، وَلَيْسَ نَفْلًا يَسَعُكَ التَّخَلُّفُ عَنْهُ، وَكَوْنُهُ فَرْضاً لَازِماً أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، كَمَا أَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَيْكَ عِنْدَ اللَّهِ، أَلَمْ يقُلِ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِليَّ عَبْدِي بِشَيءٍ أَحبَّ إِليَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ»(٢).

وَعَنْ أَبِي الجَعدِ الضمري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَرَكَ

---

(١) حقًّا إنَّ هذا الكتاب خاص بالخطيب، ولكن الخطيب شطر، والشطر الآخر هو المستمع، لذا لم يكن لي من بُدٍّ أن أجمع عيون فوائد ما ورد من مَعِين «الفتح» المتفجر بضربة ريشة ابن حجر وقلمه الماتع للصحيح الجامع .. وذلك من ابتداء يوم الجمعة إلى ابتداء ذهاب الخطيب إلى المسجد، إلى ساعة الإجابة، إلى غروب شمسه.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الجُمُعَةَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَهاوناً بِهَا طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ»[١].

أَرَأَيْتَ الفَارِقَ ما بَيْنَ مَنْ يَدْعُوكَ لِيُكْرِمَكَ إِذَا حَضَرْتَ، وَبَيْنَ مَنْ يَدْعُوكَ لِتُكْرِمَهُ؟!

أَرَأَيْتَ الفَارِقَ بَيْنَ مَنْ يَدْعُوكَ فِي أَفْضَلِ وَقْتٍ عِنْدَهُ، وَبَيْنَ مَنْ يَدْعُوكَ فِي أَيِّ وَقْتٍ مِنَ الأَوْقَاتِ؟

هَلْ تَرَى أَنَّ حِرْصَ مَنْ يَدْعُوكَ وَيَتْرُكُ لَكَ الخِيَارَ فِي حُضُورِكَ وَعَدَمِهِ مِثْلُ حِرْصِ مَنْ يَدْعُوكَ وَيُشَدِّدُ عَلَيْكَ وَيُلْزِمُكَ، وَلَا يَعْذُرُكَ إِلَّا لِضَرُورَةٍ.

لَقَدْ أَبْقَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ هَذِهِ الدَّعْوَةَ الكَرِيمَةَ المَفْرُوضَةَ مَحْفُوظَةً، غَيْرَ قَابِلَةٍ لِلحَذْفِ وَالتَّغْيِيرِ كَسِمَةِ كُلِّ آيَاتِ الكِتَابِ العَزِيزِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩].

يا أَيُّها السَّاعِي: أَوْقِفْ كُلَّ شُغْلٍ وتَعَالَ لِدَعْوَتِي. . انْفُضْ يَدَيْكَ مِنْ كُلِّ شَيءٍ وَأَقْبِلْ إليَّ، لَا لَهْوَ، وَلَوْ كَانَ مُباحاً. . لَا اسْتِرْزَاقَ، وَلَوْ

(١) رواه الترمذي في جامعه (٥٠٠)، قال البغوي في شرح السنة (٢/ ٥٥٧): «حسن، ولا يعرف لأبي الجعد الضمري إلا هذا الحديث، وله صحبة ولا يعرف اسمه»، وقال الألباني: حديث حسن صحيح.

كَانَ حَلالًا طَيِّباً، لَا شَيءَ إِلَّا أَنْ تَسْعَى لِتُدْرِكَ الجُمُعَةَ قَبْلَ أَنْ تَفُوتَ.

أَرَأَيْتَ كَيْفَ جَعَلَ اللَّهُ لَهَا حَدّاً مَحْدُوداً، لَا يَجُوزُ تَجَاوُزُهُ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ...» هَذَا حَدُّ ما بَيْنَ الحَلَالِ وَالحَرَامِ.. مَا بَيْنَ دُخُولِ وَقْتِ الوُجُوبِ وَالسَّعَةِ.. مَا بَيْنَ الحِمَى وَمَا حَوْلَهُ... فَهَلِ الجُمُعَةُ كَغَيْرِهَا؟ هَلْ نَنْتَظِرُ حَتَّى نَبْلُغَ الحَدَّ؟

انْطَلَقَ رِجَالٌ قَبْلَ هَذَا الوَقْتِ وَجَاؤُوا مُسْرِعِينَ، فَوَجَدُوا أَنَّ إِخْوَانَهُمْ إِلَى ضِيَافَةِ اللَّهِ سَابِقِينَ، وَحِينَ وَصَلَ أُولَئِكَ السَّابِقُونَ أَوَّلًا وَجَدُوا مَنْ سَبَقَهُمْ، وَهَكَذَا كَانَ شَأْنُ مَنْ وَصَلَ بَعْدَهُمْ مِنْ بَابِ أَوْلَى.. مُحَرِّكٌ خَفِيٌّ لِهَذَا اليَوْمِ خَاصَّةً، يَخْرُجُ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ بَاكِراً لِصَيْدٍ ثَمِينٍ وَعَدَ بِهِ سَيِّدُ المُرْسَلِينَ ﷺ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الجُمُعَةِ غُسْلَ الْجَنَابَةِ ثُمَّ رَاحَ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشاً أَقْرَنَ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً، فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ حَضَرَتِ المَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ»(١).

كَمْ سَمِعْتَ هَذَا الحَدِيثَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَسْتَجِبْ.. كَمْ سَمِعْتَهُ وَسُبِقْتَ؟ كَمْ سَمِعْتَهُ وَتَهَاوَنْتَ؟

(١) متفق عليه. رواه البخاري (٨٨١)، ومسلم (٨٥٠).

يا أَيُّها السَّاعي إِلَى الجُمُعَةِ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِمْ، فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَدَانَا اللَّهُ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ: اليَهُودُ غَداً، وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ»(١).

فَاسْتَمِعْ لَما يَقُولُهُ أَهْلُ العِلْمِ فِي بَيَانِ مَعَانِي قَولِهِ ﷺ: «نَحْنُ الآخِرُونَ، وَنَحْنُ السَّابِقُونَ» أَيْ: «الآخِرُونَ زَمَاناً، الأَوَّلُونَ مَنْزِلَةً، وَالمُرَادُ أَنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ وَإِنْ تَأَخَّرَ وُجُودُهَا فِي الدُّنْيَا عَنِ الأُمَمِ المَاضِيَةِ فَهِيَ سَابِقَةٌ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ بِأَنَّهُمْ أَوَّلُ مَنْ يُحشَرُ، وَأَوَّلُ مَنْ يُحَاسَبُ، وَأَوَّلُ مَنْ يُقْضَى بَيْنَهُمْ، وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ. وَفِي حَدِيثِ حُذَيْفَةَ عِنْدَ مُسْلِمٍ: «نَحْنُ الآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالأَوَّلُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، المَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الخَلَائِقِ» وَقِيلَ: الُمرَادُ بِالسَّبْقِ هُنَا إِحْرَازُ فَضِيلَةِ اليَوْمِ السَّابِقِ بِالفَضْلِ وَهُوَ يَوْمُ الجُمُعَةِ، **وَيَوْمُ الجُمُعَةِ وَإِنْ كَانَ مَسْبُوقاً بِسَبْتٍ قَبْلَهُ، أَوْ أَحدٍ، لَكِنْ لا يُتَصَوَّرُ اجْتِمَاعُ الأَيَّامِ الثَّلاثَةِ مُتَوَالِيةً إِلَّا وَيَكُونُ يَوْمُ الجُمُعَةِ سَابِقاً**. وَقِيلَ: المُرَادُ بِالسَّبْقِ، أَيْ: إِلَى القَبُولِ وَالطَّاعَةِ الَّتِي حُرِمَهَا أَهْلُ الكِتَابِ، فَقَالُوا سَمِعْنَا

---

(١) متفق عليه. رواه البخاري (٨٧٦)، ومسلم (٨٥٥).

وَعَصَيْنَا، وَالأَوَّلُ أَقْوَى) اهـ[1]، وَمِنْ حَدِيثِ حُذَيْفَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَضَلَّ اللَّهُ عَنِ الجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا»، «قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ: لَيْسَ المُرَادُ أَنَّ يَوْمَ الجُمُعَةِ فُرِضَ عَلَيْهِمْ بِعَيْنِهِ فَتَرَكُوهُ؛ لأَنَّهُ لَا يَجُوزُ لأَحَدٍ أَنْ يَتْرُكَ مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَإِنَّمَا يَدُلُّ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّهُ فُرِضَ عَلَيْهِمْ يَوْمٌ مِنَ الجُمُعَةِ، وُكِلَ إِلَى اخْتِيَارِهِمْ لِيُقِيمُوا فِيهِ شَرِيعَتَهُمْ، فَاخْتَلَفُوا فِي أَيِّ الأَيَّامِ هُوَ، وَلَمْ يَهْتَدُوا لِيَوْمِ الجُمُعَةِ، وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ أَسْبَاطِ بْنِ نَصْرٍ عَنِ السُّدِّيِّ التَّصْرِيحَ بِأَنَّهُمْ فُرِضَ عَلَيْهِمْ يَوْمُ الجُمُعَةِ بِعَيْنِهِ، فَأَبَوْا، وَلَفْظُهُ: «إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَى اليَهُودِ الجُمُعَةَ، فَأَبَوْا، وَقَالُوا: يَا مُوسَى، إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقْ يَوْمَ السَّبْتِ شَيْئاً، فَاجْعَلْهُ لَنَا، فَجُعِلَ عَلَيْهِمْ» وَلَيْسَ ذَلِكَ بِعَجِيبٍ مِنْ مُخَالَفَتِهِمْ كَمَا وَقَعَ لَهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٦١]، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَكَيْفَ لَا وَهُمُ القَائِلُونَ: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣])[2] اهـ.

أَيُّهَا السَّاعِي إِلَى الجُمُعَةِ: لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ كَيْفَ هَدَانَا اللَّهُ لِهَذَا اليَوْمِ لازْدَدْتَ لَهُ شُكْراً وَذِكْراً... إِنَّهُ سَبْقٌ مِنَ الأَنْصَارِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ.

---

(١) «فتح الباري» (٢/ ٣٥٤).
(٢) «فتح الباري» (٢/ ٣٥٥).

فَقَدْ رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ مُحمَّدِ بْنِ سِيرِينَ، قَالَ: جَمعَ أَهْلُ المَدِينَةِ قَبلَ أَنْ يَقْدُمهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَقَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ الجُمُعَةُ، فَقَالَتِ الأَنْصارُ: إنَّ لِليَهُودِ يَوْماً يَجْتَمِعُونَ فِيهِ كُلَّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ، وَلِلنَّصارَى كَذَلِكَ، فَهلُمَّ فَلْنَجْعَلْ يَوْماً نَجْتَمِعُ فِيهِ، فَنَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى وَنُصَلِّي وَنَشْكُرُهُ، فَجعَلُوهُ يَوْمَ العَرُوبَةِ، وَاجْتَمعُوا إِلَى أَسْعَدِ ابْنِ زُرَارَةَ، فَصَلَّى بِهِمْ يَوْمَئِذٍ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعالَى بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ الآيَةَ[١] إذاً، «فَإِنَّ أُولَئِكَ الصَّحَابَةَ اخْتَارُوا يَوْمَ الجُمُعَةِ بالاجْتِهَادِ، وَلَا يَمْنَعُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ ﷺ عَلِمَهُ بِالوَحْيِ وَهُوَ بِمَكَّةَ، فَلَمْ يَتَمكَّنْ مِنْ إِقَامَتِهَا، ثُمَّ فَقَدْ وَرَدَ فِيهِ حَدِيثٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عِنْدَ الدَّارَقُطْنِيِّ، وَلِذَلِكَ جَمعَ بِهِمْ أَوَّلَ مَا قَدِمَ المَدِينَةَ كَمَا حَكَاهُ ابْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ، **وَعَلَى هَذَا فَقَدْ حَصَلَتِ الهِدَايَةُ لِلجُمُعَةِ بِجِهَتَي البَيَانِ وَالتَّوْفِيقِ**» اهـ[٢].

أَيُّهَا السَّاعِي: إِنَّ فِي هَذَا الاخْتِيَارِ فَضَائِلَ وَعَنَاوِينَ بَشَائِرَ، وَإِنَّ الجُمُعَةَ أَوَّلُ الأُسْبُوعِ شَرْعاً، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ تَسْمِيَةُ الأُسْبُوعِ كُلِّهِ

(١) رواه عبد الرزاق في مصنفه، قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٢/ ٣٥٥): مرسل إسناده صحيح، وله شاهد بإسناد حسن، أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه، وصححه ابن خزيمة وغير واحدٍ من حديث كعب بن مالكٍ، قال: كان أول مَنْ صلى بنا الجمعة قبل مَقْدَم رسول اللَّه ﷺ المدينة أسعد بن زرارة.

(٢) «فتح الباري» (٢/ ٣٥٥).

جُمُعَةً، وَكَانُوا يُسَمُّونَ الأُسْبُوعَ سَبْتاً كَمَا سَيَأْتِي فِي الاسْتِسْقَاءِ فِي حَدِيثِ أَنَسٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا مُجَاوِرِينَ لِلْيَهُودِ فَتَبِعُوهُمْ فِي ذَلِكَ، وَفِيهِ بَيَانٌ وَاضِحٌ لِمَزِيدِ فَضْلِ هَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى الأُمَمِ السَّابِقَةِ، زَادَهَا اللَّهُ تَعَالَى)[١].

الغُسْلُ لِلجُمُعَةِ:

أَيُّها السَّاعِي لِيَوْمِ الجُمُعَةِ بَاكِراً: أَرَأَيْتَ يَوْماً مِنْ أَيَّامِ اللَّهِ كُلِّهَا جَاءَ الأَمْرُ الصَّرِيحُ لِحَاضِرِيهِ أَنْ لَا يَأْتُوا لِلمَسْجِدِ إِلَّا مُغْتَسِلِينَ... حَتَّى لِدَرَجَةِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ يُنْكِرُ عَلَى عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لَمَّا رَآهُ دَاخِلًا المَسْجِدَ مُتَأَخِّراً، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ بَيْنَما هُوَ قَائِمٌ فِي الخُطْبَةِ يَوْمَ الجُمُعَة إِذْ دَخَلَ رَجُلٌ مِن المهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَادَاهُ عُمَرُ: أَيَّةُ سَاعَةٍ هَذِهِ؟ قَالَ: إِنِّي شُغِلْتُ، فَلَمْ أَنْقَلِبْ إِلَى أَهْلِي حَتَّى سَمِعْتُ التَّأْذِينَ، فَلَمْ أَزِدْ أَنْ تَوَضَّأْتُ. فَقَالَ: وَالْوُضُوءُ أَيْضاً!! وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَأْمُرُ بِالْغُسْلِ[٢]؟!

حقّاً إِنَّهُ أَمْرٌ يَسْتَحِقُّ الإِنْكَارَ أَمَامَ النَّاسِ فِي المَسْجِدِ، **وَتَجَاوَز**

---

(١) متفق عليه. رواه البخاري (٨٧٨)، ومسلم(٨٤٥).
(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٩)، والبخاري(١/ ٣٠٠)، ومسلم (٢/ ٥٨٠).

الأَمْرُ شُهْرَةَ الرُّؤيَةِ إِلَى شُهْرَةِ الرِّوَايَةِ حَتَّى قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: (وَرِوَايَةُ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ لِهَذَا الحَدِيثِ مَشْهُورَةٌ جِدّاً، فَقَدِ اعْتَنَى بِتَخْرِيجِ طُرُقِهِ أَبُو عَوَانَةَ فِي «صَحِيحِهِ»، فَسَاقَهُ مِنْ طَرِيقِ سَبْعِينَ نَفْساً رَوَوْه عَنْ نَافِعٍ، وَقَدْ تَتَبَّعْتُ مَا فَاتَهُ، **وَجَمَعْتُ مَا وَقَعَ لِي مِنْ طُرُقِهِ فِي جُزْءٍ مُفْرَدٍ لِغَرَضٍ اقْتَضَى ذَلِكَ، فَبَلَغَتْ أَسْمَاءُ مَنْ رَوَاهُ عَنْ نَافِعٍ مِائَةً وَعِشْرِينَ نَفْساً**)(١).

يَا أَيُّها السَّاعِي إِلَى المَسْجِدِ: لَيْسَ غُسْلُكَ اليَوْمَ لِمُجَرَّدِ الغُسْلِ فِي أَيِّ لَحْظَةٍ مِنْ لَحظَاتِ اليَوْمِ، كَمَا شَذَّ ابْنُ حَزْمٍ فِي هَذَا، فَتَصَدَّى لَهُ العُلَمَاءُ، إِنَّمَا غُسْلُكَ لِحُضُورِ الجُمُعَةِ؛ خُطْبَةً وَصَلاةً، وَاسْمَعْ قَلِيلًا إِذْ بَيَّنْتُ لَكَ بِشَكْلٍ مُخْتَصَرٍ نَقْلًا عَنِ العُلَمَاءِ أَنْفُسِهِمْ بَعْضَ أَحْكَامِ غُسْلِ الجُمُعَةِ، مَعَ مَا فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ مِنْ فَوَائِدَ قَيِّمَةٍ إِذْ رَوَى عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَولَهُ: «غُسْلُ الْجُمْعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ».

قَالَ ابْنُ دَقِيقِ العِيدِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فِي الحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى تَعْلِيقِ الأَمْرِ بِالغُسْلِ بِالمَجِيءِ إِلَى الجُمُعَةِ، وَاسْتَدَلَّ بِهِ لِمَالِكٍ فِي أَنَّهُ يَعْتَبِرُ أَنْ يَكُونَ الغُسْلُ مُتَّصِلًا بِالذَّهَابِ، وَوَافَقَهُ الأَوْزَاعِيُّ وَاللَّيْثُ، وَالجُمْهُورُ قَالُوا: يُجْزِئُ مِنْ بَعْدِ الفَجْرِ، وَيَشْهَدُ لَهُمْ حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ الآتِي قَرِيباً. وَقَالَ

(١) «فتح الباري» (٢/ ٣٥٧).

الأَثْرَمُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ سُئِلَ عَمَّن اغْتَسَلَ، ثُمَّ أَحْدَثَ، هَلْ يَكْفِيهِ الوُضُوءُ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَلَمْ أَسْمَعْ فِيهِ أَعْلَى مِنْ حَدِيثِ ابْنِ أَبْزَى، يُشِيرُ إِلَى مَا أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبْزَى عَنْ أَبِيهِ - وَلَهُ صُحْبَةٌ - أَنَّهُ كَانَ يَغْتَسِلُ يَوْمَ الجُمُعَةِ، ثُمَّ يُحْدِثُ فَيَتوضَّأُ، وَلَا يُعِيدُ الغُسْلَ، وَمُقْتَضى النَّظَرِ أَنْ يُقَالَ: إِذَا عُرِفَ أَنَّ الحِكْمَةَ فِي الأَمْرِ بِالغُسْلِ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَالتَّنْظِيفِ رِعَايَةَ الحَاضِرِينَ مِنَ التَّأَذِّي بِالرَّائِحَةِ الكَرِيهَةِ، فَمَنْ خَشِيَ أَنْ يُصِيبَهُ فِي أَثْنَاءِ النَّهَارِ مَا يُزِيلُ تَنْظِيفَهُ اسْتُحِبَّ لَهُ أَنْ يُؤَخِّرَ الغُسْلَ لِوَقْتِ ذَهَابِهِ، وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ الَّذِي لَحَظَهُ مَالِكٌ، فَشَرَطَ اتِّصَالَ الذَّهَابِ بِالغُسْلِ لِيَحْصُلَ الأَمْنُ مِمَّا يُغَايِرُ التَّنْظِيفَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قَالَ ابْنُ دَقِيقِ العِيدِ: «وَلَقَدْ أَبْعَدَ الظَّاهِرِيُّ إِبْعَاداً يَكَادُ أَنْ يَكُونَ مَجْزُوماً بِبُطْلَانِهِ، حَيْثُ لَمْ يَشْتَرِطْ تَقَدُّمَ الغُسْلِ عَلَى إِقَامَةِ صَلَاةِ الجُمُعَةِ حَتَّى لَوِ اغْتَسَلَ قَبْلَ الغُرُوبِ كَفَى عِنْدَهُ تَعَلُّقاً بِإِضَافَةِ الغُسْلِ إِلَى اليَوْمِ» اهـ[(١)].

أَيُّها السَّاعِي: إِنَّ غُسْلَكَ لَيْسَ لأَجْلِ اليَوْمِ كُلِّهِ.. إِنَّما غُسْلُكَ فِي الأَسَاسِ لأَجْلِ الحُضُورِ.. لأَجْلِ هَذَا الجَمْعِ المُجْتَمِعِ فِي بَيْتِ اللَّهِ بِمَا

(١) «فتح الباري» (٢/ ٣٥٨).

فِيهِمْ مَلَائِكَةُ اللَّهِ الَّتِي تُحِبُّ النَّظَافَةَ، وَتُحِبُّ الرَّائِحَةَ الطَّيِّبَةَ.. لأَجْلِ صَاحِبِ الدَّعْوَةِ سُبْحَانَهُ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يَرَاكَ هَذَا اليَوْمَ كَذَلِكَ، وَلَقَدْ خَالَفَ الإِمَامُ مَالِكٌ جُمْهُورَ العُلَمَاءِ، وَاسْتَدَلَّ بِهَذَا الحَدِيثِ فِي أَنَّهُ يَعْتَبِرُ أَنْ يَكُونَ الغُسْلُ مُتَّصِلًا بِالذَّهَابِ إِلَى الجُمُعَةِ، أَمَّا الجُمْهُورُ فَقَالُوا: إِنَّهُ يُجْزِئُ مِنَ الفَجْرِ. وَرَأْيُ مَالِكٍ مُحْتَمِلٌ لِظَاهِرِ الحَدِيثِ، وَرَأْيُ الجُمْهُورِ أَقْرَبُ، وَلَكِنْ مَا أَجْمَلَ مَا قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: (وَمُقْتَضَى النَّظَرِ أَنْ يُقَالَ: إِذَا عُرِفَ أَنَّ الحِكْمَةَ فِي الأَمْرِ بِالغُسْلِ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَالتَّنْظِيفِ رِعَايَةُ الحَاضِرِينَ مِنَ التَّأَذِّي بِالرَّائِحَةِ الكَرِيهَةِ، فَمَنْ خَشِيَ أَنْ يُصِيبَهُ فِي أَثْنَاءِ النَّهَارِ مَا يُزِيلُ تَنْظِيفَهُ اسْتُحِبَّ لَهُ أَنْ يُؤَخِّرَ الغُسْلَ لِوَقْتِ ذَهَابِهِ، وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ الَّذِي لَحَظَهُ مَالِكٌ، فَشَرَطَ اتِّصَالَ الذَّهَابِ بِالغُسْلِ لِيَحْصُلَ الأَمْنُ مِمَّا يُغَايِرُ التَّنْظِيفَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ) اهـ[1].

أَيُّهَا السَّاعِي إِلَى الجُمُعَةِ: جُمُعَةٌ وَاحِدَةٌ تَأَخَّرَ عَنِ التَّبْكِيرِ لَهَا عُثْمَانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنْكَرَ عَلَيْهِ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِيَعْرِفَ النَّاسُ فَضِيلَةَ البُكُورِ، أَمَّا أَنْتَ فَبِأَيِّ شَيْءٍ تَتَلَهَّى؟ وَلِمَ تُكَرِّرُ التَّأَخُّرَ عَنِ البُكُورِ؟ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ عُثْمَانَ السَّابِقِ الَّذِي تَأَخَّرَ هَذِهِ الجُمُعَةَ لِنَنْتَفِعَ نَحْنُ بِهَذَا الحَدِيثِ العَظِيمِ ذِي الفَوَائِدِ الكَثِيرَةِ. قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وَفِي هَذَا الحَدِيثِ مِنَ الفَوَائِدِ: القِيَامُ فِي الخُطْبَةِ عَلَى المِنْبَرِ، وَتَفَقُّدُ الإِمَامِ

---

(١) «فتح الباري» (٢/ ٣٥٨).

رَعِيَّتَهُ، وَأَمْرُهُ لَهُمْ بِمَصَالِحِ دِينِهِمْ، وَإِنْكَارُهُ عَلَى مَنْ أَخَلَّ بِالفَضْلِ، وَإِنْ كَانَ عَظِيمَ المَحَلِّ، وَمُوَاجَهَتُهُ بِالإِنْكَارِ؛ لِيَرْتَدِعَ مَنْ هُوَ دُونَهُ بِذَلِكَ، وَأَنَّ الأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ فِي أَثْنَاءِ الخُطْبَةِ لَا يُفْسِدُهَا، وَسُقُوطُ مَنْعِ الكَلَامِ عَنِ المُخَاطَبِ بِذَلِكَ، وَفِيهِ الاعْتِذَارُ إِلَى وُلَاةِ الأَمْرِ، وَإِبَاحَةُ الشُّغْلِ وَالتَّصرُّفِ يَوْمَ الجُمُعَةِ قَبْلَ النِّدَاءِ، وَلَوْ أَفْضَى إِلَى تَرْكِ فَضِيلَةِ البُكُورِ إِلَى الجُمُعَةِ؛ لأَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَمْ يَأْمُرْ بِرَفْعِ السُّوقِ بَعْدَ هَذِهِ القِصَّةِ، وَاسْتَدَلَّ بِهِ مَالِكٌ عَلَى أَنَّ السُّوقَ لَا تُمْنَعُ يَوْمَ الجُمُعَةِ قَبْلَ النِّدَاءِ لِكَوْنِهَا كَانَتْ فِي زَمَنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَلِكَوْنِ الذَّاهِبِ إِلَيْهَا مِثْلَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَفِيهِ شُهُودُ الفُضَلَاءِ السُّوقَ، وَمُعَانَاةُ المُتَّجِرِ فِيهَا، وَفِيهِ أَنَّ فَضِيلَةَ التَّوجُّهِ إِلَى الجُمُعَةِ إِنَّمَا تَحْصُلُ قَبْلَ التَّأْذِينِ» اهـ[1].

أَيُّهَا السَّاعِي: سُبْحَانَ اللَّهِ! انْظُرْ إِلَى الإِمَامِ البُخَارِيِّ، وَكَيْفَ يُبَوِّبُ بَاباً خَاصّاً يَقُولُ فِيهِ: بَابُ الادِّهَانِ لِيَوْمِ الجُمُعَةِ: فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا وَأَيُّ عِنَايَةٍ هَذِهِ لِلْمُؤْمِنِينَ بِيَوْمِهِمْ، ثُمَّ أَوْرَدَ تَحْتَهُ حَدِيثَ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

عَنْ طَاوُسَ قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: ذَكَرُوا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اغْتَسِلُوا

---

(١) «فتح الباري» (٢/ ٣٦٠).

يَوْمَ الجُمُعَة وَاغْسِلُوا رُؤُوسَكُمْ وَإِنْ لَمْ تَكُونُوا جُنُباً، وَأَصِيبُوا مِنَ الطِّيبِ». قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَمَّا الْغُسْلُ فَنَعَمْ، وَأَمَّا الطِّيبُ فَلَا أَدْرِي[(١)].

أَمَّا الغُسْلُ لِلجَنابَةِ فَيَكْفِي عَنِ الغُسْلِ لِلجُمُعَةِ كَمَا فِي قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «اغْتَسِلُوا يَوْمَ الجُمُعَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا جُنُباً». قَالَ ابْنُ المُنْذِرِ: «حَفِظْنَا الإِجْزَاءَ عَنْ أَكْثَرِ أَهْلِ العِلْمِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ»[(٢)] اهـ.

لُبْسُ أَحْسَنِ الثِّيَابِ:

* أَيُّها السَّاعِي إِلَى هَذِهِ الدَّعْوَةِ العَظِيمَةِ، إِنَّ تَعْظِيمَ هَذَا اليَوْمِ أَمْرٌ مَشْروعٌ لَا يَكادُ يَتْرُكُ جَانِباً إِلَّا دَخلَهُ التَّعْظِيمُ لِهَذَا اليَوْمِ العَظِيمِ.. وَقَدْ كَانَ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم يَفْعَلُونَ ذَلِكَ، وَيَعْرِفُونَ ذَلِكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فَعَنْ عَبْدِ اللَّه بْنِ عُمَرَ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه رَأَى حُلَّةً سِيَرَاءَ عِنْدَ بَابِ المَسْجِدِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوِ اشْتَرَيْتَ هَذِهِ فَلَبِسْتَهَا يَوْمَ الجُمُعَةِ وَلِلْوَفْدِ إِذَا قَدِمُوا عَلَيْكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا يَلْبَسُ هَذِهِ مَنْ لَا خَلَاقَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ». ثُمَّ جَاءَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْهَا حُلَلٌ، فَأَعْطَى عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه مِنْهَا حُلَّةً، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَسَوْتَنِيهَا وَقَدْ قُلْتَ فِي حُلَّةِ عُطَارِدٍ مَا قُلْتَ؟! قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي لَمْ أَكْسُكَهَا لِتَلْبَسَهَا»، فَكَسَاهَا عُمَرُ بْنُ

---

(١) رواه البخاري (٨٤٤).
(٢) فتح الباري (٢/ ٣٧٣).

الْخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَخاً لَه بِمكَّةَ مُشْرِكاً[(١)].

وَيَا لَلإِمَامِ البُخَارِيِّ مَا أَعْظَمَهُ! فَقَدْ بَوَّبَ لِهَذَا الحَدِيثِ، فَقَالَ: **بَابُ يَلْبَسُ أَحْسَنَ مَا يَجِدُ.**

قَالَ ابْنُ حَجرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: (ووَجْهُ الاسْتِدْلَالِ بِهِ مِنْ جِهَةِ تَقْرِيرِه ﷺ لِعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى أَصْلِ التَّجمُّلِ للجُمُعَةِ، وَقَصرِ الإِنْكَارِ عَلَى لُبْسِ مِثْلِ تِلْكَ الحُلَّةِ لِكَوْنِهَا كَانَتْ حَرِيراً، وَقَدْ وَرَدَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَنِ ابْنِ عُمَرَ (وَلَبِسَ مِنْ خَيْرِ ثِيَابِهِ)، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «أَحْسَنَ ثِيَابِهِ»، وَفِي «المُوطَّأ» عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ الأَنْصَارِيِّ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا عَلَى أَحدِكُمْ لَوِ اتَّخذَ ثَوْبَيْنِ لِجُمُعَتِهِ سِوَى ثَوْبَيْ مِهْنَتِهِ») اهـ[(٢)].

بَلْ إِنَّ الإِمَامَ البُخَارِيَّ بَوَّبَ بَاباً خَاصّاً، فَقَالَ: (بَابُ السِّوَاكِ يَوْمَ الجُمُعَةِ)، وَرَوَى فِيهِ ثَلَاثَةَ أَحَادِيثَ، لَيْسَ فِيهَا التَّصْرِيحُ بِيَوْمِ الجُمُعَةِ، وَهِيَ:

الأَوَّلُ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي أَوْ عَلَى النَّاسِ لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ»[(٣)].

---

(١) متفق عليه. رواه البخاري (٨٨٦)، ومسلم(٢٠٦٨).
(٢) «فتح الباري» (٢/ ٣٦١).
(٣) متفق عليه. رواه البخاري (٨٨٧)، ومسلم (٢٥٢).

الحَدِيثُ الثَّانِي: عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: «أَكْثَرْتُ عَلَيْكُمْ فِي السِّوَاكِ»[(١)].

الحَدِيثُ الثَّالِثُ: عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَشُوصُ فَاهُ[(٢)].

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ: «لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ»، وَمُطَابَقَتُهُ لِلتَّرْجَمَةِ مِنْ جِهَةِ انْدِرَاجِ الجُمُعَةِ فِي عُمُومِ قَوْلِهِ: «كُلُّ صَلَاةٍ». وَقَالَ الزَّيْنُ بْنُ المُنِيرِ: لَمَّا خُصَّتِ الجُمُعَةُ بِطَلَبِ تَحْسِينِ الظَّاهِرِ مِنَ الغُسْلِ وَالتَّنْظِيفِ وَالتَّطَيُّبِ نَاسَبَ ذَلِكَ تَطْيِيبَ الفَمِ الَّذِي هُوَ مَحَلُّ الذِّكْرِ وَالمُنَاجَاةِ، وَإِزَالَةَ مَا يَضُرُّ المَلَائِكَةَ وَبَنِي آدَمَ» اهـ[(٣)].

أقول: كأنَّ البخاريَّ يقول: فالجمعة من باب أولى لأمورٍ لا تخفى.

بَلْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ تَخْصِيصُ السِّوَاكِ أَكْثَرَ لِهَذَا اليَوْمِ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ هَذَا يَوْمُ عِيدٍ جَعَلَهُ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ، فَمَنْ جَاءَ الجُمُعَةَ فَلْيَغْتَسِلْ، وَإِنْ كَانَ عِنْدَهُ طِيبٌ فَلْيَمَسَّ مِنْهُ، وَعَلَيْكُمْ بِالسِّوَاكِ»، وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ

---

(١) رواه البخاري(٨٨٨).
(٢) متفق عليه. رواه البخاري(٨٨٩)، ومسلم(٢٥٥).
(٣) «فتح الباري» (٢/ ٣٧٥).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «غُسْلُ يَوْمِ الجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ، وَسِوَاكٌ، وَيَمَسُّ مِنَ الطِّيبِ مَا قَدَرَ عَلَيْهِ»(١).

التَّبْكِيرَ.. التَّبْكِيرَ!

أَيُّهَا السَّاعِي إِلَى الجُمُعَةِ: مَا الَّذِي شَغَلَكَ عَنْ هَذَا السَّعْيِ الكَرِيمِ؟ مَا الَّذِي شَغَلَكَ خَارِجَ المَسْجِدِ حَتَّى تَتَعزَّى بِهِ عَنِ الحُضُورِ، وَهُوَ سُوَيْعَاتٌ قَلِيلَةٌ مِنْ عُمْرِ أُسْبُوعٍ مُدَّتُهُ مِائَةٌ وَثَمَانِيَةٌ وَسِتُّونَ سَاعَةً؟ أَتَدْرِي أَنَّ مَنْ ذَهَبَ قَدْ قَبَضَ أَجْرَهُ الآنَ، وَأَنْتَ تَتَلَهَّى بِكَذَا وَكَذَا مِمَّا سَيَطُولُ النَّدَمُ عَلَى التَّفْرِيطِ بِهِ.

كُلُّ هَذَا الأَجْرِ حَتَّى لَوْ لَمْ يَكُنِ الخَطِيبُ نَافِعاً فِي خُطْبَتِهِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُنَافِقاً، هَذَا الأَجْرُ حَتَّى لَوْ أَدَّى الخَطِيبُ خُطْبَتَهُ فِي دَقَائِقِ حَمْدٍ وَصَلَاةٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَوْعِظَةٍ وَآيَةٍ وَحَدِيثٍ وَدُعَاءٍ فِي خُطْبَتَيْنِ، هَذَا مَا حَفِظَ الجُمُعَةَ حَتَّى فِي أَزْمِنَةِ التَّغْيِيرِ وَالتَّحْرِيفِ وَالشُّيُوعِيَّةِ وَالإِلْحَادِ.

خُذْ أَجْرَكَ عَلَى مُجَرَّدِ حُضُورِكَ، وَغَادِرْ سَعِيداً بِمَا فُزْتَ بِهِ.

لَا.. لَا تَحْسَبَنَّ الأَجْرَ يَبْتَدِئُ مِنْ دُخُولِ بَيْتِ اللَّهِ.. إِنَّهُ فَضْلٌ

---

(١) رواه مسلم (٨٤٦).

أَسْرَعُ مِنْ ذَلِكَ، وَأَقْرَبُ مِنْ ذَلِكَ، فَسُبْحَانَ مَنْ عَلِمَ بِغُدُوِّكَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ نَفْسَكَ مَقْعَدَ سَبْقٍ فِي بَيْتِهِ، مُسْتَجِيباً لِنِدَائِهِ.. سَاعِياً لأَجْلِهِ، فَبَادَرَكَ الـمُصْطَفَى ﷺ، وَقَالَ: «مَنْ غَسَّلَ وَاغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَبَكَّرَ وَابْتَكَرَ، وَمَشَى وَلَمْ يَرْكَبْ، فَدَنَا مِنَ الْإِمَامِ وَاسْتَمَعَ وَلَمْ يَلْغُ كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ كَأَجْرِ سَنَةٍ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا»[(١)].

لَا تَسْتَغْرِبَنَّ، فَإِنَّهُ لمَّا انْفَرَدَتِ الجُمُعَةُ عِنْدَ اللَّهِ بِهَذَا المَقَامِ الفَرِيدِ فِي الزَّمَانِ.. فَانْفَرَدَ أَجْرُهَا بِهَذَا الكَمِّ الكَبِيرِ، وَهَذَا المَقَامِ الرَّفِيعِ، إِنَّهُ سَاعٍ سَابِقٌ... مُسْتَجِيبٌ لِنِدَاءِ اللَّهِ... يَمْشِي فِي هَذِهِ الفَتْرَةِ الزَّمَانِيَّةِ المَخْصُوصَةِ إِلَى حَيْثُ نِدَاءُ اللَّهِ الَّذِي انْبَعَثَ مِنْ بَيْتِ اللَّهِ... بَلْ هُوَ مَا انْتَظَرَ حَتَّى يَسْمَعَ مِنَ البَشَرِ الأَذَانَ.. إِنَّما سَبَقَ الأَذَانَ مُسْتَجِيباً لِنِدَاءِ رَبِّهِ فِي القُرْآنِ، فَكَانَ لَهُ مِنَ الفَضْلِ وَالأَجْرِ مَا كَانَ.

أَيُّهَا السَّاعِي إِلَى الجُمُعَةِ: اسْمَعْ هَذِهِ الشَّهَادَاتِ لِهَذَا اليَوْمِ المَشْهُودِ.. حَيْثُ يَقُولُ عَمْرُو بْنُ سُلَيْمٍ الأَنْصَارِيُّ، قَالَ: أَشْهَدُ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: أَشْهَدُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الغُسْلُ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ، وَأَنْ يَسْتَنَّ، وَأَنْ يَمَسَّ طِيباً إِنْ

(١) رواه أحمد في مسنده (٤/ ٩)، وحسنه النووي في المجموع(٤/ ٥٤٢)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح، وكذا صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٦٩٠).

وُجِدَ»[١]. قَالَ عَمْرٌو: أَمَّا الغُسْلُ فَأَشْهَدُ أَنَّهُ وَاجِبٌ، وَأَمَّا الاسْتِنَانُ وَالطِّيبُ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَوَاجِبٌ هُوَ أَمْ لَا؟

هَكَذَا رَوَاهُ إِمَامُ السُّنَّةِ البُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»، فَتَذَكَّرْ هَذَا الحَدِيثَ بَعْدَ غُسْلِكَ.. أَضِفْ لِنَفْسِكَ شَذًى.. أَلَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ فِي عَيْنِ اللَّهِ عَلَى أَحْسَنِ حَالٍ، وَأَحْسَنِ بَدَنٍ، وَأَحْسَنِ ثَوْبٍ، وَأَحْسَنِ رَائِحَةٍ.. لَا تَتَنَازَلْ عَنِ الطِّيبِ حَتَّى لَوْ لَمْ تَجِدْ إِلَّا طِيبَ النِّسَاءِ الَّذِي نُهِينَا عَنِ التَّشَبُّهِ بِهِنَّ.. فَلَا غِنَى عَنِ الطِّيبِ فِي هَذَا المَوْطِنِ، فَفِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ: «وَيَمَسُّ مِنَ الطِّيبِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ»، وَفِي رِوَايَةٍ: «وَلَوْ مِنْ طِيبِ المَرْأَةِ»... لأَنَّهُ يُكْرَهُ اسْتِعْمَالُهُ لِلرَّجُلِ، وَهُوَ مَا ظَهَرَ لَوْنُهُ وَخَفِيَ رِيحُهُ، فَإِبَاحَتُهُ لِلرَّجُلِ لأَجْلِ عَدَمِ غَيْرِهِ يَدُلُّ عَلَى تَأَكُّدِ الأَمْرِ فِي ذَلِكَ)[٢].

وَقَدْ وَرَدَ فِي البُخَارِيِّ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَيَتَطَهَّرُ مَا اسْتَطَاعَ»، قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «المُرَادُ بِهِ المُبَالَغَةُ فِي التَّنْظِيفِ، وَيُؤْخَذُ مِنْ عَطْفِهِ عَلَى «الغُسْلِ» أَنَّ إِفَاضَةَ المَاءِ تَكْفِي فِي حُصُولِ الغُسْلِ، أَوِ المُرَادِ بِهِ التَّنْظِيفُ بِأَخْذِ الشَّارِبِ وَالظُّفْرِ وَالعَانَةِ، أَوِ المُرَادُ: غُسْلُ الجَسَدِ، وَبِالتَّطْهِيرِ: غُسْلُ الرَّأْسِ»[٣].

---

(١) رواه البخاري (٨٨٠).
(٢) «فتح الباري» (٢/ ٣٦٤).
(٣) «فتح الباري» (٢/ ٣٧١).

وَعَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي مَرْيَمَ ﵁ قَالَ: لَحِقَنِي عُبَايَةُ بْنُ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ ﵁، وَأَنَا أَمْشِي إِلَى الجُمُعَةِ، فَقَالَ: أَبْشِرْ، فَإِنَّ خُطَاكَ هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، سَمِعْتُ أَبَا عَبْسٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنِ اغبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُمَا حَرَامٌ عَلَى النَّارِ»(١).

لَكَ أَنْ تَتَصَوَّرَ هَذَا الجَمْعَ المُبَارَكَ الَّذِي اسْتَجَابَ، وَسَارَعَ، وَازْدَحَمَ.. أَيُّ مَجْمَعٍ أَطْهَرُ أَبْدَاناً مِنْ هَذَا المَجْمَعِ.... أَيُّ بُسْتَانٍ فَوَّاحٍ أَطْيَبُ رَائِحَةً مِنْ هَذَا الجَمْعِ الَّذِي كُلُّ وَاحِدٍ فِيهِ أَطْيَبُ رَائِحَةً مِنْ أَطْيَبِ وَرْدَةٍ...أَيُّ طَهَارَةٍ أَطْهَرُ مِنْ قُلُوبِ هَذَا المَجْمَعِ؟!

أَيُّهَا السَّاعِي إِلَى المَسْجِدِ: هَلْ وَصَلْتَ الآنَ إِلَى بَابِ مَسْجِدِكَ الجَامِعِ؟

الآنَ يَثْبُتُ لَكَ أَجْرُكَ وَفْقَ السَّاعَةِ الَّتِي دَخَلَتْ يُمْنَاكَ فِيهَا عَتَبَةَ بَابِهِ..

يَا أَيُّهَا السَّاعِي إِلَى مَسْجِدِكَ: إِنَّ لَكَ اليَوْمَ مَعَ المَلَائِكَةِ حَالًا آخَرَ.. شَعَرْتَ أَمْ لَمْ تَشْعُرْ.. إِنَّها تَعْرِفُكَ بِاسْمِكَ، وَصَوْتِكَ، وَصُورَتِكَ، وَبِمَا شَاءَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ...

لَا حَاجَةَ هُنَا لِتُمْلِيَ اسْمَكَ.. أَوْ تُعْطِي صُورَتَكَ.. ادْخُلْ مِنْ بَابِ المَسْجِدِ.. فَثَمَّ صُحُفٌ وَأَقْلَامٌ وَمَلَائِكَةٌ، وَكُلُّ ذَلِكَ مَخْصُوصٌ، فَلَقَدْ رَوَى ابْنُ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الجُمُعَةِ بَعَثَ اللَّهُ مَلَائِكَةً

(١) رواه البخاري في صحيحه (٩٠٧)، والنسائي في سننه(٣١١٦) واللفظ له.

بِصُحُفٍ مِنْ نُورٍ وَأَقْلَامٍ مِنْ نُورٍ»[(١)] . الحَدِيثَ ، وَهُوَ دَالٌّ عَلَى أَنَّ المَلَائِكَةَ المَذْكُورِينَ غَيْرُ الحَفَظَةِ ، وَالمُرَادُ بِـ «طَيِّ الصُّحُفِ» : طَيُّ صُحُفِ الفَضَائِلِ المُتعَلِّقَةِ بِالمُبَادَرَةِ إِلَى الجُمُعَةِ دُونَ غَيْرِهَا مِنْ سَمَاعِ الخُطْبَةِ وَإِدْرَاكِ الصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالخُشُوعِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ يَكْتُبُهُ الحَافِظَانِ قَطْعاً .

وَوَقَعَ فِي رِوَايَةِ ابْنِ عُيَيْنَةَ عَنِ الزُّهْرِيِّ فِي آخِرِ حَدِيثِهِ المُشَارِ إِلَيْهِ عِنْدَ ابْنِ مَاجَه : «فَمَنْ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ فَإِنَّمَا يَجِيءُ لِحَقِّ الصَّلَاةِ» .

وَفِي رِوَايَةٍ : «ثُمَّ إِذَا اسْتَمَعَ وَأَنْصَتَ غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَ الجُمُعَتَيْنِ وَزِيَادَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ» . وَفِي حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عِنْدَ ابْنِ خُزَيْمَةَ : «فَيَقُولُ بَعْضُ المَلَائِكَةِ لِبَعْضٍ : مَا حَبَسَ فُلَاناً؟ فَتَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ ضَالّاً فَاهْدِهِ ، وَإِنْ كَانَ فَقِيراً فَأَغْنِهِ ، وَإِنْ كَانَ مَرِيضاً فَعَافِهِ»)[(٢)] .

فَانْظُرْ لِنَفْسِكَ بِمَ تَعْرِفُكَ هَذِهِ المَلَائِكَةُ الَّذِينَ لَا يَأْتُونَ إِلَى هَذَا المَكَانِ إِلَّا هَذَا اليَوْمَ . . بِمَ سَيَشْهَدُونَ؟ أَيُّ كِتَابٍ سَيُقَدِّمُونَهُ لِلَّهِ عَنْكَ . . ؟ أَيْنَ رَقَمُكَ بَيْنَ هَذِهِ الأَرْقَامِ . . ؟ أَفَيُصِرُّ عَاقِلٌ بَعْدَ هَذَا عَلَى التَّأَخُّرِ . . . أَفَيَتَهَاوَنُ طَالِبُ النَّجَاةِ بِهَذِهِ الشَّهَادَةِ المَقْبُولَةِ المُرْفَقَةِ بِهَذَا الكِتَابِ المَخْتُومِ بِأَجْرِهِ المَضْمُونِ؟

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٦/ ٣٨٧)، وذكره الحافظ في الفتح (٢/ ٣٦٧) دون أن يذكر صحته، وهو ضعيف والله أعلم.
(٢) «فتح الباري» (٢/ ٣٦٨).

رُوِيَ عَنْ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «احْضُرُوا الجُمُعَةَ، وَادْنُوا مِنَ الإِمَامِ، فَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكُونُ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَتَأَخَّرُ عَنِ الجُمُعَةِ فَيُؤَخَّرُ عَنِ الجَنَّة، وَإِنَّهُ لمِنْ أَهْلِهَا»(١).

المُرَادُ بِسَاعَاتِ الجُمُعَةِ:

أَيُّهَا السَّاعِي: إِذَا انْفَكَّ إِصْرَارُكَ عَنِ التَّأْخِيرِ، وَتَاقَتْ نَفْسُكَ لأَنْ تَعْرِفَ السَّاعَةَ الأُولَى وَمَا بَعْدَهَا، فَاعْلَمْ أَنَّهَا مَوْضِعُ خِلَافٍ كَبِيرٍ.. ولَعَلَّ أَقْرَبَ الأَقْوَالِ أَنَّ «أَوَّلَ التَّبْكِيرِ يَكُونُ مِنَ ارْتِفَاعِ النَّهَارِ، وَهُوَ أَوَّلُ الضُّحَى، وَهُوَ أَوَّلُ الهَاجِرَةِ. وَيُؤَيِّدُهُ الحَثُّ عَلَى التَّهْجِيرِ إِلَى الجُمُعَةِ»(٢).

تَخَطِّي الرِّقَابِ:

أَيُّهَا الدَّاخِلُ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ: إِيَّاكَ أَنْ تَغْلِبَكَ العَادَةُ، وَتَذْهَبَ الأُلْفَةُ

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الصغير(٣٤٦)، قال الألباني: حسن لغيره، انظر صحيح الترغيب والترهيب (٧١٣).

(٢) انظر فتح الباري(٢/ ٣٦٨).

فائدة: الساعات التي ذكرها الرسول ﷺ خمس: فمن راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشا، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة. فالساعات تبدأ من طلوع الشمس، وتقسم على حسب الوقت بين طلوع الشمس إلى الأذان الثاني خمسة أجزاء، ويكون كل جزء منها هو المقصود بال «الساعة» التي في الحديث.

بِعَظَمَةِ المَكَانِ وَحَسَاسِيَّتِهِ، وَتَحْسِبُ لِكَثْرَةِ دُخُولِكَ أَنَّ هَذَا المَكَانَ كَأَيِّ مَكَانٍ! إِنَّهُ بَيْتُ اللَّهِ.. أَمْنٌ وَسَكِينَةٌ.. وَمَهَابَةٌ وَطُمَأْنِينَةٌ، وَآدَابٌ وَأَحْكَامٌ وَحُدُودٌ، مِنْهَا النَّهْيُ عَنْ تَخَطِّي الرِّقَابِ.

وَقَدْ رَوَى مَنْ حَضَرَ الجُمُعَةَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَيَاتَهُ سَلْمَانُ الفَارِسِيُّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الجُمُعَةِ، وَتَطَهَّرَ بِمَا اسْتَطَاعَ مِنْ طُهْرٍ، ثُمَّ ادَّهَنَ، أَوْ مَسَّ مِنْ طِيبٍ، ثُمَّ رَاحَ، فَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ اثْنَيْنِ، فَصَلَّى مَا كُتِبَ لَهُ، ثُمَّ إِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ أَنْصَتَ، غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجُمُعَةِ الْأُخْرَى»[(١)].

يَقُولُ خَاتِمَةُ المُحَقِّقِينَ ابْنُ حَجَرٍ: (وَالأَحَادِيثُ الوَارِدَةُ فِي الزَّجْرِ عَنِ التَّخَطِّي مُخَرَّجَةٌ فِي المُسْنَدِ وَالسُّنَنِ، وَفِي غَالِبِهَا ضَعْفٌ، وَأَقْوَى مَا وَرَدَ فِيهِ مَا أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ طَرِيقِ أَبِي الزَّاهِرِيَّةِ، قَالَ: كُنَّا مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ صَاحِبِ النَّبِيِّ ﷺ، فَذَكَرَ أَنَّ رَجُلًا جَاءَ يَتَخَطَّى، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ، فَقَالَ: «اجْلِسْ، فَقَدْ آذَيْتَ»[(٢)]. وَلِأَبِي دَاوُدَ مِنْ طَرِيقِ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ رَفَعَهُ:

---

(١) رواه البخاري(٩١٠٩).

(٢) رواه أبو داود في سننه (١١١٨)، قال النووي في الخلاصة (٢/ ٧٨٤): «روي بإسنادين صحيحين. إسناد على شرط مسلم». وقال ابن الملقن في البدر المنير (٤/ ٦٨٠): «إسناده على شرط مسلم، كل رجاله احتج بهم في صحيحه»، وقد صححه الألباني.

«وَمَنْ تَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ كَانَتْ لَهُ ظُهْراً»(١).

وقيَّدَ مَالِكٌ وَالأَوْزَاعِيُّ الكَرَاهَةَ بِمَا إِذَا كَانَ الخَطِيبُ عَلَى المِنْبَرِ. قَالَ الزَّيْنُ بْنُ المُنِيرِ: **التَّفْرِقَةُ بَيْنَ اثْنَيْنِ يَتَنَاوَلُ القُعُودَ بَيْنَهُمَا، وَإِخْرَاجَ أَحَدِهِمَا، وَالقُعُودَ مَكَانَهُ**، وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى مُجَرَّدِ التَّخَطِّي، وَفِي التَّخَطِّي زِيَادَةُ رَفْعِ رِجْلَيْهِ عَلَى رُءوسِهِمَا أَوْ أَكْتَافِهِمَا، وَرُبَّمَا تَعَلَّقَ بِثِيَابِهِمَا شَيْءٌ مِمَّا بِرِجْلَيْهِ، وَقَدِ اسْتَثْنَى مِنْ كَرَاهَةِ التَّخَطِّي مَا إِذَا كَانَ فِي الصُّفُوفِ الأُوَلِ فُرْجَةٌ، فَأَرَادَ الدَّاخِلُ سَدَّهَا، فَيُغْتَفَرُ لَهُ؛ لِتَقْصِيرِهِمْ)(٢).

إِقَامَةُ الرَّجُلِ مِنْ مَقْعَدِهُ:

وَرَوَى البُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: نَهَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُقِيمَ الرَّجُلُ أَخَاهُ مِنْ مَقْعَدِهِ وَيَجْلِسَ فِيهِ. قُلْتُ لِنَافِعٍ: الْجُمُعَةَ؟ قَالَ: الجُمُعَة وَغَيْرَهَا(٣).

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: (هَذِهِ التَّرْجَمَةُ المُقَيَّدَةُ بِيَوْمِ الجُمُعَةِ وَرَدَ فِيهَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ، لَكِنَّهُ لَيْسَ عَلَى شَرْطِ البُخَارِيِّ، أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مِنْ

(١) رواه أبو داود (٣٤٧)، قال النووي في الخلاصة (٢/ ٧٨٥): «إسناده حسن، إلا أن فيه أسامة بن زيد الليثي، وفي الاحتجاج به خلاف»، وحسنه السخاوي في الأجوبة المرضية (١/ ١٥٩)، وكذا الألباني.

(٢) «فتح الباري» (٢/ ٣٩٣).

(٣) متفق عليه. رواه البخاري (٩١١)، ومسلم (٢١٧٧).

طَرِيقِ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ بِلَفْظِ: «لَا يُقِيمَنَّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ يَوْمَ الجُمُعَةِ، ثُمَّ يُخَالِفُ إِلَى مَقْعَدِهِ فَيَقْعُدَ فِيهِ، وَلَكِنْ يَقُولُ: تَفَسَّحُوا»، وَيُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّ الَّذِي يَتَخَطَّى بَعْدَ الاسْتِئْذَانِ خَارِجٌ عَنْ حُكْمِ الكَرَاهَةِ. وَقَوْلُهُ فِي الحَدِيثِ: «لَا يُقِيمُ الرَّجُلُ أَخَاهُ» لَا مَفْهُومَ لَهُ، بَلْ ذُكِرَ لِمَزِيدِ التَّنْفِيرِ عَنْ ذَلِكَ لِقُبْحِهِ؛ لِأَنَّهُ إِنْ فَعَلَهُ مِنْ جِهَةِ الكِبْرِ كَانَ قَبِيحاً، وَإِنْ فَعَلَهُ مِنْ جِهَةِ الأَثَرَةِ كَانَ أَقْبَحَ، وَكَأَنَّ البُخَارِيَّ اغْتَنَى عَنْهُ بِعُمُومِ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ المَذْكُورِ فِي البَابِ، وَبِالعُمُومِ المَذْكُورِ احْتَجَّ نَافِعٌ حِينَ سَأَلَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنِ الجُمُعَةِ)[1].

الصَّلَاةُ قَبْلَ القُعُودِ:

أَيُّها السَّاعِي إِلَى المَسْجِدِ، صَلِّ قَبْلَ أَنْ تَتَبَوَّأَ مَقْعَداً مَا شَاءَ اللَّهُ لَكَ أَنْ تُصَلِّي، فَهَذَا وَقْتٌ لَا نَهْيَ لِلصَّلَاةِ فِيهِ، ثُمَّ إِنَّ أَوَّلَ رَكْعَتَيْنِ هُمَا مِنْ صَلَوَاتِ ذَوَاتِ الأَسْبَابِ.. إِنَّهُ يَوْمُ الجُمُعَةِ، إِنَّهُ اليَوْمُ مِنْ هَذِهِ الحَيْثِيَّةِ كَمَنْ فِي الحَرَمِ فِي كُلِّ وَقْتٍ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: «يَا بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ، لَا تَمْنَعُوا أَحَداً طَافَ بِهَذَا البَيْتِ وَصَلَّى أَيَّةَ سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ»[2]. وَلِقَوْلِهِ فِي حَدِيثِ سَلْمَانَ: «ثُمَّ يُصَلِّي مَا كُتِبَ

(١) «فتح الباري» (٢/ ٣٩٣).
(٢) رواه النسائي (٥٨٥) من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه. قال النووي في الخلاصة (١/ ٢٧٢): صحيح، وكذا صححه الألباني.

لَهُ». وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ رُبَّما كَثُرَتْ وَوَقَعَتْ فِي وَقْتِ الزَّوَالِ، وَهُوَ وَقْتُ نَهْيٍ وَلَيْستْ هِيَ تَحِيَّةَ المَسْجِدِ.

وَرَوَى البُخَارِيُّ: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ النَّاسَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَقَالَ: «أَصَلَّيْتَ يَا فُلَانُ؟» قَالَ: لَا. قَالَ: «قُمْ فَارْكَعْ رَكْعَتَيْنِ»[(١)]، وَعَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَخْطُبُ: «إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ أَوْ قَدْ خَرَجَ فَلْيُصَلِّ رَكْعَتَيْنِ»[(٢)].

قَالَ الحَافِظُ ابن حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ: (وَوَقَعَ مُسَمًّى فِي هَذِهِ القِصَّةِ عِنْدَ مُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِلَفْظِ: جَاءَ سُلَيْكٌ الغَطَفَانِيُّ يَوْمَ الجُمُعَةِ، ورَسُولُ اللَّهِ ﷺ قائمٌ عَلَى المِنْبَرِ، فَقَعَدَ سُلَيْكٌ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّي، فَقَالَ لَهُ: «أَصَلَّيْتَ رَكْعَتَيْنِ؟» فَقَالَ: لَا. فَقَالَ: «قُمْ، فَارْكَعْهُمَا»[(٣)])[(٤)].

وَقَدْ جَمَعَ ابْنُ حَجَرٍ أَقْوَى أَدِلَّةِ المَانِعِينَ مِنْ تَحِيَّةِ المَسْجِدِ وَالخَطِيبُ يَخْطُبُ، ثُمَّ رَدَّهَا، وَقَالَ: وَهَذِهِ الأَجْوِبَةُ الَّتِي قَدَّمْنَاهَا تَنْدَفِعُ مِنْ أَصْلِهَا بِعُمُومِ قَوْلِهِ ﷺ فِي حَدِيث قَتَادَةَ: «إِذَا دَخَل

(١) رواه البخاري (٩٣٠).
(٢) رواه البخاري (١١٧٠).
(٣) رواه مسلم (٨٧٥).
(٤) «فتح الباري» (٢/ ٤٠٧).

أَحَدُكُم المَسْجِدَ فَلَا يَجْلِسْ حَتَّى يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ»[(١)] .

أيُّها المُسْتَمِعُ إِلَى خُطْبَتِكَ : أَتَحْسِبُ أَنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ نَزَلَتْ هَكَذَا؟ أَتَحْسِبُ أَنَّ جُمُعَتَكَ هَذِهِ شُرِعَتْ هَكَذَا؟ أَتَحْسِبُ أَنَّهَا خَلَتْ مِنَ اخْتِبَارٍ حَتَّى وَصَلَتْنَا هَكَذَا صَافِيَةً جَاهِزَةً؟

كَانَتِ الصَّلَاةُ وَمَا كَانَتِ الرُّبَاعِيَّةُ إِلَّا رَكْعَتَينِ، ثُمَّ أُتِمَّتِ الصَّلَاةُ فِي الحَضَرِ، وَبَقِيَتْ فِي السَّفَرِ . .

كَانَتِ الفَرَائِضُ، وَمَا كَانَتِ الجُمُعَةُ، وَرَأَى المُسْلِمُونَ فِي المَدِينَةِ اجْتِمَاعَ اليَهُودِ، فَجَمَعَ أَهْلُ المَدِينَةِ يَوْمَ الجُمُعَةِ، فَوَافَقَ فِعْلُهُمْ أَمْرَ الوَحْيِ النَّازِلِ مِنَ السَّمَاءِ كَمَا هُوَ شَأْنُ ذَلِكَ الجِيلِ فِي تِلْكَ المَرْحَلَةِ فِي مُوَافَقَةِ الوَحْيِ كَمَا مَرَّ مَعَنَا ذَلِكَ . . .

وَكَانَتِ الجُمُعَةُ وَمَا كَانَتْ لَازِمَةً، وَكَانَتْ شِدَّةً شَدِيدَةً وَمَجَاعَةً فَاجِعَةً، فَكَانَ مَا رَوَاهُ البُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» عَنْ أَحَدِ حُضُورِ تِلْكَ الجُمُعَةِ المَشْهُودَةِ (جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ) حَيْثُ يَقُولُ : بَيْنَمَا نَحْنُ نُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، إِذْ أَقْبَلَتْ عِيرٌ تَحْمِلُ طَعَاماً، فَالْتَفَتُوا إِلَيْهَا حَتَّى مَا بَقِيَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، فَنزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ﴾ [الجمعة : ١١] .

(١) متفق عليه . رواه البخاري (١١٦٧)، ومسلم (٧١٤).

وَيَجِبُ أَنْ نَعْلَمَ هُنَا أَنَّ الانْفِضَاضَ مِنَ الجُمُعَةِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ الاسْتِماعِ وَاجِباً أَوْ كَانَ الخُرُوجُ إِثماً أَوَ خَطِيئَةً إِنَّمَا كَانَ مَوْقِفاً بَشَرِيّاً لَمْ يَخْطُرْ بِخَلَدِ أُولَئِكَ الرِّجَالِ بِأَنَّهُ حَرَامٌ، لَكِنَّ العِبْرَةَ كَيْفَ رَبَّاهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِهَذَا المَوْقِفِ؟ وَهَلْ وَرَدَ أَنَّهُمْ انْفَلَتُوا أَوِ الْتَفَتُوا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الحَادِثَةِ مَرَّةً وَهُوَ يَخْطُبُ وَلَوْ لِمَرَةٍ وَاحِدَةٍ؟! أَلَيْسَ هُمُ الَّذِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ نَصّاً صَرِيحاً وَتَزْكِيَةً عَظِيمَةً فِي هَذَا البَابِ وَمَدِيحاً، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٧، ٣٨].

لَقَدْ كَانَتْ مَرْحلَةَ تَشْرِيعٍ، فَكَانَ التَّشْرِيعُ تَدْرِيجِيّاً، وَكَانَ التَّشْرِيعُ يَثْبُتُ عَمَلِيّاً بِمَوْقِفٍ وَاقِعِيٍّ لَا يُنْسَى.

هَكَذَا حُسِمَتْ قَضِيَّةُ البَيْعِ وَالتِّجَارَةِ وَاللَّهْوِ فِي الجُمُعَةِ إِلَى يَومِ القِيَامَةِ، هَكَذَا عَرَفَ النَّاسُ خُصُوصِيَّةَ الجُمُعَةِ الجَدِيدَةَ.. هَكَذَا تَأَدَّبَتْ كُلُّ النُّفُوسِ المُؤْمِنَةِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ بِتَأْدِيبِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لِتِلْكَ النُّفُوسِ الكَرِيمَةِ عَلَى عَدَمِ الانْصِرَافِ إِذَا خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَانْقَطَعَتْ وَسَاوِسُ كُلِّ نَفْسٍ مُؤْمِنَةٍ يَوْمَ الجُمُعَةِ بِالانْصِرَافِ مِنَ الخُطْبَةِ.

وَلَرُبَّما لَوْ كَانَ هَذَا الحُكْمُ مُجَرَّداً عَنِ المَوْقِفِ لَمَا كَانَ لَهُ هَذِهِ الصَّرَامَةُ فِي نَفْسِ كُلِّ مُسْلِمٍ.

آدَابُ الجُلُوسِ فِي المَسْجِدِ:

اقْعُدْ فِي أَعْلَى مَكَانٍ تَسْتَطِيعُهُ، وَتَمَّ الأَدَبُ كُلُّهُ.. فَهَذَا هُوَ المَوْضِعُ الَّذِي سَعَيْتَ لَهُ مُسْتَجِيباً لأَمْرِ رَبِّكَ.. وَآدَابُ هَذَا المَكَانِ مَنْصُوصَةٌ كَمَا أَنَّهَا مُهِمَّةٌ فِي اسْتِكْمَالِ حَصَادِ الأُجُورِ العَظِيمَةِ، فَقَدْ رَوَى سَلْمَانُ الفَارِسِيُّ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يَوْمَ الجُمُعَةِ، وَيَتَطَهَّرُ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ طُهْرٍ، وَيَدَّهِنُ مِنْ دُهْنِهِ، أَوْ يَمَسُّ مِنْ طِيبِ بَيْتِهِ، ثُمَّ يَخْرُجُ، فَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، ثُمَّ يُصَلِّي مَا كُتِبَ لَهُ، ثُمَّ يُنْصِتُ إِذَا تَكَلَّمَ الإِمَامُ إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجُمُعَةِ الأُخْرَى»[1].

بِانْتِظَارِ الخُطْبَةِ:

أَيُّهَا الجَالِسُ بِانْتِظَارِ الخُطْبَةِ: هَذِهِ الخُطْبَةُ هِيَ لُبُّ مَا سَعَيْتَ إِلَيْهِ.. هَذَا حَصَادُ مَا تَرْجِعُ بِهِ مِنَ العِلْمِ وَالعَمَلِ، فَافْرِشْ لَهَا طَيَّاتِ قَلْبِكَ، وَانْتَظِرْ مَا سَيَقُولُ خَطِيبُكَ.. أَرَأَيْتَ رَجُلًا يُؤَذِّنُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُوَ مُوَاجِهٌ لِلنَّاسِ غَيْرَ خَطِيبِ الجُمُعَةِ.. أَرَأَيْتَ تَهَيُّؤَهُ لِشَيْءٍ أَعْظَمَ مِنَ الأَذَانِ..؟

لِذَا قَالَ الإِمَامُ البُخَارِيُّ: بَابُ الجُلُوسِ عَلَى المِنْبَرِ عِنْدَ التَّأْذِينِ: وَرُوِيَ فِيهِ أَنَّ السَّائِبَ بْنَ يَزِيدَ أَخْبَرَهُ أَنَّ التَّأْذِينَ الثَّانِي يَوْمَ الجُمُعَةِ أَمَرَ بِهِ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رضي الله عنه حِينَ كَثُرَ أَهْلُ المَسْجِدِ وَكَانَ التَّأْذِينُ يَوْمَ الجُمُعَةِ

(١) رواه البخاري (٩١٠٩).

حِينَ يَجْلِسُ الْإِمَامُ.

وَإِنَّها لَحِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ تُظْهِرُ مَقَامَ كَلَامِ الخَطِيبِ، قَالَ الزَّيْنُ بْنُ المُنِيرِ: وَالحِكْمَةُ فِيهِ سُكُونُ اللَّغطِ، وَالتَّهَيُّؤ لِلإِنْصَاتِ، وَالاسْتِنْصَاتُ لِلخُطْبَةِ، وَإِحْضَارُ الذِّهْنِ لِلذِّكْرِ)[١].

اسْتِقْبَالُ الخَطِيبِ وَهُوَ يَخْطُبُ:

أَيُّها المُنْصِتُ لخَطِيبِه: لَقَدْ كَانَ أَصْحابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِشَدَّةِ انْتِبَاهِهِمْ يَسْتَقْبِلُونَه بِوُجُوهِهِمْ وَصُدُورِهِمْ، وَهُوَ عَلَى المِنْبَرِ حَتَّى بوَّبَ البُخَارِيُّ فقَالَ: بَابٌ يَسْتَقْبِلُ الْإِمَامُ الْقَوْمَ وَاسْتِقْبَالِ النَّاسِ الْإِمَامَ إِذَا خَطَبَ، وَاسْتَقْبَلَ ابْنُ عُمَرَ وَأَنَسٌ رضي الله عنهم الإِمَامَ.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَلَسَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى الْمِنْبَرِ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ.

(وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ مِنْهُ أَنَّ جُلُوسَهُمْ حَوْلَهُ لِسَمَاعِ كَلَامِهِ يَقْتَضِي نَظَرَهُمْ إِلَيْهِ غَالِباً، وَلَا يُعَكِّرُ عَلَى ذَلِكَ مَا تَقَدَّمَ مِنَ القِيَامِ فِي الخُطْبَةِ؛ لأَنَّ هَذا مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَتَحَدَّثُ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى مَكَانٍ عَالٍ، وَهُمْ جُلُوسٌ أَسْفَلَ مِنْهُ، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ حَالِ الخُطْبَةِ كَانَ حَالُ

(١) «فتح الباري» (٢/٣٩٦).

الخُطْبَةِ أَوْلَى لِوُرُودِ الأَمْرِ بِالاسْتِمَاعِ لَهَا وَالإِنْصَاتِ عِنْدَهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ).

(ومِنْ لَازِمِ الاسْتِقْبَالِ: اسْتِدْبَارُ الإِمَامِ القِبْلَةَ، وَاغْتفر لِئَلَّا يَصِيرَ مُسْتَدْبِرَ القَوْمِ الَّذِينَ يَعِظُهُمْ، وَمِنْ حِكْمَةِ اسْتِقْبَالِهِمْ لِلإِمَامِ: التَّهَيُّؤ لِسَماعِ كَلَامِهِ، وَسُلُوكُ الأَدَبِ مَعَهُ فِي اسْتِمَاعِ كَلَامِهِ، فَإِذَا اسْتَقْبَلَهُ بِوَجْهِهِ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ بِجَسَدِهِ وَبِقَلْبِهِ وَحُضُورِ ذِهْنِهِ كَانَ أَدْعَى لِتَفهُّمِ مَوْعِظَتِهِ وَمُوَافَقَتِهِ فِيمَا شُرِعَ لَهُ القِيَامُ لأَجْلِهِ)[1].

الكَلَامُ أَثْنَاءِ الخُطْبَةِ:

أَيُّهَا المُنْتَظِرُ كَلَامَ خَطِيبِكَ: إِذَا ابْتَدَأَ الخَطِيبُ بِالكَلَامِ فَلَا كَلَامَ إِلَّا كَلَامُهُ.. وَلَا حَرَكَةَ، وَلَا إِشَارَةَ، وَلَا عَبَثَ وَلَوْ بِالإِشَارَةِ..

وَفِي «صَحِيحِ البُخَارِيِّ»: أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا قُلْتَ لِصَاحِبِكَ يَوْمَ الجُمُعَةِ أَنْصِتْ وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ فَقَدْ لَغَوْتَ».

فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعاً: «مَنْ تَكَلَّمَ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَالإِمَامُ يَخْطُبُ فَهُوَ كَالحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً، وَالَّذِي يَقُولُ لَهُ: أَنْصِتْ لَيْسَتْ لَهُ جُمُعَةٌ»، وَلَهُ شَاهِدٌ قَوِيٌّ فِي جَامِعِ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ مَوْقُوفاً. قَالَ العُلَمَاءُ:

---

(١) «فتح الباري» (٢/ ٤٠٢).

مَعْنَاهُ: لَا جُمُعَةَ لَهُ كَامِلَةً لِلإِجْمَاعِ عَلَى إِسْقَاطِ فَرْضِ الوَقْتِ عَنْهُ)[١].

وَنَقَلَ صَاحِبُ «المُغْنِي» الاتِّفَاقَ عَلَى أَنَّ الكَلَامَ الَّذِي يَجُوزُ فِي الصَّلَاةِ يَجُوزُ فِي الخُطْبَةِ كَتَحْذِيرِ الضَّرِيرِ مِنَ البِئْرِ. وَعِبَارَةُ الشَّافِعِيِّ: وَإِذَا خَافَ عَلَى أَحَدٍ لَمْ أَرَ بَأْساً إِذَا لَمْ يَفْهَمْ عَنْهُ بِالإِيمَاءِ أَنْ يَتَكَلَّمَ، وَقَدِ اسْتُثْنِيَ مِنَ الإِنْصَاتِ فِي الخُطْبَةِ مَا إِذَا انْتَهَى الخَطِيبُ إِلَى كُلِّ مَا لَمْ يُشْرَعْ، مِثْل: الدُّعَاءِ لِلسُّلْطَانِ مَثَلًا، بَلْ جَزَمَ صَاحِبُ «التَّهْذِيبِ» بِأَنَّ الدُّعَاءَ لِلسُّلْطَانِ مَكْرُوهٌ. وَقَالَ النَّوَوِيُّ: مَحِلُّهُ مَا إِذَا جَازَفَ، وَإِلَّا فَالدُّعَاءُ لِوُلَاةِ الأُمُورِ مَطْلُوبٌ. اهـ. وَمَحَلُّ التَّرْكِ إِذَا لَمْ يَخَفِ الضَّرَرَ، وإِلَّا فَيُبَاحُ لِلخَطِيبِ إِذَا خَشِيَ عَلَى نَفْسِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ[٢].

السَّهَرُ العَابِثُ فِي اللَّيْلَةِ الفَاضِلَةِ: يَا مَنْ طَالَ عُمُرُهُ حَتَّى بَلَغَ لَيْلَةَ الجُمُعَةِ:

اعْلَمْ أَنَّ الإِعْدَادَ لِهَذَا اليَوْمِ العَظِيمِ مِنْ طُلُوعِ لَيْلَةِ الجُمُعَةِ، وَغُرُوبِ شَمْسِ الخَمِيسِ... لَا أَقْصِدُ تَخْصِيصَهَا بِقِيَامٍ، وَلَا يَوْمِهَا بِصِيَامٍ، كَمَا فِي حَدِيثِ مُسْلِمٍ: «لَا تَخُصُّوا لَيْلَةَ الجُمُعَةِ بِقِيَامٍ مِنْ بَيْنِ اللَّيَالِي، وَلَا تَخُصُّوا يَوْمَ الجُمُعَةِ بِصِيَامٍ مِنْ بَيْنِ الأَيَّامِ إِلَّا أَنْ

(١) «فتح الباري» (٢/ ٤١٤).
(٢) رواه البيهقي في السنن الصغرى، قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في تخريج الأذكار: حديث حسن، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٧٣٦).

يَكُونَ فِي صَوْمٍ يَصُومُهُ أَحَدُكُمْ»، لَكِنْ أَيَجُوزُ تَخْصِيصَهَا بِالسَّهَرِ العَابِثِ فَضْلًا عَنِ السَّهَرِ الحَرَامِ! هَلْ يَكْفِيكَ لأَجْلِ أَنْ تَرَى مَدَى الجُرْمِ الَّذِي يَرْتَكِبُهُ بَعْضُ النَّاسِ بِالسَّهَرِ بَعْدَ العِشَاءِ لَيْلَةَ الجُمُعَةِ عَلَى غَيْرِ الطَّاعَةِ، يَكْفِيكَ أَنْ تَتَأَمَّلَ مَاذَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَصْنَعَ مِنَّا مِنْ خِلَالِ مَا شَرَعَ لَنَا هَذِهِ اللَّيْلَةَ، يَكْفِيكَ أَنْ تَتَوَقَّعَ أَيَّ شَيْءٍ مُمْكِنٍ أَنْ نُغَيِّرَهُ فِي أَنْفُسِنَا وَأُسَرِنَا وَصَحْبِنَا لَوْ أَنَّا انْتَفَعْنَا حَقَّ الانْتِفَاعِ بِمَا شَرَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ.

لَقَدْ شَرَعَ اللَّهُ لِهَذِهِ اللَّيْلَةَ وَهَذَا اليَوْمِ شَرَائِعَ، فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ فِي يَوْمِ الجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَ الْجُمُعَتَيْنِ»[1]. عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ لَيْلَةَ الجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ»[2].

يَكْفِي أَنَّهَا لَيْلَةُ الجُمْعَةِ المُبَارَكَةِ الَّتِي يُطْلَبُ التَّبْكِيرُ بِالذِّهَابِ لَهَا، وَالتَّبْكِيرُ لا يَجْتَمِعُ - عَادَةً - مَعَ السَّهَرِ لَيْلَتَهَا! لَيْلَةُ الجُمُعَةِ هِيَ اللَّيْلَةُ الَّتِي يَبْتَدِئُ مِنْ غُرُوبِ شَمْسِهَا الصَّلاةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَمَا هُوَ عِنْدَ أَكْثَرِ العُلَمَاءِ وَإِنْ كَانَتْ الأَحَادِيثُ تَنص عَلَى اليَومِ.

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٥٧٩٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٧٠).

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٥٧٩٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٧٣٦).

سَاعَةُ الإِجَابَةِ:

أَيُّهَا المُصَلِّي صَلاَةَ الجُمُعَةِ: لَاحِظْ أَنَّ صَلاَتَكَ لَمْ تَكُنْ هِيَ خِتَامَ الفَضَائِلِ، فَثَمَّةَ سَاعَةُ إِجَابَةِ الدُّعَاءِ المَضْمُونَةِ.. لَاحِظْ كَيْفَ جعلَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي خِتَامِ هَذَا اليَوْمِ وَلَمْ يَجْعَلْهَا فِي أَوَّلِهِ.. لِتَكُونَ الذُّرْوَةُ فِي الخِتَامِ، وَلِيَكُونَ قَبْضُ الأَجْرِ عِنْدَ التَّمَامِ، وَلِيَكُونَ المِسْكُ عِنْدَ الوَدَاعِ، وَلِيَعْلَمَ الجَمِيعُ أَنَّ الحُكْمَ للَّهِ، لَا للزَّمَانِ وَلَا لِلمَكَانِ.. فَإِنَّ الَّذِي جعَلَ (عَرَفَةَ) مِنْ بَعْدِ الزَّوَالِ.. وَجعَلَ نُزُولَهُ سُبْحَانَهُ فِي الثُّلُثِ الآخِرِ مِنَ اللَّيْلِ، وَجعَلَ دَعْوَةَ الصَّائِمِ عِنْدَ الإِفْطَارِ، جَعَلَ هَذِهِ السَّاعَةَ قَبْلَ الغُرُوبِ، وَهِيَ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ إِذْ جُعِلَتْ بَعْدَ صَلاَةِ الجُمُعَةِ وَخُطْبَتِهَا، وَذَلِكَ بَعْدَمَا تَغذَّى المُؤْمِنُ فِيهَا بِالزَّادِ الإِيمَانِيِّ العَظِيمِ الَّذِي يَسْتَطِيعُ حَمْلَ قَلْبِهِ مُتَضرِّعاً مُتَشَوِّقاً بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ، هَذَا مَا عَوَّدَنَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ بَعْدَ ذِكْرِهِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۚ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، وَقَالَ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ

يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ١- ٣].

وقَال هُنا سُبْحَانَهُ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه عن رَسُول اللَّهِ ﷺ قال: «يَوْمُ الجُمُعَة اثْنَتا عَشْرَةَ سَاعَةً، لَا يُوجَدُ عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ عز وجل شَيْئاً إِلَّا آتاهُ إِيَّاه، فَالْتَمِسُوهَا آخِرَ سَاعَةٍ بَعْدَ العَصْرِ»[(١)].

تَعْمِيمُ خَيْرِ الجُمُعَةِ:

أَيُّها السَّاعِي إِلَى الجُمُعَةِ: لَعَلَّكَ ظَنَنْتَ أَنَّ السَّعْيَ لَكَ وَحْدَكَ، وَأَنَّكَ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ؟! لَا، لَيْسَ هَذَا هُوَ فَهْمَ المُسْلِمِ الَّذِي يَحْمِلُ هَمَّ دِينِهِ وَأُمَّتِهِ، بَلْ وَلَا هَمَّ أُسْرَتِهِ، فَرَحِمَ اللَّهُ البُخَارِيَّ الَّذِي بَوَّب بَاباً خَاصّاً بَعْدَ (باب فَرْضِ الجُمُعَةِ) قَالَ فِيهِ: (بَابُ فَضْلِ الغُسْلِ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَهَلْ عَلَى الصَّبِيِّ شُهُودُ الجُمُعَةِ أَوْ عَلَى النِّسَاءِ)، أَمَا كَانَ البُخَارِيُّ يَعْلَمُ أَنَّ الجُمُعَةَ فَرِيضةٌ، وَأَنَّ الصَّبِيَّ غَيْرُ مُكَلَّفٍ؟

(١) رواه النسائي (١٣٨٩)، قال ابن العراقي في طرح التثريب (٣/ ١٧٤): إسناده صحيح، وكذا صححه الألباني في تعليقه على سنن النسائي.

أَمَا كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ النِّسَاءَ لَيْسَ عَلَيْهِنَّ الجُمُعَةُ؟ أَلَيْسَ هُوَ مَنْ رَوَى فِي نَفْسِ البَابِ حَدِيثَ: «غُسْلُ الجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ؟»[(١)].

أَلَمْ يَكُنِ البُخَارِيُّ يَعْلَمُ بِحَدِيثِ أَبِي دَاوُدَ الَّذِي رَوَاهُ مِنْ حَدِيثِ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ كَمَا فِي «المُسْتَدْرَكِ» عِنْدَ الحَاكِمِ: عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الجُمُعَةُ حَقٌّ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ فِي جَمَاعَةٍ إِلَّا أَرْبَعَةً: عَبْدٌ مَمْلُوكٌ، أَوِ امْرَأَةٌ، أَوْ صَبِيٌّ، أَوْ مَرِيضٌ»[(٢)].

يَعْلَمُ البُخَارِيُّ بِذَلِكَ تَمَامَ العِلْمِ، وَلَكِنَّهُ رَحِمَهُ اللهُ أَرَادَ التَّرْغِيبَ فِي حُضُورِ هَؤُلَاءِ الجُمُعَةَ، وَتَعْوِيدَ الصِّبْيَانِ عَلَى شُهُودِ هَذَا اليَوْمِ العَظِيمِ، وَتَرْغِيبَ أَوْلِيَاءِ الأُمُورِ بِهَذَا الأَجْرِ بِالتَّنْبِيهِ عَلَى هَذَا الحُكْمِ.

(قَالَ الزَّيْنُ بْنُ المُنِيرِ: وَنُقِلَ عَنْ مَالِكٍ أَنَّ مَنْ يَحْضُرُ الجُمُعَةَ مِنْ غَيْرِ الرِّجَالِ أَنْ يَحْضُرَهَا لِابْتِغَاءِ الفَضْلِ شُرِعَ لَهُ الغُسْلُ وَسَائِرُ آدَابِ

---

(١) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. رواه البخاري (٨٥٨)، ومسلم (٨٤٦).

(٢) رواه أبو داود في سننه (١٠٦٧)، قال النووي في المجموع (٥/ ٤٨٣): «إسناده صحيح على شرط الشيخين»، وكذا صححه ابن الملقن في البدر المنير (٤/ ٦٣٦)، وصححه الألباني في تعليقه على سنن أبي داود.

الجُمُعَةِ، وَإِنْ حَضرَهَا لأَمْرٍ اتِّفَاقِيٍّ فَلاَ)[١].

يَا أَيُّها المُدْرِكُ لِيَوْمِ الجُمُعَةِ: لاَ يَنْبَغِي أَنْ نَبْقى مُتَلقِّينَ لِهَذِهِ الفَضَائِلِ، عَامِلِينَ بِهَا فَحَسْبُ، بَلْ يَجِبُ أَنْ نَكُونَ مُحْيِينَ لَها فِي عَصْرٍ مَاتَتْ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ السُّنَنِ، مُدْرِكِينَ أَنَّ لِحَيَاةِ هَذِهِ الأُمَّةِ ارْتِبَاطاً بِحَياةِ هَذَا اليَوْمِ خَاصَّةً، وَنَبْضاً مِنْ نَبْضِ الحَيَاةِ خَاصّاً، وَأَنَّهُ - واللَّهِ - كَفِيلٌ بِبَعْثِ الأُمَّةِ لَوْ أَعْطَتْهُ حَقَّهُ.. وَكَمْ أَتَمَنَّى أَنْ أَكْتُبَ أَوْ يَكْتُبَ غَيْرِي بَعْثَ الحَيَاةِ مِنْ خَيْرِ يَوْمِ الجُمْعَة فِي الحَيَاةِ الأُسْبُوعِيَّةِ لِلمُسْلِم .. مِنْ خِلاَلِ الصَّلاَةِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَرَبْطِهَا بِهِ، وَهُوَ مَصْدَرُ حَيَاتِهَا، وَإِخْرَاجِهَا بِسُورَةِ الكَهْفِ مِنْ أَشَدِّ الأَوْضَاعِ وَأَضْعَفِهَا، وَهُوَ الانْعِزَالُ وَالتَّخَفِّي فِي الكَهْفِ إِلَى بُلُوغِ مُلْكِ قَرْنَي الأَرْضِ، وإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِقْهُ الانْتِصَارِ سَوَاءُ كَانَ المُسْلِمُ فِي الكَهْفِ يَنَامُ أَوْ كَانَ الانْتِصَارُ بِذُرْوَةِ السَّنَام، فَكَمْ بَيْنَ أَوَّلِ السُّورَةِ وَآخِرِهَا وَكَمْ بَيْنَ رِجَالٍ يَنَامُونَ فِي الكَهْفِ وَالشَّمْسِ تُشْرِقُ وَتَغْرُبُ عَلَيْهِم وَبَيْنَ مَنْ بَلَغَ مَطْلَعَ الشَّمْسِ وَمَغْرِبِهَا، وَإِنَّمَا النَّصْرُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

أَمَّا قِرَاءَةُ فَجْرِ الجُمُعَةِ، وَقِرَاءَةُ سُورَتَي الأَعْلَى وَالغَاشِيَةِ، فَهَذَا سِرُّ حَيَاةٍ عَظِيمٌ، أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُمكِّنَنا مِنْ بَيَانِهِ، وَبَثِّهِ رُوحاً فِي الأُمَّةِ.

(١) «فتح الباري» (٢/ ٣٥٧).

لَكِنَّ الخُطْوَةَ الأُولَى فِي سِيَاقِ الإِحْيَاءِ الفِعْلِيِّ لِلأُمَّةِ مِنْ خِلَالِ مَا شَرَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِيهَا هِيَ أَنْ يَكُونَ المُسْلِمُ دَاعِيَةً لإِحْيَاءِ هَذِهِ السُّنَنِ فِي مَسْجِدِ حَيِّهِ، وَفِي قَرْيَتِهِ، وَفِي مَدِينَتِهِ، وَفِي بَلَدِهِ، وَفِي أُمَّتِهِ، وَنَكُونُ كَمَنْ يُحفِّظُ الصَّغِيرَ المَنْظُومَاتِ قَبْلَ أَنْ يُفْهِمَهَا لَهُ.

يَا أَيُّهَا المُحَمَّلُ بِفَضَائِلِ الجُمُعَةِ: انْشُرْ فَضَائِلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ أَوَّلًا.. أَرَأَيْتَ صَبِيَّكَ، لَا تَجْعَلِ الجُمُعَةَ تَمُرُّ عَلَيْهِ كَأَيِّ يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ.. فَكَثِيرُونَ يُمَيِّزُونَ لَيْلَةَ الجُمُعَةِ بِالسَّهَرِ حَتَّى الصَّبَاحِ، وَبِالانْفِلَاتِ مِنَ الالْتِزَامِ، وَآخَرُونَ بِالتَّسَكُّعِ فِي الطُّرُقَاتِ، وَيُمَيِّزُونَ يَوْمَ الجُمُعَةِ بِالنَّوْمِ حَتَّى عَنْ صَلَاتِهَا، وَإِهْمَالِ نَهَارِهَا وَسَاعَاتِهَا، وَذُرْوَةُ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ عِنْدَهُمْ تَكُونُ فِي خِتَامِهَا، وهِيَ أَفْضَلُ سَاعَاتِهَا.

لَا شَكَّ أَنَّكَ تُدْرِكُ أَنَّ سَحْبَكَ ابْنَكَ مِنْ هَذَا التَّيَّارِ العَامِّ كَسَحْبِهِ مِنْ تَيَّارِ المَاءِ المُنْحَدِرِ إِذَا جَرَفَهُ - سَلَّمَهُ اللَّهُ -، إِنَّكَ يَجِبُ أَنْ تُجَاهِدَ فِي انْتِشَالِهِ كَمَا تُجَاهِدُ هُنَاكَ، وَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَنْتَشِلْ أَبْنَاءَكَ فَمَنْ يَنْتَشِلُهُمْ؟!

انْتَشِلِ الكِبَارَ مِنَ الأَبْنَاءِ لِيَقُومُوا بِدَوْرِكَ مَعَ إِخْوَانِهِمُ الصِّغَارِ عَلَى أَحْسَنِ وَجْهٍ، وَتَتَفَرَّغُ أَنْتَ بِالتَّبْكِيرِ وَالخَلْوَةِ بِرَبِّكَ.

يَا رَبَّ الأُسْرَةِ: كَمْ مِنْ رَبِّ أُسْرَةٍ يُحَاوِلُ أَنْ يُصْلِحَ أَمْراً مُعيَّناً فِي زَوْجَتِهِ، فَلَا يَسْتَطِيعُ.. كَمْ مِنْ أَبٍ يُحَاوِلُ أَنْ يُصْلِحَ وَلَدَهُ وَابْنَتَهُ، فَلَا

يَسْتَطِيعُ.. كَمْ يَتَحمَّسُ الحَاضِرُ لِلجُمُعَةِ فَيُحَاوِلُ أَنْ يَنْقُلَ الفِكْرَةَ إِلَى أَهْلِهِ عِنْدَ رُجُوعِهِ، فَيَنْقُلها، لَكِنَّهُ لَا يَجِدُ تَأْثِيرَهَا فِي نُفُوسِهِمْ!

أَتُرِيدُ العِلَاجَ؟ أَتُرِيدُ التَّأْثِيرَ وَالتَّغْيِيرَ فِي أُسْرَتِكَ..؟ احْرِصْ أَشَدَّ الحِرْصِ عَلَى أَنْ تَأْخُذَهُمْ مَعَكَ إِلَى المَسْجِدِ. اجْعَلْهُمْ يَتَلقَّونَ مُبَاشرةً.. اجْعَلْهُمْ يُوَاجِهُونَ المَوْعِظَةَ فِي مَوْقِفِهَا الأَوَّلِ.. بِمُؤَثِّراتِهَا الحَيَّةِ..

لَطَالَما اسْتَمَعُوا إِلَيْكَ مِنْ قَبْلُ، وَخَالَفُوكَ، أَوَ لَمْ يَتَأَثَّرُوا التَّأْثِيرَ الَّذِي تَرْجُوهُ، فَمَا الجَدِيدُ اليَوْمَ إِلَّا أَنَّكَ تَقُولُ لَهُمْ: قَالَ خَطِيبُنا.. كَذَا وَكَذَا؟!

إِنَّ للجُمُعَةِ قُدْسِيَّتَهَا.. إِنَّ للخُطْبَةِ جَوَّهَا الفَرِيدَ.. إِنَّ للمَسْجِدِ إِيمَانِيَّاتِهِ.. إِنَّ لِأَمْرِ اللَّهِ المُلْزِمِ بِالإِنْصَاتِ يَوْمَ الجُمُعَةِ تَفَتُّحاً فِي القُلُوبِ، وَاسْتِعْدَاداً لِلاسْتِقْبَالِ، لَيْسَ فِي أَيِّ بَيْتٍ، وَلَا أَيِّ قَاعَةٍ، وَلَا مَكَانٍ.

ثُمَّ إِنَّ لِحُضُورِ المَلَائِكَةِ المَخْصُوصِ - كَمَا مَرَّ مَعَنَا - أَمْراً عَظِيماً، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مَحْسُوسٍ، وَإِنَّ لِصِنَاعَتِهِ وَصِيَاغَتِهِ حَيَاتَهُ مِنْ خِلَالِ تَفَاعُلَاتِ اللَّحْظَةِ وَالحَدِيدُ سَاخِنٌ، وَالنَّفْسُ طَرِيَّةٌ، أَمْراً فَوْقَ مَا يَتَصَوَّرُهُ مَنْ تُنْقَلُ لَهُ الخُطْبَةُ مَهْمَا كَانَ.

فانْتَقِ ذَاكَ الخَطِيبَ المُعلِّمَ المُزَكِّى. . ذَاكَ الَّذِي يَفْتَحُ - بِإِذْنِ اللَّهِ - القُلُوبَ، وَيَبْسُطُهَا بَسْطاً، وَيَكْتُبُ فِيهَا بِنَقْشٍ لَا تَمْحُوهُ الأَيَّامُ القَادِمَةُ. . بَلْ يَتَحَوَّلُ بَيَانُهُ مِنْ لَحْظَتِهِ إِلَى عَزْمٍ جَدِيدٍ، وَتَوْبَةٍ صَادِقَةٍ، وَإِيمانٍ زَائِدٍ، وَخُلُقٍ حَسَنٍ فِي كُلِّ المَجَالَاتِ، كَمَا يُفَتِّتُ أَصْعَبَ العُقَدِ وَالإِشْكَالَاتِ فِي هَذِهِ اللَّحَظَاتِ. . إِنَّهُ الخَطِيبُ الَّذِي يَصْنَعُ فِي قَلْبِكَ كَمَا فِي قُلُوبِ أَهْلِكَ ذَلِكَ. .

فَلَا تُجَامِلْ أَحداً بِالحُضُورِ عِنْدَهُ عَلَى حِسَابِ مَنْ سَيَسْأَلُكَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

الفهرس

- المقدمة ٥
- تمهيد ١٣
- المبحث الأول: انتياش المنبر بالجديد ١٥
- المبحث الثاني: دَوَافِعُ إِنْقَاذِ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ٢١
- الفصل الأول: الخطيب ٣٣
- المبحث الأول: تَنَاوُشُ شَرَفِ الخَطِيبِ ٣٥
- المبحث الثاني: رِبَاطُ الخَطِيبِ ٤٨
- المبحث الثالث: أيها الخطيب! اتق اللَّه ٦٣
- الفصل الثاني: الخطبة ١٠٩
- المبحث الأول: دَوَافِعُ التَّجْدِيدِ فِي الخُطْبَةِ ١١١
- المبحث الثاني: مَوَارِدُ الخَطِيبِ وَالتَّجْدِيدُ فِيهَا ١١٩
- المبحث الثالث: خُطُوَاتِ تَحْضِيرِ الْخُطْبَةِ ١٢٩
- الفصل الثالث: التجديد في عناصر الخطبة ١٤٧
- المبحث الأول: التَّجْدِيدُ فِي الْعُنْوَانِ ١٤٩
- المبحث الثاني: التَّجْدِيدُ فِي الافْتِتَاحِ ١٥٣
- المبحث الثالث: التَّجْدِيدُ فِي الاسْتِهْلَالِ ١٥٨
- المبحث الرابع: التَّجْدِيدُ فِي مَوْضُوعِ الْخُطْبَةِ ١٨٥
- المبحث الخامس: التَّجْدِيدُ فِي طَرِيقَةِ عَرْضِ الْخُطْبَةِ ١٩٧
- المبحث السادس: التَّجْدِيدُ فِي الْوَحْدَةِ الْمَوْضُوعِيَّةِ ٢٠١
- المبحث السابع: الْجَدِيدُ فِي تَنْزِيلِ الْخُطْبَةِ ٢٠٩

- المبحث الثامن: التَّجْدِيدُ فِي أَنْوَاعِ الْخُطَبِ ٢١٤
- المبحث التاسع: التَّجْدِيدُ فِي الْخُطْبَةِ الثَّانِيَةِ ٢١٨
- الفصل الرابع ٢٢١
- مَحْذُورَاتٌ فِي التَّجْدِيدِ ٢٢٣
- الخاتمة: أي خَطِيب نُرِيدُهُ؟ ٢٤٧
- الملاحق ٢٥١
- الفهرس ٣١٤